العُمْدَة

في محاسن الشعر، وآدابه، ونقده

الجزء الأول

تأليف

أبي على الحسن بن رَشِيق، القَيْرَوانى، الأَزْدِي

٣٩٠ — ٤٥٦ من الهجرة

حققه، وفصله، وعلق حواشيه

محمد محيي الدين عبد الحميد

عفا الله تعالى عنه!

دار الجيل

للنشر والتوزيع والطباعة

بيروت - لبنان

ص. ب. ٨٧٣٧

الطبعة الخامسة
١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م

يطلب هذا الكتاب من « دار الجيل » بناية صالحة وصمدي
- الطابق الثالث - شارع سوريا - ص.ب ٨٧٣٧ - تلفون ٢٥٨٦٣٠

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى دل على وُجُوده بجُوده ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد مَنَار الحق وعَمُوده ، وعلى آله وصحبه القائمين بالحق من بعْده .

أما بعد ، فهذا كتاب « العمدة ، فى محاسن الشعر وآدابه » تصنيف أبى على الحسن بن رشيق ، الأزدي : المولود فى عام ٣٩٠ من الهجرة (٩٩٩ م) والمتوفى فى ليلة السبت غرة ذى القعدة من عام ٤٥٦ من الهجرة[1] (١٠٦٤ م) وهو الـكتاب الذى « جَمع أحْسَنَ ما قاله كلُّ واحـــد ممن صنف فى معانى الشعر ومحاسنه وآدابه ، وعَوَّل مؤلِّفه فيه على قريحة نفسه ، ونتيجة خاطره ؛ خوفَ التـكرار ، ورجاء الاختصار ، إلا ما تعلق بالخبر ، وضَبَطَته الرواية ؛ فإنه لم يغير شيئا من لفظه ولا مَعْناه ؛ ليؤتى بالأمر على وجهه »[2] .

وقد صنفه كعادة أكثر العلماء لأبى الحسن على بن أبى الرجال الـكاتب « زعيم الـكرم ، وواحد الفَهم ، الذي نال الرياسة ، وحاز السياسة ، وانفرد بالبَسْط والقَبْض ، واتحد فى الإبرام والنقض . . . إلخ »[3] وأبو الحسن هذا رجل فى نظر ابن رشيق قد جمع هذه الخلال ، وزاد عليها « سلامةَ طبع واندفاعه ، وقُرْبَ لفظٍ واتساعه ، ورقةَ مَعانٍ وإرهافها ، وظهورها مع ذلك وانكشافها ، مع لطف مواقعها من القلوب ، وسرعة تأثيرها فى النفوس »[3] ؛ فهو أديب

---

(١) اختلف العلماء فى تاريخ وفاة ابن رشيق ، فحكى ابن خلكان ثلاثة أقوال ، وبمصر ياقوت على هذا الذى ذكرناه ، وعبارته تدل على تحريه وقصده إلى التدقيق .

(٢) انظر (ص ٤) من الجزء الأول من هذا الـكتاب ، والأرقام التى نذكرها فى هذه الإحالات وجه عام هى أرقام الطبعة الأولى بتحقيقنا

(٣) انظر (ص ٢٢٨ ج ٢) من هـــذا الـكتاب .

وشاعر عظيم ، وابن رشيق مَفْتُون به و بأدبه ، وقلّما خلا بابٌ من أبواب كتابه من غير أن يختار من شعره ما يناسب هذا الباب [انظر شاهد الذلك ص١١٢ و ١١٣ من الجزء الأول ، وص ١٠٦ و ١٠٧ من الجزء الثانى] .

والذى يظهر أن هذا الكتابَ لقى ــ منذُ ظهر للناس بعضُه ــ إقبالا وذيوعاً جعل بعضَ خُصُوم المؤلف يَحْقِدون عليه و ينقصون من قيمته : تارة بالتخطِئة ، وأخرى بادعاء الانتحال والسرقة ، حتى اضطر المؤلف إلى أن يَبْهَتَهم ، و يُزْرى عليهم ، و ينال من أعراضهم ، و يدعوهم إلى الإتيان بمثله ، أو ببعضه ؛ فهو يقول[1] « وكم فى بلدنا هذا من الُحفَاثِ[2] قد صاروا ثَعَابين ، ومن البُغَاث قد صاروا شَوَاهين ، إن البغاث فى أرضنا يستنسر ، ولولا أن يُعْرَفوا بعد اليوم بتخليد ذكرهم فى هذا الكتاب ، و يدخلوا فى جملة من يُعَدُّ خَطَلُه ، و يُحْصَى زلله ؛ لذكرت من لحن كل واحد منهم ، وتصحيفه ، وفساد معانيه ، وركاكة لفظه ؛ ما يدلك على مرتبته من هذه الصناعة التى ادَّعَوْهَا باطلا ، وانتسبوا إليها انتحالا . وقد بلغنى أن بعض من لا يتورع[3] عن كذب ، ولا يستحيى من فضيحة ، زعم أنى أخَذْتُ عنه مسائلَ من هذا الكتاب لو سُئل عنها الآن ماعلمها ، والامتحانُ يقطع الدَّعْوَى ، كما قال بعض الشعراء :

مَنْ تحلَّى بغير ماهُوَ فيه ۝ فَضَح الإمْتِحَانُ ما يَدَّعِيه

وكنت غَنِيًّا عن تهجين هذا الكتاب بالإشارة إلى مَنْ أشرت إليه ، أنفًا من ذكره ، وعُزُوفًا بهمتى عن الانحطاط إلى مُسَاواته ، ولـكنى رأيت السكوت عنه عَجْزاً وتقصيراً » .

---

(١) انظر (ص ٢٢٨ ج ٢) من هذا الكتاب .

(٢) الحفاث ــ بوزن الغراب ــ حية تنفخ ولا تؤذى ، قاله الجوهرى .

(٣) لعله يريد ابن شرف القيروانى ؛ فهو قريعه ؛ وكانت بينهما ملاحاة ومحاقدة على ما ستعرف فى ترجمته .

وأنت إذا قرأت هذا الكتاب استدللتَ على فضل الرجل ، وسَعَة اطلاعه ، وحسن تخريجه ، وإن كان يتقيد برأى قُدَامى العلماء : لا يخرج عنهم ، ولا يرضى بنقدهم وإن ظهر له وَجْه النقد ؛ فهو يَجْرِى فى بحثه على قاعدة « كلامُ العقلاء مَصُون عن الخطأ » وهو — فى هذا الكتاب — رجلٌ هادىء النفس ، وَادِعُ الخلق ، طويل الأناةِ : يَعْرِض له الرأىُ يخالف فيه رأىَ المتقدمين بتخطئة ما صوبوا أو تصويب ما خطأوا أو بيان وَجْهٍ من التأويل فيه غاب عن أذهانهم فيَجْلُوهُ لك فى أسلوب لا تكاد تقرأه حتى تلمَسَ رَزَانته وهدوء طبعه ، وهو — بعد ذلك كله — صاحبُ آراء لو شاء أن يدعى أنه منشئها وأبو عُذْرَتها ، ثم يباهى بأقلها شأناً وأهونها خطراً كدأب أكثر الأدباء فى عَصْرنا ودأب كثير من أدباء عصره ؛ لما أعْوَزَتْه الحجة ، ولا غاب عنه البرهان . انظر إليه وهو يقول(١) : « وقد نصّ ابنُ الرومى فى بعض تسطيراته على محمد بن أبى حكيم الشاعر حين عاب عليه قولَه فى الفرس من قصيدة رَثَى بها عبد الله بن طاهر * فله شهامة . . . . البيت * وذكر قول حبيب [أبى تمام] :

بِحَوَافِرٍ حُفْرٍ وصُلْبٍ صُلَّبِ

فحفل به ، واعتذر له ، وخَرَّجَ التخاريجَ الحِسان ، وذكر أن الحافر الوأْب والحافر المقعب ونحوهما أشرف فى اللفظ من الحافر الأحفر ، إلا أن الطائى عنده كان يطلب المعنى ولا يبالى باللفظ ، حتى لو تم له المعنى بلفظة نَبَطِية لأتى بها ، والذى أراه أن ابن الرومى أبْصَرُ بحبيب وغيره منا ، وأنَّ التسليم له والرجوعَ إليه أحزم ؛ غير أنى لو شئت أن أقول — ولست راداً عليه ، ولا معترضاً بين يديه — إن المعنى الذى أراده وأشار إليه من جهة الطائى إنما هو معنى الصنعة

(١) انظر (ج ١ ص ١١١) من هذه المطبوعة .

كالتطبيق والتجنيس وما أشبههما لا معنى الـكلام الذى هو رُوحُـه ، وإن اللفظ الذى ذكر أنه لا يبالى به إنمـا هو فصيح الـكلام ومستعمله ، ويدلك على صحة ما ادعيته على ابن الرومى قوله : إن الحافر الوأب والمقعب أشرف فى اللفظ من الحافر الأحفر ؛ فـكلامه راجع إلى ما قلته فى الطائى ، غير مخالف له ، وإن كان فى الظاهر على خلافه ؛ لينساغ ، إلا أن أكثر الناس على ما قال، وإنما هذا مَعْرِض للكلام ،لا لمخالفة » اهـ ومثل ذلك فى أضعاف الـكتاب كثير لا أحب أن أقفك على جميعه ، ولـكنى أنبهك فى هذه الـكلمة إلى قوله « ولست راداً عليه ، ولا معترضاً بين يديه » وقوله فى آخرها « وإنما هذا معرض للـكلام، لا لمخالفة » بعد قوله « إلا أن أكثر الناس على ما قال » ثم أدَعُكَ بعد ذلك تستنبط من هذا الـكلام ما تشاء .

ولقد طبع كتابه هذا كاملا مرتين فى مصر ، وطبع نصفُه فى تونس ، وكل هذه الطبعات قليل الغَنَاء عديم الجدْوَى ؛ فإن التصحيف والتحريف لَيفْشُوَانِ فيها ، وإن نظام وضعها وتلاحُقَ مباحث الـكتاب — مع تَشَعُّبها وكثرة فنونها — ليباعد بينك وبين الإفادة منه ، وهذه العيوبُ فاشية فى مطبوعاتنا العربية ، وقلما يخلو منها — مع الأسف الذى يقطع نِيَاط قلوبنا — كتابٌ من كتب هذه اللغة المسكينة ، وبخاصة كتب أسلافنا المتقدمين ، وليس من علة لانصراف الناشئة العربية — فيما نعتقد — عن هـــذا التراث الثمين إلا هذا التشويهُ الغريبُ الذى يُظْهِرُ الناشرون عليه كتبَ آبائنا الذين لم يُقَصِّرُوا فى تَوْرِيثنا أعظمَ تراثٍ علمى ، ولم يألُوا جَهْداً فى تَبْرِئة أنفسِهم ممـا جعل الله فى أعناقهم من ميثاق العلم أن يبنوه للناس ولا يـكتموه ، ونحن نعتقد عقيدة لا تداخلنا فيها خلجة شك أن الحرف الصغير والورق الأصفر وحِرْصَ التجار على ظهور الـكتاب فى أقرب وقت وفى أقل ما يمـكن من عدد الصفحات ،

كل أولئك أكبرُ الفوارق بين الكتب العصرية الشيقة الأسلوب المتسلطة على قلوب النّشْء ، و بين كتب العصر القديم ، والآياتُ على ذلك كثيرة ، والشواهد أكثر من أن يحيط بها العد .

وقد خلق الله فى نفسى حب السلف ، والتفانىَ فى الدفاع عن علومهم وأفكارهم ، والحرصَ على إذاعة فضلهم وعظيم مِنَّتِهِمْ علينا وعلى من يأتى بعدمن الأجيال المتلاحقة ، ولست أدرى سرّ ذلك كله ، غير أنى لا أشك فى أن بين يدينا ثروة يحس بها المستشرقون أكثر مما نحس بها نحن أبناء هؤلاء المُوَرِّثين ، وأنا نضيع هذه الثروة بأحد سببين لا ثالث لهما : أولهما : الانصرافُ عنها إلى الافتتان بالغرب وعلوم الغرب ، وردّ كل نبوغ وفَوْقٍ إلى نبوغ الغرب وفَوْقِهِ ، وثانيهما : الاقتناع من باعة الكتب بأن يظهروا لنا كتبَ أسلافنا على صُوَر مشوهة ممسوخة لا تسد نَهْمَةً ولا تَبُلُّ أواما ، ولو أننا أرْغَمْنَاهم على أن يُظْهِرُوها موافقةً لروح العصر الحـــديث لاستطعنا أن نفيد ، وأن نجد فى ميراثنا النفع والغناء .

لهذا كله حرصت كل الحرص على مراجعة هذا الكتاب على أصوله التى أمكن الوقوفُ عليها ، ثم معاودة هذه المراجعة ، حتى أخرجته لك من بين فَرْثٍ ودم لبناً خالصاً سائغا للشاربين .

***

فى دار الكتب المصرية بالقاهرة نسختان خطيتان كاملتان من الكتاب إحداهما مكتوبة بقلم النسخ ، كتبها محمدبن أحمد الخوجة ، فرغ من كتابتها فى عصر يوم الأحد الثانى عشر من شهر ربيع الآخر سنة ١٢٩٨ من الهجرة ، والثانية : مخطوطة بقلم معتاد بخط السيد أحمد بن محمد بن عبده . . . الديروطى فرغ من كتابتها ومقابلتها فى يوم الجمعة الثامن والعشرين من شهر ذى القعدة سنة

١٢٩٨ من الهجرة ، وهذه النسخة الثانية مكتوبة ومقابلة على النسخة الأولى ، ولم يُصلح كاتبها ومقابلها أغْلُوطَةً واحدة من الأغاليط الكثيرة فى سابقتها . وفى الخزانة التيمورية نسخة خطية كاملة أقدم من هاتين عهداً ، وأسبق منهما تاريخاً، كتبت بخط معتاد ، وفرغ من كتابتها فى يوم الأربعاء الخامس والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ٩٩٣ من الهجرة ، وهى أقل من نسختى الدار خطأ ، فلم يكن لى بد من مراجعة هذه المطبوعة على هذه النسخ الثلاث ، وعلى النسختين المطبوعتين بمصر ، ومراجعة النصف الأول — مع ذلك — على مطبوعة تونس، وكم وجدت فى هذه النسخ جميعها من أغاليط كانت تضطرنى فى أكثر الأحايين إلى مراجعة الأمهات والأصول التى نقل عنها المؤلف ، وإلى مراجعة دواوين الشعراء الكثيرة بنوع خاص ، ولو أننى أردت أن أحدثك عن المراجع التى استخلصت لك الصواب من بينها لهَالَكَ الأمر ، وخرج الحال فى نظرك عن حد المستساغ المقبول ، ولكنها على أية حال الحقيقةُ التى لا غُلُوَّ فيها ولا إغراق ، وستقف بنفسك حين تقرأ فى الكتاب بعد هذا آثارَ ما كابَدْتُ من العَناء والمشقة ، وكم كنت أحب أن أذكر لك عند كل تصويبة أصْلَها فى خطأ أصول الكتاب وكيف أصلحت ومصدر إصلاحها ، ولكنى اكتفيتُ بالتنبيه على بعض ذلك ، وتركتُ بعضَه لعلمى أن ذلك لايعنى به غير نفر قليل من القراء ، وهؤلاء يكتفون باللمعة ، ويجتزئون بالخبر .

وكان لابد أن أجد فى بعض النسخ زيادةً عما فى بعضها الآخر ، أو أعثر على سَقْطَة فى كلام نَقَله المؤلف عن كتاب آخر بعد مراجعة هذا النقل ؛ فاهتممتُ لذلك ، ووضعت الزائد بين قوسين على هذه الصورة [ ] ثم قد أنبه على موطن الزيادة ، وقد أترك التنبيه مكتفياً بعلم القارىء ذلك من سياقة الكلام.

ولست أدَّعِى — مع هذا كله — العِصْمَةَ من كل خطأ ، والبراءة من كل زَلَل ؛ فالله وحده الذى تفرد بالكمال ، ولو لم يكن فى عملى إلا أننى أصلحت أكثر من أربعمائة أغْلُوطة وقَعَتْ فى الطبعتين السابقتين لهذا الكتاب لكان ذلك عملاً جديراً بأن أفْخَرَ به .

والله المسئول أن يثيبنى عليه ، ويغفر لى ولوالدىَّ وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ؟

ربيع الثانى ١٣٥٣ — كتبه

أغسطس ١٩٣٤ — محمد محيى الدين عبد الحميد

ترجمة المؤلف

(١)

قال صاحب الحلل السندسية فى كلامه على القَيْرَوان :

ومن بلغاء القيروان وأبنائها الحسنُ بن رَشِيق ، أحَدُ البلغاء الأفاضل ، الشعراء ، ولد بالمَسِيلَة ، وتأدَّبَ بها قليلا ، ثم ارتحل إلى القَيْرَوَان سنة سِتٍّ وأربعمائة . كذا قال ابن بسام ، وقال غيره : ولد بالمحمدية سنة تسعين وثلاثمائة ، وأبوه مملوك رومى من مَوَالِى الأزْدِ ، وتوفى سنة ثلاث وستين وأربعمائة[1] ، وكانت صنعة أبيه فى بلده المحمدية الصِّياغة ، فعلَّمه أبوه صنعته ، وقرأ الأدب بالمحمدية ، وقال الشعر ، وتاقَتْ نفسُه إلى التزيُّدِ منه وملاقاة أهل الأدب ، فرحل إلى القَيْرَوَان ، واشتهر بها ، ومدح صاحبها [المعز بن باديس بن المنصور] ولم يزل بها إلى أن هَجَم العربُ عليها وقتلوا أهلها وخربوها ، فانتقل إلى صقلية وأقام بمازر إلى أن مات ، ومازر: قرية بجزيرة صقلية منها المازرى رحمه الله ، واختلف فى تاريخ وفاته . قال ابن خلكان: رأيت بخط بعض الفضلاء أنه توفى سنة ثلاث وستين وأربعمائة ، قال : وقيل : إنه توفى ليلة السبت غرة ذى القعدة سنة ست وخمسين[1]. ومن شعره :

يا رَبِّ لا أقْوَى على دَفْعِ الأذَى   وبكَ اسْتَعَنْتُ على الضعيف المؤذِى
ما لى بَعَثْتَ إلىَّ ألفَ بعوضةٍ   وَبَعَثْتَ واحِدَةً إلى نمروذ

وكان بينه وبين أبى عبد الله محمد بن أبى سعيد بن أحمد المعروف بابن شرف القيروانى مُنَاقضات ومُهاجاة ، وصنف عدة رسائل فى الرد عليه ، منها :

(١) الأكثرون على أن مولده فى سنة ٣٩٠ ، وقد حكى ابن خلكان (١/٣٦٦ بتحقيقنا) فى وفاته هذا القول ، وحكى قولين آخرين: أحدهما أنه توفى فى سنة ٤٥٦ بمازر ، وثانيهما أنه توفى فى ليلة السبت غرة ذى القعدة من سنة ٤٥٦ والفرق بين القولين أن الأول لم يحدد يوم الوفاة ولا الشهر ، وذكر ياقوت القول بأنه توفى فى سنة ٤٥٦ .

رسالة سماها ساجور الكلب ، ورسالة نجح الطلب ، ورسالة قطع الأنفاس ، ورسالة نقض الرسالة الشعوذية ، والقصيدة الدعية ، والرسالة المنقوضة ، ورسالة رفع الإشكال ودفع المحال ، وله كتاب أنموذج الشعراء شعراء القيروان ، ورسالة قراضة الذهب ، والعمدة فى معرفة صناعة الشعر ونقده وعيوبه ، وهو كتاب جيد، وغير ذلك .

***

(٢)

وقال صاحب الوافى ما نصه :

وقد وقفت على هذه المصنفات والرسائل المذكورة جميعها ، فوجدتُها تدل على تبَحّرِه فى الأدب ، واطّلاعه على كلام الناس ، ونَقْله لمواد هذا الفن، وتبحره فى النقد ، وله كتاب فى شذوذ اللغة ، يذكر فيه كل كلمة جاءت شاذة فى بابها .

ومن شعره :

أحِبُّ أخى وإن أعرَضْتُ عنه ... وقَلَّ على مسامعه كلامى
ولى فى وجهه تَقْطِيبُ راضٍ ... كما قَطَّبْتَ فى وَجْه المُدَام
ورُبَّ تقطبٍ من غير بغض ... وبغضٍ كامنٍ تحت ابتسام

ومنه :

إذا ما خَفَفْت امهد الصِّبَا ... أبَتْ ذلك الخمسُ والأربعُونا
وما تَمَلّتْ كِبَرًا وَطْأتى ... ولكنْ أجُرُّ وَرَائى السِّنينا

ومنه :

وقائلة :ماذا الشُّحُوبُ وذ الضنَى؟ ... فقلت لها قولَ المشوق المتيم :
هواكِ أتانى ، وهو ضَيْفٌ أعِزُّهُ، ... فأطعمته لحمى ، وأسقيته دَمِى

ومنه :

ذمت لعينك أعين الغزلان ... قَمَرٌ أقَرَّ لحسنه القمَرَانِ

ومَشَتْ فلا واللهِ ما حِقْفُ النقَا … مما أرَتْكَ ولا قَضِيبُ البانِ
وَثَنُ المَلاحة غــير أن دِيَانتِي … تأبَى علَىّ عبــادةَ الأوثانِ

ومنه فى المديح :

يا بْنَ الأعِزَّةِ من أكابرِ حِمْيَر … وسُلالَة الأملاك من قَحْطَان
من كل أبْلَجَ آمرٍ بلسانه … يَضَعُ السيوفَ مَوَاضع التيجان

ومنه :

فى الناس من لا يُرْتَجَى نَفْعُه … إلا إذا مُسَّ بأضرَارِ
كالعود لا يطمــع فى طِيبِهِ … إلا إذا أحْــرِقَ بالنّارِ

ومنه :

أقول كالمأســور فى ليلة … ألقت على الآفاق كَلْكَالَهَا :
يا ليــلةَ الهجْرِ التى لَيْلُهَا … قَطَّعَ سَيْفُ الهجر أوْصَالَهَا
ما أحسنت هند، ولا أجملَتْ … جُمْل، وليس الحسْنُ إلاَّ لهَا

ومنه :

ومن حَسَنَاتِ الدهر عندىَ ليلةٌ … من العُمْرِ لم تترك لأيامها ذَنْبَا
خَلَوْنَا بها نَنْفِى القذى عن عُيُوننَا … بلؤلؤة مملوءة ذَهَبًا سَكْبَا
ومِلْنَا لتقبيل الثغور ولَثْمِهَا … كمثل جُنُوح الطير يَلْتَقِطُ الحبَّا

قال الأبيوردى : وما هذا بأَحْسَنَ من قول ابن المعتز :

كم من عِنَاقٍ لنا ومن قُبَلٍ … مُخْتَلَسَاتٍ حِذَارَ مُرْتَقِبِ
نَقْرَ العَصَافيرِ، وَهْىَ خائفة … من النواطِيرِ، يانعَ الرُّطَبِ

قال فى الوافى : قلت : مقام ابن المعتز غير مقام ابن رشيق ؛ لأن ابن رشيق ذكر أنه فى ليلة أمن ، وهى عنده من حسنات الدهر ؛ فلهذا حسن تشبيه التقبيل مع الأمن بالتقاط الطير الحب ؛ لأنه يتوالى دفعة بعد دفعة ،

وأما ابن المعتز فإنه كان خائفاً يختلس التقبيل ويَسْرِقه ، كما يفعل العُصْفور فى نقر الرطب اليانع ؛ لأنه يقدم جازعاً خائفاً من الناطور ، فلا يطمئن فيما يلتمسه ، ألا ترى الآخر كيف قال فأحسن :

أقبـــله على جَزَعِى كشُرْبِ الطائر الفَزِعِ
رأى ماء فواقعـــه وخاف عواقبَ الطمع

ومن شعر ابن رشيق :

قد أحكمت منى التجا ربُ كلَّ شىء غير جودِى
أبداً أقول : لئن كسبـــت لأقبضَنَّ يَدَىْ شديدِ
حتى إذا أثريت عُدْ تُ إلى السماحة مِنْ جَدِيد
إن المقام بمثـــل حا لى لا يتم مع القُعُودِ
لا بُدَّ لى من رحلة تدنى من الأمل البعيد

ومنه :

مُعَتَّقة يعلو الحَبَابُ متونَهَا فتحسبُهُ فيها نَثِيرَ جُمَانِ
رأت من لجين راحة لمديرها فطافت له من عسجد ببنان

وذكر له فى المعجب (ص ٧٠) بيتين مشهورين ، وترى كثيراً من شعر ابن رشيق فى تضاعيف هذا الكتاب ، وفى عامة فنون القول ، نرشدك فى ذلك إلى (ج ٢ ص ١٥٢ و ١٥٤) .

* * *

(٣)

وله سوى ما ذكر هؤلاء المترجمون له من الكتب كتابٌ نادر فى بابه يصفه لنا فى كتاب العمدة (ج ٢ ص ٢٢٩) فيقول : « على أن المحدثين قد شاركوا القدماء فى كل ما ذكرته أيضاً ، إلا أن أولئك أَوْلىٰ به ، وأَحَقُّ بالتقدمة فيه ، كما خالطوهم فى صفات النجوم ومواقعها ، والسحب وما فيها من البروق والرعود ، والغيث وماينبت عنه ، وبكاء الحمام ، وكثير مما لا يتسع له هذا الباب ،

ولكنى أفرد له كتابا قائمًا بنفسه، أذكر فيه ما انفرد به المحدثون ، وما شاركهم فيه المتقدمون » ويذكره مرة أخرى فيقول (ج ٢ ص ٢٩٢) « وأنا أقول : إن أكثر الشعراء اختراعا ابن الرومى ، وسيأتى برهان ذلك فى الكتاب الذى شرعْتُ تأليفه ، إن شاء الله تعالى » فهل عاقته الصروف عن تأليفه ؟ أو ألفه كما شرط ولكنه ضاع فيما ضاع من كتب المتقدمين ؟ علم ذلك عند الله تعالى ! .. ..

وأخذ ابن رشيق الأدبَ عن أبى عبد الله محمد بن جعفر القزاز القيروانى النحوى من أهل القيروان ، وعن الأديب أبى محمد عبد الكريم بن إبراهيم النهشلى ، وله فى كتاب العمدة نقول كثيرة عنهما وعن غيرهما من أدباء عصره وعلمائه ، رحمهم الله تعالى .

* * *

(٤)

وإذا أحببت المزيد فى ترجمة ابن رشيق ــ وما نحسبك تجد إلا تكراراً لهذا الكلام أو بعضه ــ فارجع إلى المصادر الآتية :

(١) بغية الوعاة للسيوطى ٢٢٠ .

(٢) الحلل السندسية ١٠٠

(٣) شذرات الذهب لابن العماد ٣/٢٩٧

(٤) معجم الأدباء لياقوت الرومى ٨/١١٠

(٥) كشف الظنون لحاجى خليفة ١٨٥ و ٣١٠ و ٩٧٣ و ١٠٢٩ و ١١٦٩ و ١٩٠٧ و ١٩١٨

(٦) الإنباه للقفطى ١/٢٩٨

(٧) وفيات الأعيان لابن خلكان ١/٣٦٦ بتحقيقنا

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم

الحمد لله أهل الحمد ومستحقه، وصلاته على صفوته من خلقه: محمدٍ خيرته، وعلى أبرار عترته، وسلم تسليماً.

أما بعد، فإن أحقَّ مَنْ جَنَى ثمر الألباب، واقتطف زهر الآداب، متنزهاً فى عقول الحكماء، متفكهاً فى أقاويل العلماء، بالغاً بهمته أعلى المراتب، خاطباً لنفسه أسنى المطالب، مستقراً فى أرفع ذِرْوَة، متمسكاً بأوثق عُرْوَة، مَنْ عَرَفَ العلم حقّه وفضله، وسلك به طرقه وسبله، وأكرم فى الله مثواه ونزله، وخص بالقرب ذويه وأهله؛ فاستوجب من جميل الذكر، وجزيل الذُّخر؛ ما هو أزين فى الدنيا، وأبقى فى الأخرى: كالسيد الأمجد، والفذِّ الأوحد، حَسَنَةِ الدنيا، وعَلَمَ العليا، وبانى المكارم، وآبى المظالم[(١)]، رجل الخُطَب، وفارس الكُتُب: أبى الحسن على بن أبى الرجال الكاتب، زَعيم الكرم، وواحد الفهم، الذى نال الرياسة، وحاز السياسة، وانفرد بالبسط والقبض، واتحد فى الإبرام والنقض، عن سعى مشكور، وفضل مشهور، وعِلْم بالموارد والمصادر، ونظر فى الأوائل والأواخر، وتتبع لآثار مَنْ سلف، من أهل القدر[(٢)] والشرف؛ وتقلب فى مجالس الحكم، بين ذوى الأقدار والهمم؛ إلى أن صار نسيجَ وَحْدِه، وقَرِيعَ دَهْره؛ غير مُدَافَع عن ذلك، ولا منازع فيه.

فالحمد لله الذى اختصه بالجلالة، واستخلصه لشرف الحالة، وقدَّمه على

---

(١) آبى المظالم: أى الممتنع عن قبولها، وفى نسخة «ودارىء المظالم» أى: دافعها.

(٢) فى نسخة «الأخطار» وهو جمع خطر بفتحتين.

المتقدمين فى الرتب ، وأقام به سوق العلم والأدب ، وجعل ذكره باقياً ، وجَدّه سامياً ، وأيده من النصر والتوفيق ، بما فيه رضا الخالق والمخلوق ، فضلا من الله ونعمة ، والله عليم حكيم .

وأنا — أطال الله بقاء السيد محروسَ النعمة ، مَرْهُوبَ النقمة ، مُوَقًى فى دنياه ودينه ، منتفعاً بظنه ويقينه ، قليل الأنداد ، كثير الحسّاد — وإن لم أعْلَقْ من العلم إلا بحاشية ، ولا أخذت منه إلا فى ناحية ؛ لسوء المكان ، وقلة الإمكان، وزَمانة الزمان ، وحدوث الحدثان ، قبل أن أعلق بحبل عنايته ، وأحفظ وأصير فى حرم حمايته ، فقد وجدت الشعر أكبر علوم العرب ، وأوفر حظوظ الأدب ، وأحرى أن تُقْبل شهادته ، وتُمْتثل إرادته؛ لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن من الشعر[1] لَحِكَما » وروى « لحكمة » وقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه « نعم ما تعلمته العربُ الأبياتُ من الشعر يُقَدِّمُها الرجل أمام حاجته : فيستنزل بها الكريم ، ويستعطف بها اللئيم[2] » . مع ما للشعر من عظيم المزية ، وشرف الأبية ، وعز الأنَفَةِ ، وسلطان القدرة ، ووجدت الناس مختلفين فيه ، متخلفين عن كثير منه : يقدمون ويؤخرون ، ويقلون ويكثرون ، قد بوبوه أبواباً مبهمة ، ولقبوه ألقاباً متهمة ، وكل واحد منهم قد ضرب فى جهة ، وانتحل مذهبا هو فيه إمام نفسه ، وشاهد دَعْواه ، فجمعت أحسنَ ما قاله كلٌّ واحدٍ منهم فى كتابه ؛ ليكون (العمدة ، فى محاسن الشعر وآدابه) ، إن شاء الله تعالى .

---

(١) قال ابن الأثير : « أى : إن من الشعر كلاماً نافعاً يمنع من الجهل والسفه وينهى عنهما ، قيل : أراد بها المواعظ والأمثال التى ينتفع بها الناس ، والحكم : العلم ، والفقه ، والقضاء بالعدل ، وهو مصدر حكم يحكم ، ويروى : إن من الشعر لحكمة ، وهى بمعنى الحكم» اهـ ، وانظر ص ٢٧ من هذا الجزء فقد فسره المؤلف.

(٢) فى التونسية « فيستنزل بها اللئيم ، ويستعطف بها الكريم » .

وعولت فى أكثره على قريحة نفسى ، ونتيجة خاطرى ؛ خَوْفَ التكرار ، ورَجاء الاختصار ، إلا ما تعلّق بالخبر ، وَضَبَطَتْهُ الرواية ، فإنه لا سبيل إلى تغيير شيء من لفظه ولا معناه ؛ ليؤتى بالأمر على وجهه ، فكل مالم أُسْنِدْهُ إلى رجل معروف باسمه ، ولا أَحَلْتُ فيه على كتاب بعينه ؛ فهو من ذلك ، إلا أن يكون متداولا بين العلماء ، لا يختص به واحد منهم دون الآخر ، وربما نحلته أحد العرب ، و بعض أهل الأدب ، تستراً بينهم ، ووقوعا دونهم ، بعد أن قرنت كل شكل بشكله ، ورددت كل فرع إلى أصله ، و بينت للناشيء المبتدىء وجه الصواب فيه ، وكشفت عنه لَبْسَ الارتياب به ، حتى أعرف باطله من حقه ، وأميز كذبه من صدقه ، ولم أُسِمْ كتابى هذا باسم السيد — زاده الله تعالى سُمُوًّا — لأكون كجالب التمر إلى هَجَرٍ [1] ، ومهدى الوَشْيِ إلى عَدَن . [2] ولكن تزينا باسمه الشريف ، وذكره الطيب ، واستسلاماً بين يدى علمه الطائل وأدبه الكامل :

إنْ قَصَّرْتَ عَنْ غَرَضٍ رَمْيَةٌ ... أوْ زَلَّ فِكْرٌ أوْنَبَا خَاطِرُ
لِأَنَّنِي فِيهِ عَلَى نِيَّةٍ ... يُخْبِرُ عَنْ بَاطِنِهَا الظَّاهِرُ

(١) هجر — بفتح الهاء والجيم جميعا — بلدة باليمن ، ولفظه مذكر مصروف ، وقد يؤنث ويمنع ، وقد يطلق هذا الاسم على جميع أرض البحرين ، وقال ابن الأثير : بلد معروف بالبحرين ، وقال غيره : هى قصبة بلاد البحرين ، والمثل الذى ذكره المؤلف مشهور ، وقد ذكره الجوهرى بلفظ « كمبضع التمر إلى هجر » ونحوه فى المعنى قولهم « كجالب الدر إلى البحر » .

(٢) عدن : مدينة مشهورة على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن ، وهى بلدة تجارة ، وهى مرفأ مراكب الهند ، وهى أقدم أسواق العرب ، وإلى اليمن عامة تنسب برود وحبر وأنواع من الوشى .

ولما عدلت بي الحال عن حضور مجلسه الباهر ، ومنعني الإجلال من مناسمة خلقه الزاهر ، وطال اشتياقي إلى تلك الطلعة الكريمة ، واشتد حرصي على تلك المشاهد العظيمة ، وعلمت أن لا بد لي منه ، ولا غنى لي عنه ، إلا ما حجز دونه آنفاً من خدمة مولانا — خلد الله ملكه — لما غمرني من فضله ، وقيدني من إحسانه :

وَمَنْ وَجَدَ ٱلْإِحْسَانَ قَيْدًا تَقَيَّدَا(١)

نفضت جِرَابَ صدري ، وانتقدت كنز معرفتي ، وأيقنت أن صورة الإنسان ، فضلةٌ عن القلب واللسان(٢) ، وأن استحقاقه للفضل ، إنما هو من جهة النطق والعقل ، فمثّلت له نفسي ، وأهديتها إليه ، ومَثَّلْتُ بها حقيقة بين يديه ؛ إذ كانت الأنفاس مَنُوطة بالأنفس ، والمرء لولاهما مَوَاتٌ مُلْقًى لا خير فيه ، ولا نفع عنده ، وأيضاً فإن النفس تفوت الحس ، وإنما تُدْرَكُ بالبصائر لا بالأبصار ، والسيد — أدام الله عزه — أعلم بعذرتي ، وأقْوَمُ بحجتي ، من أن أعرض خَزَفي على جوهره ، أو أقيسَ وَشَلِي بأبْحُره ، بل أستقيله وأسترشده ، وأستعفيه وأستنجده ، ثم إني لا أظهر حرفا من كتابي هـذا إلا عن أمره وبعد إذنه ؛ لأكون به أقوى ثقة ، وله أشد مِقَةً(٣) ، فإن

(١) هذا عجز بيت لأبي الطيب المتنبي ، من قصيدة يمدح فيها سيف الدولة بن حمدان ، وصدره :

* وَقَيَّدْتُ نَفْسِي فِي ذَرَاكَ مَحَبَّةً *

(٢) يشير بهذه العبارة إلى قول الشاعر :

لِسَانُ الْفَتَى نِصْفٌ ، وَنِصْفٌ فُؤَادُهُ ... فَلَمْ يَبْقَ إِلاَّ صُورَةُ اللَّحْمِ وَالدَّمِ

(٣) المقة : الحب ، وفعله ومقه يمقه بوزن وعده يعده .

وقع منه بموقع ، وحل من قبوله فى موضع ؛ بلغت الإرادات ، ورجوت الزيادات :

وَأَزْرَقُ الْفَجْرِ يَبْدُو قَبْلَ أَبْيَضِهِ وَأَوَّلُ الْغَيْثِ قَطْرٌ ثُمَّ يَنْسَكِبُ

و إلا سترته سَتْرَ العورة ، وطرحته طرح القُلامة ، لعل الله يحدثُ بعد ذلك أمراً ، أسأله حسن التوفيق والهداية ، وأرغب إليه فى العصمة والكفاية ، بمنه وقدرته ، ولطفه ورحمته .

(١) ـ باب فى فضل الشعر

العرب أفضل الأمم ، وحكمتها أشرف الحكم ؛ لفضل اللسان على اليد ، والبعد عن امتهان الجسد ؛ إذ خروج الحكمة عن الذات ، بمشاركة الآلات ؛ إذ لا بد للانسان من أن يكون تَوَلّى ذلك بنفسه ، أو احتاج فيه إلى آلة أو معين من جنسه .

وكلام العرب نوعان : منظومٌ لهم ومنثور . ولكلٍّ منهما ثلاث طبقات : جيدة ، ومتوسطة ، ورديئة ، فإذا اتفق الطبقتان فى القدر، وتساوتا فى القيمة، ولم يكن لإحداهما فضل على الأخرى ـ كان الحكم للشعر ظاهرا فى التسمية ؛ لأن كل منظوم أحسن من كل منثور من جنسه فى معترف العادة ، ألا ترى أن الدر ـــ وهو أخو اللفظ ونسيبه ، و إليه يقاس ، و به يُشَبَّه ـــ إذا كان منثوراً لم يؤمن عليه ، ولم يُنْتفع به فى الباب الذى له كسب ، ومن أجله انتخب ؛ و إن كان أعلى قدراً وأغلى ثمناً ، فإذا نظم كان أَصْوَنَ له من الابتذال ، وأظهر لحسنه مع كثرة الاستعمال ، وكذلك اللفظ إذا كان منثوراً تبدد فى الأسماع ، وتدحرج عن الطباع ، ولم تستقر منه إلا المفرطة فى اللفظ و إن كانت[١] أجمله ، والواحدة من الألف ، وعسى أن لا تكون أفضله ، فإن كانت هى اليتيمة المعروفة ، والفريدة

(١) لعل الصواب « إن كانت أجمله » بدون واو .

الموصوفة ؛ فـكم فى سَقَط الشعر من أمثالها ونظرائها لا يُعبأ به ، ولا يُنظر إليه ، فإذا أخذه سلك الوزن ، وعقد القافية ؛ تألفت أشتاته ،وازدوجت فرائده و بناته، واتخذه اللابس جمالا ، والمدخرُ مالا ، فصار قِرَطَةَ الآذان ، وقلائد الأعناق ، وأمانى النفوس ، وأكاليل الرءوس ، يقلَّب بالألسن ، ويُخبأ فى القلوب ، مصونا باللب ، ممنوعاً من السرقة والغصب .

وقد اجتمع الناس على أن المنثور فى كلامهم أكثر ، وأقل جيداً محفوظاً ، وأن الشعر أقل ، وأكثر جيدا محفوظا ؛ لأن فى أدناه من زينة الوزن والقافية ما يقارب به جيد المنثور

وكان الـكلام كله منثوراً فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها ، وطيب أعْرَاقِهَا ، وذكر أيامها الصالحة ، وأوطانها النازحة ، وفرسانها الأمجاد ، وسُمحائها الأجواد ؛ لتهز أنفسها إلى الـكرم ، وتدل أبناءها على حسن الشيم فتوهموا أعاريض جعلوها موازين الـكلام ، فلما تم لهم وزنه سموه شعراً ؛ لأنهم شعَروا به ، أى : فطنوا .

وقيل : ما تـكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تـكلمت به من جيد الموزون ؛ فلم يحفظ من المنثور عُشره ، ولا ضاع من الموزون عُشره .

ولعل بعض الـكتاب المنتصرين للنثر ، الطاعنين على الشعر ، يحتجُّ بأن القرآن كلامَ الله تعالى منثورٌ ، وأن النبىّ صلى الله عليه وسلم غير شاعر ؛ لقول الله تعالى : (وما علمناه الشعر ، وما ينبغى له) ويَرَى أنه قد أبلغ فى الحجة ، وبلغ فى الحاجة ، والذى عليه فى ذلك أكثرُ مما له ؛ لأن الله تعالى إنما بعث رسوله أميًّا غير شاعر إلى قوم يعلمون منه حقيقة ذلك ، حين استوت الفصاحة ، واشتهرت البلاغة ؛ آيةً للنبوة ، وحجة على الخلق ، وإعجازاً للمتاطين ، وجَعَله منثوراً ليـكون أظهر برهاناً لفضله على الشعر الذى من عادة صاحبه أن يكون

قادراً على ما يحبه من الكلام ، وتحدَّى جميع الناس من شاعر وغيره بعمل مثله فأعجزهم ذلك ، كما قال الله تعالى : (قل لئن اجتمعت الأنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) فكما أن القرآن أعجز الشعراء وليس بشعر ، كذلك أعجز الخطباء وليس بخطبة ، والمترسلين وليس بترسل ، و إعجازه الشعراء أشدُّ برهاناً ، ألا ترى كيف نسبوا النبيَّ صلى الله عليه وسلم إلى الشعر لما غُلبوا وتبين عجزهم ؟ فقالوا : هو شاعر ، لما فى قلوبهم من هيبة الشعر وفخامته ، وأنه يقع منه مالا يُلْحَقُ ، والمنثور ليس كذلك ، فمن ههنا قال الله تبارك وتعالى : (وَمَا علَّمْنَاهُ الشِّعْرَ ، وَمَا يَنْبَغِي له) أى : لتقوم عليكم الحجة ، و يصح قبلكم الدليل ، و يشهد لذلك رواية يونس عن الزهرى أنه قال : معناه ما الذى علمناه شعراً ، وما ينبغى له أن يبلغ عنا شعراً . وقال غيره : أراد وما ينبغى له أن يبلغ عنا ما لم نعلمه ، أى : ليس هو ممن يفعل ذلك ؛ لأمانته ومشهور صدقه . ولو أن كونَ النبى صلى الله عليه وسلم غيرَ شاعرٍ غضٌّ من الشعر لكانت أميته غضاً من الكتابة ، وهذا أظهر من أن يخفى على أحد .

واحتج بعضهم بأن الشعراء أبداً يخدمون الكتاب ، ولا تجد[1] كاتباً يخدم شاعراً ، وقد عُمِّيت عليهم الأنباء ، و إنما ذلك لأنَّ الشاعر واثق بنفسه ، مُدِلٌّ بما عنده على الكاتب والملك ؛ فهو يطلب ما فى أيديهما و يأخذه ، والكاتب بأى آية يَقْصُدُ[2] الشاعر فيرجو ما فى يده ؟ و إنما صناعته فضلة عن صناعته ، على أن يكون كاتبَ بلاغة ، فأما كاتب الخدمة فى القانون وما شاكله فصانع

(١) فى نسخة « يجدون » .

(٢) فى نسخة « يقصد » .

مستأجَر ، مع أنه قد كان لأبي تمام والبحتري قَهارِمة(١) وكتاب ، وكان من عميان الشعراء كتاب أزمة كبشار(٢) وأبي على البصير ، وكان ابن الرومى من أكبر كتاب الدواوين ،فغلب عليه الشعر ؛ لأنه غلاّب . وكما تجد من يمدح السوقة فى الشعراء فكذلك تجد للسوقة كتاباً ، وللتجار الباعة ، فى زمننا هذا وقبله .

ولم أهجم بهذا الرد ، وأورد هذه الحجة ، لولا أن السيد — أبقاه الله — قد جمع النوعين ، وحاز الفضيلتين ، فهما نقطتان من بحره ، ونُوَّرَاتَانِ(٣) من زهره ، وسيرد فى أضعاف هذا الكتاب من أشعاره ما يكون دليلا على صدق ما قلته ، إن شاء الله تعالى .

ومن فضل الشعر أن الشاعر يخاطب الملك باسمه ، وينسبه إلى أمه ، ويخاطبه بالكاف كما يخاطب أقلّ السوقة ؛ فلا ينكر ذلك عليه ، بل يراه أوْكَدَ فى المدح، وأعظم اشتهاراً للممدوح ، كل ذلك حرص على الشعر ، ورغبة فيه ، ولبقائه على مَرّ الدهور واختلاف العصور ، والكاتب لايفعل ذلك إلا أن يفعله منظوماً غير منثور ، وهذه مزية ظاهرة وفضل بيِّن

ومن فضائله أن الكذب — الذى اجتمع الناسُ على قبحه — حَسَنٌ فيه ، وحسبك ما حَسَّنَ الكذبَ ، واغتفر له قبحه ، فقد أوعد رسول الله صلى الله عليه وسلم كَعْبَ بن زهير لما أرسل إلى أخيه بُجَيْرٍ ينهاه عن الإسلام ، وذكر النبي صلى الله عليه وسلم بما أحفظه ،فأرسل إليه أخوه «ويحك! إن النبى صلى الله

(١) قهارمة : جمع قهرمان — بفتح القاف وسكون الهاء وفتح الراء — قال فى اللسان : هو كالخازن والوكيل الحافظ لما تحت يده والقائم بأمور الرجل ، بلغة الفرس .

(٢) قال الجاحظ : «كان بشار خطيبا صاحب منثور ، ومزدوج ، وسجع ، ورسائل ، وهو من المطبوعين ، أصحاب الإبداع والاختراع، المتفننين فى الشعر ، القائلين فى أكثر أجناسه وضروبه » اهـ

(٣) واحدتهما نوارة — بضم النون ، وتشديد الواو — والجمع نوار مثل رمان

عليه وسلم أوعدك لما بلغه عنك ، وقد كان أوعد رجالا بمكة ممن كان يهجوه ويؤذيه فقتلهم ـ يعنى ابن خَطَلٍ(١) وابن حُبَابة(٢) ـ وإنَّ من بقى من شعراء قريش كابن الزِّبَعْرَى وهبيرة بن أبى وهب قد هربوا فى كل وجه ، فإن كانت لك فى نفسك حاجة فَطِرْ(٣) إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فإنه لا يقتل من جاء تائبا ، وإلا فانج إلى نجائك ؛ فإنه والله قاتلك ، فضاقت به الأرض ، فأتى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم متنكراً ، فلما صلَّى النبىُّ صلى الله عليه وسلم صلاة الفجر وضع كعب يده فى يد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : يا رسول الله ، إن كعب بن زهير قد أتى مستأمنا تائبا ، أفتؤمنه فآتيك به ؟ قال : هو آمن ، فحسَرَ كعب عن وجهه وقال : بأبى أنت وأمى يا رسول الله [هذا] مكانُ العائذِ بك ، أنا كعب بن زهير ، فأمَّنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنشد كعب قصيدته التى أولها :

---

(١) ابن خطل ـ بفتح كل من الخاء والطاء ـ قيل : اسمه عبد الله بن خطل وقال الزبير بن بكار : اسمه آدم، القرشى الأدرمى، وهو من ولدتيم بن غالب ، وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم أهدر دمه لارتداده مشركا ، وأنه كان يأمر قينتين له بأن تغنيا بهجاء الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد قتله أبوبرزة الأسلمى يوم الفتح وهو متعلق بأستار الكعبة .

(٢) ابن حبابة ـ بضم الحاء المهملة ـ وكان فى الأصول بضاد معجمة ، وفى سيرة ابن هشام بصاد مهملة ، والصواب ما أثبتناه ، وهو مقيس ـ بزنة منبر ـ احد بنى كلب بن عوف من الديل ، وقد قتله نميلة بن عبد الله ـ وهو رجل من قومه ـ يوم فتح مكة ؛ لأنه كان قد قتل رجلا من المسلمين ثم ارتد مشركا ، فأهدر النبى دمه .

(٣) فى نسخة « فصر » وهى رواية شرح قصيدة كعب لابن هشام ، ورواية السيرة كما أثبتنا .

بَانَتْ سُعَادُ فَقَلْبِي الْيَوْمَ مَتْبُولُ مُتَيَّمٌ إِثْرَهَا لَمْ يُفْدَ مَكْبُولُ

يقول فيها بعد تغزله وذكر شدة خوفه ووَجَلِهِ :

أنبئتُ أن رسولَ الله أوعدني والعفو عند رسول الله مأمولُ
مَهْلاً هداكَ الذي أعطاكَ نافلةَ الـقرآن فيه مواعيظٌ وتفصيلُ
لا تأْخُذَنّي بأقوالِ الوشاةِ فلم أذنبْ ، ولو كثرت فيَّ الأقاويلُ

فلم ينكر عليه النبي صلى الله عليه وسلم قولَه ، وما كان ليوعده على باطل ، بل تجاوز عنه ووهَبَ له بُرْدته ، فاشتراها منه معاوية بثلاثين ألف درهم . وقال العتبي (١) بعشرين ألفاً ، وهي التي يتوارثها الخلفاء يلبسونها في الجمع والأعياد تبركا بها .

وذكر جماعة ــ منهم عبد الكريم بن إبراهيم النهشلي الشاعر ــ أنه أعطاه مع البردة مائة من الإبل ، قال : وقال الأحوص يُذَكِّرُ عمر بن عبد العزيز عطية رسول الله صلى الله عليه وسلم كعباً ، وقد توقف في عطاء الشعراء :

وقبلك ما أعْطَى هُنَيْدَةَ (٢) جلة على الشعر كعباً من سَدِيس و بازِل
رسولُ الإلهِ المستضاء بنوره عليه السلام بالضُّحَى والأصائل

واعتذر حسان بن ثابت من قوله في الإفك بقوله لعائشة رضي الله عنها في أبيات مدَحها بها :

حَصَانٌ رَزَانٌ ما تُزَنُّ برِيبةٍ وتُصْبِحُ غَرْثَى من لحوم الغوافل

يقول فيها :

فإن كنتُ قد قُلْتُ الذي قد زعمتمُ فلا رفعَتْ سَوْطِي إليَّ أناملِي

ثم يقول :

---

(١) في نسخة « القتيبي » .

(٢) هنيدة : اسم للمائة من الإبل ، ويقال « سديس » للناقة إذا كانت في السنة الثامنة ، والبازل : فوق السديس .

فإن الذى قد قيل ليس بلائطٍ[(١)] ولـكنه قولُ امرىء بِيَ ماحلِ

فاعتذر كما تراه مغالطاً فى شىء نَفَذَ فيه حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحدّ ، وزعم أن ذلك قولُ امرىء ماحِلٍ ، أى : مُكَايِد ، فلم يعاقب لما يرون من استخفاف كذب الشاعر ، وأنه يحتج به ولا يحتج عليه .

وسئل أحدُ المتقدمين عن الشعراء فقال : ما ظنك بقوم الاقتصاد محمود إلا منهم ، والـكذب مذموم إلا فيهم .

حكى أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين النيسابورى أن كعب الأحبار قال له عمر بن الخطاب وقد ذكر الشعر : يا كعب ، هل تجد للشعراء ذكراً فى التوراة ؟ فقال كعب : أجد فى التوراة قوماً من ولد إسماعيل ، أناجيلهم فى صدورهم ينطقون بالحـكمة ، ويضربون الأمثال ، لا نعلمهم إلا العرب .

وقيل : ليس لأحد من الناس أن يُطْرِىَ نفسه ويمدحها ، فى غير منافرة ، إلا أن يكون شاعراً ، فإن ذلك جائز له فى الشعر ، غير مَعِيبٍ عليه .

وقال بعضهم — وأظنه أبا العباس الناشىء — العلم عند الفلاسفة ثلاث طبقات : أعلى ، وهو علم ما غاب عن الحواس فأدرك بالعقل أو القياس ، وأوسط ، وهو علم الآداب النفيسة التى أظْهَرَهَا العقـلُ من الأشياء الطبيعية كالأعداد والمساحات وصناعة التنجيم وصناعة اللحون ، وأسفل ، وهو العلم بالأشياء الجزئية والأشخاص الجسمية ، فوجب — إذا كانت العلوم أفضلها ما لم تشارك فيه الجسوم — أن يكون أفضل الصناعات ما لم تشارك فيه الآلات ، وإذا كانت

---

(١) فى نسخة : ليس بمقولى ، وما أثبتناه هو رواية الديوان ، وقوله « ليس بلائط » معناه : ليس بلازم ولا لاصق ، وتقول : هذا المقال لا يلوط بفلان ، بمعنى لا يلصق به ، والماحل : الذى يمشى بالنميمة ويسعى إلى السلطان ، وتفسير المؤلف له قريب من هذا .

اللحون عند الفلاسفة أعظم أركان العمل الذى هو أحد قسمى الفلسفة وجدنا الشعر أقدم من لحنه لا محالة ، فكان أعظم من الذى هو أعظم أركان الفلسفة ، والفلسفة عندهم علم وعمل . هذا معنى الكلام المنقول عنه مختصراً وليس نصاً .

فإن قيل فى الشعر : إنه سبب التكفف، وأخذ الأعراض ، وما أشبه ذلك؛ لم يلحقه من ذلك إلا ما يلحق المنثور .

ومن فضائله أن اليونانيين إنما كانت أشعارهم تقييد العلوم والأشياء النفيسة والطبيعية التى يخشى ذهابها ، فكيف ظنك بالعرب الذى هو فخرها العظيم وقسطاسها المستقيم ؟

وزعم صاحب الموسيقى أن ألذ الملاذ كلها اللَّحْنُ ، ونحن نعلم أن الأوزان قواعد الألحان ، والأشعار معايير الأوتار لا محالة ، مع أن صنعة صاحب الألحان واضعة من قدره ، مستخدمة له ، نازلة به ، مُسْقِطة لمروءته ، ورتبة الشاعر لا مَهَانة فيها عليه ، بل تكسبه مهابة العلم ، وتكسوه جلالة الحكمة.

فأما قيامه[1] وجلوس صاحب اللحون فلأن هذا متشوَّف إليه ، يحب إسماع مَنْ بحضرته أجمعين ، بغير آلة ولا مُعِين ، ولا يمكنه ذلك إلا قائماً أو مشرفاً ، وليدل على نفسه ، ويُعلم أنه المتكلم دون غيره ، وكذلك الخطيب ، وصاحبُ اللحونِ لا يمكنه القيام لما فى حجره كرامة منه[2] على القوم ، على أن منهم مَن كان يقوم بالدف والمِزْهَرِ .

---

(١) يريد أن الشاعر ينشد شعره وهو قائم ، وصاحب الألحان يطرب وهو جالس .

(٢) هكذا فى الأصول كلها ، ونعتقد أن الصواب « لا كرامة به على القوم » .

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن من البيان لسحراً ، وإن من الشعر لحكما » وقيل « لحكمة » : فقرن البيان بالسحر فصاحة منه صلى الله عليه وسلم ، وجعل من الشعر حُكما ؛ لأن السحر يخيل للانسان ما لم يكن للطافته وحيلة صاحبه ، وكذلك البيان يتصور فيه الحق بصورة الباطل ، والباطل بصورة الحق ؛ لرقة معناه ، ولطف موقعه ، وأبلغ البيانَيْنِ عند العلماء الشعر بلا مدافعة ، وقال[1] رؤبة:

لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ تَكُونَ ساحِراً رَاوِيَةً مَرًّا وَمَرًّا شَــاعِراً

فقرن الشعر أيضاً بالسحر لتلك العلة ، ويروى أيضاً * لقد حَسُنْتَ * بسين مضمومة غير معجمة ، ونون ، والتاء مفتوحة .

(٢) — باب فى الرد على من يكره الشعر

روى عن النبيّ صلى اللهُ عليه وسلمْ أنه قال : « إنمّا الشّعر كلامٌ مُؤلَّف فما وافق الحقّ منه[2] فهو حسن ، وما لم يوافِقِ الحقّ منه فلاَ خيرَ فيه » ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : « إنّما الشّعر كلامٌ ، فمن الـكلام خبيث وطيّبٌ » ، وقالت عائشة رضى الله عنها : الشعر فيه كلام حسن وقبيح ، فخذ الحسن واترك القبيح ، ويروى عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم بَنَى لحسان بن ثابت فى المسجد منبراً ينشد عليه الشعر ، وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أعلم منه ، وقال

---

(١) فى ديوان أراجيز رؤبة أرجوزة طويلة على هـذه القافية ليس فيها هذا البيت .

(٢) فى المصريتين «عنه» وليس بشىء .

على بن أبى طالب رضى الله عنه : الشعر ميزان القول ، ورواه بعضهم : الشعر ميزان القوم .

وروى ابن عائشة يرفعه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «الشعر كلام من كلام العرب جَزْل ، تتكلم به فى بواديها ، وتَسُلُّ به الضغائنَ من بينها» وأنشد ابن عائشة قول أعشى بنى قيس بن ثعلبة :

قَلَّدْتُكَ الشِّـعْرَ يَا سَلاَمَةُ ذَا فَايشَ ، وَالشَّىْءُ حَيْثُ ما جُعِـلاَ(١)
وَالشِّعْرُ يَسْتَنْزِلُ الْـكَرِيمَ كَمَا يُنْزِلُ رَعْدُ السَّحَابَةِ السَّبَلاَ

ويروى عن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما قالت : مَرَّ الزبير بن العَوَّام رضى الله عنه بمجلس لأصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، وحسان ينشدهم ، وهم غير آذِنينَ(٢) لما يسمعون من شعره ، فقال : ما لى أراكم غيرَ آذِنِين لما تسمعون من شعر ابن الفُرَيعة ؟ لقد كان ينشد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيحسن استماعه ، ويجزل عليه ثوابه ، ولا يشتغل عنه إذا أنشده .

ويروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه مر بحسان وهو ينشد الشعر فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : أرغاء كرغاء البَكر ؟ فقال حسان: دعنى عنك يا عمر ، فوالله إنك لتعلم لقد كنت أنشد فى هذا المسجد مَنْ هو خير منك فما يغير علىّ ذلك ، فقال عمر : صدقت .

وكتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أبى موسى الأشعرىّ : مُرْ مَنْ قِبَلك بتعلم الشعر ؛ فإنه يدل على معالى الأخلاق ، وصواب الرأى ، ومعرفة الأنساب .

---

(١) البيتان فى ديوان الأعشى (ص١٧٥) ويروى فى البيت الأول « يا سلامة ذا التفضال » ويروى « يا سلامة ذا التقصار » وهى القلائد ، ويروى فى الثانى « كما استنزل رعد » والسبل — بفتحتين — المطر بين السحاب والأرض .

(٢) غير آذنين : أى غير منصتين .

وقال معاوية رحمه الله : يجب على الرجل تأديب ولده ، والشعر أعلى مراتب الأدب .

معاوية تمنعه أبيات من الفرار

وقال : اجعلوا الشعر أكبر همكم ، وأكثر دأبكم ، فلقد رأيتنى ليلة الهرير بصفين — وقد أتيت بفرس أغرّ مُحَجَّل بعيد البطن من الأرض ، وأنا أريد الهرب لشدة البلوى — فما حملنى على الإقامة إلا أبيات عمرو بن الإطنابة :

أَبَتْ لى هِمَّتى وأَبَى بَلاَئى وأَخْـذِى الحمدَ بالثمنِ الربيح
وإقحامى على المكروه نفسى وضَربِى هَامَةَ البطلِ المُشيحِ
وقوْلى كلما جَشأتْ وجاشتْ : مكانكِ تُحْمَدِى أو تستريحى
لأدفعَ عن مَآثِرَ صَالحاتٍ وَأحْمِى بَعدُ عنْ عِرْضٍ صحيح

بين على وأعرابى

ويروى أن أعرابياً وقف على علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه فقال : إن لى إليك حاجة رفعتها إلى الله قبل أن أرفعها إليك ، فإن أنت قضيتها حمدتُ الله تعالى وشكرتك ، وإن لم تقضها حمدت الله تعالى وعذرتك ، فقال له علىّ : خُطَّ حاجتك فى الأرض ، فإنى أرى الضر عليك ، فكتب الأعرابى على الأرض « إنى فقير » فقال على : ياقنبر ! ادفع إليه حلتى الفلانية ، فلما أخذها مَثَلَ بين يديه فقال :

كسوتنى حُلَّةً تبلَى محاسنُها فسوفَ أكسوكَ من حسنِ الثنا حللا
إن الثناء ليحيِي ذكرَ صاحبهِ كالغيث يُحيِي نداه السهلَ والجبلا
لا تزهدِ الدهرَ فى عُرفٍ بدأت به فكلُّ عبدٍ سيُجزَى بالذى فعلا

فقال علىّ : ياقنبر ، أعطه خمسين ديناراً ، أما الحلة فلمسألتك ، وأما الدنانير فلأدبك ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « أنزلوا الناس منازلهم »

سعيد بن المسيب يعيب من يكره الشعر

وقيل لسعيد بن المسيب : إن قوماً بالعراق يكرهون الشعر ، فقال : نسكوا نسكا أعجمياً

رأى ابن سيرين فى الشعر

وقال ابن سيرين : الشعر كلام عقد بالقوافى ، فما حسن فى الكلام حسن فى الشعر ، وكذلك ماقبح منه .

وسئل فى المسجد عن رواية الشعر فى شهر رمضان ـ وقد قال قوم : إنها تنقص الوضوء ـ فقال :

نُبِّئْتُ أنْ فَتَاةً كنت أخطبها عُرْقُوبُها مثلُ شهرِ الصوم فى الطول

ثم قام فأمَّ الناسَ ، وقيل : بل أنشد :

لقَدْ أصْبَحَتْ عِرْسُ[1] الفرزدق ناشزاً

ولو رَضِيَتْ رُمْحَ أسته لا ستقرت

العمرى يحض على رواية الشعر

وقال الزبير بن بكار : سمعت العمرى يقول : رَوُّوا أولادكم الشعر ؛ فإنه يَحُلُّ عُقْدَةَ اللسان ، ويشجع قلب الجبان ، ويطلق يد البخيل ، ويحض على الخلق الجميل .

ابن عباس يسخر بمن يكره الشعر

وسئل ابن عباس : هل الشعر من رَفَث القول ؟ فأنشد :

وَهُنَّ يَمْشِين بنا هَمِيسا إنْ تَصْدُقِ الطيرُ نَنِكْ لميسا

وقال : إنما الرفث عند النساء ، ثم أحرم للصلاة .

وكان ابن عباس يقول : إذا قرأتم شيئا من كتاب الله فلم تعرفوه فاطلبوه فى أشعار العرب ؛ فان الشعر ديوان العرب . وكان إذا سئل عن شىء من القرآن أنشد فيه شعرا .

عائشة كثيرة الرواية للشعر

وكانت عائشة رضى الله عنها كثيرة الرواية للشعر . يقال : إنها كانت تروى جميع شعر لبيد .

وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لاتدع العربُ الشعر حتى تدعَ الابلُ الحنينَ » .

---

(١) عرس الرجل ـ بكسر العين وسكون الراء ـ زوجه .

أبو السائب المخزومي وحبه للشعر

وكان أبو السائب المخزومي ـ على شرفه ، وجلالته ، وفضله فى الدين والعلم ـ يقول : أما والله لو كان الشعر مُحَرَّماً لوردنا الرحبة كل يوم مراراً . والرحبة : الموضع الذى تقام فيه الحدود ، يريد أنه لا يستطيع الصبر عنه فيُحَد فى كل يوم مراراً ولا يتركه .

الرد على حجة من يكره الشعر

فأما احتجاج مَن لا يفهم وجه الكلام بقوله تعالى : (والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون مالا يفعلون) فهو غلط ، وسوءُ تأول ؛ لأن المقصودين بهذا النص شعراءُ المشركين الذين تناولوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهجاء ، ومَسُّوه بالأذى ، فأما مَن سواهم من المؤمنين فغير داخل فى شىء من ذلك ، ألا تسمع كيف استثناهم الله عز وجل ونبه عليهم فقال : (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ماظلموا) يريد شعراء النبى صلى الله عليه وسلم الذين ينتصرون له ، ويجيبون المشركين عنه ، كحسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رَوَاحة . وقد قال فيهم النبى صلى الله عليه وسلم : « هؤلاء النفر أشد على قريش من نَضْح[1] النبل » ، وقال لحسان بن ثابت « اهْجُهُمْ ـ يعنى قريشا ـ فوالله لهجاؤك عليهم أشد من وقع السهام ، فى غَلَسِ الظلام ، اُهْجُهُمْ ومعك جبريل روح القدس ، والْقَ أبا بكر يعلمك تلك الهَنَات » فلو أن الشعر حرام أو مكروه ما اتخذ النبى صلى الله عليه وسلم شعراء يثيبهم على الشعر ، و يأمرهم بعمله ، و يسمعه منهم .

وأما قوله عليه الصلاة والسلام : « لأن يمتلىء جَوْفُ أحدكم قَيْحاً[2] حتى

---

(١) نضح النبل : الرمى بها .

(٢) القيح : المدة ، وقد قاحت القرحة ، وتقيحت . وقال الجوهرى : ورى القيح جوفه يريه ، أكله ، وقال قوم : معناه أصاب رئته ، وأنكره آخرون ؛ لأن الرئة مهموزة فإذا بنيت منها فعلا قلت : رآه .

يَرِيَهُ خير له من أن يمتلىء شعراً » فإنما هو مَنْ غلب الشعرُ على قلبه ، وملك نفسه حتى شغله عن دينه وإقامة فروضه ، ومنعه من ذكر الله تعالى وتلاوة القرآن ، والشعر وغيرهُ ـ مما جَرَى هذه المجرى من شطرنج وغيره — سواء . وأما غير ذلك ممن يتخذ الشعر أدباً وفكاهة وإقامة مروءة فلا جناح عليه وقد قال الشعر كثير من الخلفاء الراشدين ، والجِلَّةُ من الصحابة والتابعين ، والفقهاء المشهورين ، وسأذكر من ذلك طرفا يقتدى به فى هذا الباب ، إن شاء الله تعالى .

(٣) — باب فى أشعار الخلفاء والقضاة والفقهاء

شعر ينسب لأبى بكر الصديق

من ذلك قول أبى بكر الصديق(١) رضى الله عنه ـ قالوا : واسمه عبد الله ابن عثمان ، ويقال : عتيق لقب له ـ قال فى غزوة عبيدة بن الحارث ، رواه ابن إسحاق وغيره :

أمن طيفِ سلمى بالبطاحِ الدمائثِ ... أرقت ، أو أمرٍ فى العشيرة حادثِ ؟؟
ترى من لؤى فرقةً لا يَصُدُّهَا ... عن الكفر تذكيرٌ ولا بعثُ باعث
رسولٌ أتاهم صادقٌ فتكذّبُوا ... عليه ، وقالوا : لستَ فينا بماكثِ
إذا ما دعوناهم إلى الحق أدبروا ... وهرُّوا هريرَ الُمجْحَرَات(٢) اللواهثِ

(١) قال ابن هشام : « وأكثر أهل العلم بالشعر ينكر هذه القصيدة لأبى بكر رضى الله عنه » اهـ وقال السهيلى : « ويشهد لصحة من أنكر أن تكون له ماروى عبد الرزاق عن معمر عن الزهرى عن عروة عن عائشة قالت : كذب من أخبركم أن أبا بكر قال بيت شعر فى الإسلام » اهـ

(٢) كان فى الأصول المطبوعة « المحجرات » بتقديم المهملة ، والتصويب عن سيرة ابن هشام (ج ٢ ص ٣ بولاق) وعن الروض الأنف (ج ٢ ص ٥٥)

فَكَمْ قد مَتَتْنَا(١) فيهمُ بقرابةٍ ... وتركُ التقى شىءٌ لهم غيرُ كارثِ
فإن يرجعوا عن كفرهم وعقوقهم ... فما طيِّباتُ الحل مثلَ الخبائثِ
وإن يركبوا طغيانَهم وضلالهُمْ ... فليس عذابُ اللهِ عنهم بلابثِ
ونحن أناسٌ من ذؤابةِ غالبٍ ... لنا العزُّ منها فى الفروع الأثائثِ(٢)
فأُولِى بربِ الراقصاتِ عشيةً ... حراجيجَ تخدى فى السريح الرثائث
كأُدْمِ ظباءٍ حولَ مكةَ عُكَّفٍ ... يردن حياض البئر ذات النبائثِ
لئن لم يفيقوا عاجلاً من ضلالهم ... ولستُ إذا آليتُ قولا بحانثِ
لتبتدرنهم غارةٌ ذاتُ مصدق ... تُحرِّم أطهارَ النساء الطوامثِ
تغادر قتلى تعصبُ الطيرُ حولهم ... ولا يرأف الكفار رأف ابن حارثِ
فأبلغ بنى سهم لديك رسالةً ... وكلَّ كفورٍ يبتغى الشرَّ باحثِ(٣)
فإن شعثوا عرضى على سوء رأيهم ... فإنِّى من أعراضهم غيرُ شاعثِ(٤)

أبيات تنسب لعمر بن الخطاب

ومن شعر عمر بن الخطاب رضى الله عنه ــ وكان من أنقد أهل زمانه للشعر وأنفذهم فيه معرفة ــ ويروى للأعور الشَّنِّيِّ :

هَوِّن عليكَ فإن الأمورَ ... بِكفِّ الإلهِ مقاديرُها
فليسَ بآتيــك مَنْهِيُّهَا ... ولا قاصرٍ عنكَ مأمورُها

ومن شعره أيضا ــ وقد لبس برداً جديداً فنظر الناسُ إليه ــ وقد روى لوَرَقة بن نوفل فى أبيات :

---

(١) فى المطبوعتين «مثانا» وهو خطأ، والتصويب عن السيرة فى المكان السابق
(٢) فى المطبوعتين « الثلاثث » وهو خطأ .
(٣) فى المطبوعتين « ماجث » .
(٤) رواية هذا البيت فى السيرة :
فإن تشعثوا عرضى على سوء رأيكم ... فإنى من أعراضكم غير شاعث

لاشيء مما ترى تبقى بشاشتُهُ يبقى الإلهُ ويفنى المالُ والولدُ
لم تُغنِ عن هُرمزٍ يوماً خزائنُهُ والخُلْدَ قدحاولت عادٌ فما خَلَدُوا
ولا سليمان ؛ إذ تجرى الرياحُ له والجنُّ والإنسُ فيما بينها ترد
حوضٌ هنالك موردٌ بلا كذبٍ لا بد من وِردِه يوماً كما وردوا

ومن شعره أيضاً رضى الله عنه :

توعّدَنى كعبٌ ثلاثاً يعدُّها ولا شكَّ أن القول ماقال لى كعبُ
وما بِىَ خوفُ الموت ؛ إنى لميتٌ ولكنَّ خوف الذنبِ يتبعهُ الذنبُ

من شعر ينسب لعثمان بن عفان

ومن شعر عثمان بن عفان رضى الله عنه :

غنى النفسِ يغنى النفس حتى يكفها وإن عَضَّها حتى يضرَّ بها الفقرُ
وما عُسْرَة ــ فاصبر لها إن لقيتها ــ بكائنــة إلا سيتبعها يُسْرُ

من شعر على بن أبى طالب

ومن شعر على بن أبى طالب رضى الله عنه ــ وكان مجوِّداً ــ ماقاله يوم صفين يذكر هَمْدَان ونصرهم إياه :

ولما رأيتُ الخيلَ ترجمُ بالقنا نواصيُّها حمــرُ النحور دَوَامِى
وأعرضَ نقعٌ فى السماء كأنه عجاجةُ دَجْنٍ ملْبَسٍ بقَتَامِ
ونادى ابنُ هندٍ فى الكلاع وحمير وكِندةَ فى لخمٍ وحىِّ جذَام
تيممت هَمْدَان الذين همُ همُ ــ إذا ناب دهرٌ ــ جُنَّتى وسهامى
فجاوبنى من خيل همدان عصبة فوارسُ من همــدان غيرُ لئام
فخاضوا لَظَاها واستطاروا شرارها وكانوا لدى الهيجا كشَرْب مُدَام
فلو كنت بواباً على باب جنةٍ لقلتُ لهمدانَ : ادخلوا بسلام

وهو القائل بصفين أيضا :

لمن راية حمــراء[1] يخفق ظلها إذا قلتُ قَدِّمها حُضَيْنُ تقدما

---

(١) فى نسخة « سوداء » .

فيوردها فى الصف حتى يَرِدْ بها حياضَ المنايا تقطرُ الموتَ والدمَا

فهؤلاء الخلفاء الأربعة رضوان الله عليهم : مامنهم إلا من قال الشعر ،

من شعر الحسن بن على

وخامسهم الحسن بن على رحمه الله ، وهو القائل ـ وقد خرج على أصحابه مختضبا ـ رواه المبرد :

نسوِّدَ أعلاها ، وتأبىٰ أصولُها، فليت الذى يَسْوَدُّ منها هو الأصل (١)

من شعر لمعاوية

ومن شعر معاوية بن أبى سفيان رحمة الله عليه ما رواه ابن الكلبى عن عبد الرحمن المدنى ، قال : لما حضرت معاويةَ الوفاةُ جعل يقول :

إنْ تناقشْ يكنْ نِقَاشُكَ يارَ بِّ عذاباً ، لا طَوْقَ لى بالعذاب (٢)

أوْ تجاوزْ فأنت رَبٌّ رَءوفٌ عن مسىءٍ ذنوبهُ كالتُّرابِ

وروى فى غير موضع واحد :

فَقَدْتُ سفاهتى ، وأرحْتُ غَيِّي وَفِيَّ عَلَى تَحَلُّمِيَ اعْـتِرَاضُ

على أنى أجيب إذا دعتـنى إلى حاجاتها الحدقُ المراضُ

ومن قوله أيضاً ، وهو لائق به ، دالّ على صحة ناقله :

إذا لم أجدْ بالحلم منى عليكمُ فمنْ ذا الذى بعدى يؤمِّلُ للحلم ! ؟

خذيها هنيئاً واذكرى فعلَ ماجدٍ حباكِ على حرب العداوةِ بالسلم

وأما يزيد بن معاوية فَمَنْ بعدَه فكثير شعرهم مشهور .

من شعر الحسين بن على

ومن شعر الحسين بن على رضى الله عنهما ، وقد عاتبه أخوه الحسن رحمه الله فى امرأته :

لعمركَ إننى لأحِبُّ داراً تحُلُّ بها سُكَيْنة والرَّبَابُ

---

(١) يريد أنه يسود أطراف شعره والظاهر منه بالخضاب ، ولكن جذور الشعر تأبى إلا البقاء على الشيب ! !.

(٢) لاطوق لى : أى لاطاقة لى ، يريد أنه لايحتمله .

أخبهما وأبذل جلّ مالى ... وليس لِلائمى عندى عتاب

وليس من بنى عبد المطلب رجالا ونساء مَنْ لم يقل الشعر ، حاشا النبيّ صلى الله عليه وسلم : فمن ذلك قولُ حمزة بن عبد المطلب رحمه الله يذكر لقاءه أبا جهل وأصحابه فى قصيدة تركْتُ أكثرها اختصاراً :

من شعر حمزة ابن عبدالمطلب

عشيةَ صاروا حاشدين وكلُّنا ... مَراجِلُهُ من غيظ أصحابه تَغْلِى
فلما تراءينا أناخوا فعقّلوا ... مطايا وعقلنا مدى غرضِ النَّبلِ
وقلنا لهم: حبلُ الإلٰهِ نصيرُنا ... وما لكمُ إلا الضلالةَ من حبلِ
فثار أبو جهل هنالك باغياً ... فخاب ، وردَّ اللهُ كيدَ أبى جهلِ
وما نحن إلا فى ثلاثين راكباً ... وهم مائتان بعد واحدةٍ فضلِ

من شعر العباس بن عبد المطلب

وأما العباس فكان شاعراً مفلقاً حسن التّهدّى : من ذلك قوله رحمه الله يوم حُنَيْن يفتخر بثبوته مع رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ألا هل أتى عِرْسى مَكَرّى وموقفى ... بوادى حنين والأسنة تُشْرَعُ
وقولى إذا ما النفس جاشَتْ لها قَدِى ... وهامٌ تدهْدَى والسّواعد تقطع
وكيف رددت الخيل وهى مغيرةٌ ... بزوراء تعطى باليدين وتمنع
نصرنا رسول الله فى الحرب سبعة[(١)] ... وقد فرّ من قد فر عنه فأقشعوا

ومن شعر عبد الله بن عباس رضى الله عنه :

---

(١) أثبت التاريخ أن للسلمين فى غزوة حنين لما انهزموا أمام هوازن وثقيف ومن لف لفهم من الأعراب ، بقى مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثمانية رجال ، هم : أبوبكر ، وعمر ، وعلى ، والعباس ، والفضل بن العباس ، وأبوسفيان ابن الحارث ، وأخوه ربيعة بن الحارث ، ومعتب بن أبى لهب ، وكان رسول الله أركبه بغلته ، والعباس آخذ بلجامها ؛ وأبو سفيان آخذ بالركاب .

من شعر عبد الله ابن العباس

إذا طارقات الهم ضاجعتِ الفتى ... وأعمل فكرَ الليل والليل عاكر

وباكرنى فى حاجة لم يجد بها ... سوایَ ولا من نكبة الدهر ناصر

فرَجْتُ بمالى هَمَّه من مقامه ... وزايله همٌّ طروقٌ مسامر

وكان له فضلٌ علىَّ بظنه ... بِىَ الخير؛ إنى للذى ظنّ شاكر

من شعر جعفر بن أبى طالب

ومن شعر جعفر بن أبى طالب ذى الجناحين رضى الله عنه قوله يوم مُوْتةَ وفيه قتل رحمة الله عليه :

يا حبذا الجنة واقترابها ... طيبةٌ وباردٌ شرابها

والروم رومٌ قد دنا عذابها ... علىَّ إذ لاقيتها ضرابها

وشعر أبى سفيان بن الحارث مشهور فى الجاهلية والإسلام . فأما أبو طالب ومَنْ شاكله فلم أذكر لهم شيئا ، خلا بيتين لعبد الله بن عبد المطلب أنشدهما القاضى أبو الفضل ، وهما :

من شعر عبد الله بن عبد المطلب

وأحْوَرَ مخضوبِ البنان محجبٍ ... دعانى فلم أعرف إلى ما دعا وَجْهًا[1]

بخلت بنفسى عن مقام يشينها ... فلست مريداً ذاك طوعاً ولا كرهاً

وكانت فاطمة رضى الله عنها تقول الشعر ، رويت لها أشياء كثيرة .

من شعر عمر بن عبد العزيز

ثم نرجع إلى الخلفاء المرضيين : قال عمر بن عبد العزيز ، رواه الأوزاعى عن محمد بن كعب :

أيقظان أنت اليومَ أم أنت حالمُ؟ ... وكيف يطيق النوم حيرانُ هائم؟

فلو كنت يقظان الغداةَ لحرّقَتْ ... جفونا لعينيك الدموعُ السواجم

نهارك يامغرور سهوٌ وغفلةٌ ... وليلك نومٌ ، والردى لك لازم

وتشغل فيما سوف تكرَهُ غِبّه ... كذلك فى الدنيا تعيش البهائم

ومما أثبته حماد الراوية من شعره :

(١) الأحور : الذى فى عينه الحور ، وهو شدة بياض بياض العين مع شدة سواد سوادها ، وأراد امرأة ، ولكنه ذكر لكونه قصد شخصا .

إنهَ الفؤاد عن الصِّبا وعن انقيادكَ للهوى(١)
فلعمــر ربكَ إنَّ في شيب المفارِقِ والجلا
لك واعظاً لو كنت تتَّــعظ اتعاظَ ذوي النهى
حتى متى لا ترعوى ؟ وإلى متى؟ وإلى متى ؟
بَلِيَ الشبابُ وأنت إنْ عُمِّرْتَ رَهْنٌ للبلى
وكفى بذلك زاجراً للمرء عن غيٍّ ، كفى

ومن شعره أيضاً أنشده ابن داود القياسي في كتابه :

ولولا النهى ثم التقى خشيةَ الردى لعاصيتُ في حبِّ الصِّبا كلَّ زاجر
صبَا ما صبَا فيما مضى ثم لا تُرَى له صَبْوَةٌ أخرى الليالي الغوابر

من شعر عبد الله ابن الزبير

ومن قول عبد الله بن الزُّبير قوله — وقد ولى الحرمين مدة ، ودعى بأمير المؤمنين ما شاء الله حتى قتل ، رحمة الله عليه — وقد روى لعبد الله بن الزَّبِير — بفتح الزاى وكسر البـاء — :

لا أحسبُ الشرَّ جاراً لا يفارقني ولا أحزُّ على ما فاتني الوَدَجَا
وما لقيتُ منَ المكروهِ منزلةً إلاّ وَثِقْتُ بأَنْ ألقى لها فرَجا

ومن قوله المشهور عنه :

وكم من عَدُوٍّ قد أرادَ مَساءَتي بغيبٍ ، ولو لاقيتهُ لتنــدما
كثيرِ الخنا حتى إذا ما لقيته أصرَّ على إثم وإن كان أقسما

وحسبك من القضاة شريحُ بن الحارث : كان شاعراً مجوِّداً ، وقد استقضاه عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، كتب إلى مؤدب ولده — وقد وجده وقت

(١) فى المطبوعتين «وعن انقياده» ويلزمه سكون الهاء — وهى ضمير الغائب — فى غير وقف ، وليس بشيء ، والأفضل ما أثبتناه .

الصلاة يلعب بجزو كلب ، وأودع الأبياتَ رقعةً وأنفذَها مع ولده مختومة إلى المؤدب ـ :

من شعر القاضى شريح

تركَ الصلاةَ لأَكْلُبٍ يسعى بها طَلَبَ الهِرَاش مع الغُواةِ الرُّجّس
فليأتينكَ غدوَةً بصـــحيفة كتبتْ له كصـــحيفةِ المتلمسِ
فإذا هممت بضربه فَبِـــدِرَّةٍ وإذا بلغتَ به ثلاثاً فاحْبِسِ
واعـــلم بأنك ماأتيتَ فنفسُه ـمع ما يُجَرِّعُنِى ـ أعزُّ الأنفسِ

فهذا شريح ، وهلم جرا إلى حيث شئت ، ومن الفقهاء عبيد الله بن عبد الله ابن عتبة بن مسعود ، قال فى امرأة من هذيل قدمت المدينة ففتن بها الناس ورغبوا فيها خاطبين :

من شعر الفقيه العتبى

أحبكِ حباً لو علمتِ ببعضه لجدتِ ولم يصعب عليكِ شديدُ
وحبك يا أمَّ الوليـــد مُوَلِّهِي شهيدى أبو بكر فنعم شهيدُ
ويعـــلم وجدِى قاسمُ بن محمد وعروة ماأخفى بكم وســـعيد
ويعـــلم ما ألقى سليمانُ علمه وخارجةٌ يبدى بنا ويعيـــد
متى تسألى عما أقول تُخَبَّرِى فلله عنـــدى طارفٌ وتليد

هؤلاء الستة الذين ذكرهم : أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وقاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق ، وعروة بن الزبير بن العوام ، وسعيد بن المسيب ، وسليمان بن يسار ، وخارجة بن زيد بن ثابت ، وعبيد الله صاحب هـذا الشعرِ هو سابعهم ، وهم فقهاء المدينة ، وأصحاب الرأى الذين هم عليهم المدار .

وقد كان جماعة من أصحاب مالك بن أنس يرون الغناء بغير آلة جائزاً ، وهو مذهب جماعة من أهل مكة والمدينة ، والغناء حُلَّة الشعر إن لم يلبسها طُوِيَتْ، ومحال أن يحرمَ الشعرَ مَنْ يُحِل الغناء به .

من شعر الإمام الشافعى

وأما محمد بن إدريس الشافعى فكان من أحسن الناس افتناناً فى الشعر ، وهو القائل :

ومُتْعِبِ العيس مرتاحاً إلى بلدٍ والموتُ يطلبهُ فى ذلك البلد
وضاحكٍ والمنايا فوقَ مفرقهِ لو كان يعلم غيباً مات من كَمَدِ
من كان لم يؤتَ علماً فى بقاء غد ماذا تَفَكَّره فى رزقِ بعد غد

ومن قوله أيضا فى غير هذا المعنى :

الجدُّ يدنى كلَّ شىء شاسعٍ والجدُّ يفتح كلَّ باب مغلقِ
فإذا سمعت بأن مجدوداً حَوَى عُوداً فأوْرَقَ فى يديه فَصَدِّقِ
وإذا سمعت بأن محروما أتى ماء ليشربه فجفَّ فحقق
وأحقُّ خلق الله بالهمّ امرؤ ذو همةٍ يُبْلَى برزقٍ ضيقِ
ولربما عَرَضَتْ لنفسى فكرةٌ فأوَدُّ منها أننى لم أخلقِ

وهذا باب لو تقصيته لاحتمل كتابا مفرداً ، ولكنى طبّقت المفصل ، وذكرت بعض المشاهير من الناس .

(٤) — باب من رفعه الشعر ، ومن وَضَعَه

الشعر يرفع ويضع

إنما قيل فى الشعر « إنه يرفع من قدر الوضيع الجاهل ، مثل ما يضع من قدر الشريف الكامل ، وإنه أسنى مروءة الدنى ، وأدنى مروءة السرى » لأمر ظاهر غاب عن بعض الناس فتأوله أشد التأويل ، وظنه مَثْلبة وهو مَنْقبة ، وذلك أن الشعر لجلالته يرفع من قدر الخامل إذا مُدِحَ به ، مثل ما يضع من قدر الشريف إذا اتخذه مكسباً ، كالذى يؤثَرُ من سقوط النابغة الذبيانى بامتداحه النعمانَ بنَ المنذر ، وتكسبه عنده بالشعر ، وقد كان أشرف بنى ذبيان ،

هذا ، وإنما امتدح قاهر العرب ، وصاحب البؤس والنعيم (١) . . وكاشتهار عَرَابة الأوسى بشعر الشَّمَّاخَ بن ضِرَار ، وقد بذل له فى سنة شديدة وَسْق بعير تمراً ، فقال :

رأيتُ عَرابةَ الأوْسِىَّ يسمو ... إلى الخيرات منقطعَ القرين
إذا ما رايةٌ رفعت لمجد ... تَلَقَّاها عَرابة باليمين

حتى صار ذلك مثلا سائراً ، وأثراً باقياً ، لا تَبلَى جِدَّتُه ، ولا تتغير بهجته ، وقدح ذلك فى مروءة الشماخ ، وحط من قدره ؛ لسقوط همته عن درجة مثله من أهل البيوتات وذوى الأقدار .

فأما من صنع الشعر فَصَاحةً وَلَسنا ، وافتخاراً بنفسه وحسبه ، وتخليداً لمآثر قومه ، ولم يصنعه رغبة ولا رهبة ، ولا مدحاً ولا هجاء ، كما قال واحدُ دهرِنا وسيد كتاب عصرنا أبو الحسن أحسن الله إليه وإلينا فيه :

وجدتُ طريق اليأس أسهلَ مسلكاً ... وأحرَى بنُجْحٍ من طريق المطامع
فلستُ بمُطْرٍ ما حييت أخا نَدًى ... ولا أنا فى عرض البخيل بواقع

فلا نقص عليه فى ذلك ، بل هو زائد فى أدبه ، وشهادةٌ بفضله ، كما أنه نباهة فى ذكر الخامل ، ورفع لقدر الساقط ، وإنما فضل امرؤ القيس ــ وهو مَنْ هو ــ لما صنع بطبعه ، وعلا بسجيته ، عن غير طمع ولا جزع .

رأى لعلى فى امرىء القيس

حكى عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه أنه قال : لو أن الشعراء المتقدمين ضمهم زمان واحد ونصبت لهم راية فجروا معاً علمنا مَن السابقُ منهم ، وإذ لم

(١) فى ظاهر العبارة أن المؤلف يعتبر ممدوح النابغة صاحب يومى البؤس والنعيم ، وهذا باطل ؛ فإن ممدوح النابغة هو النعمان بن المنذر ؛ وصاحب اليومين هو المنذر بن ماء السماء .

يكن فالذى لم يقل لرغبة ولا لرهبة ، فقيل : ومن هو ؟ فقال : الكندى، قيل : ولم ؟ قال : لأنى رأيته أحسنهم نادرة ، وأسبقهم بادرة .

على بن الجهم يصف ما دعاه لقول الشعر

وقال على بن الجهم فى مدح المتوكل :

وما الشعرُ مما أستظلُّ بظله ولا زادنى قدراً ، ولا حطّ من قدرى

ثم قال :

ولكنّ إحسانَ الخليفة جعفرٍ دعانى إلى ما قلتُ فيه من الشعر

فذكر أنه لا يستظل بظل الشعر ، أى : لا يتكسب به ، وأنه لم يزده قدراً لأنه كان نابهَ الذكر قبل عمل الشعر ، ثم قال * ولا حط من قدرى * فأحسن الاعتذار لنفسه وللشعر ، يقول : ليس الشعر ضعة فى نفسه ، ولا صنعته فيمن دون الخليفة ، وما كفاه ذلك حتى جعل نفسه بإزاء الخليفة ، بل مكافئًا له بشعره على إحسان بدأه الخليفة به ، ولم يرض أن يجعل نفسه راغبا ولا مجتديا .

أبو تمام يقول فى المعنى

وقال الطائى[1] فى هذا المعنى لمحمد بن عبد الملك الزيات ، على ما كان فيه من الكبر والإعجاب ، وهو حينئذ الوزير الأكبر :

لقد زِدْتَ أوضاحى امتداداً ، ولم أكن بهيما ولا أرضى من الأرض مَجْهَلاَ
ولكن أيادٍ صادفتنى جِسامُها أغرَّ فَوَافَتْ بى[2] أغر محجلا

فطمح بنفسه إلى حيث ترى ، وجعل الغرة من كسبه — وهى فى الوجه مشهورة — والتحجيل من زيادات الممدوح ، وهو فى القوائم .

أبو نخيلة السابق إلى ذلك

وقد سبق إلى هذا المعنى أبو نخيلة السعدى فقال يمدح مَسْلمة بن عبد الملك :

---

(١) هو أبو تمام حبيب بن أوس، وانظر ديوانه (ص٢٥٢)

(٢) فى الأصل «فوفت فى» وهو خطأ ، وفى الديوان « فألفت بى » .

وأحييت من ذكرى ، وما كان خاملا ولكنّ بعضَ الذكر أنبَهُ من بعض

سبب نفى امرىء القيس

وقد حكى أن امرأ القيس نَفاه أبوه لما قال الشعر ، وغفل أكثر الناس عن السبب ، وذلك أنه كان خليعاً ، متهتكا ، شبَّبَ بنساء أبيه ، و بدأ بهـذا الشر العظيم ، واشتغل بالخمر والزنا عن الملك والرياسة ، فكان إليه من أبيه ما كان، ليس من جهة الشعر ، لـكن من جهة الغى والبطالة ؛ فهذه العلة ، وقد جازت كثيراً من الناس ومرت عليهم صَفْحاً(١) .

وأما تفسير القول الآخر فى السرىِّ والدنىِّ ؛ فإنه إذا بلغت بالدنى نفسه ، وطمحت به همته إلى أن يصنع الشعر ـ الذى هو أخو الأدب ، وتجارة العرب ، تُكافأ به الأيادى ، ويُحَلُّ به صدر النادى ، و يرفع صوته على من فوقه ، و يزيده فى القدر على ما استحقه ـ فقد صار سرياً ، على أنه القـائل ، فإن كان المقولُ له فذلك أعظم مزية ، وأشرف خطة ومنزلة ، و إذا انحطت بالسرى همته ، وقصرت مروءته ، إلى أن يصنع الشعر ليتكسب به المال و يكافىء به الأيادى دون غيره ـ وهو يعلم أنه أبقى من المال ، وأنفس ذخائر الرجال ، وأنه إن خاطب به من فوقه فقد رضى بالضراعة ، و إن خاطب به كفأه ونظيره فقد نزل عن المساواة ، و إن خاطب به من دونه سقط جملة ـ ذلك على أن يكون شعره مَزْحًا(٢) أو عتاباً، وأما أن يكون هجاء فأبقى لخزيه وأضل لسعيه .

وسأذكر ممن رفعه أو ممن وضعه ماقال أو قيل فيه من الشعر بعضَ من ذكر الناس ؛ لئلا أخلى الـكتاب من ذلك ، و إن كنت حريصاً على الإيجاز والاختصار.

بعض من رفعه الشعر

فممن رفعه ماقال من القُدَماء الحارث بن حِلِّزَةَ اليشكرى ، وكان أبرص ، فأنشد الملك عمرو بن هند قصيدته :

* آذَنَتْنا بِبَيْنِها أسْماء *

---

(١) فى المطبوعتين « صلحا » وهو خطأ كما ترى .

(٢) ربما قرئت هذه الكلمة « مدحا » .

و بينه و بينه سبعة حُجُب ؛ فما زال يرفعها حجابا فحجابا لحسن ما يسمع من شعره حتى لم يبق بينهما حجاب ، ثم أدناه وقربه ، وأمثاله كثير .

ومن المخضرمين حسان بن ثابت رحمه الله ، لم تكن له ماتّة ولا سابقة فى الجاهلية والإسلام إلا شعره ، وقد بلغ من رضا الله عز وجل ورضا نبيه عليه الصلاة والسلام ما أورثه الجنة .

ومن الفحول المتأخرين الأخطل ـ واسمه غِياث بن غَوْث ، وكان نصرانياً من تغلب ـ بلغت به الحالُ فى الشعر إلى أن نادم عبدَ الملك بن مروان ، وأركبه ظهر جرير بن عطية بن الخَطَفَى ، وهو تقى مسلم ، وقيل : أمره بذلك بسبب شعر فاخره[١] فيه بين يديه وطَوَّلَ لِسانهُ ، حتى قال مجاهراً[٢] : لعنة الله عليـــه ، لا يستتر فى الطعن على الدين والاستخفاف بالمسلمين :

ولستُ بصائمٍ رمضان طَوْعاً ... ولست بآكل لحم الأضاحى
ولست بزاجرٍ عَنْساً بكوراً ... إلى بطحاء مكةَ للنجاح
ولست مناديا أبداً بليـــلٍ ... كمثل العَير «حَيَّ على الفلاح»
ولـكنى سأشربها شَمُولا ... وأسجد قبل منبلج الصباح

وهذه غاية عظيمة ومنزلة غريبة حملت من المسامحة فى الدين على مثل ما نسمع والملوك ملوك بزعمهم . وهجا الأنصار ليزيد بن معاوية ، لما شبَّب عبدُ الرحمن بن حسان بن ثابت بعمته فاطمة بنت أبى سفيان ـ قيل: بل بأخته هند بنت معاوية ـ قيل : ولولا شعره لقتل دون أقل من ذلك .. وقد رَدَّ على جرير أقبح رد ، وتناول من أعراض المسلمين وأشرافهم ، ما لا ينجو مع مثله عَلَوِيّ ، فضلا عن نصرانى .

ومن المحدثين أبو نُوَاس ، كان نديماً للأمين محمد بن زُبَيْدَةَ طولَ خلافته ..

(١) فى المطبوعتين « خايره » وهو غير مؤد إلى معنى
(٢) فى نسخة « مجاهد »

ومُسْلم بن الوليد صَريع الغوانى ، اتصل بذى الرياستين[١] ومات على جُرْجَانَ وكان تولاها على يديه . . والبحترى ، وكان نديما للمتوكل لا يكاد يفارقه ، وبحضره قتل المتوكل . وكثيرٌ ممن أكتفى بهؤلاء عن ذكره .

المتنبى وكافور

وقد خطب أبو الطيب هذه الرتبة إلى كافور الإخشيدى ، فوعده بها وأجابه إليها ، ثم خافه لما رأى من تحامله وكبره ، واقتضاه أبو الطيب مراراً ، وعاتبه فما وجد عنده راحة . . فمن ذلك قوله[٢] يقتضيه :

وهبتَ على مقدار كَفَّىْ زماننا ونفسى على مقدار كفَّيْكَ تطْلُبُ
إذا لم تَنُطْ بى ضيعةً أو ولاية لجودك يكسونى وشُغْلُكَ يسلبُ

وقوله[٣] يقتضيه أيضا ويعاتبه من قصيدة مشهورة :

ولِى عند هذا الدهر حق يَلُطّه وقد قلّ إعتاب وطال عتابُ[٤]

ثم قال بعد أبيات :

أرى لى بقربى منك عينا قريرةً وإن كان قربا بالبعاد يُشاب
وهل نافعى أن تُرْفَع الحجبُ بيننا ودون الذى أمّلْتُ منك حجاب
أُقِلّ سلامى حبَّ ماخَفّ عنكم وأسكت كيما لا يكون جواب
وفى النفس حاجات وفيك فطانةٌ سكوتى بيانٌ عندها وخطاب

(١) هو الفضل بن سهل ، وكان السبب فى توليته أن مسلما دخل على الفضل . . . شعرا ، فقال : أيها الكهل إنى أجلك عن الشعر فسل حاجتك ، فقال : بل ... بأن تسمع . . . ثم أنشده ، فقال له الفضل : إنى أجلك عن الشعر . قال : فأغننى إذن بعمل من عمالك ، فولاه البريد بجرجان.

(٢) انظر الديوان (ج ١ ص ١٢٧)

(٣) انظر الديوان (ج ١ ص ١٣٧)

(٤) يلطه : يجحده ، وينكره ، ويمطله ، وقوله «وقل إعتاب» معناه أنه لم يرضها

وما أنا بالباغي على الحبِّ رشوة ضعيفٌ هَوًى يُبْغَى عليه ثوابُ
وما شئتُ إلا أن أَذُلَّ عواذلي على أن رأيي في هواكِ صوابُ
وأُعْلِمَ قوما خالفوني فشرَّقوا وغرَّبْتُ أني قد ظَفِرْتُ وخابوا

فهؤلاء رفعهم ما قالوه من الشعر؛ فنالوا الرتب، واتصلوا بالملوك، وليس ذلك ببدع للشاعر ولا عجيب منه. وقد كنت صنعت بين يدي سيدنا عن أمره العالي زاده الله علواً:

الشعر شيء حَسَنٌ ليس به مِنْ حَرَجِ
أقلُّ ما فيه ذَها بُ الهم عن نفس الشجي
يُحكِمُ في لطافةٍ حلَّ عقود الحجج
كم نظرةٍ حسَّنها في وجهِ عذرٍ سَمِجِ
وحرقةٍ برَّدها عن قلب صب منضج
ورحمةٍ أوقعها في قلب قاسٍ حرج
وحاجةٍ يَسَّرها عند غزال غَنِجِ
وشاعرٍ مطرح مغلق باب الفرج
قرَّبه لسانه من ملك متوَّج
فعلِّموا أولادكم عُقَار طِبِّ المهج

بعض الذين لقبوا بشيء من الشعر قالوه

وطائفة أخرى نطقوا في الشعر بألفاظ صارت لهم شهرة يلبسونها، وألقابا يُدْعَوْنَ بها فلا ينكرونها(١): منهم عائذ الكلب، واسمه عبد الله بن مصعب، كان والياً على المدينة للرشيد، لقب بذلك لقوله:

مالي مرضتُ فلم يَعُدْنِي عائدٌ منكم، ويمرضُ كلبكم فأعود؟!

---

(١) ومنهم الأسعر بن أبي حمران الجعفي، وسيتعرض له المؤلف في باب «القلبين من الشعراء» وستبين لك هناك اسمه والشعر الذي من أجله جرى عليه لقب الأسعر.

والممزّق ، واسمه شاس بن نهار ، لقب بقوله لعمرو بن هند :

فإن كنتُ مأكولا فكن أنت آكلي   وإلا فأدركني ولما أمزّقِ

وقد تمثل بهذا البيت عثمانُ بن عفان رضى الله عنه فى رسالة كتب بها إلى على بن أبى طالب رضى الله عنه.

ولقب مسكين الدارمى ــ واسمه ربيعة ، من ولد عمرو بن[1] عمرو بن عدس ابن زيد بن عبد الله بن دارم ــ بقوله :

أنا مسكينٌ لمن أبصرنى   ولمن حاورنى[2] جِدٌّ نطق

فلما سُمِّىَ مسكينًا قال :

وسميت مسكينًا وكانت لجاجة   وإنى لمسكينٌ إلى الله راغبُ

وإنى امرؤ لا أسأل الناس مالهم   بشعرى ، ولاتعمى علىّ المكاسب

وإنما هذا لمكان الشعر من قلوب العرب ، وسرعة وُلُوجِهِ فى آذانهم ، وتعلقه بأنفسهم .

ومنهم من سمى بلفظة من شعره لشناعتها ، مثل النابغة الذبيانى ــ واسمه زياد ابن عمرو ــ وسمى نابغة لقوله :

* فقَدْ نَبَغَتْ لَنَا مِنْهُمْ شُئُونُ *

---

(١) فى جميع الأصول « من ولد عمر بن عمر » بدون واو ، والتصويب عن الأغانى ، ويدل لصحته قول مسكين يخاطب الفرزدق :

لجئنى بعم مثل عمى أو أب   كمثل أبى ، أو خال صدق كخاليا

كعمرو بن عمرو أو زرارة ذى الندى   أو البشر ، من كل فرعت الروابيا

(٢) يروى « ولمن يعرفنى جد نطق » وبعد هذا البيت قوله :

لا أبيع الناس عرضى إننى   لو أبيع الناس عرضى لنفق

وأما الجعدى ـ واسمه قيس بن عبد الله ـ فإنما نبغ بالشعر بعد أربعين سنة فسمى نابغة لذلك .

وجِرَانُ العَوْدِ، سمى بذلك لقوله :

عمــــدت لعود فالتحيت جِرَانَهُ ... وَلَلْـكَيْسُ خيرٌ فى الأمور وأنجح
خُذَا حَــــذَراً يا خُلّتَىَّ[1] فإننى ... رأيت جران العود قد كادَ يصلح

يخاطب امرأتيه ، وقد تركتاه ونَشَزَتا عليـه ؛ فلزمه هذا الاسم وذهب اسمه كرها .

وكذلك أبو العيال ، لا يعرف له اسم غير هذا ؛ لقوله :

ومن يك مثلى ذا عيال ومقتراً ... من المال؛ يَطْرَحْ نفسه كلَّ مَطْرح
ليبلغ عــــذرا أو يصيب رغيبة ... ومُبْلغ نفسٍ عُذْرَهَا مثلُ مُنْجح

وأمثالهم ممن ذكره المؤلفون لا يحصون كثرة ، وليسوا من هذا الباب فى شىء ؛ لأن غلبة هذه الأسماء عليهم ليست شرفا لهم ولا ضَعَة ، وإنما هى من جهة الشناعة فقط،ولـكن الـكلام [ذو]شجون .

ومن ههنا عظم الشعر ، وتهيب أهله ، خوفاً من بيت سائر تُحْدَى به الإبل ، أو لفظة شاردة يضرب بها المثل ، ورجاء فى مثل ذلك ؛ فقد رفع كثيراً من الناس ما قيل فيهم من الشعر بعد الخمول والاطراح ، حتى افتخروا بما كانوا يعيرون به ووضع جماعة من أهل السوابق والأقدار الشريفةحتى عُيِّروا بما كانوا يفتخرون به.

الأعشى والمحلق

فمن رفعه ما قيل فيه من الشعر بعد الخمول المحاق ، وذلك أن الأعشى قدم مكة وتسامع الناس به ، وكانت للمحلق امرأة عاقلة ـ وقيل : بل أم ـ فقالت له: إن الأعشى قدم ، وهو رجل مُفَوَّه ، مجدود فى الشعر ، ما مدح أحداً إلا رفعه ،

---

(١) فى إحدى روايات الديوان «ياجارتى» تثنية جارة .

ولا هجا أحداً إلا وضعه ، وأنت رجل كما علمت فقير خامل الذكر ذو بنات ، وعندنا لَقْحَةٌ نعيشُ بها ، فلو سبقْتَ الناسَ إليه فدعوتَهُ إلى الضيافة،ونحرتَ له ، واحتلْتُ لك فيما تشترى به شراباً يتعاطاه ؛ لَرَجَوْتُ لك حسن العاقبة ، فسبق إليه المحلق ، فأنزله ونحر له ، ووجد المرأة قد خبزت خبزاً وأخرجت نِحْياً فيه سمن وجاءت بوَطْب لبن ، فلما أكل الأعشى وأصحابه ، وكان فى عصابة قيسية ، قدم إليه الشراب، واشتوى له من كبد الناقة ، وأطعمه من أطايبها ، فلما جرى فيه الشرابُ وأخذت منه الكأس سأله عن حاله وعياله فعرف البؤس فى كلامه ، وذكر البنات ، فقال الأعشى : كفيت أمرهن ، وأصبح بعكاظ ينشد قصيدته :

أرقتُ وما هــذا السهاد المؤرِّقُ وما بِيَ[1] من سُقْمٍ وما بِيَ مَعْشَقُ

ورأى المحلق اجتماع الناس، فوقف يستمع ، وهو لا يدرى أين يريد الأعشى بقوله ، إلى أن سمع :

نفى الذم عن آل المحلّق جَفْنَةٌ كجابية الشيخ العراقِىِّ تفهق[2]
ترى القوم فيها شارعين ، وبينهم مع القوم وِلْدان من النسل دَرْدَقُ
لعمرى لقد لاحت عيون كثيرة إلى ضوء نارٍ باليفاع تحرّقُ
تُشَب لمقرورَين يصطليانها وبات على النار النَّدَى والمحلق
رَضِيعَىْ لبانٍ ثدى أم تحالفا بأسحمَ داجٍ عَوْضُ لا نتفرّقُ
ترى الجودَ يجرى ظاهراً فوق وجهه كما زانَ متنَ الهندوانىِّ رَوْنَقُ

فما أتم القصيدة إلاّ والناس ينسلون إلى المحلق يهنئونه ، والأشراف من كل قبيلة يتسابقون إليه جرياً يخطبون بناته ؛ لمكان شعر الأعشى ، فلم تُمْسِ منهن واحدة إلا فى عصمة رجل أفضَلَ من أبيها ألف ضعف .

---

(١) يروى « أرقت » على الخطاب ، « وما بك » فى الموضعين ، وما أثبتناه رواية الديوان . (٢) يروى « كحابية »

الحطيئة وبنو أنف الناقة

وكذلك بنو أنف الناقة ، كانوا يَفْرَقُونَ من هذا الاسم، حتى إن الرجل منهم يسأل : ممن هو ؟ فيقول : من بنى قريع ، فيتجاوز جعفراً أنف الناقة بن قريع بن عوف بن مالك ويلغى ذكره فراراً من هذا اللقب ، إلى أن نقل الحطيئة ـ واسمه جَرْوَلُ بن أوس ـ أحدُهم وهو بغيض بن عامر بن لؤى بن شماس بن جعفر أنف الناقة من ضيافة الزبرقان بن بدر إلى ضيافته وأحسن إليه فقال :

سيرى أمامُ فإنّ الأكثرين حصىً ... والأكرمين إذا ما يُنْسَبُون أبا
قومٌ هم الأنف ، والأذناب غيرهم ... ومَن يساوى بأنف الناقة الذّنَبا ؟

فصاروا يتطاولون بهذا النسب ويمدون به أصواتهم فى جَهارة .

وإنما سمى جعفر أنف الناقة لأن أباه قسم ناقة جزوراً ونَسِيه ، فبعثته أمه ولم يبق إلا رأس الناقة ، فقال له أبوه : شأنك بهذا ، فأدخل أصابعه فى أنف الناقة وأقبل يجره ، فسمى بذلك .

ومثل هاتين القصتين قصة عرابة الأوسى مع الشماخ ، وقد تقدم ذكرها .

جرير وبنو نمير

وممن وضعه ما قيل فيه من الشعر حتى انكسر نسبه، وسقط عن رتبته، وعيب بفضيلته ـ بنو نُمير ، وكانوا جَمْرة من جَمَرات العرب ، إذا سئل أحدهم : ممن الرجل ؟ فخم لفظه ومدّ صوته وقال : من بنى نمير ، إلى أن صنع جرير قصيدته التى هجا بها عُبَيد بن حُصَين الراعى ، فسهر لها ، وطالت ليلته إلى أن قال :

فغضّ الطرف إنك من نمير ... فلا كعباً بلغتَ ولا كلابا

فأطفأ سراجه ونام ، وقال : قد والله أخزيتهم آخرَ الدهر ، فلم يرفعوا رأساً بعدها إلا نكس بهذا البيت ، حتى إن مولىً لباهلة كان يرد سوق البصرة ممتاراً فيصيح به بنو نمير : يا جُوَاذِبَ[1] باهلة ، فقصّ الخبر على مواليه وقد ضجر من ذلك ، فقالوا له : إذا نبزوك فقل لهم :

فغضّ الطرف إنك من نمير ... فلا كعباً بَلَغْتَ ولا كلابا

(١) الجواذب : شسع النعل ، وكان فى الأصول « ياجوداب » تحريف .

ومر بهم بعد ذلك فنبزوه، وأراد البيت فنسيه، فقال: غَمِّضْ وإلا جاءك ما تكره، فكفوا عنه ولم يعرضوا له بعدها.

ومرت امرأة ببعض مجالس بني نمير فأداموا النظر إليها، فقالت: قبحكم الله يابني نمير! ما قبلتم قول الله عز وجل: (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم) ولا قول الشاعر:

فغضّ الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلابا

وهذه القصيدة تسميها العرب الفاضحة، وقيل: سماها جرير الدمّاغة، تركت بني نمير ينتسبون بالبصرة إلى عامر بن صعصعة، ويتجاوزون أباهم نميراً إلى أبيه، هرباً من ذكر نمير، وفراراً مما وُسِمَ به من الفضيحة والوصمة.

الربيع بن زياد ولبيد

والربيع بن زياد، كان من ندماء النعمان بن المنذر، وكان فحاشاً عياباً بذيًّا سباباً لا يسلم منه أحدٌ ممن يَفِدُ على النعمان، فرُمِيَ بلبيد وهو غلام مراهق فنافسه وقد وضع الطعام بين يدي النعمان، وتقدم الربيع وحده ليأكل معه على عادته، فقام لبيد فقال مرتجلا:

يا رُبَّ هَيْجَا هي خير من دَعَهْ نحن بني أمِّ البنينَ الأربعه

ونحن خير عامر بن صَعْصَعَهْ المطعمون الجفنة المدعدعه

والضاربون الهام تحت الخيضعه مهلا أبيتَ اللعن لا تأكل معه

فقال النعمان: ولمه؟ فقال:

* إنّ أسته منْ بَرَصٍ مُلَمَّعَهْ *

فقال النعمان: وما علينا من ذلك؟ فقال:

* وإنه يولج فيها إصْبَعَهْ *

يولجها حتى يواري أشْجَعَهْ كأنما يطلب شيئاً أوْدَعَهْ

ويروى «أطمعه»(1) فرفع النعمان يده عن الطعام، وقال: ما تقول يا ربيع؟ فقال: أبيتَ اللعن كَذَبَ الغلامُ. فقال لبيد: مره فليجب، فقال النعمان: أجبه

(1) ويروى «ضيعه».

يا ربيع ، فقال : والله لَمَا تَسُومنى أنت من الخَسْف أشدُّ علىّ مما عَضَهنى به الغلام ، فحجبه بعد ذلك ، وسقطت منزلته ، وأراد الاعتذار ، فقال النعمان :

قد قيل ما قيل إنْ حَقًّا وَإنْ كَذِبًا فَمَا اعتذارك من قول إذا قيلا ؟ ؟

النجاشى وبنو العجلان

وبنو العَجْلان ، كانوا يفخرون بهذا الاسم لقصة كانت لصاحبه فى تعجيل قِرَى الأضيافِ ، إلى أن هجاهم به النجاشى فضجِروا منه ، وسُبُّوا به ، واستعدَوْا [عليه] عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فقالوا : يا أمير المؤمنين هجانا ، فقال : وما قال ؟ فأنشدوه :

إذا الله عادى أهل لؤم ورقة فعادى بنى عَجْلان رهطَ ابنِ مُقْبِلِ

فقال عمر بن الخطاب : إنما دعا عليكم ولعله لا يجاب ، فقالوا : إنه قال :

قُبَيِّلَةٌ لا يَغْدِرون بذمة ولا يظلمون الناس حبة خَرْدَلِ

فقال عمر رضى الله عنه : ليتنى من هؤلاء ، أو قال : ليت آل الخطاب كذلك ، أو كلاماً يشبه هذا ، قالوا : فإنه قال :

ولا يَرِدُون المــاء إلاّ عشيةً إذا صدر الوُرَّادُ عن كل مَنْهلِ

فقال عمر : ذلك أقل للسكاك ، يعنى الزحام ، قالوا : فإنه قال :

تَعَافُ الكلابُ الضارياتُ لحومَهُمْ وتأكل من كعب بن عوفٍ ونهشل

فقال عمر : كفى ضياعاً مَن تأكل الكلابُ لحمه ، قالوا : فإنه قال :

وما سمى العَجْلانَ إلا لقولهم خذ القَعْبَ واحلب أيها العبد واعجل

فقال عمر : كلُّنا عبدٌ ، وخيرُ القوم خادِمُهم . فقالوا : يا أمير المؤمنين هجانا ، فقال : ما أسمع ذلك ، فقالوا : فاسأل حسان بن ثابت ، فسأله فقال : ما هجاهم ولكن سَلَح عليهم ، وكان عمر رضى الله عنه أبصر الناس بما قال النجاشى ، ولكن أراد أن يَدْرأ الحد بالشبهات ، فلما قال حسان ما قال سَجَن النجاشىَّ ، وقيل : إنه حَدَّه .

وهذه جملة كافية ، ونبذة مقنعة ، فيما قصدت إليه من هذا الباب .

٥ — باب من قضى له الشعر ومن قضى عليه

الرسول يدعو للنابغة الجعدى

أنشد النابغة الجعدى بين يَدَىْ رسول الله صلى الله عليه وسلم قصيدة يقول فيها :

عَلَوْنَا السماءَ عفَّةً وتكرماً(١) وإنا لنبغى فوق ذلك مَظْهَراً

فغضب النبى صلى الله عليه وسلم ، وقال : أين المظهر يا أبا ليلى ؟ فقال : الجنة بك يا رسول الله ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : أجل إن شاء الله ، فقضت له دعوة النبى صلى الله عليه وسلم بالجنة ، وسبب ذلك شعره .

ويدعو لحسان ابن ثابت

وأنشده حسان بن ثابت حين جاوب عنه أبا سفيان بن الحارث بقوله :

هجَوْتَ محمداً فأجَبْتُ عنه وعند الله فى ذاك الجزاء

فقال له : جزاؤك عند الله الجنة يا حسان ، فلما قال :

فإن أبى ووالدَه وعرضى لعرض محمد منكم وقاء

قال له : وَقَاكَ الله حَرَّ النار ، فقضى له بالجنة مرتين فى ساعة واحدة ، وسبب ذلك شعره .

الأعشى وعلقمة بن علاثة ، وعامر ابن الطفيل

ولما تنافر عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة أقاما عند هَرِم بن قطبة(٢) بن سِنَانٍ سنة لا يقضى لأحدهما على الآخر ، إلى أن قدم الأعشى — وكانت لعامر عنده يَدٌ — فقال :

عَلْقَمَ ما أنت إلى عامر الناقضِ الأوتارِ والواترِ

إنْ تَسُدِ الحوصَ فلم تَعْدُهُمْ وعَامِرٌ ساد بنى عامر

حكمتموه فقَضَى بينكم أزهرُ مثلُ القمر الباهر

(١) يروى « علونا السماء مجدنا وسناؤنا » .

(٢) ويقال « هرم بن قطبة بن سنان » وفى الأصول « سيار » تصحيف .

لا يقبل الرشوةَ في حكمه ولا يبالي غبنَ الخاسر[١]

فرواه الناس ، وافترقوا وقد نفر عامر على علقمة بحكم الأعشى في شعره ، وكان في رأى هَرِم على قول أكثر الناس خلاف ذلك .

وإلى هذا وأشباهه أشار أبو تمام الطائي بقوله في صفة الشعر :

يُرى حكمةً ما فيه وهو فكاهةٌ ويُقْضَى بما يَقْضِى به وهو ظالمُ

أبو دلامة والقاضي ابن أبي ليلى

وكانت لرجل شهادة عند أبي دُلَامَةَ، فدعاه إلى تبليغها عند القاضي ابن أبي لَيْلَى ، فقال له : إن شهادتي لا تنفعك عنده ، فقال الرجل : لا بد من شهادتك، فشهد عند القاضي وانصرف وهو يقول :

إذا الناس غَطَّوْنِي تغطَّيْتُ دونهم وإن بحثوا عني ففيهم مباحث

فقضى القاضي على الخصمِ بشهادة أبي دُلامة ، وقبض المشهودُ له المالَ ، وغرِمه القاضي للمشهود عليه تحرجا من ظلمه ، ويقال : إنما شهد لطبيب عالج ولده من علة به ، وأمره أن يدَّعى على من شاء بألف درهم ، ففعل الطبيبُ وشهد أبو دلامة ، وهذا أشبه بمجونه من الأول .

وذكر العتبي أن رجلا من أهل المدينة ادعى حقا على رجل، فدعاه إلى ابن حنطب قاضي المدينة ، فقال : مَنْ يشهد بما تقول ؟ فقال : زنقطة ، فلما ولى قال القاضي : ما شهادته له إلا كشهادته عليه ، فلما جاء زنقطةُ القاضيَ قال له : فداك أبي وأمي ، أحسن والله الشاعر حيث يقول :

من الحَنْطَبِيِّينَ الذين وجوههم دنانير مما شِيف في أرض قيصرا

---

(١) يروى في البيت الأول * علقم لا لست إلى عامر * وروى في البيت الثاني * سدت بنى الأحوص لم تعدهم * ويروى في البيت الثالث * حكمتموني فقضى بينكم أبلج * ويروى في البيت الرابع * لا يأخذ . . . إلخ .

فأقبل القاضى على الكاتب، فقال: كبير ورب السماء، ما أحسبه شهد إلا بالحق فأجِزْ شهادته.

جرير والحانى الشاعر بين يدى قاضى اليمامة

وخاصَمَ جرير بن الخَطَفَى الحانىَّ الشاعر إلى قاضى اليمامة، فقال فى أبيات رجز بها:

أعوذ بالله العلى القهَّارْ من ظلم حَمَّان وتحويل الدار

فقال الحانى مجيباً له:

مَا لِكُلَيْبٍ مِنْ حِمًى ولا دار غَيْرُ مقام أُتُنٍ وأعيار
* قُبٌّ البطون داميات الأظفار *

ويروى * قعس الظهور داميات الأظفار * فقال جرير: مقام أتنى وأعيارى لا أريد غيره، وقد اعترف به، فقال القاضى: هى لجرير، وقضى على الحانى بشعره الذى قال.

الحسن البصرى يفتى بقول الفرزدق فى شعر له

وكان الفرزدق يجلس إلى الحسن البصرى، فجاءه رجل فقال: يا أبا سعيد، إنا نكون فى هذه البعوث والسرايا فنصيب المرأة من العدو وهى ذات زوج أفتحلُّ لنا من قبل أن يطلقها زوجها؟ فقال الفرزدق: قد قلت أنا مثل هذا فى شعرى، فقال الحسن: وما قلت؟ قال: قلت:

وذاتِ حليلٍ أنكحتنا رماحنا حَلاَلاً لمن يبنى بها لم تطلق

فقال الحسن: صدق، فحكم بظاهر قوله، وما أظن الفرزدق — والله أعلم — أرادَ الجهاد فى العدو المخالف للشريعة، لكن أراد مذهب الجاهلية فى السَّبَايا. كأنه يشير إلى العزة وشدة البأس.

عمر يتعجب من بيت لزهير

وقيل: إن عمر بن الخطاب كان يتعجب من قول زهير:

فإن الحقَّ مَقْطَعُهُ ثلاثٌ أداء أو نفار أو جلاء

وسمى زهير « قاضى الشعراء » بهذا البيت، يقول: لا يقطع الحق إلا الأداء،

أو النفار — وهو الحكومة — أو الجلاء — وهو العذر الواضح — ويروى * يمين أو نفار * وهذه الثلاث على الحقيقة هي مقاطع الحق كما قال ، على أنه جاهليٌّ، وقد وكّدها الإسلام .

٦ — باب شفاعات الشعراء، وتحريضهم

قتيلة بنت النضر تعتب على رسول الله

قال عبد الكريم : عَرَضَتْ قُتَيلة بنت النضر بن الحارث للنبي صلى الله عليه وسلم وهو يطوف ،فاستوقفته وجذبتْ رداءه حتى انكشف منكبه ، وقد كان قتل أباها[1] ، فأنشدته :

يا راكباً أن الأُثَيْلَ مَظِنَّةٌ ... من صُبح خامسة ، وأنت موفق
أبلغ به ميتاً بأن قصيدة ... ما إن تزال بها الركائب تخفق [2]
مني إليه ، وعبرة مسفوحة ... جادت لمائحها وأخرى تخنق [3]
فليسمعنّ النضر إن ناديته ... أم كيف يسمع ميتٌ لا ينطق [4]
ظلتْ سيوفُ بني أبيه تَنُوشُه ... للهِ أرحامٌ هناك تُشَقَّقُ
قسراً يقاد إلى المنية متعباً ... رَسْفَ المقيّدِ وهو عانٍ مُوثَقُ [5]
أمحمدٌ ها أنت نجل نجيبة ... من قومها والفحلُ فحلٌ مُعْرِقُ [6]
ما كان ضرك لو مننتَ ، وربما ... منّ الفتى وهو المغيظ المحنقُ

---

(١) ويقال : إن المقتول أخوها .

(٢) يروى * بأن تحية . . . . النجائب . . . .

(٣) يروى * جادت بدرتها . . . . (٤) البيت يروى هكذا :

هل يسمعن النضر إن ناديته ... إن كان يسمع ميت لا ينطق .

(٥) يروى * صبرا يقاد . . . *

(٦) يروى * ولأنت ضنء نجيبة . . في قومها

والنضر أقربُ مَنْ قَتَلْتَ وسيلةً وأحقهم إن كان عتقٌ يعتقُ[(١)]

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لو كنتُ سمعتُ شعرها هذا ما قتلته.

علقمة يشفع عند الحارث بن أبى شمر

ولما قتل الحارثُ بن أبى شمر الغسانى المنذرَ بن ماء السماء ـ وهو المنذر الأكبر ، وماء السماء أمه ـ أسر جماعة من أصحابه ، وكان فيمن أسر شاس بن عَبَدَةَ فى تسعين رجلا من بنى تميم، و بلغ ذلك أخاه علقمة بن عبدة الشاعر صاحب امرىء القيس ، وهو معروف بعلقمة الفحل ، فقصد الحارث ممتدحاً بقصيدته المشهورة التى أولها :

طَحَا بك قلبٌ بالحسان[(٢)] طَرُوبُ بُعَيْدَ الشباب عَصْرَ حان مشيب

فأنشده إياها ، حتى إذا بلغ إلى قوله :

إلى الحارث الوهاب أعملتُ ناقتى لكَلْكَلِها والقُصْرَيين وَجِيبُ
إليك ـ أبيت اللعن ـ كان وَجيفها[(٣)] بمشتبهات هولهن مَهيب
هدانى إليك الفرقدان وَلاَحِبٌ له فوق أعلام[(٤)] المتانِ علوب
فلا تحرمَنِّى نائلا عن جنايةٍ فإنى امرؤ وسطَ القباب غريب
وفى كل حَىٍّ قد خبطتَ بنعمةٍ فحُقَّ لشاسٍ من نَدَاكَ ذَنوبُ

فقال الحارث : نعم وأَذْنِبَةٌ ، وأطلق له شاساً أخاه ، وجماعةَ أسرى بنى تميم، ومَن سأل فيه أو عَرَفه من غيرهم .

---

(١) يروى « والنضر أقرب من أخذت بزلة »

(٢) فى الديوان « فى الحسان »

(٣) هذه رواية الديوان، وكان فى الأصول « وجيبها »

(٤) فى الديوان « أصواء المتان » وترتيب هذه الأبيات على ماهنا مخالف لموقعها من القصيدة مع أن المؤلف ترك كثيرا من الأبيات بين بعضها وبعض .

أمية بن حرثان يشفع عند عمر بن الخطاب

وكان لأمية بن حُرْثان[(١)] وَلَدٌ اسمه كلاب، هاجر إلى البصرة فى خلافة عمر رضى الله عنه، فقال أمية :

سأستعدى على الفاروق رَبًّا ... له عَمَدَ الحجيج إلى بُسَاقِ[(٢)]

إنِ الفاروق لم يَرْدُدْ كلاباً ... على شيخين هامُهُمَا زَوَاقِ

فكتب عمر إلى أبى موسى الأشعرى بإشخاص كلاب، فما شعر أمية إلا به يقرع الباب.

وما زالت الشعراء قديماً تشفع عند الملوك والأمراء لأبنائها وذوى قرابتها، فيشفعون بشفاعاتهم، وينالون الرتب بهم.

العمانى يشفع عند الرشيد

ودخل العمانى الشاعر — وهو أبو العباس محمد بن ذؤيب الفقيمى — على الرشيد، فأنشده أرجوزة يقول فيها :

قل للامام المقتدى بِأَمِّهِ[(٣)] ... ما قاسمٌ دون مدى ابن أمه

* فقد رضيناه فقمْ فَسَمِّهِ *

فقال الرشيد : ما رضيتَ أن أسميه وأنا قاعد حتى أقوم على رجلى، فقال له: يا أمير المؤمنين، ما أردت قيام جسم لكن قيام عَزْمٍ، فأمر الرشيد بإحضار القاسم

---

(١) أمية بن حرثان بن الأسكر الليثى، من ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة: شاعر مخضرم، أدرك الجاهلية والإسلام، وكان من سادات قومه وفرسانهم، وابنه كلاب أدرك النبى صلى الله عليه وسلم فأسلم مع أبيه.. وكان ابنه قد سأل عمر رضى الله عنه أن يغزيه فأغزاه فى جيش، وكان أبوه قد كبر وضعف، فلما طالت عليه غيبة ابنه قال هذا الشعر.

(٢) فى المطبوعتين «سباق» بتقديم السين، وبساق — بزنة غراب — جبل بعرفات وبلد بالحجاز.

(٣) أمة — بفتح الهمزة وتشديد الميم — قصده، وأراد نهجه وسيرته.

ولده ، ومرّ العمانى فى إنشاده يَهْدِر، فلما فرغ قال الرشيد للقاسم : أما جائزة هذا الشيخ فعليك ، وقد سألَنَا أن نوليك العهد، فأجبناه.

الطائى يشفع عند المعتصم

وشَفَعَ الطائى للواثق عند أبيه المعتصم فى أن يوليه العهد، فقال :

فاشدُدْ بهارونَ الخلافة ؛ إنه ... سَكَنٌ لوحشتها ودارُ قرار
بِفَتًى بنى العباس والقمرِ الذى ... حَفَّتْهُ أنجمُ يَعْرُبٍ ونزارِ
كرمُ العمومة والخئولة مجُّه ... سَلَفَا قريشٍ فيه والأنصار
هو نَوْءُ يمنٍ منكمُ وسعادةٍ ... وسراجُ ليلٍ فيكمُ ونهارِ
فاقمع شياطين النفاق بمهتدٍ ... ترضى البريةُ هَدْيَهُ والبارى
ليسير فى الآفاق سيرة رأفة ... ويسوسها بسكينةٍ ووقار
فالصين منظوم بأندلس إلى ... حيطان روميةٍ فملك ذمار
ولقد علمت بأن ذلك مِعْصَمٌ ... ما كنتَ تتركهُ بغير سوارِ

ويستعطف مالك بن طوق

واستعطف مالكَ بن طوق لقومه بنى تغلب ــ وكانوا أفسدوا فى عمله الطرقَ ، فخافوه واستشفعوا بأبى تمام ــ فقال فى قصيدة مشهورة يخاطب بها مالكا :

ورأيتُ قومك والإساءةُ منهمُ ... جَرْحَى بظُفْرِ الزمان ونابِ
هم صيروا تلكَ البروقَ صواعقًا ... فيهم، وذاكَ العفوَ سوطَ عذاب
فأقِلْ أسامةَ جُرمها ، واصفح لها ... عنه ، وهَبْ ما كان للوهاب
رَفَدوك فى يوم الكُلاب، وشقّقوا ... فيه المزادَ بجحفلٍ كلّاب
وهمُ بعين أباغَ راشوا للوغى ... سَهْمَيْكَ عند الحارث الحرّاب
وليالى الثرثار والحشّاك قد ... جلبوا الجيادَ لواحقَ الأقراب
فمضت كهولُهُمُ ، ودبّرَ أمرَهُمْ ... أحداثُهم تدبيرَ غير صواب
لا رقة الحضَر اللطيف غذتهمُ ... وتباعدوا عن فطنةِ الأعراب

فإذا كشفتهمُ وَجَدْتَ لديهمُ كرمَ النفوس وقلةَ الآداب
لك فى رسول الله أعظمُ أسوة وأجلها فى سنّةٍ وكتاب
أعطى المؤلفةَ القلوبِ رضاهمُ كرماً ، وردّ أخائذَ الأحزاب

فذكر أصحابُ الأخبارِ أن هذه القصيدة وقعت من مالك أجَلَّ موقع فأجزل ثوابه عليها ، وقبل شفاعته ، وردّ القومَ إلى رتبتهم ومنزلتهم ، من بعد اليأس المستحكم ، والعداوة الشديدة .

أبو قابوس يشفع عند الرشيد

وكان أبو قابوس الشاعر رجلا نصرانياً من أهل الحيرة منقطعاً إلى البرامكة، فلما أوقع الرشيد بجعفر صنع أبو قابوس أبياتاً وأنشدها الرشيد يشفع عنده للفضل ابن يحيى :

أمينَ الله هبْ فضل بنَ يحيى لنفسك ، أيها الملك الهمام
وما طلبى إليكَ العفوَ عنه وقد قعد الوشاة به وقاموا
أرى سَبَبَ الرضا عنه قوياً على الله الزيادة والتمام
نذرت علىّ فيه صيامَ شهرٍ فإن تَمّ الرضا وَجَبَ الصيامُ
وهذا جعفر بالجسر تمحو محاسنَ وجههِ ريحٌ قتَام
أما والله لولا خوفُ واشٍ وعينٌ للخليفة لا تنام
لَطُفنا حول جذْعِكَ واستلمنا كما للناس بالحجر استلام
وما أبصرتُ قبلك يا ابن يحيى حُساما قدّه السيفُ الحُسَامُ
عِقَابُ خليفةِ الرحمن فخرٌ لمن بالسيف عاقبه الحمام

وقد اختلط هذا الشعر بشعرين فى وزنه ورويه ومعناه : أحدهما لأشجَعَ السُّلمى ، والآخر لسليمان أخى صريع، فالناس فيه مختلفون، وهذه صحته . فانظر إلى تجاسره على مثل هذا الأمر العظيم من الشفاعة والرثاء .

واستعطف أبو الطيب سيفَ الدولة لبنى كلاب ــ وقد أغار عليهم فغنم الأموال

المتنبي يشفع لبني كلاب عند سيف الدولة

وسَبَى الحريمَ ، وأتى بعضُهم أبا الطيب يسأله أن يذكرهم له في شعره ، ويشفع فيهم ــ فقال في قصيدة له مشهورة يخاطبه :

ترفَّقْ أيها المولى عليهم فإن الرفق بالجاني عتاب
فإنهمُ عبيدُك حيث كانوا إذا تدعو لنائبةٍ أجابوا
وعَيْنُ المخطئين هُمُ ، وليسوا بأول معشر خطئوا فتابوا
وأنت حياتهم غضبت عليهم وهَجْرُ حياتهم لهمُ عقاب
وماجهلتْ أيادِيَكَ البوادي ولكن ربما خفي الصَّواب
وكم ذنبٍ مُوَلِّدُهُ دلالٌ وكم بعدٍ مولِّدُهُ اقتراب
وجرمٍ جرَّه سفهاء قوم وحلَّ بغير جارمهِ العذاب

وهذا من أفعال الشعراء قديم مشهور . وقد افتخر به البحتري فقال في قصيدة له طويلة :

إن أبق أو أهْلِكْ فقد نلتُ التي ملأَتْ صدور أقاربي وعداتي
وغنيت ندمان الخلائف : نابهاً ذكري ، وناعمةً بهم نَشَواتي
وشفعتُ في الأمر الجليل إليهمُ بعد الجليل ، فأنجحوا طلباتي
وصنعتُ في العرب الصنائعَ عندهم من رِفْدِ طلَّاب وفكِّ عُناةِ

بين رسول الله وأبي عزة

وكان أبو عزة كثيراً مايستنفر المشركين، ويحرض قريشاً على قتال النبي صلى الله عليه وسلم ، فأسر يوم بدر ، وجيء به إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فشكا إليه الفقر والعيال ، فرقّ له ، وخلّى سبيله بعد أن عاهَدَهُ ألا يعين عليه بشعره، وأمسك عنه مدة ، ثم عاد إلى حاله الأولى ، فأسر يوم أحد ، فخاطب النبي صلى الله عليه وسلم بمثل خطابه الأول ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لا تمسح عارضيك بمكة تقول خدعت محمداً مرتين » ثم قتله صَبْراً ، وقال : « لا يلسع[1] المؤمن من جحر مرتين » .

(١) يروى « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » والمعنى واحد .

أوس بن حجر يحرض على بنى حنيفة

وقال أوس بن حجر يغرى النعمان بن المنذر ببنى حنيفة ؛ لأن شمر بن عمرو السحيمى قتل المنذر ، وهو حينئذ مع الحارث بن أبى شمر الغسانى ، وقال ابن جنى: إنما قتل ابن النعمان :

نُبِّئْتُ أنَّ بنى حنيفة أدخلوا أبياتهم تامور قلب المنـــذر

ويروى « أن بنى سحيم » فغزاهم النعمان ، وقتل فيهم وسبى، وأحرق نخلهم ، ويقال : إنما أغرى بهم عمرو بن هند .

سديف يحرض السفاح على بنى أمية

ودخل سَديف بن ميمون على أبى العباس السَّفَّاح ، وعنده سليمان بن هشام ابن عبد الملك وأبناه ، وفى رواية أخرى سليمان بن مروان وولدان له ، وفى رواية ثالثة إبراهيم بن سليمان بن عبد الملك ، فأنشده سديف :

لا يَغُرَّنْكَ ما تَرَى من أناس إن بين الضلوع داء دَوِيًّا
فَضَعِ السَّيْفَ وارفع السوط حتى لا تَرَى فوقَ ظهرها أمَوِيًّا

فقال سليمان : قتلتَنِي ياشيخ قاتلك الله . ونهض أبو العباس فوضع المنديل فى عنق سليمان ، وقتل من ساعته .

شبل بن عبد الله يحرض على بنى أمية

ودخل شبل بن عبد الله على عبد الله بن على، وأنشده قصيدة له يقول فيها محرضاً على بنى أمية ، وعنده منهم ثمانون رجلا :

أقْصِهِمْ أيها الخليفة واقْطَعْ عنك بالسيف شأفةَ الأرْجاسِ
ذلها أظهرَ التودُّدَ منها ولها منكم كحزِّ المَوَاسِى
ولقد غاظنى وغاظَ سِوَائى قربُها من نمارقٍ وكَرَاسى
أنزلوها بحيث أنزلها الـلــه بدار الهوان والإتعاس
واذكروا مَصْرعَ الحسين وزيدٍ وقتيــلا بجانب المهراس
والقتيلَ الذى بحرَّانَ أمسى ثاوياً بين غربةٍ وتناسى

فلما سمع بذلك تنكر، وأمر بهم فقتلوا ، وألقى عليهم البساط، وجلس للغداء وإنّ بعضهم يسمع أنينه لم يمت بعد ، حكى ذلك جماعة من المؤلفين ، واختلفوا فى رواية الشعر وحده ؛ فأ كثر الروايات موضع البيت الأول :

لاَ تُقيلَنَّ عبد شمسٍ عِثَاراً   واقْطَعَنْ كل رَقْـلةٍ وأواس

ويروى « وغراس » وبعضها على ما فى النسخة ، ولا أدرى كيف صحة ذلك ، وعبد الله لم يكن يدعى بالخلافة ، اللهم إلا أن يكون ذلك حين أراد خلع المنصور . وأ كثر الناس يروى هذه الأبيات لسديف بن ميمون يخاطب أبا العباس السفاح ، غير أن فى الرواية الأولى :

نعمْ شبل الهراس مولاك شبل   لو نجا من حبائل الإفلاس

وهو يشهد لما روى [أولا] .

العبدى يغرى ببنى أمية

وحكى غيرهم قال : دخل العبدى الشاعر على عبد الله بن على بفلسطين ، وقد دُعِىَ به ، وعنده من بنى أمية اثنان وثمانون رجلا ، والغمر بن يزيد بن عبد الملك جالس معه على مُصَلاّه ، قال العبدى : فاستنشدنى عبدُ الله بن على فأنشدته قولى :

* وَقَفَ المتيّمُ فى رُسُومِ ديارِ *

وهو مُصْغٍ مطرق حتى انتهيت إلى قولى :

أما الدُّعاة إلى الجنان فهاشمٌ   وبنو أمية من دعاة النار

وبنو أمية دوحة[1] ملعونة   وَلِهَاشِمٌ فى الناس عُودُ نُضار

أأُمَىَّ مَالَكِ من قرارٍ فالحقى   بالجنّ صاغرة بأرض وَبَارِ

ولئن رحلتِ لترحَلِنّ ذميمة   وكذا المقام بذِلة وصَغار

قال : فرفع الغمر رأسه إلىّ ، وقال : يابن الزانية مادعاك إلى هذا ؟ وضرب عبدُ الله بقلنسوة كانت على رأسه الأرضَ ، وكانت العلامة بينه وبين أهل

(١) فى نسخة « دولة » .

خراسان ، فوضعوا عليهم العمد حتى ماتوا ، وأمر بالغمر فضربت عنقه صبراً .

الأحوص يغرى بآل ابن حزم

وكان ابن حزم أميراً على المدينة ، فتحامل على الأحوص الشاعر تحاملاً شديداً، فشخص إلى الوليد بن عبد الملك، فأنشده قصيدة يمتدحه فيها ، فلما بلغ إلى قوله كالذى يشتكى ابن حَزم وظلمه :

لاترثينَّ لحزمىٍّ ظفرتَ به   يوماً ولو أُلقِىَ الحزمىُّ فى النار
الناخسين لمروانٍ بذى خشبٍ   والداخلين على عثمان فى الدار

فقال له الوليد : صدقت والله ، لقد غفلنا[1] عن حزم وآل حزم ، ثم كتب عهداً لعثمان بن حيان المرّى على المدينة ، وعزل ابن حزم ، وأمر باستئصال أموالهم، وإسقاطهم جميعاً من الديوان .

ابن الزيات يغرى المأمون بعمه إبراهيم ابن المهدى

ولما وثب إبراهيم بن المهدى على المأمون اقترض من التجار مالًا كثيراً ، فكان فيه لعبد الملك الزيات عشرة آلاف دينار ، فلما لم يتم أمره لَوَى التجار أموالَهم ، فصنع محمد بن عبد الملك قصيدة يخاطب فيها المأمون ، منها قوله :

تَذَكَّرْ أميرَ المؤمنين قيامه   بأيمانه فى الهزل منه وفى الجسد
إذا هزَّ أعوادَ المنابرِ باسته   تَغَنَّى بليلى أو بميَّة أو هند
ووالله ما من تَوْبَةٍ نَزَعَتْ به   إليك، ولا ميل إليك ، ولا وُد
وكيف بمن قد بايع الناس، والتقت   ببيعته الركبانُ غَوْراً إلى نجد ؟!
ومن صكَّ تسليمُ الخلافة سمعَه   ينادى بها بين السماطين عن بعد
وأى امرىء سمّى بها قطُّ نفسه   ففارقها حتى يغيَّب فى اللحد ؟

وعرضها على إبراهيم — وهو حينئذ خامل الذكر لم يتعلق بعدُ بالخدمة تعلقاً ينفع — فسأله [إبراهيم] كتمانها ، واستحلفه على ذلك ، وأدى مال أبيه دون سائر التجار، ومثل ذلك كثير لو تُقُصِّىَ لطال به الكتاب

(١) فى نسخة « شغلنا »

(٧) — باب احتماء القبائل بشعرائها

من مظاهر تمجيد العرب للشعراء

كانت القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها ، وصنعت الأطعمة ، واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر ، كما يصنعون فى الأعراس ، ويتباشر الرجال والولدان ؛ لأنه حماية لأعراضهم ، وذبّ عن أحسابهم ، وتخليد لمآثرهم ، وإشادة بذكرهم . وكانوا لا يهنئون إلا بغلام يولد ، أو شاعر ينبغ فيهم ، أو فرس تنتج :

زياد الأعجم والفرزدق

فممن حمى قبيلته زياد الأعجم ، وذلك أن الفرزدق همّ بهجاء عبد القيس ، فبلغ ذلك زياداً وهو منهم ، فبعث إليه : لا تعجل وأنا مُهْدٍ إليك هدية ، فانتظر الفرزدق الهدية ، فجاءه من عنده :

فما ترك الهاجون لى إنْ هجوته ... مُصَحّاً أراه فى أديم الفرزدق

ولا تركوا عظماً يرى تحت لحمه ... لِكاسِرِهِ أبقــوه للمتعرق

سأكسر ما أبقوا له من عظامه ... وأنكت مخّ الساق منه وأنتقى

فإنّا وما تُهدى لنا إن هجوتنا ... لكالبحر مهما يُلْقَ فى البحر يغرق

فلما بلغته الأبيات كفّ عما أرادَ ، وقال : لا سبيل إلى هجاء هؤلاء ما عاش هذا العبد فيهم .

عبد الله بن الزبعرى وبنو قصى

وهجا عبد الله بن الزِّبعرى السهميُّ بنى قُصَى ، فرفعوه برمته إلى عتبة بن ربيعة ؛ خوفاً من هجاء الزبير بن عبد المطلب ، وكان شاعراً مفلقاً شديد العارضة مُقْذِع الهجاء ، فلما وصل عبدُ الله إليهم أطلقه حمزة بن عبد المطلب وكساه ، فقال:

لعمرك ما جاءت بنُكْرٍ عشيرتى ... وإن صالحت إخوانها لا ألومها

فردّ جُناةَ الشر ؛ إنّ سيوفنا ... بأيمانِنـــا مسلولةٌ لا نَشِيمها

فإن قصيّاً أهل مجـــد وعزّة ... وأهــلُ فَعَال لا يرام قديمها

همُ منعوا يومَىْ عكاظ نساءنا ... كما منع الشولَ الهجانَ قُرُومُها

وكان الزبير غائباً بالطائف ، فلما وصل إلى مكة و بلغه الخبر قال :

فلولا نحن لَمْ يلبس رجالٌ ثيابَ أعِــزَّةٍ حتى يموتوا
ثيابُهم سمـــالٌ أو طِمارٌ بها وَدَكٌ كما دَسِمَ الحَميت
ولـكنّا خلقنــا إذ خلقنا لنا الحبرات والمسك الفَتِيتُ

بنو حرام والفرزدق

وهجا رجل من بنى حرام الفرزدق ، فجاء به قومه يقودونه إليـه ، فقال الفرزدق :

ومن يك خائفاً لأذاةِ شعرى فقــد أمِن الهجاء بنو حَرام
هم قادوا سفيههمُ ، وخافوا قلائدَ مثـلَ أطواق الحمام

الأحوص ورجل من الانصار

وهجا الأحوص بن محمد الأنصارى رجلا من الأنصار يقال له ابن بشير ـ وكان مكثراً ـ فاشترى هدية ، ووفد بها على الفرزدق مستجيراً به ، فأجاره ، ثم قال : أين أنت من الأحوص بن محمد ؟ فقال : هو الذى أشكو ، فأطرق الفرزدق ساعة ثم قال : أليس الذى يقول :

ألاقِفْ برسم الدار فاستنطق الرسْمَا فقد هاج أحزانى وذِكْرِى نُعْمَى

قال : بلى ، قال : والله لا أهجو شاعراً هــذا شعره ، فاشترى ابن بشير أنفسَ من الهدية الأولى وقدم بها على جرير ، فاستجاره فأجاره ، ثم قال له : ما فعل ابن عمك الأحوص بن محمد ؟ قال : هو صاحبى الذى هجانى ، قال : أليس القائل :

تمشى بشتمى فى أكاريس مالك يَشيد به كالكلب إذ ينبح النجما(١)

قال : بلى ، قال : والله لا أهجو شاعراً هذا شعره ، فاشترى أكثر من الهديتين وأهداها إلى الأحوص وصالحه

ولهذا وأمثاله قال جرير لقومه يعاتبهم فى قصيدة خاطب فيها أباه وجده الخَطَفَى ممتناً عليهم بنفسه :

---

(١) الـكرس ـ بكسر الـكاف وسكون الراء ـ الجماعة من أى شىء كان ، ويجمع على أكراس ، وجمع الجمع أكارس وأكاريس .

بأىِّ نِجادٍ تحمل السيف بعدَ ما قطعت القوى من محمل كان باقيا؟
بأىِّ سنان تطعن القِرْنَ بعد ما نزعت سناناً من قَنَاتِكَ ماضيا؟
ألا لا تخافا نَبوتى فى ملمَّة وخافا المنايا أن تَفُوتَكُمَا بيا
فقد كنت ناراً يصطليها عدوكم وحِرْزاً لما ألجأتم من ورائيا
وباسطَ خيرٍ فيكمُ بيمينه وقابضَ شرٍّ عنكمُ بشماليا
وإنى لمَفٌّ الفقْر مشتركُ الغنى سريع إذا لم أرض جارِى انتقاليا
جَرِىءُ الجنان لا أهاب من الردى إذا ما جعلت السيف من عن شماليا
ولَيْسَتْ لسيفى فى العظام بقية وَلاَ السَّيفُ أشْوَى وقعة من لسانيا

وهذا الباب أكثر من أن يستقصى ، ورغبتى فى الاختصار ، وإنما جئت منه ومن سواه بلَمْحَة تدل على المراد ، وتبلغ فى ذلك حدَّ الاجتهاد .

(٨) – باب من فأل الشعر ، وطيرته

تفاءل حسان بن ثابت للنبى صلى الله عليه وسلم بفتح مكة فقال فى كلمته المشهورة يخاطب بذلك مشركى أهل مكة ويتوعدهم : حسان يتفاءل بفتح مكة

عدِمنا خيلنا إن لم تروها تثيرُ النقع موعدها كداء
يُبَارِينَ الأعنَّة مُصْغيات على أكتافها الأَسَلُ الظِّماء
تظل جيادنا مُتَمَطرات يلطمهنَّ بالخُمُرِ النساء[1]

[ورأيت من يستحسن « يلطمهن » من لطمت الخبزة إذا نفضت عنها الرماد] ، فلما كان يوم الفتح أقبل النساء يمسحن وجوه الخيل ، وينفضن الغبار عنها بخمرهن ، فقال قائل : لله در حسان إذ يقول[2] ، وأنشد الأبيات . وروى قوم أن الناس أمروا بالسير إلى كداء تفاؤلا بهذا البيت ليصح ؛ فكان الأمر كما قال .

(١) متمطرات : مسرعات يسبق بعضها بعضا .
(٢) ويروى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « قد صدق الله حسان فى هذا »

كان رسول الله يتفاءل ولا يتطير

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتفاءل ، ولا يتطير ، ويحب الاسم الحسن ، وقال : « ثلاثة لا يسلم منهن أحد : الطِّيَرَة ، والظن ، والحسد » قيل له : فما المخرج منهن يا رسول الله ؟ قال : « إذا تطيرت فلا ترجع ، وإذا ظننت فلا تحقق ، وإذا حسدت فلا تبغ » .

أبو الشمقمق يتفاءل لخالد بن يزيد

ومن مليح ما وقع في التفاؤل ما حكى محمد بن الجراح ، وذلك أن أبا الشمقمق شَخَصَ مع خالد بن يزيد بن مزيد ، وقد تقلَّدَ الموصل ، فلما مر ببعض الدروب اندقَّ اللواء ، فاغتم خالد لذلك وتَطَيّر منه ، فقال أبو الشمقمق :

ما كان مندقُّ اللواء لطيرةٍ تخشى ، ولا سوء يكون معجلا
لكن هذا العودَ أضعف متنه صِغَرُ الولاية فاستقلَّ الموصلاَ

فسُرِّيَ عن خالد ، وكتب صاحبُ البريد بخبر ذلكَ إلى المأمون ، فزاده ديار ربيعة ، وأعطى خالدُ أبا الشمقمق عشرة آلاف درهم .

موسى بن عبد الملك وجماعة من الكتاب

وبغى جماعة من الكتاب على موسى بن عبد الملك ، فأمر المتوكل بحبسه ، قال : فرأيت في النوم قائلا يقول :

أبشر فقد جاءت السعود أباد أعداءكُ المُبيـــدُ
لم يظفروا بالذى أرادوا بل يفعل الله ما يريد

ووقف المتوكل منهم على أمر أوجب إيقاعه بهم ، وأمر بإطلاقي وإعادتي إلى أشرف رتبة .

ولا بد من ذكر ما يتطير منه في باب غير هذا .

مجنون ليلى

وقال قيس المجنون :

قضاها لغيرى وابتلانى بحبها فهلاَّ بشيء غيرِ ليلى ابتلانيا

فما مات حتى بَرِصَ ، ورأى في منامه قائلا يقول له : هذا ما تمنَّيت .

ويقال : إن المؤمل بن أميل لما قال :

المؤمل بن أميل

شفَّ المؤملَ يومَ الحيرةِ النظرُ ليتَ المؤملَ لم يُخْلَقْ له بصرُ

نام ذات ليلة صحيحاً ، فأصبح مكفوف البصر .

أبو الهول وجعفر بن يحيى

وتطيَّر أبو الهول على جعفر بن يحيى البرمكى ، فقال :

أصبحت محتاجاً إلى ضرب فى طلب العُرْفِ من الكلب

إذا شكا صبٌّ إليـه الهوى قال له : مالى وللصب

أعنى فتى يطعن فى ديننا يشبُّ معه خَشَبُ الصَّلْبِ

فكان من أمر جعفر ما كان .

ابن الرومى وتطيره

وكان ابن الرومى كثير الطيرة : ربما أقام المدة الطويلة لا يتصرف تطيراً بسوء ما يراه ويسمعه ، حتى إن بعض إخوانه من الأمراء افتقده فأعلم بحاله فى الطيرة ، فبعث إليه خادِمًا اسمه إقبال ليتفاءل به ، فلما أخذ أهبته للركوب قال للخادم : انصرف إلى مولاك فأنت ناقص ، ومنكوس اسمك لاَ بَقَا ..

وابن الرومى القائل : الفأل لسان الزمان ، والطيرة عنوان الحدثان . وله فيه احتجاجات وشعر كثير .

٩ ــ باب فى منافع الشعر ومضاره

قد أكثر الناس فى هذا الفن ، ولا بد مع ذلك أن آتى منه بنُبَذٍ يقتضيها ترسيم الكتاب وحق التأليف ، وليست علىّ مطالبة ، ولا قِبَلى حجة ، فى ذكر مضاره بعد منافعه أو معها ؛ إذ كانت الرغبة فى تحسين الحسن ليتزيد منه ، وتقبيح القبيح لينتهى عنه .

وقد فرَط فى أول الكتاب من قول عائشة رضى الله عنها وقول سواها من الصحابة ومن التابعين رحمة الله عليهم ورضوانه فى الشعر ما فيه كفاية : من أنه كلام يحسن فيه ما يحسن فى الكلام ، ويقبح منه ما يقبح فى الكلام ، و بقدر حسنه وقبحه يكون نفعه وضرره ، والله المتعال .

المأمون وبيت من شعر عمارة بن عقيل

حكى أبو العباس المبرِّد أن المأمون سمع منشداً ينشد قول عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير :

أأتركُ إن قلّتْ دراهم خالد زيارتَه ؟ إنى إذاً للئيم

فقال : أو قد قَلّتْ دراهم خالد ؟ احملوا إليه مائتى ألف درهم ، فدعا خالد بعمارة ، فقال : هذا مطر من سحابك ، ودفع إليه عشرين ألفا .

المنصور يعفو عن كاتب ببيت من الشعر

ووَجِد أبو جعفر المنصور على أحد الكتاب وأمر به ليضرب ، فقال :

ونحن الكاتبون وقد أسأنا فهبنا للكرام الكاتبينا

فخلى سبيله إعجاباً ببديهته .

يزيد بن معاوية يسوغ قاطع طريق بشعر له رواه

وحمل بعض العمال إلى يزيد بن معاوية مالا جليلا ، فقطع عليه قسيم الغنوى فأخذه ، وأمر يزيد بطلبه ، فلما حصل بين يديه قال : ما حملك على الخروج علينا وأخذ مال يحمل إلينا ؟ قال : إذنُك يا أمير المؤمنين أعزك الله ، قال : ومتى أذنت لك ؟ قال : حين قلت وأنا أسمعك

اِعصِ العواذلَ وارم الليلَ عن عرض

بذى سبيب يقاسى ليله خببا

كالسِّيدِ لم ينقبِ البيطار سرّته ولم يَدِجْه ولم يقطع له لَبَبَا

حتى تُصَادِف مالا أو يقالَ فتى لاقى التى تَشْعَب الفتيانَ فانشعبا

فعصيت عواذلى ، وأسهرت ليلى ، وأعملت جوادى ، فأصبتُ مالا ، قال : قد سوغناكه فلا تعد .

أبو الشمقمق واثنان من عمال يحيى بن خالد

وكان جميل بن محفوظ وأبو دهمان من عمال يحيى بن خالد ، فوفد عليهما مرةً أبو الشمقمق — واسمه مروان بن محمد — فأكرمه أبو دهمان وأساء إليه جميل ، فقال :

رأيت جميلَ الأزد قد عقّ أمه فناك أبو دهمان أمّ جميل

وتناظرا بعد ذلك فى مال بين يدى يحيى بن خالد ، فاستعلى جميل على أبى

دهمان فى الخطاب ، فقال له أبو دهمان : احفظ الصهر الذى جعله بيننا أبو الشمقمق ، فضحك يحيى بن خالد حتى فَحَصَ الأرض برجليه ، وترك المال الذى تشاجرا فيه .

مصعب بن الزبير وأسير من أصحاب المختار

وأتى مصعب بن الزبير بأسارى من أصحاب المختار ، فأمر بقتلهم بين يديه ، فقام إليه أسير منهم فقال : أيها الأمير ، ما أقبحَ بك أن أقوم يوم القيامة إلى صورتك هذه الحسنة ووجهك المليح الذى يستضاء به فأتعلق بك وأقول : يارب ، سَلْ مصعباً فيم قتلنى ، فاستحيا مصعب وأمر بإطلاقه ، فقال : أيها الأمير ، اجعل ما وهبت من حياتى فى خَفْضٍ ودَعَةٍ من العيش ، قال : قد أمرت لك بثلاثين ألف درهم ، قال: أشهدك أيها الأمير أن شَطْر هذا المال لعبد الله بن قيس الرقيات ، قال : ولم ذلك ؟ قال : لقوله :

إنما مُصْعَبٌ شهابٌ من الله تجلّتْ عن وجهه الظلماء

فضحك مصعب وقال : اقبض ما أمرنا لك به ، ولابن قيس عندنا مثله ، فما شعر عبد الله بن قيس إلا وقد وافاه المال .

يزيد بن عبد الملك يطلق الأحوص بسبب بيتين من شعره

وحكى عن ابن شهاب الزهرى قال : دعانى يزيد بن عبد الملك ، وقد مضى شَطْر الليل ، فأتيته فَزِعا وهو على سطح ، فقال : لا بأس عليك اجلس ؛ فجلست واندفعت جاريته حبابة تغنى :

إذا رمْتُ عنها سلوةً قال شافعٌ من الحبّ : ميعاد السلوّ المقابر
ستبقَى لها فى مُضْمَر القلب والحشا سريرةُ حبٍّ يوم تُبلى السرائرُ

قال : لمن هذا الشعر ؟ فقلت : للأحوص ، قال : ما فعل الله به ؟ قلت : محبوس بدَهْلَكٍ ، فكتب من ساعته بإطلاقه ، وأمر له بأر بعمائة دينار ، وقدم إليه فأحسن جائزته .

وممن ضره الشعر — وكل من عند الله عز وجل و بمشيئته ومقدوره —

موت ابن الرومى مسموما

علىّ بن العباس بن جريج الرومى : كان ملازماً لأبى الحسين القاسم بن عبيد الله أبن سليمان بن وهب ، مخصوصاً به ، فاتصل ذلك بعبيد الله وسمع هجاءه ، فقال لولده أبي الحسين : أحب أن أرى ابن روميك هـذا ، فجمع بينهما فرأى رجلا لسانه أطول من عقله ، فأشار عليه بإبعاده ، فقال : أخافه ، قال : لم أرد إقصاء، ولـكن بيت أبى حية النميرى :

فقلنا لها فى السرّ نفديك[1] لا يرح صحيحاً وإلاَّ تقتليه فألمى

فحدَّثَ أبو القاسم ابنَ فراس بمـا كان من أبيه ـ وكان ابن فراس من أشد الناس عداوةً لابن الرومىّ ـ فقال له : أنا أكفيكه ، فسمّ له لوز ينجة فمات ؛ وسبب ذلك كثرة هجائه و بذاءته .

موت دعبل وسببه

ودِعبل بن على الخزاعى : كان هَجّاء للملوك ، جسوراً على أمير المؤمنين ، متحاملا ، لا يبالى ما صنع ، حتى عرف بذلك ، وطار اسمه فيه ، فصنع على لسانه بكر بن حماد التاهرتى ، وقيل : غيره ممن كان دِعبل يؤذيه و يهاجيه :

ملوكُ بنى العباس فى الـكُتب سبعةٌ ولم تأتنا عن ثامنٍ لهمُ كُتُب
كذلك أهل الكهف فى الكهف سبعةٌ كرامٌ إذا عـــدُّوا ، وثامنهم كلب

وقال قوم : بل صنعها دِعبل نفسه ، وكان المعتصم يعرف بالثامن و بالمثمن أيضاً ، فبلغه ذلك ، فأمر بطلبه ، ففرّ منه إلى بلد بالسودان بناحية المغرب ـ وهى التى تعرف الآن بزويلة بنى الخطاب ـ فمات بهـا وهنالك قبره ، وإلى جانبه قبر عبد الله ابن شيخنا أبى عبد الله محمد بن جعفر النحوى رحمه الله ، هكذا يروى أصحابنا . وأما شعر البحترى فيشهد بخلاف هذا ، وذلك أنه رثى دعبلا وأبا تمام حبيباً الطائى فقال فى أبيات هجا فيها الخثعمى الشاعر :

(١) فى نسخة « سراً فديناك »

جدَث على الأهواز يبعد دونه مسرى النعىّ ، ورمةٌ بالموصلِ

فالذى بالموصل أبو تمام حبيب لاشك ؛ لأنه مات بها وهو يتولى البريد للحسن بن وهب ، وكان يعنى به كثيراً ، والآخر دعبل ، ورأيت من يرويه :

شِـلْو بأعلى عَقْرَ قُوفَ تلفّه هوج الرياح ، ورمة بالموصل

والأول أعرف وأشبه بالصواب .

والبة بن الحباب

ووالبة بن الحباب : ذكر أن الرشيد أو غيره سأل مَنِ القائل :

ولهـا ـ ولا ذنبَ لهاـ حُبٌّ كأطراف الرماح

فى القلب يجرح دائبا فالقلب مكلوم النواح

فقال له بعض من حضر من العلماء : ذلك والبة بن الحباب يا أمير المؤمنين ، وأين تذهب عن معرفته ؟ والله ما رأيت أرقَّ منه شعراً ، ولا أطيب نادرة ، ولا أكثر رواية ، ولا أجزل معرفة بأيام العرب منه ، فقال : لم يمنعنى منه إلا بيتا شعر قالهما وهما:

قلت لسـاقينا عـلى خـلوة أدْنِ كذا رأسك من راسيا

ونَمْ على وجهك لى ساعة إنى امرؤ أنكح جـلاسيا

أتحب أن ينكحنا لا أمَّ لك ؟ قال : فنسلت أثوابى عرقا من شدة الحياء .

يزيد بن أم الحكم الثقفى

ويزيد ابن أم الحكم الثقفى : عهد له الحجاج على فارس ، فأتاه يودعه ، فقال له : أنشدنى ، وقدّر أنه يمدحه ، فأنشده :

وأبى الذى سَلَبَ ابن كسرى راية بيضاء تخفق كالعقاب الطائر

فاسترد العهد منه ، وقال لحاجبه : إذا رده عليك فقل له : أوَرّثَكَ أبوك مثل هذا ؟ فقال له الحاجب ذلك ، فقال يزيد : قل للحجاج :

وورثت جدّى مجْدَه وفعاله وورث جدّك أعنزاً بالطائف

الفرزدق مع نصيب وسليمان بن عبد الملك

وبمثل هذا السبب غضب سليمان بن عبد الملك على الفرزدق ، وذلك أنه استنشده لينشده فيه أو فى أبيه ، فأنشده مفتخراً عليه :

وركب كأنَّ الريح تطلب عندهم ... لها تِرَةً من جَذْبها بالعصائب
سروا يخبطون الريح[1] وهىَ تلفهم ... إلى شعب الأكوارذات[2] الحقائب
إذا استوضحوا ناراً يقولون : ليتها ... — وقد خَصِرَتْ أيديهم— نارُ غالبِ

فتبين غضب سليمان ، وكان نصيب حاضراً فأنشده :

أقول لركبٍ قافلين رأيتهم[3] ... قَفَا ذات أو شالٍ[4] ومولاك قارب
قفوا خبرونى عن سليمان ؛ إننى ... لمعروفه من أهــل وَدَّانَ طالب
فعاجُوا فأثنوا بالذى أنت أهله ... ولو سكتوا أثنَتْ عليك الحقائب

فقال : ياغلام ، أعْطِ نصيباً خمسمائة دينار ، وألحق الفرزدق بنار أبيه ، فخرج الفرزدقُ مُغْضَباً يقول:

وخير الشعر أكرمه رجالا ... وشرُّ الشعرِ ما قال العبيد

ممن ضره شعره سديف

ومن ضره الشعر وأهلــكه سديف ؛ فإنه طعن فى دولة بنى العباس بقوله لما خرج محمد بن الحسن بالمدينة على أبى جعفر المنصور فى أبيات له :

إنا لنأملُ أن ترتدَّ ألفتنا ... بعد التباعدِ والشحناء والإِحَنِ
وتنقضى دولةٌ أحكامُ قادتها ... فينا كأحكام قومٍ عابدِى وثَنِ
فانهض ببيعتكم نَنْهَضْ بطاعتنا ... إنّ الخلافة فيــكم يا بنى الحسنِ

(١) فى نسخة « الليل » .
(٢) فى نسخة « من كل جانب » .
(٣) فى معجم ياقوت « قافلين عشية » وفى رواية أخرى « صادر ين لقيتهم »
(٤) أى : رأيتهم خلف ذات أو شال ، وذات أو شال : موضع . وقفاه : جانبه الخلفى ، وهو كما قال الشاعر :

خذا أنف هرشى أوقفاها فإنما ... كلا جانبى هرشى لهن طريق

فكتب المنصور إلى عبد الصمد بن على بأن يدفنه حياً ، ففعل ، ويقال : إن الأبيات لعبد الله بن مصعب نُسِبت إلى سديف وحُمِلت عليه فقتل بسببها ، وذلك أشد

وأحمق الشعراء عندى مَنْ أدخل نفسه فى هذا الباب أو تعرض له ، وما للشاعر والتعرض للحُتُوفِ ؟ وإنما هو طالب فضل ، فلم يضيع رأس ماله ؟ لاسيما وإنما هو رأسه ، وكل شىء يحتمل إلا الطعن فى الدول ، فإن دعت إلى ذلك ضرورة مجحفة فتعصُّبُ المرء لمن هو فى ملكه وتحت سلطانه أصوبُ ، وأعذر له من كل جهة وعلى كل حال ، لا كما فعل سديف .

مقتل المتنبى بسبب بيت من شعره

وأبو الطيب لما فرّ ورأى الغلبة قال له غلامه : لايتحدث الناس عنك بالفرار أبداً وأنت القائل :

الخيلُ والليلُ والبَيْدَاء تعرفنى والطعنُ والضربُ والقرطاس والقلم[1]

فكر راجعاً فقتل ، وكان سبب ذلك هذا البيت ..

حرمان كافور المتنبى الولاية

وكان كافور الإخشيدى قد وعد أبا الطيب بولاية بعض أعماله ، فلما رأى تعاظمه فى شعره وسموه بنفسه خافه ، وعُوتِبَ فيه ، فقال : يا قوم ، من ادعى النبوة مع محمد صلى الله عليه وسلم لا يدعى المملكة مع كافور ؟ ! حَسْبكم .

تنبؤه

وزعم أبو محمد عبد الكريم بن إبراهيم النهشلى أن أبا الطيب إنما سمى متنبئاً لفطنته ، وقال غيره : بل قال : أنا أول من تنبأ بالشعر ، وادعى النبوة فى بنى الفصيص .

والأخبار فى هذا النوع كثيرة جداً ، وإنما جئت بأقربها عهداً ، وأشهرها فى كتب المؤلفين ، مما يليق بالموضع ذكره

---

(١) يروى عجز هذا البيت هكذا

* والسيف والرمح والقرطاس والقلم *

(١٠) — باب تعرض الشعراء

عمرو والنجاشي

كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه عالما بالشعر ، قليل التعرض لأهله : استعداه رَهْطُ تميم بن أُبَيّ [بن] مقبل[1] على النجاشى لما هجاهم ، فأسلم النظر فى أمرهم إلى حسان بن ثابت؛ فراراً من التعرض لأحدهما ، فلما حكم حسان أنفذ عمر حكمه على النجاشى كالمقلد من جهة الصناعة ، ولم يكن حسان — على علمه بالشعر — أبْصَرَ من عمر رضى الله عنه بوجه الحكم ، وإن اعتلّ فيه بما اعتل ، وقد مضت الحكاية[2] .

عمر والحطيئة

وكذلك صنع فى هجاء الحطيئة الزِّبْرِقَانَ بن بدر : سأل حسان ثم قضى على الحطيئة بالسجن ، وقيل : بل سجنه لموافقته إياه وقوله : إن لكل مقام مقالا ، فقال له : أتهددنى ؟ امضوا به إلى السجن ، فسجنه فى حفرة من الأرض .

أبو عبيدة لا يحكم بين الشعراء الأحياء

وسئل أبو عبيدة : أى الرجلين أشعر : أبو نواس ، أم ابن أبى عيينة ؟ فقال : أنا لا أحكم بين الشعراء الأحياء ، فقيل له : سبحان الله كأنّ هذا ما تبين لك ! فقال : أنا ممن لم يتبين له هذا ؟!!!

أول من لقب قريشا سخينة

وقيل : إن أول من لقب قريشاً — على شرفها ، وبعد ذكرها فى العرب — سَخِينة لِحِسَاء كانت تتخذه فى الجاهلية عند اشتداد الزمان خداشُ بن زهير حيث يقول :

يا شدةً ما شَدَدْنا غير كاذبة ... على سخينة لولا الليل والحرَمُ

فذهب ذلك على أفواه الناس ، حتى كان من التمازح به ما كان بين معاوية

(١) أبى — بضم الهمزة ، وفتح الباء ، وتشديد الياء ، كما ذكره البغدادى فى شرح الشاهد الثانى والثلاثين ، وكان فى الأصل « تميم بن أبى مقبل » وتصويبه عن الخزانة ، ويؤكدها عندنا الأبيات التى هجاه بها النجاشى وقد سبقت .

(٢) انظر (ص ٥٢) من هذا الجزء .

ابن أبى سفيان و بين الأحنفِ بن قيس التميمى ، حين قال له : ما الشىء الملفف فى البجاد ؟ فقال له :السخينة يا أمير المؤمنين ، أراد معاوية قول الشاعر:

إذا ما مات مَيْتٌ من تميم   فَسَرّكَ أن يعيش فجىء بزادِ
بخبز أو بلحم[1] أو بتمرٍ   أو الشىء الملفف فى البجاد

يريد وَطْبَ اللبن ، وأراد الأحنف قول خداش بن زهير * ياشدة ما شددنا . . . البيتَ * وحتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لكعب بن مالك الأنصارى: أترى الله نسى قولك ؟ يعنى :

زَعَمت سَخينةُ أن سَتغْلِبُ ربها   وَلَيُغْلَبَنّ مُغالِبُ الغَلّابِ

الأشراف يتجنبون مبازحة الشعراء

ولسير الشعر على الأفواه هـذا المسير تجنّبَ الأشرافُ ممازحة الشاعر خوف لفظة تسمع منه مزحًا فتعود جداً ، كما قال دعبل الخزاعى :

لاتعرضنّ بمزح لامرىء طَبِنٍ   ما راضَهُ قلبهُ أجراه فى الشَّفَةِ
فربّ قافيـــة بالمزح جارية   فى محفل[2] لم يُرَدْ إنماؤها نَمَتِ
إنى إذا قلت بيتاً ماتَ قائلهُ   ومَن يقال له والبيتُ لم يمت

وقال رجل لابن الرومى يمازحه : ما أنت والشعر ؟ لقـد نلتَ منه حظاً جسيا وأنت من العجم ، أراك عربياً فى الأصل أو مدعياً فى الشعر ! قال : بل أنت دعىٌّ ؛ إذ كنت تنتسب عربياً ولم تحسن من ذلك شيئا ، وله يقول من أبيات :

إياكَ يابنَ بُويبٍ   أن يستشارَ بويبُ
قد تحسنُ الروم شعراً   ما أحسنَتْهُ العريبُ

(١) فى نسخة « أو بتمر أو بسمن »
(٢) فى نسخة« مشؤمة »

وهذا مثل قول الصيني[1] الشاعر لبعض الأعراب وقد أنشد عبدَ الله بن طاهر بحضرته شعراً ، فقال له الأعرابي: ممن الرجل ؟ فقال : من العجم ، قال : ما للعجم والشعر ؟ أظن عربياً نَزَا على أمك ، قال : فمن لم يقل منكم الشعر معشر العرب فإنما نزا على أمه أعجمي ! ! فسكت الأعرابي .

للشعراء ألسنة حداد

وأنشد أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ فقال :

وللشعراء ألسنةٌ حـــدادٌ ... على العورات موفيةٌ دلـــيله
ومن عقلِ الـكريم إذا اتَّقَاهُمْ ... وداراهم مداراةً جميله
إذا وَضَعُوا مكاويهم عليه ... ـ وإن كذبوا ـ فليس لهنَّ حيله

والأبيات لأبي الدلهان[2] . . ولأمرٍّما قال طرفة :

رأيت القوافي يَتَّلِجْنَ مَوالجاً ... تَضَايَقُ عنها أن تَوَلَّجها الإبر

وقال امرؤ القيس * وجُرْحُ اللسان كجرح اليد * ومع ذلك كله فلا ينبغي للشاعر أن يكون شَرِساً شديداً ، ولا حرجاً عِرِّيضاً ؛ لما يدل به من طول لسانه وتوقف الناس عن مخاشنته .

فهذا الفرزدق كان شاعر زمانه ورئيس قومه ، لم يكن في جيله أطْرَفُ منه نادرة ، ولا أغرب مدحاً ، ولا أسرع جواباً : اجتاز بنسوة وهو على بغلة فهمزها فخبقت ، فتضاحكن ، وكان عريضا ، فقال : مايضحككن وما حملتني أنثى قط إلا فعلت مثل هـذا ؟ قالت إحداهن : فما صنعت التي حملتك تسعة أشهر ؟ فانصرف خجلا .

ومر به رجل فيه لين ، فقال له : من أين أقبلت عمتنا ؟ فقال : نفاها الأغر ابن عبد العزيز ، فكأن الفرزدق صُبَّ عليه الماء ؛ لأنه عرض له بقول جرير فيه حين نفاه عمر بن عبد العزيز من المدينة :

نفاكَ الأغرُّ بنُ عبد العزيز ... وحَقُّكَ تنفى من المسجد

وكان الفرزدق مرة ينشد ، والكميت صبي ، فأجاد الاستماع إليه ، فقال

(١) كذا ، ولم يستقم لنا .

(٢) لعله «أبو دهمان» والشعر في البيان ١/١٥٩ منسوبا لبعض المولدين من غير تعيين

له : يا بنى أيسرك أنى أبوك ؟ قال : أما أبى فلا أرى به بدلا ، ولكن يسرنى أنك أمى ، فأفحمه حتى غص بريقه ، وزعم قوم أن هذه الحكاية إنما وقعت مع كثير .

الفرزدق ومضرس الفقعسى

ومر يوما بمضرس الفقعسى ، وهو غلام حديث السن ، ينشد الناس شعره فحسده على ما سمعه منه ، فقال له بعد كلام طويل فيه تعريض وتصريح : أدخلت أمك البصرة ؟ وفهم عنه مضرس ما أراد ، فقال : كلا ولكن أبى ! ورجع إلى إنشاده ، فاستحيا الفرزدق ، حكى ذلك شيخنا أبو عبد الله ، و إنما أراد الفرزدق أنها إن دخلت البصرة فقد وقعتُ عليها فأنت ابنى ، قال مضرس : بل أبى وقع على أمك .

الفرزدق والحطيئة

ومثل هذا بعينه عرض للفرزدق مع الحطيئة ؛ فإن الحطيئة قال له وقد سمعه ينشد شعراً أعجبه : أنجدت أمك ؟ قال : بل أنجد أبى ! ! ونظم ذلك جرير ، ونعاه عليه ، وادعى أنه صحيح فقال :

كان الحطيئةُ جارَ أمك مرةً ... واللهُ يعلم شأنَ ذاكَ الجارِ
من ثمّ أنت إلى الزناء بعلة ... بأشر شيخ فى جميع نزارِ
لا تفخرنّ بغالب ومحمد ... وافخر بعَبْسٍ كل يوم فخار

وكان يزعم أن الحطيئة جاور لينة بنت قرطة فأعجبته فراودها فوقع عليها وزوجها أخوها العلاء غالبا أبا الفرزدق وقد تبين حملها فولدت الفرزدق على فراشه .

أبو السمط وعلى بن الجهم

واحتذى هذا الحذو سواء أبو السمط مروان الأصغر بن أبى الجنوب بن مروان بن أبى حفصة فقال يهجو على بن الجهم بن بدر :

لعمرك ما الجهم بنُ بدر بشاعرٍ ... وهذا علىٌّ بعده يصنعُ الشعرا
ولكنْ أبى قد كان جارا لأمه ... فلما تعاطى الشعر أوهمنى أمرا

والشاعر أولى من كفّ منطقه ، وأقال عثرات اللسان ؛ لما رزق من القدرة على الكلام ، والعفو من القادر أحسن ، و به أليق (ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك

ما عليهم من سبيل ؛ إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ، ويبغون فى الأرض بغير الحق ، أولئك لهم عذاب أليم ، ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور) .

(١١) — باب التكسب بالشعر ، والأنَفَةِ منه

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنهاكُم[١] عن قيل وقال ، وعن كثرة السؤال ، وإضاعة المال ، وعقوق الأمهات ، ووأد البنات ، ومنع وهات »..

ما كانت العرب تتكسب بالشعر

وكانت العرب لا تتكسب بالشعر ، وإنما يصنع أحدهم ما يصنعه فكاهة أو مكافأة عن يد لا يستطيع أداء حقها إلا بالشكر إعظاماً لها ، كما قال امرؤ القيس [بن حُجْر] يمدح بنى تيم رهط المعلى :

أقرّ حَشَا امرىء القيس بن حُجْر بنو تَيم مصابيحُ الظلام

لأن المعلى أحسن إليه وأجاره حين طلبه المنذر بن ماء السماء ، لقتله بنى أبيه الذين قتل بدير مرينا ، فقيل لبنى تيم « مصابيح الظلام » من ذلك اليوم لبيت امرىء القيس . وقال [أيضاً] لسعد بن الضباب :

سأجزيك الذى دافعتَ عنى وما يجزيك عنى غيرُ شكرى

فأخبره أن شكره هو الغاية فى مجازاته كما قدمت .

أول المتكسبين النابغة الذبيانى

حتى نشأ النابغة الذبيانى ؛ فمدح الملوك ، وقبل الصِّلَةَ على الشعر ، وخضع للنعمان بن المنذر ، وكان قادراً على الامتناع منه بمن حوله من عشيرته أو من سار إليه من ملوك غسان ، فسقطت منزلته ، وتكسب مالا جسيما ، حتى كان أكله وشربه فى صحاف الذهب والفضة وأوانيه[٢] من عطاء الملوك .

---

(١) فى نسخة « إن الله ينهاكم » .
(٢) فى نسخة « وأوانيها » .

وتكسَّبَ زهير بن أبي سُلمى بالشعر يسيراً مع هَرِم بن سنان.

الأعشى جعل الشعر متجرا

فلما جاء الأعشى جعل الشعر مَتْجَراً يتجر به نحو البلدان ، وقصد حتى ملك العجم فأثابه وأجزل عطيته علماً بقدر ما يقول عند العرب ، واقتداء بهم فيه، على أنَّ شعره لم يحسن عنده حين فُسِّر له ، بل استهجنه واستخفَّ به ، لكن احتذى فعل الملوك ملوك العرب .

وأكثر العلماء يقولون : إنه أول من سأل بشعره ، وقد علمنا أن النابغة أَسَنُّ منه وأقدم شعراً ، وقد ذكر عنه من التكسب بالشعر مع النعمان بن المنذر مع ما فيه [من] قبح : من مجاعلة الحاجب[1] ، ودس الندماء على ذكره بين يديه ، وما أشبه ذلك .

وذكر أن أبا عمرو بن العَلَاء سُئل : لم خضع النابغة للنعمان ؟ فقال : رغب في عطائه وعصافيره .

عمر يتحدث عن زهير

وأما زهير فما بلغه الطائى قط معرفة باجتداء[2] من يمدحه ، ويدلك على ذلك ما قاله عمر بن الخطاب رضى الله عنه لابنة زهير حين سألها : ما فعلت حُلَلُ هَرِم بن سنان التى كساها أباك ؟ قالت : أبلاها الدهر ، قال : لكن ما كساه أبوك هرماً لم يُبْلِهِ الدهر ، وقال [عمر رضى الله عنه] لبعض ولد هرم بن سنان : أنشدنى ما قال فيكم زهير ، فأنشده ، فقال : لقد كان يقول فيكم فيحسن، قال : ياأمير المؤمنين إنا كنا نعطيه فنُجْزِلُ ، قال عمر : ذهب ما أعطيتموه وبقى ما أعطاكم .

الحطيئة أكثر السؤال بالشعر

ثم إن الحطيئة أكثر من السؤال بالشعر ، وانحطاط الهمة فيه ، والإلحاف ، حتى مقت وذَلَّ أهلُه وهلم جرا ، إلى أن حُرِم السائل وعُدم المسئول .

---

(١) فى نسخة «معالجة الحاجب» .
(٢) كذا فى جميع الأصول ، ولم يبن لنا وجهه .

إلاّ بقـــايا من أناس بهمُ إلى سبيل المَكرُماتِ يُهتدى

كالسيد أبي الحسن أحسن الله إلى الدنيا ببقائه .

وأما أكثر من تقدم فالغالب على طباعهم الأَنَفَةُ من السؤال بالشعر ، وقلة التعرض به لما فى أيدى الناس ، إلا فيما لايُزْرِى بقدرٍ ولامروءة كالفلتة النادرة والمهمة العظيمة ، ولهذا قال عمر رضى الله عنه : نعم ما تعلمته العرب الأبيات من الشعر يقدمها الرجل أمام حاجته .

الوليد بن عقبة مع لبيد بن ربيعة

ألا ترى أن لبيد بن ربيعة لما بعث إليه الوليد بن عقبة مائة من الإبل ينحرها كعادته عند هبوب الصبا ، وقد أسنّ وأقلّ[١] ، وكان يطعم الناس ما هبت الصَّبا ، قال لابنته : اشكرِى هذا الرجل فإنى لا أجد نفسى تجيبنى ، ولقد أرانى لا أعْيا بجواب شاعر ، فقالت هذه الأبيات :

إذا هبتْ رياحُ أبى عقيل دَعَوْنا عنـــد هَبَّتها الوليدا

أغرَّ الوجه أبيض عَبْشَمِيًّا أعان على مروءته لبيـــدا

بأمثال الهِضَاب كأنّ رَكبًا عليها من بنى حامٍ قُعُودا

أبا وَهْبٍ جزاك الله خيراً نحرناها وأطعمنـــا الثريدا

فَعُدْ إنَّ الكريم له مَعَادٌ وظَنِّى بابن أروى أن يعودا

وعرضَتْها عليه فقال : لقد أجدتِ لولا أنك استعمدتِ ، كراهية فى قولها : * فَعُدْ إن الكريم له مَعَاد * ويروى : لولا أنك استزدت .

الشعر أعلى أو الخطابة ؟

وقالوا : كان الشاعر فى مبتدأ الأمر أرفع منزلةً من الخطيب ؛ لحاجتهم إلى الشِّعْر فى تخليد المآثر ، وشدة العارضة ، وحماية العشـــيرة ، وتهيبهم عند شاعر غيرهم من القبائل ؛ فلا يقدم عليهم خوفاً من شاعرهم على نفسه وقبيلته ، فلما تكسبوا به وجعلوه طُعْمة وتولوا به الأعراض وتناولوها صارت الخطابة

(١) أقل : صار قليل المـال .

فوقه ، وعلى هذا المنهاج كانوا حتى فشت فيهم الضراعة ، وتطعموا أموال الناس ، وجشعوا فخشعوا ، واطمأنت بهم دارُ الذلة ، إلا من وقر نفسه وقارها، وعرف لها مقدارها ، حتى قبض نقيَّ العرض مَصُونَ الوجه ، ما لم يكن به اضطرار تحـــلُّ به الميتةُ ، فأما مَن وجد البُلغة والكفاف فلا وجه لسؤاله بالشعر .

من كبر نفس ابن ميادة

فقد حكى عن ابن مَيّادة أنه مدح أبا جعفر المنصور بكلمته التي يقول فيها :

فوجدتَ حين لقيت أيمن طائر ... ووليتَ حين وليتَ بالإصلاح

وعفوتَ عن كسر الجناح ولم يكن ... لِتَطِيرَ ناهضـــةٌ بغير جناح

قومٌ إذا جُلبَ الثنـــاء إليهمُ ... بيع الثنـــاء هناك بالأرباح

وأتاه راعى إبله بلبن فشرب ثم مسح على بطنه وقد عزم على الرحلة فقال : سبحان الله أأفد على أمير المؤمنين وهذه الشربة تكفيني ؟!! وصرف وجهه عن قصده ، فلم يَفِدْ عليه ، هذا على أنه ساقة الشعراء ، فأنت ترى كبر نفسه ، و بُعْدَ همته.

صلات الملوك

على أن عبد الله بن عمر على جلالته ، والحسن البصرى ، وعكرمة ، ومالك ابن أنس المدنى وجملة من أهل العلم غير هؤلاء ، كانوا يقبلون صِلاَتِ الملوك .

وقد سئل عثمان بن عفان رضى الله عنه عن مال السلطان ، فقال : لحمُ ظبيٍ زكى

والشعراء فى قبولها مالَ الملوك أعذرُ من المتورّعين وأصحاب الفُتْيا؛ لما جرت به العادة قبل الإسلام وعلى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم و بعده إلى أيام المنصور الذى أنِفَ ابنُ ميادةَ أن يفد عليه .

لم يمدح جميل ابن عبد الله أحدا قط

وهكذا يروى عن جميل بن عبد الله بن معمر أنه ما مدح أحداً قط إلا ذويه وقراباته ، وأنه صحب الوليدَ بن عبد الملك فى سفر ، فكلفه أن يرجز به ، وظن أنه يمدحه ، فأنشأ يقول :

أنا جميـــل فى السنام من مَعَد فى الذّروة العلياء والركن الأشد

فقال له الوليد : اركب لاحملت .

يقال مدح جميل عبد العزيز ابن مروان

وزعم محمد بن ســــلام الجمحى أنه مدح عبد العزيز بن مروان بقوله فى شعره :

أبا مروانَ أنتَ فتى قريش وكهلُهم إذا عُدَّ الـكهولُ

توليه العشـيرةُ ما عنَاهَا فلا ضَيِّقُ الذراع ولا بخيل

كِلاَ يوميه بالمعروف طَلْقٌ وكلٌّ بلائه حسنٌ جميـل

عمر بن أبى ربيعة وابن الأحنف

وعمر [بن عبدالله] بن أبى ربيعة المخزومى ، وكان يُشَبَّه به من المولدين العباسُ ابن الأحنف ، فإنه ممن أنف عن المدح تظرفاً ، وقال فيه مصعب الزبيرى: العباس عمر العراق ، يريد أنه لأهل العراق كعمر بن أبى ربيعة لأهل الحجاز ، استرسالا فى الـكلام ، وأنَفةً عن المدح والهجاء ،واشتهر بذلك ، فلم يكن يكلفه إياه أحد من الملوك ولا الوزراء ، وقد أخذ صلة الرشيد وغيره على حسن التغزل ولطف المقاصد فى التشبيب بالنساء .

وهذا باب قد احتذاه الـكتاب فى زماننا هذا إلا القليل ، وقوم من شعراء وقتنا أنا ذاكرهم فى كتاب غير هذا ، إن شاء الله .

وعلى كل حال فإن الأخذ من الملوك كما فعل النابغة، ومن الرؤساء الجِلّةِ كما فعل زهير؛ سَهْلٌ وخفيف .

فأما الحطيئة فقبح الله همته الساقطة على جـلالة شعره وشرف بيته ، وقد كانت الشعراء ترى الأخذ من دون الملوك عاراً ، فضلا عن العامة وأطراف الناس.

ذو الرمة يهجو ابن أبى حفصة

قال ذو الرمة يهجو مروان بن أبى حَفْصَـة بذلك ، ويفتخر عليه بأنه لا يقبل إلا صلة الملك الأعظم وحده ، هكذا رواه عبد الـكريم وأنشده ابن عبد ربه أيضاً :

عطايا أميرِ المؤمنين ولم تكن مقسمةً من هؤلا وأولائكا
وما نلتَ حتى شِبْتَ إلا عطيةً تقوم بها مصرورةً فى ردائكا

وأنشد له أو لغيره :

وما كان مالى من تراث ورثته ولا دِيَة كانت، ولا كسبِ مأثم
ولكن عطاء الله من كل رحلة إلى كل محجوب السُّرادق خِضْرِمِ

قال صاحب الكتاب[1] : والذى أعرف أن سَلْم بن عمرو الخاسر كتب إلى مروان بن أبى حفصة :

بين سلم الخاسر ومروان بن أبى حفصة

من مبلغ مروان عنى رسالة مُغَلْغَلة لا تنثنى عن لقائكا
حَبَانى أمير المؤمنين بنفحة ثمانين ألفاً طأطأتْ من حِبائكا
ثمانين ألفاً نلت من صلب ماله ولم تك قسماً من أولىٰ وأولائكا

فأجابه مروان عن ذلك فقال :

أسَلْمَ بن عمرو قد تعاطيت خطةً تقصّر عنها بعد طول عنائكا
وإنى لسباق إذا الخيل كُلِّفَتْ مدى مائة أو غايةً فوق ذلكا
فدَعْ سابقاً إن عاودتك عجاجة سنابكه أوْهَيْنَ منك سنابكا
رأيتَ امرأ نال الشُّها فحسدته فلم يبق إلا أن تموت بدائكا
طلبتَ من المهدىِّ شَطْرَ حبائه فقال لك المهدىُّ لست هنالكا
فما أعولت أم على ابن ، ولا بكى على يوسفٍ يعقوبُ مثلَ بكائكا
عضضت على كَفَّيْكَ حتى كأنما رزئت الذى أعطيتُ من صلب مالكا
حسبتَ بأوقار البغال ، وإنما سرابُ الضحى ماتدعى من حبائكا
وما نلتَ حتى شبتَ إلا عطية تقوم بها مصرورة فى ردائكا
وما عبتَ من قَسم الملوك لشاعر به خص عفواً من أولى وأولائكا

---

(١) فى نسخة « أبو على » .

وأقسم لولا ابن الربيع ورِفْدُهُ لما ابتلَّتِ الدلو التي في رِشائِكا

الأنفة من عطاء غير الملوك

ومن قول مروان أيضاً :

ولقد حُبيتُ بألف ألف لم تكن إلا بكفِّ خليفةٍ ووزير
ما زلتُ آنف أن أؤلِّف مدحة إلا لصاحبِ منبر وسرير
ما ضرني حسدُ اللئام ، ولم يزل ذو الفضل يحسده ذوو التقصير

وقال آخر فيما يناسب هذا ويشاكله ، ويشد على يد من تمذهب به أو اعتقده :

وإذا لم يكن من الذل بدٌّ فالق بالذل إن لقيت الكبارا

وافتخر بشار بن برد فقال :

وإنِّي لنهَّاض اليدين إلى العلا قَروعٌ لأبواب الهمام المتوِّج

ويروى « وإني لسوار اليدين » أي : مرتفع .

(١٢) — باب تنقل الشعر في القبائل

كان الشعر في ربيعة

ذكر أبو عبدالله محمد بن سَلَّام الجمحي في كتاب الطبقات ، وغيرُه من المؤلفين ، أن الشعر كان في الجاهلية في ربيعة ، فكان منهم مهلهل بن ربيعة — واسمه عدي ، وقيل : امرؤ القيس — وإنما سمي مهلهلاً لهلهلة شعره ، أي : رقته وخفته ، وقيل : لاختلافه ، وقيل : بل سمي بذلك لقوله :

لما توَقَّلَ في الكُراع شَريدهم هلهلت أثأر جابراً أو صِنْبِلاَ(١)

ويروى * لما توعر في الكلاب هجينهم * قال أبو سعيد الحسن بن الحسين

(١) ويروى :
لما توغل في الكراع هجينهم هلهلت أثأر مالكا أو صنبلا

من أخبار مهلهل بن ربيعة

السكرى : يعنى بقوله « هجينهم » امرأ القيس بن حمام[1] الذى ذكره امرؤ القيس فى شعره حيث يقول :

عُوجاَ على الطلل المحيل لعلنا نبكى الديار كما بكى ابنُ حمام

وكان مهلهل تبعه يوم كُلاَب فقاته ابن حمام بعد أن تناوله مهلهل بالرمح ، وقد كان ابن حمام أغار على بنى تغلب مع زهير بن جَنَاب فقتل جابراً وصنبلا ، ويروى « لأنَّنَا » بمعنى لعلنا ، وهى لغة فيما زعم بعضُ المؤلفين ، والذى كنت أعرف « لعننا » بالعين ونونين ، وكذلك أعرف « ابن حذام » بذال معجمة ، كذا روى الجاحظ وغيره ، ويروى « خذام » بالخاء والذال المعجمتين . وكان مهلهل أول من قَصَّد القصائد ، قال الفرزدق بن غالب :

* ومهلهل الشعراء ذاك الأولُ *

وهو خال امرىء القيس بن حُجْرٍ الكندى الشاعر ، وجد عمرو بن كلثوم الشاعر أبو أمه .

المرقشان

ومنهم المرقَّشَانِ ، والأكبر منهما عم الأصغر ، والأصغر عم طَرَفَةَ بن العبد ، واسم الأكبر عوف بن سعد ، وعمرو بن قَميئة ابنُ أخيه ، ويقال : إنه أخوه ، واسم الأصغر عمرو بن حَرْملة ، وقيل : ربيعة بن سفيان ، وهذا أعرف .

جملة من شعراء ربيعة

ومنهم سعد بن مالك الذى يقول :

يا بؤسَ للحربِ التى وضَعت أراهطَ فاستراحوا

ولا أدرى هل هو أبو عمرو بن قميئة الشاعر والمرقش الأكبر أم لا ؟ ؟
وطرفة بن العبد ، وعمرو بن قميئة[2] ، والحارث بن حِلِّزَة ، والمتلمس — وهو خال طرفة ، واسمه جرير بن عبد المسيح — والأعشى — واسمه ميمون بن

(١) المعروف أنه ابن حذام ، كما ستقف عليه فى كلام المؤلف ، ولعله من تصحيف النساخ فيما اطلع عليه المؤلف من كتاب السكرى (٢) تكرر ذكره .

قيس بن جندل — وخاله المسيب بن علس ـ واسم المسيب زهير ـ

من شعراء قيس

ثم تحول الشعر فى قيس : فنهم النابغتان ، وزهير بن أبى سُلْمى ، وابنه كعب لأنهم ينسبون فى عبد الله بن غطفان ، واسم أبى سُلْمى ربيعة ، ولبيد ، والحطيئة ، والشماخ ـ واسمه معقل بن ضرار ـ وأخوه مزرد ـ واسمه جزء بن ضرار ، وقيل : بل اسمه يزيد وجَزء أخوهما ـ وكان المزرد شريراً يهجو ضيوفه ، وهجا قومه عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

تَعَلَّمْ رسولَ الله أنَّا كأنما ... أفأنا بأنمار ثعالب ذى محل

تعلم رسولَ الله لم أر مثلهم ... أجَرَّ على الأدنى وأحرم للفضل

ومنهم خداش بن زهير .

من شعراء تميم

ثم استقر الشعر فى تميم ، ومنهم كان أوْسُ بن حَجَر شاعر مُضَرَ فى الجاهلية ، لم يتقدمه أحد منهم ، حتى نشأ النابغة وزهير فأخملاه ، وبقى شاعر تميم فى الجاهلية غير مدافع ، وكان الأصمعى يقول : أوس أشعر من زهير ، ولكن النابغة طأطأ منه ، وكان زهير راوية أوس ، وكان أوس زوجَ أمِّ زهير .

أشعر الناس

وسئل حسان بن ثابت رضى الله عنه : من أشعر الناس ؟ فقال : أرجلا أم حيًّا ؟ قيل : بل حيًّا ، قال : أشعر الناس حيًّا هذيل . قال ابن سلام الجمحى : وأشعر هذيل أبو ذؤيب غير مدافع ، وحكى الجمحى قال : أخبرنى عمر بن معاذ المعمرى قال : فى التوراة مكتوب أبو ذُؤَيْب مؤلف زورا ، وكان اسم الشاعر بالسريانية ، فأخبرتُ بذلك بعضَ أصحاب العربية ـ وهو كثير بن إسحاق ـ فأعجب منه وقال : قد بلغنى ذلك ، وقال الأصمعى : قال أبو عمرو بن العَلاَء : أفصح الشعراء لساناً وأعذبهم أهل السروات ، وهن ثلاث وَهى الجبال المطِلّةُ على تهامة مما يلى اليمن : فأولها هذيل ، وَهى تلى السهل من تهامة ، ثم بجيلة [فى] السراة الوسطى ، وَقد شركتهم ثقيف فى ناحية منها ، ثم سراة الأزد أزد شنوءة

وهم بنو الحارث بن كعب بن الحارث بن نَصْر بن الأزد ، وقال أبو عمرو أيضاً : أفصح الناس عليا تميم وسفلى قيس ، وقال أبو زيد : أفصح الناس سافلة العالية وعالية السافلة ، يعنى عَجُزَ هوازن ، قال : ولست أقول « قالت العرب » إلا ما سمعت منهم ، و إلا لم أقل « قالت العرب » . . . وأهل العالية أهل المدينة ومَنْ حولها ومَن يليها ودَنا منها ، ولغتهم ليست بتلك عنده .

منزله اليمن فى الشعر

وقوم يرون تقدمة الشعر لليمن : فى الجاهلية بامرىء القيس ، وفى الإسلام بحسان بن ثابت ،وفى المولّدِينَ بالحسن بن هانىء وأصحابه : مسلم بن الوليد ، وأبى الشِّيص ، ودِعْبِل ، وكلهم من اليمن ، وفى الطبقة التى تليهم بالطائيين : حبيب ، والبحترى ، ويختمون الشعر بأبى الطيب ، وهو خاتمة الشعراء لا مَحَالَةَ ، وكان ينسب فى كِنْدَةَ ، وهى رواية ضعيفة ، و إنما ولد فى كندة بالكوفة فيما حكى ابن جنى ، و إلا فكان غامضَ النسبِ ، فيقولون : بُدِئَ الشعر بكندة ـ يعنون امرأ القيس ـ وختم بكندة ـ يعنون أبا الطيب ـ وزعم بعض المتأخرين أنه جُعْفى ، وقوم منهم الصاحب بن عَبّاد يقولون : بدىء الشعر بملك وختم بملك ، يعنون امرأ القيس وأبا فِراس الحارثَ بن سعيد بن حَمْدان ، وقال آخرون : بل رجع الشعر إلى ربيعة فختم بها كما بدىء بها ، يريدون مهلهلا وأبا فراس ، وأشعر أهل المَدَر بإجماع من الناس واتفاقٍ حسانُ بن ثابت . . . وقال أبو عمرو بن العَلَاء : ختم الشعر بذى الرمة ، والرَّجَزُ برؤبة بن العجاج ، وزعم يونس أن العجاج أشعر أهل الرجز والقصيد ، وقال : إنما هو كلام فأجودهم كلاماً أشعرهم ، والعجاج ليس فى شعره شىء يستطيع أحد أن يقول : لو كان فى مكانه غيره لكان أجود ، وذكر أنه صنع أرجوزته :

* قَدْ جَبَرَ الدِّينَ الإِلَهُ فَجَبَرْ *

فيها نحو مائتى بيت وهى موقوفةٌ مقيدة ، قال : ولو أطلقت قوافيها وساعد فيها

الوزن لكانت منصوبة كلها . . وقال أبو عبيدة : إنما كان الشاعر يقول من الرجز البيتين والثلاثة ونحو ذلك ، إذا حاربَ أو شاتَم أو فاخَر ، حتى كان العجاج أول مَن أطاله وقصَّده ، ونسب فيه ، وذكر الديار ، واستوقف الركاب عليها ، ووصف ما فيها ، وبكى على الشباب ، ووصف الراحلة ، كما فعلت الشعراء بالقصيد فكان فى الرُّجَّاز كامرىء القيس فى الشعراء . . . وقال غيره : أول مَن طول الرجز الأغْلَبُ العِجْلى ، وهو قديم ، وزعم الجمحى وغيره أنه أول مَنْ رَجَز ، ولا أظن ذلك صحيحاً ؛ لأنه إنما كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونحن نجد الرجز أقدمَ من ذلك . . . وكان أبو عبيدة يقول : افتتح الشعر بامرىء القيس ، وختم بابن هَرْمَة ، ولم أر أنقد من الذى قال : أشعر الناس من أنت فى شعره[1] . . . وأنشد مروانَ بن أبى حَفْصة يوماً جماعةٌ من الشعراء ، وهو يقول فىَّ واحد بعد واحد : هذا أشعر الناس ، فلما كثر ذلك عليه قال : الناس أشعر الناس .

١٣ — باب فى القدماء والمحدَثِين

المحدث والمولد

كل قديم من الشعراء فهو مُحْدَثٌ فى زمانه بالإضافة إلى مَنْ كان قبله ، وكان أبو عمرو بن العلاء يقول : لقد أحسن هذا المولد حتى هممتُ أن آمر صبياننا بروايته ، يعنى بذلك شعر جرير والفرزدق ، فجعله مولداً بالإضافة إلى شعر الجاهلية والمخضرمين ، وكان لا يعد الشعر إلا ما كان للمتقدمين .

قال الأصمعى : جلست إليه ثمانى[2] حِجَجٍ فما سمعته يحتج ببيت إسلامى ، وسئل عن المولدين فقال : ما كان من حسن فقد سُبِقوا إليه ، وما كان من

---

(١) كذا (٢) وفى نسخة « عشر حجج » .

قبيح فهو من عندهم ، ليس النمط واحدا : ترى قطعة ديباج ، وقطعة مسيح[(١)] » وقطعة نطع ، هذا مذهب أبي عمرو وأصحابه : كالأصمعى ، وابن الأعرابى ـ أعنى أن كل واحد منهم يذهَبُ فى أهل عصره هذا المذهَبَ ، و يقدم مَنْ قبلهم ـ وليس ذلك الشيء إلا لحاجتهم فى الشعر إلى الشاهد ، وقلة ثقتهم بما يأتى به المولدون ، ثم صارت لجاجة .

فأما ابن قتيبة فقال : لم يَقْصُر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خَصَّ قوماً دون قوم ، بل جعل الله ذلك مشتركا مقسوماً بين عباده فى كل دَهر ، وجعل كل قديم حديثاً فى عصره .

لولا أن الـكلام يعاد لنفد

ومما يؤيد كلام ابن قتيبة كلامُ على رضى الله عنه « لولا أن الـكلام يُعاد لنفِدَ » فليس أحدنا أحق بالـكلام من أحد ، وإنمـا السبق والشرف معا فى المعنى على شرائط نأتى بها فيما بعد من الـكتاب إن شاء الله . وقول عنترة * هَلْ غادر الشعراء من مُتَرَدَّمِ * يدل على أنه يعدُّ نفسه محدثاً ، قد أدرك الشعر بعد أن فرغ الناس منه ولم يغادروا له شيئاً ، وقد أتى فى هذه القصيدة بمـا لم يسبقه إليه متقدم ، ولا نازعه إياه متأخر . وعلى هذا القياس يحمل قول أبى تمام ـ وكان إماما فى هذه الصناعة غير مدافع ـ :

يقولُ مَن تقرع أسماعَه كم تَرَكَ الأول للآخـــــر

فنقض قولهم « ما ترك الأول للآخر شيئاً » وقال فى مكان آخر فزاده بيانا وكشفاً للمراد :

فلو كان يَفْنَى الشعرُ أفناه ما قَرَتْ حياضك منه فى العصورِ الذواهبِ
ولـكنه صوبُ العقول : إذا انجلت سحائب منه أعقبتْ بسحائبِ

---

(١) المسيح : المنديل الخشن ، وكان فى الأصل « مسخ » .

مثل القدماء والمحدثين

وإنما مثل القدماء والمحدثين كمثل رجلين : ابتدأ هذا بناء فأحكمه وأتقنه ، ثم أتى الآخر فنقشه وزينه ، فالكلفة ظاهرة على هذا وإن حسن ، والقدرة ظاهرة على ذلك وإن خشن .

وسمعت القاضي أبا الفضل جعفر بن أحمد النحوى ـ وقد سئل عن ذى الرمة وأبى تمام ـ فأجاب بجواب يقرب معناه من هذا لم أحفظه .

وقال أبو محمد الحسن بن على بن وكيع وقد ذكر أشعار المولدين : إنما تروى لعذوبة ألفاظها ، ورقتها ، وحلاوةُ معانيها ، وقُرْبِ مأخذها ، ولو سلك المتأخرون مسلك المتقدمين في غلبة الغريب على أشعارهم ووصف المَهامه والقفار ، وذكر الوحوش والحشرات ـ ما رويت ؛ لأن المتقدمين أولى بهذه المعانى ، ولا سيما مع زهد الناس فى الأدب فى هذا العصر وما قاربه ، وإنما تكتب أشعارهم لقربها من الأفهام ، وأن الخواصّ فى معرفتها كالعوام ، فقد صار صاحبها بمنزلة صاحب الصوت المطرب : يستميل أُمَّةً من الناس إلى استماعه وإن جهل الألحان وكسر الأوزان . . وقائل الشعر الحُوشِيِّ بمنزلة المغنى الحاذق بالنغم غير المطرب الصوت : يُعرِض عنه إلاَّ مَنْ عرف فضل صنعته ، على أنه إذا وقف على فضل صنعته لم يصلح لمجالس اللذات ، وإنما يجعَل معلماً للمطربات من القَيْنات : يقومهن بحذقه ، ويستمتع بحلوقهن دون حلقه ، ليسلمن من الخطأ فى صناعتهن ، ويطربن بحسن أصواتهن .

وهذا التمثيل الذى مثله ابن وكيع من أحسن ما وقع ، إلا أن أوله من قول أبى نُوَاس :

صفةُ الطلول بلاغـــة القُدْمِ ... فاجعل صفاتك لابنة الـكَرْمِ
لا تُخْدَعَنَّ عن التى جعلت ... سقم الصحيح وصحة السقم
تَصف الطلول على السماع بها ... أفذو العيان كأنت فى الحـكم ؟؟
وإذا وصفت الشىء مُتَّبعا ... لم تَخْلُ من غلط ومن وَهْمِ

قد يصلح فى وقت مالا يصلح فى آخر

ولم أر فى هذا النوع أحسن من فَصْلٍ أتى به عبد الكريم بن إبراهيم فإنه قال : قد تختلف المقامات والأزمنة والبلاد فيحسن فى وقت مالا يحسن فى آخر ، ويستحسن عند أهل بلد مالا يستحسن عند أهل غيره ، ونجد الشعراء الحُذَّاق تقابل كل زمان بما استجيد فيه وكثر استعماله عند أهله ، بعد أن لا تخرج من حسن الاستواء ، وحد الاعتدال ، وجودة الصنعة ، وربما استعملت فى بلد ألفاظ لا تستعمل كثيراً فى غيره : كاستعمال أهل البصرة بعض كلام أهل فارس فى أشعارهم ، ونوادر حكاياتهم ، قال : والذى أختاره أنا التجويد[1] والتحسين الذى يختاره علماء الناس بالشعر ، ويبقى غابره على الدهر ، ويبعد عن الوَحْشِىِّ المستكره ، ويرتفع عن المولد[2] المنتحل ، ويتضمن المثل السائر ، والتشبيه المصيب ، والاستعارة الحسنة .

قال صاحب الكتاب : وأنا أرجو أن أكون باختيار هذا الفصل وإثباته ههنا داخلا فى جملة المميزين ، إن شاء الله ؛ فليس من أتى بلفظ محصور يعرفه طائفة من الناس دون طائفة لا يخرج من بلده ولا يتصرف من مكانه كالذى لفظُه سائرٌ فى كل أرض ، معروف بكل مكان ، وليس التوليد والرقة أن يكون الكلام رقيقاً سَفْسافاً ، ولا بارداً غثاً ، كما ليست الجزالة والفصاحه أن يكون حُوشياً خشناً ، ولا أعرابياً[3] جافياً ، ولكن حالٌ بين حالين . .

بم يتقدم القديم والمحدث ؟

ولم يتقدم امرؤ القيس والنابغة والأعشى إلا بحلاوة الكلام وطلاوته ، مع البعد من السخف والركاكة ، على أنهم لو أغربوا لكان ذلك محمولا عنهم ؛ إذ هو طبع من طباعهم ، فالمولَّد المحدَثُ ــ على هذا ــ إذا صح كان لصاحبه الفضل البين بحسن الاتباع ، ومعرفة الصواب ، مع أنه أرقُّ حَوْكاً ، وأحسن ديباجة .

---

(١) فى الأصلين المطبوعين « التجريد » بالراء المهملة .

(٢) فى نسخة « المؤلف » .

(٣) فى نسخة « ولا غريبا حافيا » .

(١٤) — باب المشاهير من الشعراء

والشعراء أكثر من أن يحاط بهم عدداً ، ومنهم مشاهير قد طارت أسماؤهم ، وسار شعرهم ، وكثر ذكرهم ، حتى غلبوا على سائر مَنْ كان فى أزمانهم ، ولكل أحد منهم طائفة تفضله وتتعصب له ، وقَلَّ ما يجتمع على واحد ، إلا ما روى عن عن النبى صلى الله عليه وسلم فى امرىء القيس « أنه أشعر الشعراء وقائدهم إلى النار » يعنى شعراء الجاهلية والمشركين . قال دِعْبِل بن على الخزاعى : ولا يقود قوماً إلا أميرُهم . . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه للعباس بن عبد المطلب رحمه الله وقد سأله عن الشعراء : امرؤ القيس سابقهم : خَسَفَ لهم عَيْنَ الشعر فافتقر عن معانٍ عُورٍ أصحّ بصر .

سر تقديم امرىء القيس

قال عبد الكريم : « خسف لهم » من الخَسِيفِ وهى البئر التى حفرت فى حجارة فخرج منها ماء كثير ، وجمعها خُسُف ، وقوله « افتقر » أى : فتح ، وهو من الفقير ، وهو فم القَنَاة ، وقوله « عن معان عور » يعنى أن امرأ القيس من اليمن ، وأن اليمن ليست لهم فصاحة نِزَارٍ ، فجعل لهم [معانى] عوراً فتح منها امرؤ القيس أصح بصر . . قال : وامرؤ القيس يمانى النسب ، نزارى الدار والمنشأ ، وفضَّله علىٌّ رضى الله عنه بأن قال : رأيته أحسنهم نادرة ، وأسبقهم بادرة ، وأنه لم يقل لرغبة ولا لرهبة .

وقد قال العلماء بالشعر : إن امرأ القيس لم يتقدم الشعراء لأنه قال مالم يقولوا ، ولكنه سبق إلى أشياء فاستحسنها الشعراء واتبعوه فيها ؛ لأنه قيل أولُ من لطف المعانى ، واستوقف على الطُّلُول ، ووصف النساء بالظباء والمها والبَيْضِ ، وشبه الخيل بالعِقْبَان والعِصِىِّ ، وفرق بين النسيب وما سواه من القصيد ، وقرب مأخذ الكلام ؛ فقيد الأوابد ، وأجاد الاستعارة والتشبيه .

روى الجمحى أن سائلا سأل الفرزدق : مَنْ أشعر الناس ؟ قال :ذو القُرُوح ، قال : حين يقول ماذا ؟ قال : حين يقول :

وَقَاهُمْ جَدُّهم ببنى أبيهم وبالأشقَيْنَ ما كان العقابُ

وأما دعبل فقدمه بقوله فى وصف عقاب :

وَيْلُمِّها من هواء الجو طالبةً ولا كهذا الذى فى الأرضِ مطلوبُ

وهذا عنده أشعر بيت قالته العرب .

أقوال للعلماء فى السابقين من الشعراء

وسئل لبيد : مَنْ أشعر الناس ؟ قال : الملكُ الضِّلِّيل ، قيل : ثم من ؟ قال : الشاب القتيل ، قيل : ثم من ؟ قال : الشيخ أبو عقيل — يعنى نفسه — .

وكان الحذّاق يقولون : الفحول فى الجاهلية ثلاثة ، وفى الإسلام ثلاثة متشابهون : زهير والفرزدق ، والنابغة والأخطل ، والأعشى وجرير .

وكان خَلَفٌ الأحمر يقول : الأعشى أجمعهم . وقال أبو عمرو بن العلاء : مثله مثل البازى يضرب كبير الطير وصغيره . وكان أبو الخطاب الأخفش يقدمه جداً لا يقدمُ عليه أحداً .

وحكى الأصمعى عن ابن أبى طرفة : كفاك من الشعراء أربعة : زهير إذا رغب ، والنابغة إذا رهب ، والأعشى إذا طرب ، وعنترة إذا كلب ، وزاد قوم : وجرير إذا غضب .

وقيل لـكثير — أو لنصيب — : مَنْ أشعر العرب ؟ فقال : امرؤ القيس إذا ركب ، وزهير إذا رغب ، والنابغة إذا رهب ، والأعشى إذا شرب .

وكان أبو بكر رضى الله عنه يقدم النابغة ؛ ويقول : هو أحسنهم شعراً ، وأعذبهم بحراً ، وأبعدهم قعراً .

وسئل الفرزدق مرة : مَنْ أشعر العرب ؟ فقال : بشر بن أبى خازم ؛ قيل له : بماذا ؟ قال بقوله :

ثوى فى مَلْحَدٍ لابد منه كفى بالموت نأياً واغترابا

ثم سئل جرير فقال : بشر بن أبى خازم ، قال : بماذا ؟ قال : بقوله :

رهين بِلىً ، وكلُّ فتى سَيَبْلَى فَشُقِّى الجيب وانتحِبى انتحابا

فاتفقا على بشر بن أبى خازم كما ترى .

المعلقات وأصحابها

وقال محمد بن أبى الخطاب فى كتابه الموسوم بجمهرة أشعار العرب : إن أبا عبيدة قال : أصحاب السبع التى تسمى السمط : امرؤ القيس ، وزهير ، والنابغة ، والأعشى ، ولبيد ، وعمرو بن كلثوم ، وطَرفة . قال : وقال المفضل : مَنْ زعم أن فى السبع التى تسمى السمط لأحد غير هؤلاء فقد أبطل . . فأسقط من أصحاب المعلقات عنترة ، والحارث بن حِلِّزة ، وأثبت الأعشى ، والنابغة.

وكانت المعلقات تسمى المذهبات ، وذلك لأنها اختيرت من سائر الشعر فكتبت فى القباطى بماء الذهب وعُلِّقت على الكعبة ؛ فلذلك يقال : مذهبة فلان، إذا كانت أجود شعره ، ذكر ذلك غيرُ واحد من العلماء ، وقيل : بل كان الملك إذا استجيدت قصيدة الشاعر يقول : علقوا لنا هذه ، لتكون في خزانته .

جرير يتحدث عن أشعر الناس

وقال الجمحيّ في كتابه : سأل عكرمة بن جرير أباه جريراً : مَنْ أشعر الناس ؟ قال : أعن الجاهلية تسألنى أم الإسلام ؟ قال : ما أردت إلا الإسلام فإذ ذكرت الجاهلية فأخبرنى عن أهلها ، قال : زهير شاعرهم ، قال : قلت : فالإسلام ؟ قال : الفرزدق نبعة الشعر فى يده ، قلت : فالأخطل ؟ قال : يجيد مدح الملوك ويصيب صفة الخمر ، قلت : فما تركت لنفسك ؟ قال : دعنى فإنى نحرت الشعر نحرا

وقتيبة ابن سلم

وكتب الحجاج بن يوسف إلى قتيبة بن مسلم يسأله عن أشعر الشعراء فى الجاهلية وأشعر شعراء وقته ، فقال : أشعر شعراء الجاهلية امرؤ القيس ، وأضربهم مثلا طَرَفة ، وأما شعراء الوقت فالفرزدق أفخرهم ، وجرير أهجاهم ، والأخطل أوصفهم .

والحطيئة

وأما الحطيئة فسئل عن أشعر الناس ، فقال : أبو دؤاد حيث يقول :

لا أعدُّ الإقتارَ عُدْماً ، ولكن فَقْدُ مَن قد رُزِئْتُه الإعدام

وهو وإن كان فحلا قديماً وكان امرؤ القيس يتوكأ عليه ويروى شعره فلم يقل فيه أحد من النقاد مقالة الحطيئة .

وسأله ابن عباس مرة أخرى ، فقال : الذى يقول(١) :

ومن يجعَلِ المعروفَ من دونِ عرضه   يَفِرْهُ ، ومن لا يَتَّقِ الشتمَ يُشتم

وليس الذى يقول(١) :

ولستَ بمستبقٍ أخاً لا تلمه   على شعث ، أىُّ الرجالِ المهذب؟

بدونه ، ولـكن الضَّرَاعة أفسدته كما أفســـدت جَرْوَلا ، والله لولا الجشع لـكنت أشعر الماضين ، وأما الباقون فلا شك أنى أشعرهم ، قال ابن عباس : كذلك أنت يا أبا مليكة

أقاويل مختلفة فى أشعر الناس

وزعم ابن أبى الخطاب أن أبا عمرو كان يقول : أشعر الناس أربعة : امرؤ القيس ، والنابغة ، وطَرَفَةُ ، ومهلهل . قال : وقال المفضل : مثل الفرزدق فقال : امرؤ القيس أشعر الناس ، وقال جرير : النابغة أشعر الناس ، وقال الأخطل : الأعشى أشعر الناس ، وقال ابن أحمر : زهير أشعر الناس ، وقال ذو الرمة : لبيد أشعر الناس ، وقال الـكميت : عمرو بن كلثوم أشعر الناس ، وهذا يدلك على اختلاف الأهواء ، وقلة الاتفاق .

وكان ابن أبى إسحاق ــ وهو عالم ، ناقد ، ومتقدم مشهور ــ يقول : أشعر الجاهلية مرقش ، وأشعر الإسلاميين كثير ، وهذا غلو مفرط ، غير أنهم مجمعون على أنه أول من أطال المدح . .

وسأل عبد الملك بن مروان الأخطل : من أشعر الناس ؟ فقال : العبـد العَجْلانى ، يعنى تميم بن [أبى بن] مقبل ، قال : بم ذاك ؟ قال : وجدته فى بطحاء الشعر والشعراء على الحرفين ، قال : أعرف ذلك له كرهاً .

وقيل لنصيب مرة : من أشعر العرب ؟ فقال : أخو تميم ، يعنى علقمة بن

(١) قائل البيت الأول زهير بن أبى سلمى ، وقائل الثانى هو النابغة الذبيانى .

عبدة ، وقيل : أوس بن حجر ، وليس لأحد من الشعراء بعد امرىء القيس ما لزهير والنابغة والأعشى فى النفوس .

والذى أتت به الرواية عن يونس بن حبيب النحوى أن علماء البصرة كانوا يقدمون امرأ القيس ، وأن أهل الكوفة كانوا يقدمون الأعشى ، وأن أهل الحجاز والبادية كانوا يقدمون زهيراً والنابغة ، وكان أهل العالية لايعدلون بالنابغة أحداً ، كما أن أهل الحجاز لايعدلون بزهير أحداً .

رأى عمر فى زهير

وروى ابن سلام يرفعه عن عبد الله بن عباس أنه قال : قال لى عمر بن الخطاب رضى الله عنه : أنشدنى لأشعر شعرائكم ، قلت : مَنْ هو يا أمير المؤمنين؟ قال : زهير ، قلت : ولم كان كذلك ؟ قال : كان لايُعَاظل بين الكلام ، ولا يتتبع حُوشيه ، ولا يمدح الرجل إلا بما فيه ، ثم قال ابن سلام على عقب هذا الكلام : قال أهل النظر : كان زهير أحْصَفَهم شعراً ، وأبعدهم من سخف ، وأجمعهم لكثير من المعانى فى قليل من المنطق ، وأشدهم مبالغة فى المدح .

قال صاحب الكتاب : وإذا قوبل آخر كلام عمر بآخر هذا الكلام تناقض قول المؤلف — أعنى ابن سلام — لأن عمر إنما وصَفَه بالحذق فى صناعته ، والصدق فى مَنْطِقِه ؛ لأنه لايحسن فى صناعة الشعر أن يعطى الرجل فوق حقه من المدح ؛ لئلا يخرج الأمر إلى التنقص والإزراء ، كما أخذ ذلك علي أبى الطيب وغيره آنفاً ، وقد فسد الوقت ، ومات أرباب الصناعة ، فما ظنك والناس ناس والزمان زمان ؟ وسيرد عليك فى مكانه من هذا الكتاب إن شاء الله ، وقد استحسن عمر الصدق لذاته ، ولما فيه من مكارم الأخلاق ، والمبالغةُ بخلاف ما وصف ، ويشهد لقول[1] عمر رضى الله عنه فى زهير أنه

---

(١) فى المطبوعتين « ويشد قول » وهو كما ترى .

لا يمدح الرجل إلا بما فيه استحساناً لصدقه ماجاء به الأثر أن رجلا قال لزهير: إنى سمعتك تقول لهرم:

ولأنت أشْجَعُ من أسامةَ إذ دُعِيَتْ نَزَالِ ولج فى الذُّعر

وأنت لا تكذب فى شعرك، فكيف جعلته أشجع من الأسد؟ فقال: إنى رأيته فتح مدينة وحده، وما رأيت أسداً فتحها قط!! فقد خرج لنفسه طريقاً إلى الصدق، و بعداً عن المبالغة.. والذى أعرف أنا أن البيت المتقدم ذكره لأوس ابن حجر، والحكاية عنه، ومثلها عن عمران بن حِطّان الخارجى لما سألته امرأته كيف قلت:

فهُنَاكَ مَجْزأَةُ بن ثو رٍ كان أشْجَعَ من أسامَهْ

وصدر بيت زهير بن أبى سلمى:

ولنعم حَشْوُ الدرع أنتَ إذا دعيتْ نزالِ ولج فى الذُّعر

إلا أن تكون الأخرى رواية فلا أبعدها؛ لأن زهيراً كان يتوكأ على أوس فى كثير من شعره، وهى رواية الجمحى لا أظن غير ذلك، فأما بيت زهير فى هذا المعنى فهو:

ولأنت أشجع حين تتجه الـــأبطـالُ من لَيْثٍ أبى أجْرِ (١)

وأما النابغة فقال من يحتج له: كان أحسنهم ديباجة شعر، وأكثرهم رَوْنَقَ كلام، وأذهبهم فى فنون الشعر، وأكثرهم طويلة جيدة، ومدحاً، وهجاء، وفخراً، وصفة.

وقال بعض متقدمى العلماء: الأعشى أشعر الأربعة، قيل له: فأين الخبر

---

(١) الليث: الأسد، والأجرى: جمع جرو — بفتح فسكون — وأصله أجرو — بضم الراء — فقلبت الضمة كسرة لتنقلب الواو ياء، ومثله دلو وأدل.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن امرأ القيس بيده لواء الشعراء ؟ فقال : بهذا الخبر صح للأعشى ما قلت ، وذلك أنه ما من حامل لواء إلا على رأسِ أميرٍ ، فامرؤ القيس حامل اللواء ، والأعشى الأمير .

وقالت طائفة من المتعقبين : الشعراء ثلاثة : جاهلى ، و إسلامى ، ومولد ؛ فالجاهلى امرؤ القيس ، والإسلامى ذو الرمة ، والمولد ابن المعتز . وهذا قول من يفضل البديع [و] بخاصة التشبيه[١] على جميع فنون الشعر .

وطائفة أخرى تقول : بل الثلاثة الأعشى والأخطل وأبو نُوَاس . وهذا مذهب أصحاب الخمر وما ناسبها ، ومن يقول بالتصرف وقلة التكلف.

وقال قوم : بل الثلاثة مهلهل وابن أبي ربيعة وعباس بن الأحنف ، وهذا قول من يؤثر الأَنَفَةَ ، وسهولة الكلام ، والقدرة على الصنعة والتجويد فى فن واحد ، ولولا ذلك لكان شيخ الطبع أبو العتاهية مكان عباس . لكن أبا العتاهية تصرف .

وليس فى المولدين أشهر اسما من الحسن أبى نُوَاس ، ثم حبيب والبحترى، ويقال : إنهما أخملا فى زمانهما خمسمائة شاعر كلهم مجيد ، ثم يتبعهما فى الاشتهار ابن الرومى وابن المعتز ، فطار اسم ابن المعتز حتى صار كالحَسَنِ فى المولَّدِينَ وامرىء القيس فى القُدَمَاء ؛ فإن هؤلاء الثلاثة لا يكاد يجهلهم أحد من الناس ، ثم جاء المتنبى فملأ الدنيا وشَغَلَ الناس .

والاشتهار بالشعر أقسام وحدود ، ولولا ذلك لم يكن نصر بن أحمد الخبزرزى أشهر من منصور النمرى وكلثوم العتابى وأبى يعقوب الخريمى وأبى سعيد المخزومى .

وفوق هؤلاء كلهم طبقة فى السن أشهرُهم وأشعرهم بشار بن برد ، وليس يفضل على الحسن مولد سواه ، وكذا روى الجاحظ وغيره من العلماء . . ومن

(١) خص التشبيه بالذكر لأن ابن المعتز كان ذا فوق فيه .

طبقة بشار مروانُ بن أبي حَفْصة ،وأبو دلامة زند بن الجون[١] الأعرابي ، وقيل: زبد ، بالباء معجمة بواحدة ساكنة ومتحركة حكاه المرزباني ، والسيد الحميري، وسَلْم الخاسر ، وأبو العَتاهية ، وجماعة يطول بهم الشرح ليس فيهم مثله .

ومن طبقة أبي نُوَاس العباسُ بن الأحنف ،ومسلم بن الوليد صريع الغواني ، والفضل الرقاشي ، وأبَانُ اللاحقي ، وأبو الشِّيص ، والحسين بن الضحاك الخليع ، ودِعْبِل ، ونظراء هؤلاء ساقتهم دِعبل ليس فيهم نظير أبي نواس .

وأما طبقة حبيب والبحتري وابن المعتز وابن الرومي فطبقة متداركة قد تلاحقوا ، وغطوا على من سواهم ، حتى نسى معهم بقية من أدرك أبا نواس كابن المعذل ، وهو من فحول المحدثين وصدورهم المعدودين ، غَمَره حبيب ذكراً واشتهاراً ، وكأبي هفان أيضاً، أدرك أبا نواس ، ولحق البحتري فستره ، وكذلك الجماز ، وللجماز يقول أبو نواس :

أسقني يابن أذين من سلاف الزرجون

وديك الجن ، وهو شاعر الشام ، لم يذكر مع أبي تمام إلا مجازاً ، وهو أقدم منه ، وقد كان أبو تمام أخذ عنه أمثلةً من شعره يحتذى عليها فسرقها ، ودعبل ما أصاب مع أبي تمام طريقاً على تقدمه في السن والشهرة ، ولم يذكر من أصحاب ابن الرومي وابن المعتز إلا من ذكر بسببهما في مكاتبة أو مناقضة ، وأما أبو الطيب فلم يذكر معه شاعر إلا أبو فراس وحده ، ولولا مكانه من السلطان لأخفاه ، وكان الصنوبري والخبزرزي مقدمين عليه للسن، ثم شقطا عنه ، على أن الصنوبري يسمى حبيباً الأصغر لجودة شعره ، ولقيه مرة بالمصيصة — أو غيرها — فقال له يهزأ به : أنت صاحب بغادين ؟ يريد قصيدته :

شربنا في بغادين على تلك الميادين

(١) في جميع الأصول « زيد » بالياء المثناة من تحت ، وهو خطأ .

لما فيها من المجون والخلاعة ، فقال له الصنوبرى : أنت صاحبُ الطرطبة ؟ يريد قصيدته :

ما أنصف القوم ضَبَّهْ وأمّه الطُّرْطُبّـــــهْ

لما فيها من الركاكة ، ولكل كلام وجهٌ وتأويل ، ومن التمس عيباً وجده ، وقيل : بل قال له : أنت صاحب جاخا ؟ قال : نعم ، قال : أنت شاعر بلدك ، يريد قوله فى صفه الوَعِلِ :

ذاك أمْ أعْصَمٌ كأنْ مِدْرَيَاهُ حين عاجا على القذّالين جاخا[1]

١٥ — باب المقلين من الشعراء ، والمغلبين

ولما كان المشاهير من الشعراء — كما قدمت — أكثر من أن يُحْصَوْا ذكرت من المقلين وأصحاب الواحدة مَنْ وسع ذكره فى هذا الموضع ، ونبهت على بعض المغلّبين منهم ؛ لما تدعو إليه حاجة التأليف ، وتقتضيه عادة التصنيف ، غير مُفَرِّط ولا مُفْرِط ، إن شاء الله .

ذكر جماعة من المقلين

فمن المقلين فى الشعر : طَرَفَةُ بن العبد ، وعَبيد بن الأبرص ، وعلقمةُ بن عَبْدَةَ الفحلُ ، وعَدِيٌّ بن زيد ، وطرفة أفضلُ الناسِ واحـــدة عند العلماء ، وهى المعلقة :

* لخوله أطلالٌ ببُرْقَةِ ثَهْمَدِ *

وله سواها يسير ؛ لأنه قتل صغيراً حول العشرين فيما روى ، وأصَحُّ ما فى ذلك قولُ أخته ترثيه :

عَدَدْنَا له ستاً وعشرين حجة[2] فلما توفاها استوى سيداً ضخما

(١) يقال « جاخ السيل الوادى » أى : اقتلع أجرافه .

(٢) الذى فى ديوان الخرنق أخت طرفة * عددنا له خمساً وعشرين حجة *

فجعنا به لما رجونا إيابه على خيرِ حال لا وليداً ولا قحما

أنشده المبرد ، والقَحْم : المتناهى فى السن . وعبيد بن الأبرص قليل الشعر فى أيدى الناس على قدم ذكره ، وعظم شهرته ، وطول عمره ، ويقال : إنه عاش ثلاثمائة سنة ، وكذلك أبو دُوَاد ، وعبيد الذى أجاب امرأ القيس عن قوله حين قتلت بنو أسد أباه حُجراً :

وأفلتهُنَّ علباء جَريضاً ولو أدركنه صفر الوطاب[1]

فقال له عَبيد وقرعه بقسم من شعره :

فلو أدركت علباء بن قيس قنعت من الغنيمةِ بالإيابِ

لأن امرأ القيس قد كان قال :

وقد طوَّفتُ فى الآفاقِ حتى رضيتُ من الغنيمة بالإياب

وقتل عبيداً النعمان[2] بن المنذر يوم بؤْسه ، وقيل : عمرو بن هند . وعلقمة ابن عبدة حاكم امرأ القيس فى شعره إلى امرأته ، فحكمت عليه لعلقمة ، فطلقها ، وتزوجها علقمة فسمى الفحل لذلك ، وقيل : بل كان فى قومه آخر يسمى علقمة الخصى[3] من ربيعة الجوع .

ولعلقمة الفحل ثلاث قصائد مشهورات إحداهن :

* ذَهَبْتَ من الهجران فى كل مذهب *

ويروى « فى غير مذهب » وفى هذه القصيدة وقع الحكم له على امرىء القيس ، والثانية قوله :

---

(١) أفلتهن : فاتهن ، وعلباء : هو ابن الحارث الكاهلى أحد قتلة حجر أبى امرىء القيس ، وجريضا ـ بالجيم الموحدة ـ هو الغاص بريقه ، وصفر الوطاب : كناية عن انتهاء الأمر وخلو النفس من الحقد (٢) لا ، بل المنذر بن ماء السماء كما سبق ذكره .

(٣) واسم علقمة الآخر : علقمة بن سهل .

* طَحَا بِكَ قَلْبٌ فى الحِسَانِ طَرُوبُ *

والثالثة قوله :

هلْ مَا عَلِمْتَ وَمَا اسْتُودِعْتَ مَكْتُومُ

وأما عدى بن زيد فلقربه من الرِّيفِ وسكناه الحيرة فى حيز النعمان بن المنذر لاَنَتْ ألفاظه فحمل عليه كثير، وإلا فهو مقل، ومشهوراته أربع : قوله :

* أرواحٌ مُوَدِّعٌ أم بكورُ ؟ *

وقوله :

* أتعرفُ رسم الدار من أمِّ معبد؟ *

وقوله :

* ليس شىء على المنون بباقى *(١)

وقوله :

لم أر مثلَ الفتيان فى غِيَرِ الـــأيام ينسَوْنَ ما عواقبها

وقال بعض العلماء ــ أحسبه أبا عمرو ــ : وعدىٌّ فى الشعراء مثل سُهَيْل فى النجوم : يعارضها ولا يجرى معها . هؤلاء أشعارهم كثيرة فى ذاتها ، قليلة فى أيدى الناس ، ذهبت بذهاب الرواة الذين يحملونها .

ومن المقلين المحكمين سلامة بن جندل ، وحصين بن الحمام المرى ، والمتلمس، والمسيب بن علَس : كل أشعارهم قليل فى ذاته جيد الجملة .

---

(١) فى المطبوعتين « من المنون بباقى » وهو واضح الخطأ ، والتصويب عن عدة كتب ، وتمام البيت :

* غير وجه المسبح الخلاق *

ويروى عن أبي عبيدة أنه قال : اتفقوا على أن أشعر المقلين في الجاهلية ثلاثة: المتلمس ، والمسيب بن علَس ، وحُصَين بن الحُمَام المرى ، وأما أصحاب الواحدة فطَرَفَة أولهم عند الجمحى، وهو الحكم الصواب.

ومنهم عنترة ، والحارث بن حِلِّزَة ، وعمرو بن كلثوم ، من أصحاب المعلقات المشهورات ، وعمرو بن معدى كرب ، صاحب :

* أمِنْ رَيْحَانَةَ الداعى السميعُ *

والأسعر[1] بن أبي حمران الجعفي صاحب المقصورة :

* هل بان قلبك من سليمى فاشتفى ؟*

وسُوَيد[2] بن أبي كاهل، صاحب :

* بَسَطَتْ رابعةُ الحبلَ لنا *

والأسود بن يَعْفُر ، صاحب :

* نام الخلىُّ فما أحسُّ رقادى *

وله شعر كثير ، إلا أنه لا ينتهى إلى قصيدته هذه .

وكان امرؤ القيس مُقِلاً ، كثير المعانى والتصرف، لا يصح له إلا نيف وعشرون شعراً بين طويل وقطعة ، ولا ترى شاعراً يكاد يُفْلِتُ من حبائله ، وهذه زيادة فى فضله وتقديمه .

---

(١) كان فى الأصول « الأشعر بن حمدان » وهو خطأ من ثلاثة أوجه : الأول أنه « الأسعر » بالسين مهملة ، والثانى أن اسم أبيه « أبو حمران » بتقديم الأب وبالراء مهملة ، والتصويب عن القاموس وشرحه ، والأسعر لقبه ، واسمه مرثد ، وإنما لقب بذلك لقوله :

فلا تدعنى الأقوام من آل مالك إذا أنا لم أسعر عليهم وأثقب

(٢) فى الأصول «وسهيل » وهو واضح الخطأ .

معنى المغلب فى الشعراء

وأما المغلبون فمنهم نابغة بنى جَعْدَة ، ومعنى المغلب : الذى لا يزال مغلوباً . قال امرؤ القيس :

فإنَّكَ لم يَفْخَرْ عليكَ كَفاخرٍ ضعيف ، ولم يغلبك مثلُ مغلَّبِ

يعنى أنه إذا قدر لم يُبْق، فإذا قالوا : غَلَبَ فلان فهو الغالب . وقد غلبَ على

النابغة الجعدى

الجعدى أوسُ بن مَغْرَاء القريعى ، وغُلِّبَتْ عليه ليلى الأخيلية ، قال[1] الجمحى : وقد غلب عليه مَنْ لم يكن إليه فى الشعر ولا قريباً منه : عقال بن خويلد[2] العقيلى وكان مفحماً بكلام لا بشعر ، وهجاهُ سوّار بن أوفى القشيرى ، وهاجاه وفاخرهُ[3] الأخطل ، وله يقول عُبَيد بن حُصَين الراعى يتوعده :

فإنى زعيمٌ أن أقولَ قصيدةً مبينةً كالنقب بين المخارم

خفيفةَ أعجازِ المطىِّ ، ثقيـــلة على قربها ، نزَّالةً بالمواسم

وقد علم الكافة ما صنع جرير بالأخطل والراعى جميعاً ، وقيل : إن موت الجعدى كان بسبب ليلى الأخيلية : فر من بين يديها فمات فى الطريق مسافراً ، والأصح أنها هى التى ماتت فى طلبه . قال الجمحى : كان النابغة الجعدى أقدم من الذبيانى ؛ لأنه أدرك المنذر بن مُحَرِّق ، ويشهد بذلك قوله :

تذكرتُ والذكرى تهيج على الفتى ومن عادةِ المحزونِ أن يتذكرا

نداماى عنــد المنذرِ بن محرِّق فأصبحَ منهم ظاهرُ الأرضِ مقفرا

والذبيانى إنما أدرك النعمان ، وقال غيره : إن النابغة الذبيانى شفع عنـد

---

(١) انظر طبقات الشعراء (ص ٤٤)

(٢) فى الطبقات « بن خالد »

(٣) فى الطبقات : « وهجاه سوار بن أوفى القشيرى وفاخره، وهجاه الأخطل بأخرة » ، ولعل ما فى الأصل محرف عن ذلك .

الحارث بن أبى شمر الغسانى حين قتل المنذر فى أسارى بنى أسد فشفعه ، وإياه عنى علقمة بن عبدة بقوله :

وفى كل حيّ قد خَبَطْتَ بنعمة فحق لشاسٍ من نَدَاكَ ذَنُوبُ

قال الجمحى : وكان الجَعْدِيُّ مختلف الشعر ، سئل عنه الفرزدق فقال : مَثَلُه مثل صاحب الخُلْقَان : ترى عنده ثوب عصب ، وثوب خز ، وإلى جنبه شملة(١) كساء . وكان الأصمعى يمدحه بهذا ، وينسبه إلى قلة التكلف ، فيقول : عنده خمار بِوَافٍ ، ومُطْرَف بآلاف ــ بواف : يعنى بدرهم وثلث .

من المغلبين الزبرقان بن بدر

ومن المغلبين الزبرقان ، غلبه عمرو بن الأهتم ، وغلبه المخبل السعدى ، وغلبهُ الحطيئة ، وقد أجاب الاثنين ولم يجب الحطيئة .

وقال يونس بن حبيب : كان البعيث مغلباً فى الشعر ، غلاباً فى الخطب .

ذكر جماعة من المغلبين

ومنهم تميم بن أبى [بن] مقبل : هجاه النجاشى فقهره وغلب عليه ، حتى استعدى قومُه عمرَ بن الخطاب رضى الله عنه ، ولم يكن من أشكاله فى الشعر فيقرن به ، وهاجى النجاشىُّ عبد الرحمن بن حسان فغلبه عبدُ الرحمن وأفحمه .

وحدثنا أبو عبد الله محمد بن جعفر ، قال : هجا الأعور بن براء بنى كعب ، ومدح قومه بنى كلاب ، فأتت بنو كعب تميم بن أبى [بن] مقبل ينتصرون عليه به ، فقال : لا أهجوهم ، ولكنى أقول فارووا فقد جاءكم الشعر ، وقال :

ولستُ وإن شاحنتُ بعضَ عشيرتى لأذكُرَ ما الكهلُ الكلابىُّ ذاكرُ

فكم لىَ من أمّ لعبتُ بثديها كلابيّةٍ عادتْ عليها الأواصرُ

فأتت الأعور بن براء بنو كعب فعنفوه ورجعوا عليه ، فقال :

ولستُ بشاتمٍ كعباً ، ولكن على كعبٍ وشاعرِها السلامُ

---

(١) فى الطبقات « سمل كساء » .

ولستُ ببائعٍ قوماً بقـــومٍ هم الأنفُ المقدَّم والسنامُ
وكائنْ فى المعاشر من قَبيل أخوهم فوقهم وهُمُ كرام

فتسالما ، وكان سبب ذلك إغضاء ابن مقبل وإعطاؤه المَقَادة هرباً من الهجاء ، وقوم يرون ذلك منه أنفة .

جماعة من مغلبى المولدين

ومن مغلبي المولدين ـ على جلالته ، وتقدمه ـ بشار بن برد ، فإن حماد عجرد ـ وليس من رجاله ، ولا أكفائه ـ هجاه فأبكاه ، ومَثّل به أشد تمثيل .

وعلى بن الجهم : هاجى أبا السِّمْطِ مَروان بن أبي الجنوب فغلبه مروان ، وهاجاه البحترى فغلب عليه أيضاً ، على أن علياً أقذع منه لساناً ، وأسبق إلى ما يريده من ذلك ، وأقدم سناً .

ومنهم حبيب : هاجى السراج وعتبة(١) فما أتى بشيء ، وهجاه ابن المعذَّل حين أراد وجهته فقال : أما هذا فقد كفى ناحيته ، ولم يقدم عليه ، على أن حبيباً أطول منه ذكراً وأبعد صوتاً فى الشعر ، والذى قال له :

أنتَ بين اثنتين ، تبرز للنا س لكلتيهما بوجه مذال
لستَ تنفكُّ طالباً لوصال من حبيب أو راغباً فى نوال
أىُّ ماء لحرّ وجهك يبقى بين ذلِّ الهوى وذلِّ السؤال ؟

ورأيت فى شعر ابن المعذل فى رواية المبرد أن عبد الصمد اجتمع بحبيب عند بعض بنى هاشم ، فكتب فى رقعة هذه الأبيات المذكورة وألقاها إليه ، وهاجى دعبلا فاستطال عليه دعبل أيضاً .

---

(١) كان أبو تمام يهجو عبد الله الكاتب ، وعتبة بن أبي عاصم ، ومقران المباركى ، وعياش بن لهيعة ، وأبا الغيث موسى بن إبراهيم الرافقى ، ويوسف السراج .

(١٦) — باب من رغب من الشعراء عن ملاحاة غير الأكفاء

الزبرقان ابن بدر

منهم الزِّبْرِقانُ بن بدر : لمَّا هجاه المُخَبَّلُ السَّعْدِيُّ جاوبه بعتاب ؛ لأنه رآه أهلا لذلك من أجل شرف بيته وجلالته فى نفسه ، فلما هجاه الحطيئة لم يره مكافئًا للجواب ، على أنه ابن عمه وجاره فى النسب لأنهما جميعاً من مضر ، بل استعدى عليه عمر رضى الله عنه فأنصفه .

سحيم بن وثيل

وسُحيم بن وَثيل يقول للأحوص والأبيرد بن[1] المعذِّر — وهما شاعران مفلقان ، وقال عبد الكريم : الأبيرد ابن أخى الأحوص:

عَذَرْتُ البُزْلَ إن هى خاطَرَتْنِي ... فما بالى وبالُ ابْنَىْ لَبُونِ !

فأنت ترى هذا الاحتقار .

الفرزدق وعمر بن لجأ

ومثل هذا ــ و إن لم يكن من هذا الباب بحتاً ــ قولُ الفرزدق لعمر بن لجأ لما أعانه الفرزدق على جرير بشعر ، وفطن له جرير ، فدهش عمر ولم يجد جواباً، فقال الفرزدق حين بلغه ذلك يستضعفه و يستوهن عز

وما أنتَ إن قَرْمَا تميمٍ تساميا ... أخا اليتم إلا كالوشيظة فى العظم

فلو كُنْتَ مولى العزِّ أوفى ظلابه ... ظلمتَ ولكن لايدىْ لك بالظلم

الفرزدق والطرماح

والفرزدق قال فيه الطرماح من شعر هجا فيه بيوتَ بنى سعد[2] :

واسأل فقيرة بالمرّوت هل شهدت ... شوطَ الحطيئة بين الكسر والنضَدِ

أو كانَ فى غالب شعر فيشبهَهُ ... شِعْرُ ابنه فينال الشعر من صدد

جاءتْ به نطفةٌ من شرِّ ماءِ صرى ... سيقت إلى شر واد شقّ فى بلد

---

(١) فى المطبوعتين « ابنى المعذر » وهو واضح الخطأ ؛ فإن الأحوص هو أبو محمد الأحوص بن عبد الله بن ثابت بن أبى الأقلح ، من بنى ضبيعة بن زيد ثم من الأوس . والأبيرد : هو الأبيرد بن المعذر بن عبد قيس الرياحى ، من رياح بن يربوع ، ويظهر أن المؤلف يقصد إلى ما اعتبرناه خطأ ولكنه بحيث ترى

(٢) فى التونسية : « بيوت معد »

فقال الفرزدق يتهاون بأمره و يستحقره :

إن الطرمّاح يهجونى لأرفعـهُ أيهات أيهات عيلت دونه القضب

« عيلت دونه القضب » أى : رفعت عنه القصائد ، من قولهم : عالت الفريضة ، أى : ارتفعت ، والقضيب : القصيدة لأنها تقتضب .

جرير وبشار

وجرير هجاه بشار بن برد بأشعار كثيرة فلم يجبه ، قال بشار : ولم أهجه لأغلبه ، ولـكن ليجيبنى فأكون من طبقته ، ولو هجانى لـكنت أشعر الناس .

بشار وحماد

وهجا حمادُ عجرد بشاراً ، فلم يجبه أنفةً واحتقاراً ، إلى أن قال فيه :

له مقلةٌ عمياء واستٌ بصـــــيرةٌ إلى الأير ، من تحتِ الثياب تُشـيرُ

على ودّه أنّ الحمـــــير تنيكه وأن جميع العالمينَ حمـــيرُ

فغضب وهجاه . قال الجاحظ : ما كان ينبغى لبشار أن يضاد حماد عجرد من جهة الشعر ؛ لأن حماداً فى الحضيض و بشاراً فى العَيُّوق ، وليس مولد قروى يعدله شعر فى المحدث إلا و بشار أشعر منه ، ولا نعلم مولداً بعد بشار أشعر من أبى نواس .

ابن الرومى والبحترى

وهجا ابن الرومى البحترى ، وابن الرومى من علمت ، فأهدى إليه تخت متاع وكيس دراهم ، وكتب إليه ليريه أن الهدية ليست تَقِيَّةً منه، ولـكن رقة عليه، وأنه لم يحمله على ما فعل إلا الفقر والحسد المفرط :

شاعرٌ لا أهابه نَبَحَتْنى كلابه

إنّ مَنْ لا أُعِزُّه لَعزيزٌ جوابه

أبو تمام ومخلد بن بكار

وأبو تمام : هجاه دعبل وغيره من الأكفاء فجاوبهم ، وابتدأ بعضهم ، ولم يلتفت إلى مخلد بن بكار الموصلى حين قال فيه (وكانت فى حبيب حبسة شديدة إذا تكلم) :

يا نبيَّ الله فى الشعـــر ويا عيسى بنَ مريم
أنت من أشعرِ خلقِ الله مالم تتكلم

وقال فيه أشعاراً كثيرة منها :

أُنظرْ إليـهِ وإلى خبثهِ كيف تطايا وهو منشور
ويحك من دلاَّك فى نسبة قلبك منها الدهرَ مذعور
إن ذكرت طابه على فرسخ أظلم فى ناظرك النـــور

بل رآه دون المهاجاة والجواب ، ولو هجاه لشرفت حالُه ونَبَهُ[1] ذكره .

المتنبى وابن حجاج

وكذلك فعل المتنبى حين بلى بحماقات ابن حجاج البغدادى : سكت عنه اطِّراحاً واحتقاراً ، ولو أجابه لما كان بحيث هو من الأنفة والكبر ؛ لأنه ليس من أنداده ، ولا من طبقته .

ابن هانى وشعراء إفريقية

ولما وصل أبو القاسم بن هانىء إلى إفريقية هجاهُ الشعراء ، فقال : لا أجيب منهم أحداً إلا أن يهجونى علىّ التونسى فإنى أجيبه ، فلما بلغ قوله علياً قال : أما إنى لو كنت ألأم الناس ما هجوته بعد أن شرفنى على أصحابى وجعلنى من بينهم كفئًا له .

ومن الشعراء من يتزيّا بالكبر ، ويظهر الأنفة فى الجواب عن هجاء من هو مثله أو فوقه خوفًا من الزِّرَاية على نفسه ، كما وقع من جماعة أعرفهم من أهل عصرنا ، وهم يتسرّعون إلى أعراض السوقة والباعة ، ويستفحلون على الصبيان ومَنْ ليس من أهـل الصناعة ، ولو كانت لهم أنفة — كما يزعمون — إلا عن الأكفاء لـكانوا عمن لا يحسن شيئًا بالجملة ولا يُعدُّ فى الخاصة أشدَّ تنزهاً .

من الشعراء من لا يهجو

ومنهم من لا يهجو كفئًا ولا غيره ؛ لما فى الهجو من سوء الأثر ، وقبح

(١) فى المصريتين والتونسية « وانتبه ذكره »

السمعة : كالذى يحكى عن العجاج أنه قيل له : لم لا تهجو ؟ فقال : ولم أهجو ؟ إن لنا أحسابا تمنعنا من أن نُظلَمَ ، وأحلاما تمنعنا من أن نَظْلِمَ ، وهل رأيتم بانياً لا يحسن أن يَهْدِم ؟ ثم قال : أتعلمون أنى أحسن أن أمدح ؟ قالوا : نعم ، قال : أفلا أحسن أن أجعل مكان « أصلحك الله » « قبحك الله » ومكان « حياك الله » « أخزاك الله » . وقد رد ابن قتيبة هذا القول على العجاج بأن الهجاء أيضاً بناء ، وليس كل بانٍ لضرب بانياً لغيره . ورده الجاحظ بأن من الشعراء من لا يجيد فناً من الشعر ، وإن أجاد فناً غيره ، كما يوجد ذلك فى كل صناعة . ومعنى الجاحظ وابن قتيبة واحد ، وإن اختلف اللفظان ، والصواب ما قالا إلا أن يُعرف من الشاعر أَنَفٌ عن قدرة لا تدفع ، وبعد تجربة لا تُستراب ، فحينئذ . وسئل نصيب عن مثل ذلك فقال : إنما الناس أحد ثلاثة : رجل لم أعرض لسؤاله فما وجه ذمه ، ورجل سألته فأعطانى فالمدح أولى به من الهجاء ، ورجل سألته فحرمنى فأنا بالهجاء أولى منه ، وهذا كلام عاقل منصف ، لو أخذ به الشعراء أنفسهم لاستراحوا واستراح الناس .

وقد كان فى زماننا من انتحل هذا المذهب ، وهو أبو محمد عبد الكريم ابن إبراهيم ، لم يَهْجُ أحداً قط . ومن أناشيده فى كتابه المشهور ، لغيره[1] من الشعراء :

ولستُ بهاجٍ فى القِرَى أهلَ منزلٍ ... على زادِهم أبكى وأُبكى البواكيا
فإما كرامٌ مُوسِرُونَ أتيتهم ... فحسبىَ مِن ذو عندهم ما كفانيا
وإما كرامٌ معسرونَ عذرتهم ... وإما لئـامٌ فادَّخَرْتُ حيائيا

وهذا مثل كلام نصيب فى المنثور الذى تقدم ، وإنما ذكرت هؤلاء لأنهم

---

(١) الأبيات لمنظور بن سحيم الفقعسى والبيت الثانى من شواهد النحاة على مجىء « ذو » موصولة بمعنى الذى ، وأنها مبنية ، وليست معربة كذى بمعنى صاحب التى من الأسماء الخمسة .

يمدحون ولا يرضون بالهجاء ، وأما مَنْ لا يمدح فأحْرَى أن لا يهجو أحداً ، على أن منهم من لم يقل قَطُّ إلا هجواً أو شبيهاً به : كيحيى بن نوفل ، ذكره دِعْبِلٌ فى طبقاته ، ونجدُ له من أهل عصرنا نُظَراء عِدَّة .

(١٧) — باب فى الشعراء والشعر

طبقات الشعراء أربع

طبقات الشعراء أربع : جاهلى قديم ، ومُخَضْرَمٌ ، وهو الذى أدرك الجاهلية والإسلام ، وإسلامى ، ومُحْدَث . ثم صار المحدَثون طبقات : أولى وثانية على التدريج ، وهكذا فى الهبوط إلى وقتنا هـذا ، فليعلم المتأخر مقدار ما بقى له من الشعر فيتصفح بمقدار من قبله لينظر كم بين المخضرم والجاهلى ، وبين الإسلامى والمُخَضْرَم ، وأن المحدَث الأول ــ فضلا عمن دونه ــ دونهم فى المنزلة ، على أنه أغْمَضُ مسلــكا وأرقُّ حاشية ، فإذا رأى أنه ساقة الساقة تحفظ على نفسه ، وعلم من أين يُؤْتَى ، ولم تَغْرُرْهُ حلاوة لفظه ، ولا رشاقة معناه ، ففى الجاهلية والإسلام من ذهب بكل حلاوة ورشاقة ، وسبق إلى كل طلاوة ولباقة .

اشتقاق المخضرم

قال أبو الحسن الأخفش : يقال : ماء خِضْرِمٌ ، إذا تناهى فى الـكثرة والسَّعَة ، فمنه سمى الرجل الذى شهد الجاهلية والإسلامَ مُخَضْرَماً ، كأنه استوفى الأمرين ، قال : ويقال : أذُنٌ مُخَضْرَمةٌ ، إذا كانت مقطوعة ، فكأنه انقطع عن الجاهلية إلى الاسلام .

وحكى ابن قتيبة عن عبد الرحمن[1] عن عمه ، قال : أسلم قوم فى الجاهلية علىَ إبل قطعوا آذانها ، فسمى كل من أدرك الجاهلية والإسلام مُخَضْرَماً ، وزعم أنه لا يكون مخضرماً حتى يكون إسلامه بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم وقد أدركه كبيراً ولم يُسْلِمْ ، وهذا عندى خطأ ؛ لأن النابغة الجعدى ولبيداً قد وقع عليهما هذا الاسم ، وأما علىٌّ بن الحسين كراع فقد حكى : شاعر محضرم ــ بحاء

(١) عبد الرحمن : هو ابن أخى الأصمعى ، فعمه الأصمعى .

غير معجمة ــ مأخوذ من الحضرمة ، وهي الخلط ؛ لأنه خلط الجاهلية بالإسلام .

الشعراء أربعة

وأنشد بعض العلماء ولم يذكر قائله[1] :

الشعراء فاعْلَمَنَّ أرْبَعَــهْ فشاعرٌ لا يُرتجى لمنفعه

وشاعرٌ يُنْشِد وسط المجمعه وشاعر آخر لا يجرى معه

وشاعر يقالُ خمر فى دعه

وهكذا رويتها عن أبي محمد عبد العزيز بن أبي سهل رحمه الله ، وبعض الناس يرويها على خلاف هذا .

وقد قيل : لا يزال المرء مستوراً وفي مَنْدُوحة ما لم يصنع شعراً أو يؤلف كتاباً ؛ لأن شعره تَرْجُمان علمه ، وتأليفه عنوان عقله .

وقال الجاحظ: من صنع شعراً أو وضع كتاباً فقد استهدف ؛ فإن أحْسَنَ فقد استعطف ، وإن أساء فقد استقذف .

قال حسان [بن ثابت] ، وما أدراك ما هو ؟ :

أشعر بيت

وإن أشعرَ بيتٍ أنت قائله بيتٌ يقال إذا أنشدته : صَدَقَا

وإنما الشعر لبّ المرء يعرضه على المجالس إن كيساً وإن حمقا

وقال محمد بن مُنَاذر وكان إماماً :

لا تقلْ شعــرا ولا تَهْمُمْ به وإذا ما قلت شعــراً فأجِدْ

وقال شيطان الشعراء دعبل بن علي :

سأقضي ببيت يَحمد الناسُ أمره ويَكثرُ من أهل الروايات حامِلُهْ

يموت رَدِئُ الشعر من قبل أهله وَجَيِّدُه يبقى وإن مات قائله

بيان الشعراء الأربعة

وقالوا : الشعراء أربعة : شاعر خِنْذيذ ، وهو الذي يجمع إلى جودة شعره رواية الجيد من شعر غيره ، وسئل رؤبة عن الفحولة ، قال : هم الرواة ؛ وشاعر

(١) تنسب هذه الأبيات للحطيئة .

مُفْلِق ، وهو الذى لا رواية له إلاّ أنه مجوِّد كالخنذيذ فى شعره ؛ وشاعر فقط ، وهو فوق الردىء بدرجـــة ؛ وشُعْرُورٌ ، وهو لا شىء . قال بعض الشعراء لآخر هجاه :

يا رابع الشعراء كيف هَجَوْتَنِي وزعمتَ أنى مُفْحَمٌ لا أنطق

وقيل : بل هم شاعرُ مفلقٌ ، وشاعرُ مطلقٌ ، وشُوَيعرٌ ، وشـعرورٌ ، والمفلقُ : هو الذى يأتى فى شعره بالفَلَقِ ، وهو العجب ، وقيل : الفَلَق الداهية

قال(١) الأصمعى : فالشويعر مثل محمد بن حمران بن أبى حمران ، سماه بذلك امرؤ القيس ، ومثل عبد العزّى المعروف بالشويعر ، وهو الذى يقول :

فَنلتُ به ثأرى ، وأدركت ثورتى إذا ما تناسى ذَحْلَهُ كل غيهب

وهو الضعيف عن طلب ثأره ، وروى بالغين معجمة وبالعين غير معجمة .

قال(٢) الجاحظ : والشوَيعر أيضاً [صفوان بن(٣)] عبد ياليل من بنى سعد ابن ليث ، وقيل : اسمه ربيعة بن عثمان ، وهو القائل :

وأفلتنا أبو ليـــلى طفيلٌ صحيحَ الجلدِ من أثر السلاح

وقال بعضهم : شاعر ، وشويعر ، وشعرور .

وقال العبدى فى شاعر يدعى المفوف من بنى ضبة ثم من بنى حَميس :

ألا تنهى سَراةُ بنى حَميسٍ شُوَيْعِرَها فُوَيْلِيةَ الأفاعى

فسماه شويعراً ، و«فالية الأفاعى» : دويبة فوق الخنفساء ، فصغرها أيضاً تحقيراً له

وزعم الحاتمى أن النابغة سئل : مَنْ أشعر الناس ؟ فقال : من استُجيدَ جيده ، وأضحك رديئه ، وهـــذا كلام يستحيل مثله عن النابغة ؛ لأنه إذا

(١ ، ٢) انظر هذه العبارة بنفسها فى البيان والتبيين (ج ١ ص ٩) .

(٣) الزيادة عن البيان والتبيين .

أضحك رديئهُ كان من سِفْلَةِ الشعراء ، إلا أن يكون ذلك فى الهجاء خاصة ، وقال الحطيئة :

الشعرُ صَعْبٌ وطَوِيل سُلّمه والشعرُ لا يسطيعه من يظْلِمهُ
إذا ارتقى فيــه الذى لا يعلمه زلتْ به إلى الحضيض قَدَمهْ
يريد أن يعربه فيعجمه

بم سمى الشاعر شاعرا ؟

و إنما سمى الشاعر شاعراً ؛ لأنه يَشْعُرُ بما لا يشعر به[1] غيره ، فإذا لم يكن عند الشاعر توليدُ معنى ولا اختراعه ، أو استظراف لفظ وابتداعه ، أو زيادة فيما أجحف فيه غيره من المعانى ، أو نقص مما أطاله سواه من الألفاظ ، أو صَرْف معنى إلى وجه عن وجه آخر ؛ كان اسم الشاعر عليه مجازاً لا حقيقة ، ولم يكن له إلا فضل الوزن ، وليس بفضل عندى مع التقصير..

ولقى رجل آخر فقال له : إن الشعراء ثلاثة : شاعر ، وشويعر ، وماصّ بَظْرَ أمه ، فأيهم أنت ؟ قال : أما أنا فشويعر ، واختَصِمْ أنت وامرؤ القيس فى الباقى .

وقال بعضهم : الشعر شعران : جيد محكك ، وردىء مضحك ، ولا شىء أثقل من الشعر الوسط والغناء الوسط .

ابن الرومى يهجو شاعرا

وقد قال ابن الرومى يهجو ابن طيفور :

عدمتك يا ابن أبى الطاهر وأطعمت ثُـكْلَكَ من شاعر
فمــا أنتَ سُخْنٌ ولا بارد وما بينَ ذين ســوى الفاتر
وأنت كذاك تُغَثِّى النفو سَ تغثيــــة الماتر الخاثر

وقد يجوز أن يكون النابغة أشار ـ فيما حكى عنه الحاتمى من الردىء المضحك ـ إلى هذا النحو .

---

(١) فى نسخة « بما لا يشعر له »

صعوبة عمل الشعر

وقيل : عملُ الشعرِ على الحاذق به أشدُّ من نقل الصخر ، ويقال : إن الشعر كالبحر أهون ما يكون على الجاهل أهول ما يكون على العالم ، وأتعب أصحابه قلباً مَنْ عرفه حق معرفته ، وأهل صناعة الشعر أبصر به من العلماء، بآلته من نحو وغريب ومَثَل وخَبَر وما أشبه ذلك ولو كانوا دونهم بدرجات ، وكيف إن قاربوهم أو كانوا منهم بسبب ؟

نقدة الشعر أبصر به

وقد كان أبو عمرو بن العلاء وأصحابه لا يجرون مع خلف الأحمر فى حَلْبَةِ هذه الصناعة ـ أعنى النقد ـ ولا يشقون له غباراً ، لنفاذه فيها، وحذقه بها ، و إجادته لها وقد يميز الشعر من لا يقوله ، كالبزاز يميز من الثياب مالم ينسجه ، والصيرفى يخبر من الدنانير مالم يسبكه ولا ضرّبه ، حتى إنه ليعرف مقدار ما فيه من الغش وغيره فينقص قيمته .

وحكى أن رجلا قال لخلف الأحمر : ما أُبالى إذا سمعت شعراً استحسنتُه ما قلتَ أنتَ وأصحابك فيه !! فقال له : إذا أخذت درهما تستحسنه وقال لك الصيرفى إنه ردىء هل ينفعك استحسانكَ إياه ؟ .

وقيل للمفضل الضبى : لم لا تقول الشعر وأنت أعلم الناس به ؟ قال : علمى به هو الذى يمنعنى من قوله ، وأنشد :

وقد يقرض الشعرَ البكىُّ لسانهُ ... وتُعْيِى القوافى المرء وَهْوَ لبيب

والشعر مزلّة العقول ، وذلك أن أحداً ما صنعه قط فكتمه ولو كان رديئا ، و إنما ذلك لسروره به ، و إكباره إياه ، وهذه زيادة فى فصل الشعر ، وتنبيه على قدره وحسن موقعه من كل نفس .

من شعر الأصمعى

وقال الأصمعى على تقدمه فى الرواية وميزه بالشعر :

أبى الشعر إلا أن يفىء رديئُه ... علىَّ ، ويأبى منه ما كان محكما

فياليتنى ـ إذ لم أجِدْ حَوْكَ وشْيِهِ ... ولم أكُ من فرسانه ـ كنت مُفْحَماَ

الشعر أربعة أصناف

وقال عبد الكريم : الشعر [أربعة] أصناف : فشعر هو خير كله ، وذلك ما كان فى باب الزهد ، والمواعظ الحسنة ، والمثل العائد على من تمثل به بالخير ، وما أشبه ذلك ؛ وشعر هو ظرف كله ، وذلك القول فى الأوصاف ، والنعوت والتشبيه ، وما يفتنُّ به من المعانى والآداب ؛ وشعر هو شر كُلُّهُ ، وذلك الهجاء ، وما تَسَرَّعَ به الشاعر إلى أعراض الناس؛ وشعر يتكسب به ، وذلك أن يحمل إلى كل سوق ما يَنفقُ فيها ، ويخاطب كل إنسان من حيث هو ، ويأتى إليه من جهة فهمه .

وذكر الجمحى فى الشعراء المقاحم والثنيان قال : والمقحم : الذى يقتحم سنًّا إلى أخرى ، وليس بالبازل ولا المستحكم ، وأنشد لأوس بن حجر :

وقد رام بَحْرِى قبل ذلك طامياً من الشعراء كل عَوْد ومقحم

قال : والثنيان : الواهن العاجز ، وأنشد لأوس بن مَغْرَاء :

ترى ثنَانا ــ إذا ما جاء ــ بَدْأَهم وبدؤهم إن أتانا كان ثنيانا

قال غيره : الثنيان : الذى ليس بالرئيس ، بل هو دونه ، وأنشدوا لنابغة بنى ذبيان يخاطب يزيد بن الصَّعِق :

يَصُدُّ الشاعر الثنيان عــنى صدود البِــكْرِ عن قَرْم هِجَان

للشعر صناعة وثقافة

قال الجمحى : وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهلُ العلم كسائر أصناف العلم والصناعات : منها ما تثقفه العين ، ومنها ما تثقفه الأذن ، ومنها ما تثقفه اليد ، ومنها ما يثقفه اللسان ، من ذلك اللؤلؤ والياقوت لا يعرف بصفة ولا وزن دون المعاينة ممن يُبصره ، ومن ذلك الجَهْبذة بالدينار والدرهم لا تعرف جودتهما بلون ولا مَسّ ولا طراوة ولا دنس ولا صفة ، ويعرفه الناقد عند المعاينة فيعرف بهْرَجَها وزائفها وستوقها ومفرّغها ، ومنه البصر بأنواع المتاع وضروبه وصنوفه مع تشابه لونه ومسه وذَرْعه واختلاف بلاده حتى يَرُدّ كل صنف منها إلى بلده الذى

خرج منه ، وكذلك بصر الرقيق فتوصف الجارية فيقال : ناصعة اللون ، جيدة الشطب ، نقية الثغر ، حسنة العين والأنف ، جيدة النهدين ، ظريفة اللسان ، واردة الشّعر ، فتكون بهــذه الصفة بمائة دينار و بمائتى دينار ، وتكون أخرى بألف دينار وألفى دينار ؛ ولكن لا يجد واصفها مزيدا على هذه الصفة ؛ وتوصف الدابة فيقال : خفيف العنان ، لين الظهر ، جيد الحافر ، فتى السن ، نقى من العيوب ؛ فيكون بخمسين ديناراً أو نحوها ، وتكون أخرى بمائتى دينار وأكثر ، تكون هذه صفتها ، ويقال للرجل والمرأة فى القراءة والغناء : إنه لنَدِى الحَلْقِ ، حسن الصوت ، طويل النفَس ، مصيب اللحن ، ويوصف الآخر والأخرى بهذه الصفة وبينهما بَوْنٌ بعيد، يعرف ذلك أهل العلم به [عند المعاينة والاستماع ، بلا صفة ينتهى إليها ، ولا علم يُوقف عليه، وإن كثرة المدارسة للشىء لتعين على العلم به][(١)] ، وكذلك الشعر يعرفه أهـلُ العلم به .

وسمعت بعض الحذاق يقول : ليس للجودة فى الشعر صفة ، إنما هو شىء يقع فى النفس عند المميز : كالفِرِنْدِ فى السيف، والملاحة فى الوجه ،وهذا راجع إلى قول الجمحى ، بل هو بعينه ، وإنما فيه فضلُ الأختصار .

١٨ — باب حد الشعر و بنيته

الشعر يقوم بعد النية من أربعة أشياء ، وهى : اللفظ ، والوزن ، والمعنى ، والقافية ، فهذا هو حَدُّ الشعر ؛ لأن من الكلام موزوناً مقفّى وليس بشعر؛ لعدم القصد والنية ، كأشياء اتّزنت من القرآن ، ومن كلام النبى صلى الله عليه وسلم ، حد الشعر

(١) هذه العبارة كلها ساقطة من التونسية .

وغير ذلك مما لم يطلق عليه أنه شعر ، والمتزن : ما عرض على الوزن فقبله ، فكأن الفعل صار له ، ولهذه العلة سمى ما جرى هذا المجرى من الأفعال فعل مُطَاوعة ، هذا هو الصحيح ، وعند طائفة من أصحاب الجدل أن المنفعل والمفتعل لا فاعل لهما ، نحو : شَوَيْتُ اللحم فهو مُنْشَوٍ ومُشْتَوٍ ، وبنيت الحائط فهو مُنْبَنٍ ، ووزنت الدينار فهو مُتَّزِن ، وهذا محال لا يصح مثله فى العقول ، وهو يؤدى إلى مالا حاجة لنا به ، ومعاذ الله أن يكون مراد القوم فى ذلك إلا المجاز والاتساع ، وإلا فليس هذا مما يغلط فيه مَن رقّ ذهنه وصفا خاطره ، وإنما جئت بهذا الفصل احتجاجاً على مَن زعم أن المتزن غير داخل فى الموزون ، وإذا لم يعرض المتزن على الوزن فيوجد موزوناً فمن أين يعلم أنه متزن ؟ وكيف يقع عليه هذا الاسم ؟

أركان الشعر

وقال بعض العلماء بهذا الشأن : بنى الشعر على أربعة أركان ، وهى : المدح ، والهجاء ، والنسيب ، والرثاء .

قواعد الشعر

وقالوا : قواعد الشعر أربع : الرغبة ، والرهبة ، والطرب ، والغضب : فمع الرغبة يكون المدح والشكر ، ومع الرهبة يكون الاعتذار والاستعطاف ، ومع الطرب يكون الشوق ورقة النسيب ، ومع الغضب يكون الهجاء والتوعد والعتاب المُوجِع .

أغراض الشعر

وقال الرمانى على بن عيسى : أكثر ما تجرى عليه أغراض الشعر خمسة : النسيب ، والمدح ، والهجاء ، والفخر ، والوصف ، ويدخل التشبيه والاستعارة [فى] باب الوصف .

وقال عبد الملك بن مروان لأرطاة بن سُهَيَّة : أتقول الشعر اليوم ؟ فقال : والله ما أطرب ، ولا أغضب ، ولا أشرب ، ولا أرغب ، وإنما يجىء الشعر عند إحداهن . قال أبو على البَصِيرُ :

مدحتُ الأمير الفَتْحَ أطْلُبُ عُرْفَهُ وهـــل يستزاد قائل وهو راغب
فأفنى فُنُونَ الشعر وهي كثيرةٌ وما فنيت آثاره والمنـــاقبُ

فجعل الرغبة غاية لا مزيد عليها .

وقال عبدالكريم : يجمع أصناف الشعر أربعة : المديح، والهجاء ، والحكمة، واللهو ، ثم يتفرع من كل صـــنف من ذلك فنون ؛ فيكون من المديح المراثى والافتخار والشكر ، ويكون من الهجاء الذم والعتاب والاستبطاء ، و[يكون] من الحكمة الأمثال والتزهيد والمواعظ ، ويكون من اللهو الغزل والطرد وصفة الخمر والمخمور .

وقال قوم : الشعر كله نوعان : مدحٌ ، وهجاء ؛ فإلى المدح يرجع الرثاء ، والافتخار ، والتشبيب ، وما تعلق بذلك من محمود الوصف : كصفات الطلول والآثار ، والتشبيهات الحسان ، وكذلك تحسين الأخلاق : كالأمثال ، والحكم، والمواعظ ، والزهد فى الدنيا ، والقناعة ، والهجاء ضدُّ ذلك كله ، غير أن العتاب حالٌ بين حالين ؛ فهو طرف لكل واحد منهما ، وكذلك الإغراء ليس بمدح ولا هجاء ؛ لأنك لا تغرى بإنسان فتقول : إنه حقير ولا ذليل ، إلاَّ كان عليك وعلى المغرى الدركُ ، ولا تقصد أيضاً بمدحه الثناء عليه فيكون ذلك على وجهه .

تشبيه بيت الشعر ببيت البناء

والبيت من الشعر كالبيت من الأبنية : قراره الطبع ، وسمكه الرواية ، ودعائمه العلم ، وبابهُ الدُّرْبة ، وساكنه المعنى ، ولا خير فى بيت غير مسكون ، وصارت الأعاريض والقوافى كالموازين والأمثلة للأبنية ، أو كالأواخِيِّ والأوتاد للأخبية ، فأما ما سوى ذلك من محاسن الشعر فإنما هو زينة مستأنفة ولو لم تكن لاستغنِيَ عنها .

رأى الجرجانى

قال القاضى على بن عبد العزيز الجرجانى صاحبُ كتاب الوَساطة : الشعر

علم من علوم العرب يشترك فيه الطبع والرواية والذكاء ، ثم تكون الدُّرْبَةُ مادة له ، وقوة لكل واحد من أسبابه ؛ فمن اجتمعت له هذه الخصال فهو المحسن المبرز ، و بقدر نصيبه منها تكون مرتبته من الإحسان . وقال : ولست أفضل فى هذه القضية بين القديم والمحدث ، والجاهلى والمخضرم ، والأعرابى والمولد ، إلا أنى أرى حاجة المحدث إلى الرواية أمَسَّ ، وأجده إلى كثرة الحفظ أفقر ، فإذا استكشفت عن هذه الحال وجدت سببها والعلة فيها أن المطبوع الذكى[1] لا يمكنه تناول ألفاظ العربى إلا روايةً ، ولا طريق إلى الرواية إلا السمع ، وملاك السمع الحفظ .

رأى دعبل

قال دِعبل فى كتابه : مَن أراد المديح فبالرغبة ، ومن أراد الهجاء فبالبغضاء ، ومن أراد التشبيب فبالشوق والعشق ، ومن أراد المعاتبة فبالاستبطاء ؛ فقسّم الشعر كما ترى هذه الأقسام الأربعة ، وكان الرثاء عنده من باب المدح على ما قدمت ، إلا أنه جعل العتاب بدلا منه .

آراء مختلفة

وقال غير واحد من العلماء : الشعر ما اشتمل على المَثَلِ السائر ، والاستعارة الرائعة ، والتشبيه الواقع ، وما سوى ذلك فإنما لقائله فضل الوزن .

وقال إسحاق بن إبراهيم الموصلى : قلت لأعرابى : من أشعر الناس ؟ قال : الذى إذا قال أسرع ، و إذا أسرع أبدع ، و إذا تكلم أسمع ، و إذا مدح رفَعَ ، و إذا هجا وضَعَ .

وسئل بعض أهل الأدب : من أشعر الناس ؟ فقال : من أكرهك شعره على هَجْو دويك ومدح أعاديك ، يريد الذى تستحسنه فتحفظ منه ما فيه عليك وَصْمَة ، وخلاف للشهوة ، وهذا [ذَوْبُ] قول أبى الطيب :

وَأَسْمَعُ من ألفاظه اللُّغَةَ التِى ... يَلَذُّ بِهَا سَمْعِى ولو ضُمِّنَتْ شَتْمِى

(١) فى المصريتين المطبوعتين « الذى » وما أبعده من الصواب ! !

أخذه من قول أبي تمام :

فإن أنا لم يمدحكَ عَنِّيَ صاغراً عدوُّك فاعلم أنني غَيْرُ حامد

وأتبَعه البحتري في ذلك فقال :

لَيُو اصِلَنَّكَ رَكْبُ شعري سائراً يرويه فيك لِحُسْنِهِ الأعداء

وقال عبد الصمد بن المعذل : الشعر كله في ثلاث لفظات ، وليس كل إنسان يحسن تأليفها : فإذا مدحت قلت أنت ، و إذا هجوت قلت لست ، و إذا رثيت قلت كنت .

وقال بعض النقاد : أصغر الشعر الرثاء ؛ لأنه لا يعمل رغبة ولا رهبة .

قال ابن قتيبة : قال أحمد بن يوسف الكاتب لأبي يعقوب الخريمي : أنت في مدائحك لمحمد بن منصور كاتب البرامكة أشعر منك في مراثيك له ، فقال : كنا يومئذ نعمل على الرجاء ، ونحن [نعمل] اليوم على الوفاء .

قال صاحب الكتاب : ومن هذا المنثور — والله أعلم — سرق البصير بيته المتقدم في الفتح بن خاقان[1] .

وقيل لبعضهم : ما أحسن الشعر ؟ فقال . ما أعْطَى القِيَادَ ، و بلغ المراد .

وقال أبو عبد الله وزير المهدي : خير الشعر ما فهمته العامة ، ورضيته الخاصة.

وسمعت بعض الشيوخ يقول : قال الحذاق : لو كانت البلاغة في التطويل ما سبق إليها أبو نُوَاس والبحتري .

وقال بعض الحذاق من المتعقبين : أشعر الناس من تخلص في مدح امرأة ورثائها.

وقال ابن المعتز : قيل لمعتوه : ما أحسن الشعر ؟ قال : ما لم يحجبه عن القلب شيء .

---

(١) هما بيتان سبقا في أول ص ١٢١ .

(١٩) — باب فى اللفظ والمعنى

الارتباط بين المعنى واللفظ

اللفظ جسم ، وروحُه المعنى ، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم : يضعف بضعفه ، ويقوى بقوته ، فإذا سلم المعنى واختلَّ بعضُ اللفظ كان نقصاً للشعر وهُجْنة عليه ، كما يعرض لبعض الأجسام من العَرَج والشَّلَل والعَوَر وما أشبه ذلك ، من غير أن تذهب الروح ، وكذلك إن ضعف المعنى واختل بعضه كان للفظ من ذلك أوفر حظ ، كالذى يعرض للأجسام من المرض بمرض الأرواح ، ولا تجد معنى يختل إلا من جهة اللفظ ، وَجَرْيه فيه على غير الواجب ، قياساً على ما قدمت من أدواء الجسوم والأرواح ، فإن اختل المعنى كلهُ وفسد بقى اللفظ مَوَاتاً لا فائدة فيه ، وإن كان حسن الطلاوة فى السمع ، كما أن الميت لم ينقص من شخصه شىء فى رأى العين ، إلا أنه لا ينتفع به ولا يفيد فائدة ، وكذلك إن اختل اللفظ جملة وتلاشى لم يصح له معنى ؛ لأنا لا نجد روحاً فى غير جسم البتة .

أيهما آثر ؟

ثم للناس فيما بعد آراء ومذاهب : منهم من يؤثر اللفظ على المعنى فيجعله غايتَهُ ووُكْده ، وهم فرق : قومٌ يذهبون إلى فخامة الكلام وجزَالته ، على مذهب العرب من غير تصنع ، كقول بشار :

إذا ما غضبنا غَضْبَةً مُضَرِيَّةً هتكنا حجاب الشمسِ أو قطرتْ دما
إذا ما أعرنا سَيِّداً من قبيلة ذُرَى مِنْبَر صلَّى علينا وَسلما

وهذا النوع أدل على القوة ، وأشبه بما وقع فيه من موضع الافتخار ، وكذلك ما مدح به الملوك يجب أن يكون من هذا النحت .

رأى فى ابن هانى

وفرقة أصحاب جلبة وقعقعة بلا طائل معنى إلا القليل النادر : كأبى القاسم ابن هانىء ومن جرى مجراه ؛ فإنه يقول أول مذهبته :

أصاخت فقالت : وَقْع أَجْرَد شَيْظم وشامت فقالت : لمع أبيض مِخْذَم[(١)]
وما ذُعِرَتْ إلاَّ لِجَرْسِ حُلِيِّها ولا رَمَقَتْ إلاَّ بُرًى فى مخدَّم[(٢)]

ولَيْس تحت هذا كله إلا الفسادُ ، وخلافُ المراد ، ماالذى يفيدنا أن تكون هــذه المنسوب بها لبست حليها فتوهمته بعد الإصاخة والرَّمْقِ وَقْعَ فرس أولمع سيف ؟ غير أنها مغزوة فى دارها ، أو جاهلة بما حملته من زينتها ، ولم يخف عنا مراده أنها كانت تترقبه !! فما هذا كله ؟ وكانت عند أبى القاسم مع طبعه صنعة ، فإذا أخذ فى الحلاوة والرقة ، وعمل بطبعه وعلى سجيته ؛ أشبه الناس ، ودخل فى جملة الفضلاء ؛ و إذا تكلف الفخامة ، وسلك طريق الصنعة أضَرَّ بنفسه ،وأتعب سامع شعره . ويقع له من الـكلام المصنوع والمطبوع فى الأحايين أشياء جيدة ، كقوله فى المطبوع يصف شجعاناً :

لايأكل السِّرْحَانُ شِلْوَ عقيرهم[(٣)] مما عليــــه من القَنَا المتكسر

« العقير » ههنا منهم ، أى : لم يمت لشجاعته حتى تحطم عليه من الرماح مالا يصل معه الذئب إليه كثرة ، ولو كان العقير هو الذى عقروه هم لـكان البيت هجواً ؛ لأنه كان يصفهم بالضعف والتكاثر على واحـد . وقوله فى المصنوع :

وجنيتم ثمـــرَ الوقائع يانعاً بالنصر من ورق الحديد الأخضر[(٤)]

فهذا كله جيد بديع ، وقد زاد فيه على قول البحترى :

---

(١) الأجرد : أراد به الفرس القصير الشعر و« شيظم » أى : طويل الجسم ، ومخذم ، أراد به السيف القاطع

(٢) الذى فى ديوان « من مخدم » والمخدم : محل الخلخال

(٣) فى الديوان « شلوطعينهم » والمعنى واحد

(٤) فى الديوان « بالنصر من ورق إلخ » .

حملت حمائله القـديمة بقلةً   من عهد عاد غضة لم تَذْبُل

ويروى :

* من عهد تبع *

من يؤثر سهولة اللفظ

ومنهم من ذهب إلى سهولة اللفظ فعُنِيَ بها ، واغتفر له فيها الركاكة واللين المفرط : كأبى العتاهية ، وعباس بن الأحنف ، ومَنْ تابعهما ، وهم يرون الغاية قول أبى العتاهية :

يا إخوتى ، إن الهوى قاتلى   فيسِّروا الأكفان من عاجل
ولا تلوموا فى أتباع الهوى   فإننى فى شُغُــلٍ شاغل
عينى على عتبــةَ مُنْهَلَّةٌ   بدمعها المُنْسَكِبِ السائل
يامن رأى قبلى قتيلاً بكى   من شدة الوجدِ على القاتل
بَسَطْتُ كفى نحوكم سائلا   ماذا تردون على السائل ؟
إن لم تنيــلوه فقولوا له   قولا جميــلا بَدَلَ النائل
أو كنتمُ العـام على عُسْرة   منــه فَمَنُّوهُ إلى قابل

رأى فى أبى العتاهية

وقد ذكر أن أبا العتاهية وأبا نواس والحسين بن الضحاك الخليع اجتمعوا يوماً، فقال أبو نُوَاس : لينشد كل واحد قصيدة لنفسه فى مراده من غير مدح ولا هجاء ، فأنشد أبو العتاهية هذه القصيدة ، فسلما له وامتنعا من الإنشاد بعده ، وقالا له : أما مع سهولة هذه الألفاظ ، وملاحة هـذا القصد ، وحسن هذه الإشارات ؛ فلا ننشد شيئا ، وذلك فى بابه من الغزل جيد أيضاً لا يفضله غيره .

من يؤثر المعنى

ومنهم من يؤثر المعنى على اللفظ فيطلب صحته ، ولا يبالى حيث وقع من هُجْنة اللفظ وقبحه وخشونته : كابن الرومى ، وأبى الطيب ، ومن شا كلهما : هؤلاء المطبوعون ، فأما المتصنعون فسيرد عليك ذكرهم إن شاء الله تعالى .

حجة من آثر اللفظ

وأكثر الناس على تفضيل اللفظ على المعنى ، سمعتُ بعض الحذاق يقول : قال العلماء : اللفظ أغلى من المعنى ثمناً ، وأعظم قيمة ، وأعز مطلبا ؛ فإن المعانى موجودة فى طباع الناس ، يستوى الجاهل فيها والحاذق ، ولكن العمل على جَوْدة الألفاظ ، وحسن السبك ، وصحة التأليف ، ألا ترى لو أن رجلا أراد فى المدح تشبيه رجل لما أخطأ أن يشبهه فى الجود بالغيث والبحر ، وفى الإقدام بالأسد ، وفى المَضاء بالسيف ، وفى العزم بالسيل ، وفى الحسن بالشمس ، فإن لم يحسن تركيب هذه المعانى فى أحسن حُلاها من اللفظ الجيد الجامع للرقة والجزالة والعذوبة والطلاوة والسهولة والحلاوة لم يكن للمعنى قَدْر .

وبعضهم ــ وأظنه ابن وكيع ــ مثل المعنى بالصورة ، واللفظ بالكُسْوَة ؛ فإن لم تقابل الصورة الحسناء بما يشاكلها ويليق بها من اللباس فقد بخست حقها ، وتضاءلت فى عين مبصرها .

وقال عبد الكريم ــ وكان يؤثر اللفظ على المعنى كثيراً فى شعره وتآليفه ــ : الكلام الجزل أغنى عن المعانى اللطيفة [مِنَ المعانى اللطيفة] عن الكلام الجزل ، وإنما حكاه ونقله نقلا عمن روى عنه النحاس .

ومن كلام عبد الكريم : قال بعض الحذاق : المعنى مثال ، واللفظ حَذْوٌ ، والحذْوُ يتبع المثال ؛ فيتغير بتغيره ، ويثبت بثباته .

ومنه قول العباس بن حسن العَلوى فى صفة بليغ : معانيه قَوَالِبُ لألفاظه ، هكذا حكى عبد الكريم ، وهو الذى يقتضيه شرط كلامه ، ثم خالف فى موضع آخر فقال : ألفاظه قوالب لمعانيه ، وقوافيه مُعَدّة لمبانيه ، والسجع يشهد بهذه الرواية الأخرى ، وهى أعرف .

والقالب يكون وعاء كالذى تفرغ فيه الأوانى ، ويعمل به اللَّبِنُ والآجُرُّ ،

وقد يكون قدراً للوعاء كالذى يقام به اللوالك[١]، وتصلح عليه الأخفاف، ويكون مثالا كالذى تحذَى عليه النعال ، وتفصل عليه القلانس ، فلهذا احتمل القالب أن يكون لفظاً مرةً ومعنى مرةً .

للشعراء ألفاظ معروفة

وللشعراء ألفاظ معروفة ، وأمثلةٌ مألوفة ، لا ينبغى للشاعر أن يعدوها ، ولا أن يَستعمل غيرها ، كما أن الكُتّاب اصطلحوا على ألفاظ بأعيانها سموها الكتابية لا يتجاوزونها إلى سواها، إلا أن يريد شاعر أن يتظرّف باستعمال لفظ أعجميّ فيستعمله فى النُّدْرَة ، وعلى سبيل الخُطْرَة ، كما فعل الأعشى قديماً ، وأبو نواس حديثاً ، فلا بأس بذلك ، والفلسفة وجرُّ الأخبار باب آخر غير الشعر؛ فإن وقع فيه شىء منهما فبقدر ، ولا يجب أن يُجْعَلا نُصْبَ العين فيكونا متكئاً واستراحة ، وإنما الشعر ما أطرب ، وهزّ النفوس ، وحرّك الطباع ، فهذا هو باب الشعر الذى وضع له ، وبنى عليه ، لا ما سواه .

ومن مُلَح الكلام على اللفظ والمعنى ما حكاه أبو منصور عبد الملك بن إسماعيل الثعالبى ، قال : البليغ مَنْ يحوك الكلام على حسب الأمانى ، ويخيط الألفاظَ على قدود المعانى .

وقال غيره : الألفاظ فى الأسماع كالصور فى الأبصار .

وقال أبو عبادة البحترى[٢] :

وكأنها والسمع معقودٌ بها ... وَجْهُ الحبيب بَدَا لِعَيْنِ مُحِبِّهِ

(١) فى التونسية « الأوالد » .

(٢) البيت فى وصف آثار قلم الممدوح من قصيدة يمدح فيها الحسن بن وهب ، وأولها قوله :

من سائل لمعذل عن خطبه ... أو صافح لمقصر عن ذنبه

وقبل البيت قوله :

وإذا دجت أقلامه ثم انتحت ... برقت مصابيح الدجى فى كتبه

باللفظ يقرب فهمه فى بعده ... منا ، ويبعد نيله فى قربه

كالروض مؤتلقا بحمرة نوره ... وبياض زهرته وخضرة عشبه

(٢٠) -- باب فى المطبوع والمصنوع

حد المطبوع والمصنوع

ومن الشعر مطبوع ومصنوع ، فالمطبوع هو الأصل الذى وضع أولا ، وعليه المَدار . والمصنوع و إن وقع عليه هذا الاسم فليس متكلفاً تكلف أشعار المولدين ، لكن وقع فيه هذا النوع الذى سموه صنعة من غير قصد ولا تَعَمُّل ، لكن بطباع القوم عفواً ، فاستحسنوه ومالوا إليه بعض الميل ، بعد أن عرفوا وجه اختياره على غيره ، حتى صنع زهير الحوليات على وجه التنقيح والتثقيف : يصنع القصيدة ثم يكرر نظره فيها خوفا من التعقب بعد أن يكون قد فرغ من عملها فى ساعة أو ليلة ، ور بما رَصَدَ أوقات نشاطه فتباطأ عمله لذلك ، والعرب لا تنظر فى أعطاف شعرها بأن تجنس أو تطابق أو تقابل ، فتترك لفظة للفظة ، أو معنى لمعنى ، كما يفعل المحدثون ، ولكن نظرها فى فصاحة الكلام وجزَالته ، و بسط المعنى و إبرازه ، و إتقان بنية الشعر ، و إحكام عقد القوافى ، وتلاحم الكلام بعضه ببعض حتى عَدُّوا من فضلِ صنعة الحطيئة حسنَ نسقهِ الكلامَ بعضه على بعض فى قوله :

فلا وأبيك ما ظلمتْ قريعٌ ... بأن يبنوا المكارم حيث شاءوا
ولا وأبيك ما ظلمت قُرَيع ... ولا بَرِمُوا لذاك ولا أساءوا
بِعَثْرَةِ جارهم أن ينعشوها ... فيغبر حوله نعمٌ وشاء
فيبنى مجـدهُمْ و يقيم فيها ... و يمشى إن أريد به المَشَاء
و إن الجارَ مثلُ الضيف يغدو ... لِوجهته و إن طالَ الثَّوَاء
و إنى قد علقتُ بحبل قوم ... أعانهمُ على الحسب الثراء

وكذلك قول أبى ذؤيب يصف حمر الوحش والصائد :

فوَردنَ والعَيُّوقُ مَقْعَدَ رابىء الـضُّرَباء خَلْفَ النجم لا يَتَتَلَّعُ
فكَرَعْنَ فى حَجَرات عذبٍ بارد ... حَصِبِ البطاح تغيب فيه الأكْرُعُ

فشربن ثم سمعن حساً دونه شَرَفَ الحجاب، وريب قَرع يقرع
فنكرنه فنفرن فامترست به هوجاء هادية وهادٍ جُرشُعُ
فرمى فأنفذ من نَحُوصٍ عائطٍ سهما فخرَّ وريشه متصمِّعُ
فبدا له أقراب هادٍ رائغاً عنه فعيَّث فى الكنانة يُرْجع
فرمى فألحق صاعديًّا مِطْحَراً بالكشح فاشتملت عليه الأضلع
فأبدَّهُنَّ حتُوفهن فهاربٌ بذمائه أو باركٌ متجعجع

فأنت ترى هذا النسق بالفاء كيف اطَّرد له ، ولم ينحلَّ عقده ، ولا اختلَّ بناؤه ، ولولا ثقافة الشاعر ومراعاته إياه لما تمكن له هذا التمكن .

واستطرفوا ما جاء من الصنعة نحو البيت والبيتين فى القصيدة بين القصائد ، يستدل بذلك على جودة شعر الرجل ، وصدق حسه ، وصفاء خاطره ؛ فأما إذا كثر ذلك فهو عيب يشهد بخلاف الطبع ، وإيثار الكلفة ، وليس يتجه البتة أن يتأتى من الشاعر قصيدة كلها أو أكثرها متصنعٌ من غير قصد ؛ كالذى يأتى من أشعار حبيب والبحترى وغيرهما . وقد كانا يطلبان الصنعة ويُولَعان بها : فأما حبيب فيذهب إلى حزونة اللفظ ، وما يملأ الأسماع منه ، مع التصنيع المحكم طوعا وكرهاً ، يأتى للأشياء من بُعد ، ويطلبها بكلفة ، ويأخذها بقوة . وأما البحترى فكان أملح صنعة ، وأحسن مذهباً فى الكلام ، يسلك منه دَمَاثة وسهولة مع إحكام الصنعة وقرب المأخذ ، لا يظهر عليه كلفة ولا مشقة . وما أعلم شاعراً أكمل ولا أعجب تصنيعا من عبد الله بن المعتز ؛ فإن صنعته خفية لطيفة لا تكاد تظهر فى بعض المواضع إلا للبصير بدقائق الشعر ، وهو عندى ألطف أصحابه شعراً ، وأكثرهم بديعا وافتنانا ، وأقربهمْ قوافى وأوزانا ، ولا أرى وراءه غايةً لطالبها فى هذا الباب ، غير أنا لا نجد المبتدىء فى طلب التصنيع ومزاولة الكلام أكثر انتفاعا منه بمطالعة شعر حبيب وشعر مسلم بن الوليد ؛ لما فيهما من الفضيلة لمبتغيها ، ولأنهما طرَقَا إلى الصنعة ومعرفتها طريقا سابلة ، وأكثرا منها فى أشعارهما تكثيرا

رأى فى أبى تمام والبحترى

رأى فى ابن المعتز

ر ش . مسلم ابن الوليد

سهّلها عند الناس ، وجسرهم عليها . على أن مسلما أسهل شعراً من حبيب ، وأقل تكلفا ، وهو أول من تكلف البديع من المولدين ، وأخذ نفسه بالصنعة ، وأكثر منها ولم يكن فى الأشعار المحدثة قبل مسلم صريع [الغوانى] إلا النبذ اليسيرة ، وهو زُهَيْر المولدين : كان يبطىء فى صنعته وتجيدها .

أول من فتق البديع

وقالوا : أول من فتق البديع من المحدثين بشار بن برد ، وابن هَرْمَة ، وهو ساقة العرب وآخر من يستشهد بشعره . ثم أتبعهما مقتديا بهما كلثوم بن عمرو العَتّابى ، ومنصور النمرى ، ومسلم بن الوليد ، وأبو نواس . واتبع هؤلاء حبيب الطائى ، والوليد البحترى ، وعبد الله بن المعتز ؛ فانتهى علم البديع والصنعة إليه ، وختم به .
وشبه قوم أبا نواس بالنابغة لما اجتمع له من الجزالة مع الرشاقة ، وحسن الديباجة ، والمعرفة بمدح الملوك . وأما بشار فقد شبهوه بامرىء القيس ؛ لتقدمه على المولدين وأخذهم عنه ، ومن كلامهم : بشار أبو المحدثين .

الأعشى وبشار

وسمعت أبا عبد الله غير مرة يقول : إنما سمى الأعشى صَنَّاجة العرب لأنه أول من ذكر الصنج فى شعره . قال : ويقال : بل سمى صناجة لقوة طبعه ، وحلية شعره ، يخيل لك إذا أنشدته أن آخَرَ ينشد معك . ومثله من المولدين بشار بن برد ، تنشد أقصر شعره عروضا وألينه كلاما فتجد له فى نفسك هزة وحلاوة من قوة الطبع ؛ وقد أشبهه تصرفا وضربا فى الشعر وكثرة عروض مدحا وهجاء ، وافتخارا وتطويلا . انقضى كلام أبى عبد الله ورجعنا إلى القول فى الطبع والتصنيع .

متى يكون التصنيع مقبولا

والصنيع أن البيت إذا وقع مطبوعا فى غاية الجودة ثم وقع فى معناه بيت مصنوع فى نهاية الحسن لم تؤثر فيه الكلفة ولا ظهر عليه التعمل كان المصنوع أفضلهما ، إلا أنه إذا توالى ذلك وكثر لم يجز البتة أن يكون طبعا واتفاقا ؛ إذ ليس ذلك فى طباع البشر . وسبيل الحاذق بهذه الصناعة — إذا غلب عليه حب التصنيع — أن يترك للطبع مجالا يتسع فيه ، وقيل : إذا كان الشاعر

مصنعا بان[1] جيده من سائر شعره : كأبى تمام ؛ فصار محصورا معروفا بأعيانه ، وإذا كان الطبع غالبا عليه لم يبن جيده كل البينونة ، وكان قريبا من قريب : كالبحترى ومَنْ شاكله . وقد نص ابن الرومى فى بعض تسطيراته على محمد بن أبى حكيم الشاعر حين عاب عليه قوله فى الفرس من قصيدة رثى بها عبد الله بن طاهر :

فله شهامة سودنيق باكر وحوافرٌ حُفْرٌ ورأسٌ صنتع

وذكر قول حبيب :

بحوافر حفر وصُلْبٍ صُلَّبِ[2]

فحفل به ، واعتذر له ، وخَرَّج التخاريج الحسان ، وذكر أن الحافر الوأب والحافر المقعب ونحوهما أشرف فى اللفظ من الحافر الأحفر ، إلا أن الطائى عنده كان يطلب المعنى ولا يبالى باللفظ ، حتى لو تم له المعنى بلفظة نبطية لأتى بها ، والذى أراه أن ابن الرومى أبصر بحبيب وغيره منا ، وأن التسليم له والرجوع إليه أحزم ، غير أننى لو شئت أن أقول — ولست راداً عليه ، ولا معترضاً بين يديه — إن المعنى الذى أراده وأشار إليه من جهة الطائى إنما هو معنى الصنعة كالتطبيق والتجنيس وما أشبههما ، لا معنى الكلام الذى هو روحه ، وإن اللفظ الذى ذكر أنه لا يبالى به إنما هو فصيح الكلام ومستعمله ، ويدلك على صحة ما ادعيته على ابن الرومى قوله «إن الحافر الوأب والمقعب أشرف فى اللفظ من الحافر الأحفر» ؛ فكلامه راجع إلى ما قلته فى الطائى ، غير مخالف له ، وإن كان فى الظاهر على خلافه ؛ لينساغ ذلك ، إلا أن أكثر الناس على ما قال ، وإنما هذا معرض للكلام ، لا مخالفةٌ .

(١) فى التونسية والمصريتين « فان » ولا معنى لها ، والتصحيح من المقابلة فى كلام المؤلف .

(٢) هذا صدر بيت من قصيدة له يمدح فيها الحسن بن وهب (الديوان ٢١١ بيروت) والبيت بتمامه مع بيت سابق عليه قوله :

ما مقرب يختال فى أشطانه ملآن من صلف به وتلهوق

بحوافر حفر وصلب صلب وأشاعر شعر وخلق أخلق

رأى الجاحظ فيما يجب أن يكون الكلام عليه

وقال الجاحظ : كما لا ينبغى أن يكون اللفظ عامياً، ولا ساقطاً سُوقياً؛ فكذلك لا ينبغى أن يكون وَحْشياً ، إلا أن يكون المتكلم به بدوياً أعرابياً ؛ فإن الوحشى من الكلام يفهمه الوحشى من الناس ، كما يفهم السوقى رَطَانة السوقى .

قال: وأنشد رجل قوماً شعراً فاستغربوه ، فقال : والله ما هو بغريب ، ولكنكم فى الأدب غرباء .

وعن غيره : أن رجلا قال للطائى فى مجلس حفل وأراد تبكيته لما أنشد : يا أبا تمام ، لم لا تقول من الشعر ما يفهم ؟ فقال له : وأنت لم لا تفهم من الشعر ما يقال ؟ ففضحه .

[ويروى أن هذه الحكاية كانت مع أبى العَمَيْثَل وصاحبين له خاطباه فأجابهما](١)

موازنة بين المتنبى والطائى

وقال بعض من نظر بين أبى تمام وأبى الطيب : إنما حبيب كالقاضى العدل : يضع اللفظة موضعها ، ويعطى المعنى حقه ، بعد طول النظر والبحث عن البينة ، أو كالفقيه الورع : يتحَرّى فى كلامه ويتحرج خوفاً على دينه . وأبو الطيب كالملك الجبار : يأخذ ما حوله قهراً وعنوة ، أو كالشجاع الجرىء : يهجم على ما يريده لا يبالى مالقى ، ولا حيث وقع .

عبيد الشعر

وكان الأصمعى يقول : زهير والنابغة من عبيد الشعر ، يريد أنهما يتكلفان إصلاحه ويشغلان به حواسهما وخواطرهما .

ومن أصحابهما فى التنقيح وفى التثقيف والتحكيك طُفَيْلٌ الغَنَوِى . وقد قيل: إن زهيراً روى له ، وكان يسمى « محبراً » لحسن شعره .

ومنهم الحطيئة ، والنمر بن تَوْلَب، وكان يسميه أبو عمرو بن العلاء الكَيِّسَ .

وكان بعض الحذاق بالكلام يقول : قُلْ من الشعر ما يخدمك ، ولا تَقُلْ منه ما تخدمه ، وهذا هو معنى قول الأصمعى ، وسأحلى هذا الباب من كلام السيد

(١) هذه الزيادة ساقطة من التونسية .

من شعر أبي الحسن

أبي الحسن بحلية تكون له زينة فائقة ، وأختمه بخاتمة تكسوه حلة رائقة ؛ لأوفى بذلك بعض ما ضمنت ، وأقضى به حق ما شرطت ، إن شاء الله .

فمن ذلك قوله بتاهَرْتَ سنة خمس وأربعمائة يتشوق إلى أهله :

ولى كبد مكلومة من فراقكم أطامنها صبراً على ما أجنَّتِ
تمنَّتكم شوقا إليكم وصبوةً عسى الله أن يدنى لها ما تمنَّتِ
وعينٌ جفاها النومُ واعتادها البكى إذا عنَّ ذكرُ القيروان استهلتِ

فلو أن أعرابياً تذكر نجداً فحنّ به إلى الوطن ، أو تشوق فيه إلى بعض السَّكَن ؛ ما حسبته يزيد على ما أتى به هذا المولّد الحضرى المتأخر العصر ، وما انحط بهذا التمييز فى هَوَاىَ ، ولا أتنفقُ بهذا القول عند مولاى ، ولا الخديعة مما تظن به ، ولا فيه ، ولكن رأيت وجه الحق فعرفته ، والحق لا يتلاءم ، وما هو فى بلاغته وإيجازه إلا كما قال الأحيمر السعدى فى وصيته :

من القول ما يكفى المصيب قليلهُ ومنه الذى لا يكتفى الدهرَ قائلُهْ
يصد عن المعنى فيترك ما نحا ويذهبُ فى التقصير منه يطاولُهْ
فلا تك مكثاراً تزيد على الذى عنيتَ به فى خطب أمرٍ تزاولُهْ

(٢١) — باب فى الأوزان

الوزن ركن الشعر المهم

الوزن أعظم أركان حد الشعر ، وأولاها به خصوصية ، وهو مشتمل على القافية وجالب لها ضرورة ، إلا أن تختلف القوافى فيكون ذلك عيباً فى التقفية لا فى الوزن ، وقد لا يكون عيبا نحو المخمسات وما شاكلها .

المطبوع يستغنى عن معرفة الوزن

والمطبوع مستغن بطبعه عن معرفة الأوزان ، وأسمائها ، وعللها ؛ لنبُوّ ذوقه عن المزاحَف منها والمستكره . والضعيف الطبع محتاج إلى معرفة شيء من ذلك يعينه على ما يحاوله من هذا الشأن

وللناس فى ذلك كتب مشهورة ، وتواليف مفردة ، وبينهم فيه اختلاف ، وليس كتابى هذا يحتمل شرح ذلك ، ولا هو من شرطه ؛ فراراً من التكرار والتطويل ، ولكنى أذكر نُتَفاً يحتاج إليها ، ويكتفى بها مَنْ نظر مِنَ المتعلمين فى هذا الكتاب ، إن شاء الله .

أول من ألف فى الموازين

فأولُ من ألف الأوزان وجمع الأعاريض والضروبَ الخليلُ بن أحمد فوضع فيها كتاباً سماه « العروض » استخفافاً ، والعروض : آخر جزء من القسم الأول من البيت ، وهى مؤنثة ، وتثنى وتجمع ، إلا أن يكون لهذا الجنس من العلم ، والضَّرْبُ : آخر جزء من البيت من أى وزن كان.

ثم الجوهرى

ثم ألف الناس بعده ، واختلفوا على مقادير استنباطاتهم ، حتى وصل الأمر إلى أبى نَصْر إسماعيل بن حماد الجوهرى ، فبين الأشياء وأوضحها فى اختصار ، وإلى مذهبه يذهب حُذّاق أهل الوقت ، وأرباب الصناعة : فأول ما خالف فيه أن جعل الخليل الأجزاء التى يوزن بها الشعر ثمانية : منها اثنان خماسيان ، وهما : فعولن ، وفاعلن ، وستة سباعية ، وهى : مفاعيلن ، وفاعلاتن ، ومستفعلن ، ومفاعلتن ، ومتفاعلن ، ومفعولات ، فنقص الجوهرى منها جزء مفعولات ، وأقام الدليل على أنه منقول من « مستفع لن » مفروقَ الوتِدِ ، أى : مقدم النون على اللام ؛ لأنه زعم [أنه] لو كان جزءاً صحيحا لتركب من مفرده بحر كما تركب من سائر الأجزاء . يريد أنه ليس فى الأوزان وزن انفرد به مفعولات ، ولا تكرر فى قسم منه ، وعَدَّ الخليل أجناس الأوزان فجعلها خمسة عشر جنساً ، على أنه لم يذكر المتدارك ، وهى عنده : الطويل ، والمديد ، والبسيط ، فى دائرة ؛ ثم الوافر ، والكامل ، فى دائرة ؛ ثم الهزَج ، والرجَز ، والرمَل ، فى دائرة ؛ ثم السريع ، والمنسرح ، والخفيف ، والمضارع ، والمقتَضَب ، والمجتث ، فى دائرة ؛ ثم المتقارب وحده فى دائرة .

وذكر أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاج اختلاف الناس فى ألقاب الشعر ؛ فحكى عن الخليل شيئاً أخذتُ به اختصاراً وتقليداً ؛ لأنه أول من وضع علم العروض وفتحه للناس ، وغادرتُ ما سوى ذلك من قول أبى إسحاق الزجاج وغيره لا على أن فيه تقصيراً .

علة تسمية بحور الشعر

ذكر الزجاج أن ابن دُرَيْد أخبره عن أبى حاتم عن الأخفش قال : سألت الخليل بعد أن عمل كتاب العروض : لِمَ سميتَ الطويل طويلا ؟ قال : لأنه طال بتمام أجزائه ، قلت : فالبسيط ؟ قال : لأنه انبسط عن مَدَى الطويل وجاء وسطه فَعِلُن وآخره فَعِلُن ، قلت : فالمديد ؟ قال : لتمدُّد سباعيه حول خماسيه ، قلت : فالوافر ؟ قال : لوفور أجزائه وَتِداً بوتدٍ ، قلت : فالكامل ؟ قال : لأن فيه ثلاثين حركة لم تجتمع فى غيره من الشعر ، قلت : فالهَزَجُ ؟ قال : لأنه يضطرب ؛ شُبِّه بهزج الصوت ، قلت: فالرجز؟قال : لاضطرابه كاضطراب قوائم الناقة عندالقيام ، قلت: فالرمل؟ قال: لأنه شُبِّه برمل الحصير لضمّ بعضه إلى بعض ، قلت: فالسريع؟ قال : لأنه يسرع على اللسان ، قلت:فالمنسرح ؟ قال : لانسراحه وسهولته ، قلت: فالخفيف ؟ قال : لأنه أخف السباعيات ، قلت : فالمقتضب ؟ قال : لأنه اقتضب من السريع ، قلت : فالمضارع ؟ قال : لأنه ضَارَعَ المقتضب ، قلت : فالمجتثّ ؟ قال : لأنه اجتُثَّ ، أى : قطع من طويل دائرته ، قلت : فالمتقارب ؟ قال : لتقارب أجزائه ؛ لأنها خماسية كلها يشبه بعضها بعضاً .

وجعل الجوهرى هذه الأجناس اثنى عشر باباً ،على أن فيها المتدارك : سبعةٌ منها مفردات ، وخمسةٌ مركبات ، قال : فأولها المتقارب ، ثم الهزج ، والطويل بينهما مركب منهما ، ثم بعد الهزج الرَمَلُ ، والمضارع بينهما ، ثم بعد الرمل الرجز ، والخفيف بينهما ، ثم بعدالرجز المتدارك ، والبسيط بينهما ، ثم بعدالمتدارك

المديد ، مركب منه ومن الرمل ، قال : ثم الوافر والكامل ، لم يتركب بينهما بحر لما فيهما من الفاصلة .

وزعم أن الخليل إنما أراد بكثرة الألقاب الشرحَ والتقريب ، قال : وإلاَّ فالسريع هو من البسيط ، والمنسرح والمقتضب من الرجز ، والمجتث من الخفيف؛ لأن كل بيت مركب من مستفعلن فهو عنده من الرجز طال أو قصر ، وكل بيت ركب من مستفعلن فاعلن فهو من البسيط طال أو قصر ، وعلى هــذا القياس سائر المفردات والمركبات عنده . والمتدارك الذى ذكره الجوهرى مقلوب من دائرة المتقارب ، وذلك أن فعولن يخالفه فاعلن ويُخْبَنُ فيصير فَعِلن ، وشعر عمرو الجنى منه ، وهو الذى يسميه الناس اليوم الخبَب .

كيفية تقطيع الأجزاء

وليس بين العلماء اختلاف فى تقطيع الأجزاء ، وأنه يراعى فيه اللفظ دون الخط؛ فيقابل الساكن بالساكن ، والمتحرك بالمتحرك ، ويظهر حرف التضعيف ، وتسقط ألف الوصل بلام التعريف إذا لم تظهر فى دَرْج الـكلام ، وتثبت النون بدلا من التنوين ، ويعد الوصل والخروج حرفين ، وهذا هو الأصل المحقق ؛ لأن الأوزان إنما وقعت على الكلام ، والـكلام لا محالة قبل الخط ؛ لأن الألف صورة هوائية لا مستقر لها ، ولأن المضاعف يجعل حرفاً واحداً ، ولأن التنوين شكل خفى ، وليس فى جميع الأوزان ساكنان فى حَشْوِ بيت إلا فى عروض المتقارب ؛ فإن الجوهرى أنشد ، وأنشده المبرد قبله :

وَرُمْنَا القِصَاص وكان التَّقاصُّ فَرْضاً وحتما على المسـلمين

قال الجوهرى : كأنه نوى الوقوف على الجزء ، وإلا فالجمع بين ساكنين لم يسمع به فى حشو بيت .

قال صاحب الـكتاب : إلا أن سيبويه قد أنشد :

كأنه بعد كلالِ الزاجر ومسحِهِ مرّ عقاب كاسر

بإسكان الحاء وإدغامها فى الهاء والسين قبلها ساكنة .

أجزاء التفاعيل

وجميع أجزاء الشعر تتألف من ثلاثة أشياء : سبب ، ووتد ، وفاصلة ؛ فالسبب نوعان : خفيف ، وهو متحرك بعده ساكن ، نحو : مَا ، وهلْ ، وبَلْ ، ومَنْ ، وثقيل ، وهو متحركان ، نحو : لِمَ ، وبِمَ ، إذا سألتَ ، وقد أنكره بعض المحدثين : والوَتِدُ أيضاً نوعان : مجموع ، وهو متحركان بعدهما ساكنٌ ، نحو : رَمَى ، وسَعَى ، ومفروق ، وهو ساكن بين متحركين ، نحو : قال ، وباع . والفاصلة فاصلتان : صغرى ، وهى ثلاث متحركات بعدها ساكن ، نحو : بَلَغَتْ ، وما أشبه ذلك ، وكبرى ، وهى أربع متحركات بعدها ساكن ، نحو : بلغَنِى ، وبَلَغَنَا ، وما أشبه ذلك ، وهى تأتى فى جزء من الشعر بعينه ، وهو : فَعِلَتُنْ ، ولا تأتى البتة بإجماع من الناس بين جزءين فتكون حرفين متحركين فى آخر جزء ومثلهما فى أول جزء آخرَ يليه ، ولا يجتمع فى الشعر خمس متحركات البتة .

ومن الناس مَنْ جعل الشعر كله من الأوتاد والأسباب خاصة يركب بعضها على بعض فتتركب الفواصل منهما ، و بعض المتعقبين ـ أظنه الملقب بالحمار ـ يسمى الفاصلتين وتداً ثلاثياً ، ووتداً رباعياً ، والسبب عنده نوعان : منفصل نحو مَنْ ، ومتصل نحو لِمَنْ ؛ فاللام عنده وحدها سبب متصل ، والميم والنون سبب هو منفصل لما كان لحركة الميم نهاية وهى النون الساكنة ، ولو كانت متحركة لم تكن نهاية .

الزحاف

وأما الزحاف فهو مايلحق أى جزء كان من الأجزاء السبعة التى جعلت موازين الشعر من نقص أو زيادة أو تقديم حرف أو تأخيره أو تسكينه ، ولا يكاد يسلم منه شعر .

ومن الزحاف ماهو أخف من التمام وأحسن ، كالذى يستحسن فى الجارية من التفاف البدن واعتدال القامة ، مثال ذلك مفاعيلن فى عروض الطويل التام تصير مَفَاعِلُن فى جميع أبياته ، وهذا هو القَبْض ، وكل ماذهب خامسه الساكن فهو مقبوض وفاعلن فى عروض البسيط التام وضربه يصير فَعِلُنْ ، وذلك هو الخَبْن ، وكل ماذهب ثانيه الساكن فهو مخبون . ومُفَاعَلَتن فى عروض الوافر التام

وضرب به حذفوا منه التاء والنون وأسكنوا اللام فصار مُفَاعَلْ ، فخلفه فَعُولُنْ ، وهذا هو القطفُ ، وليس فى الشعر مقطوف غيره . ويخف على المطبوع أبداً أن يجعل مكان مستفعلن فى الخفيف مفاعلن يظهر له أحسن .

من الزحاف ما يستحسن قليله

ومنه ــ أعنى الزحاف ــ ما يستحسن قليله دون كثيره ، كالقَبَلِ اليسير والفَلَج والَّلثغ[1] مثال ذلك قول خالد بن زهير الهذلى لخاله أبى ذؤيب :

لعلك إما أمُّ عمرٍو تبدلت سواكَ خليلا شاتمى تَسْتَحِيرُها[2]

فنقص سا كناً بعد كاف سواك ؛ وهو نون فَعُولن ، وهذا هو القبض ، ومن رواه « خليلا سواك » قبض الياء من مفاعيلن ، وهو أشد قليلا . ومنه مايحتمل على كره ، كالفَدَع والوَكَع والكَزَم[3] فى بعض الحسان ، ومثاله فى الشعر كثير وكفاك قول امرىء القيس بن حُجْر :

وتعرف فيه من أبيه شمائلا ومن خاله، ومن يزيد ، ومن حُجُرْ
سماحةَ ذا ، وبرَّ ذا ، ووفاء ذا ، ونائلَ ذا : إذا صحا ، وإذا سكرْ

فهذا أجمع العلماء بالشعر أنه ماعمل فى معناه مثله ، إلا أنه على ما تراه من

---

(١) القبل ــ بفتحتين ــ إقبال سواد العين على الأنف ، أو مثل الحول ، أو حسن منه ، أو إقبال إحدى الحدقتين على الأخرى . والفلج فى الأسنان ـ بفتحتين ـ تباعد ما بين الثنايا والرباعيات ، وبابه طرب . واللثغ : أن يصير الراء لاما أو غينا أو يصير السين ثاء ، وبابه طرب أيضا .

(٢) تستحيرها : تستعطفها حتى تعود إليك ، وفى الأصول « تستجيرها » بالجيم ، وهو تصحيف ، وفى شرح السكرى « تستخيرها » بالخاء المعجمة .

(٣) الفدع ــ بفتحتين ــ اعوجاج الرسغ من اليد أو الرجل حتى ينقلب الكف أو القدم إلى إنسيها ، أو هو المشى على ظهر القدم ، أو هو ارتفاع أخمص القدم حتى لو وطىء الأفدع عصفورا لم يؤذه . والوكع ــ بفتحتين ـ إقبال الإبهام على السبابة من الرجل حتى يرى أصله خارجا كالعقدة . والكزم ـ بفتحتين ــ قصر فى الأنف والأصابع .

الزحاف المستكره ، حكى ذلك أبو عبيدة .

ومنه قبيح مردود لا تقبل النفس عليه ، كقبح الخلق واختلاف الأعضاء فى الناس وسوء التركيب ، مثاله قصيدة عَبِيد المشهورة :

* أقفرَ مِن أهلِهِ مَلْحُوبُ *

فإنها كادت تكون كلاماً غير موزون بعلة ولا غيرها ، حتى قال(١) بعض الناس : إنها خطبة ارتجلها فاتزن له أكثرُها .

وقال الأصمعى : الزحاف فى الشعر كالرخصة فى الفقه ، لا يقدمُ عليها إلا فقــيهٌ .

وينبغى للشاعر أن يركَبَ مستعمل الأعاريض ووطيئها ، وأن يستحلى الضروب ويأتى بألطفها موقعاً ، وأخفها مستمعاً ، وأن يجتنب عويصها ومستكرهها ؛ فإن العويص مما يشغله ، ويمسك من عِنانه ، ويُوهِنُ قواه ، ويَفُتُّ فى عضده ، ويخرجه عن مقصده .

الخرم وقد يأتون بالخرم كثيراً ــ وهو ذهاب أول حركة من وتد الجزء الأول من البيت ــ وأكثر مايقع فى البيت الأول ، وقد يقع قليلا فى أول عجز البيت ، ولا يكون أبداً إلا فى وتد ، وقد أنكره الخليل لقلته فلم يُجِزْهُ ، وأجازه الناس ، أنشده الجوهرى :

قدَّمت رِجلاً فإن لم تزع ... قَدَّمْتُ الأُخْرَى فنِلْتُ القرار

وأنشد أبو سعيد الحسن بن الحسين السكرى لامرىء القيس :

---

(١) وفيها يقول أبو العلاء المعرى :

وقد يخطىء الرأى امرؤ وهو حازم * كما اختل فى نظم القصيد عبيد

وعبيد : هو ابن الأبرص بن جشم بن عامر بن هر ، وانظر ديوانه المطبوع فى أوربا (ص ٥) .

لقد أنكرتني بعلبكُّ وأهلها وابن جريح كان فى حِمْصَ أنكرا

هكذا روايته ، ورواه غيره * ولاَبْنُ جريح * بغير خرم . فإذا اجتمع الخرم والقبض على الجزء فذلك هو الثرم ، وهو قبيحٌ . وهذان عيبان تدلك التسمية فيهما على قبحهما ؛ لأن الخرم فى الأنف ، والثرم فى الفم ، وإنما كانت العرب تأتى به لأن أحدهم يتكلم بالكلام على أنه غير شعر ، ثم يرى فيه رأياً فيصرفه إلى جهة الشعر ؛ فمن ههنا احتمل لهم وقبح على غيرهم . ألا ترى أن بعض كُتَّاب عبد الله بن طاهر عاب ذلك على أبى تمام فى قوله :

* هُنَّ عوادى يُوسُفٍ وَصَوَاحِبُهْ *

على أنه أولى الناس بمذاهب العرب .

و يأتون بالخزم ـ بزاى معجمة ـ وهو ضد الخرم ـ بالراء غير معجمة ، الناقص منهما ناقص نقطة ، والزائد زائد نقطة ـ وليس الخزم عندهم بعيب ؛ لأن أحدهم إنما يأتى بالحرف زائداً فى أول الوزن ، إذا سقط لم يفسد المعنى ، ولا أخل به ولا بالوزن ، وربما جاء بالحرفين والثلاثة ، ولم يأتوا بأكثر من أربعة أحرف ، أنشدوا عن على بن أبى طالب رحمه الله تعالى ورضى عنه : الخزم

أشْدُدْ حيازِ يمك للموت فإن الموت لاقيكا
ولا تجزع من الموت إذا حلَّ بِوَاديكا

فزاد « اشدد » بياناً للمعنى لأنه هو المراد . قال كعب بن مالك الأنصارى يرثى عثمان بن عفان رضى الله عنه :

لقد عجبتُ لقومٍ أسلموا بعد عزهم إمامَهُمُ للمنكرات وللغدرِ

فزاد «لقد» على الوزن . هكذا أنشدوه . وأنشد الزجاج ـ وزعم أصحاب الحديث أن الجن قالته :

نحن قتلنا سيدَ الخزر ج سـعد بنَ عباده
رمينـاه بسهمين فـلم نُخْطِ فؤاده

فزاد على الوزن « نحن » وأنشد الزجاج أيضاً :

* بل لم تجزعوا يا آل حرب مَجْزعاً *

فزاد « بل » وأنشد أيضاً :

يا مطرَ بن خارجةَ بن مَسْلَمَ إننى أُجْفَى وتُغلَقُ دونىَ الأبوابُ

و إنما الوزن «مطر بن خارجة» والياء والألف[1] زائدة .. ومما جاء فيه الخزم فى أول عجز البيت وأول صدره ، وهو شاذ جداً ، قول طرفة :

هل تذكرون إذ نقاتلكم إذ لا يضر معدماً عدمه

فزاد فى أول صدر البيت « هل » وزاد فى أول العجز « إذ » والبيت من قصيدته المشهورة :

أشجاك الرَّبعُ أم قِدَمُهْ أم رماد دارس حُمَمُهْ

وقال جريبة[2] بن الأشيم أنشده أبو حاتم عن أبى زيد الأنصارى :

لقد طال إيضاعى المخدَّم لا أرى فى الناس مثلى من معد يخطب
حتى تأوبْتُ البيوتْ عشية فوضعت عنه كُورَهُ تتثاءبُ

فاللام فى «لقد» زائدة ، وصاحب هذا الشعر جاهلى قديم ، وقالت الخنساء :

أقَذًى بعينك أم بالعـين عُوَّارُ أم أوحشت إذ خَلَتْ من أهلها الدار

---

(١) صوابه أن يقول « ويازائدة » .

(٢) هكذا فى بعض النسخ بالجيم والراء المهملة ، وفى بعضها « خزيمة » بخاء وزاى موحدتين ، وفى بعضها « حريثة » بحاء وراء مهملتين ، وكل هذه النسخ مخالف لما فى نوادر أبى زيد (ص ٧٢) فإن فيها « خريبة » بخاء معجمة وراء مهملة وبعد الياء باء موحدة .

فزادت ألف الاستفهام ، ولو أسقطتها لم يضر المعنى ولا الوزن شيئاً ، وروى أن أبا الحسن بن كيسان كان ينشد قول امرىء القيس :

* كأنَّ ثَبيراً فى عَرَانين وبله *

ثم بعد ذلك بالواو فيقول : * وكأن ذُرَى رأس المجيمرِ غُدْوَةً *

* وكأنَّ السباع فيه غَرْقَى عَشيَّةً *

معطوفا هكذا ؛ ليكون الكلام نسقاً بعضه على بعض

وقال عبد الكريم بن إبراهيم : مذهبهم فى الخزم أنه إذا كان البيت يتعلق بما بعده وَصَلُوه بتلك الزيادة بحروف العطف التى تعطف الاسم على الاسم والفعل على الفعل والجملة على الجملة ، وأخذ الخزم من خزامة الناقة ، ومن شأنهم مد الصوت فجعلوه عوضاً من الخرم الذى يحذفونه من أول البيت .

وقد قال غيره : إنما أسقطوه كأنهم يتوهمون أنه فى السكتة ؛ فلذلك جعلوه فى الوتد المجموع ؛ لأن المفروق لو أسقطوا حركته الأولى لبقى أوله ساكنا ، ولا يبتدأ بالساكن ، فيسقط أيضاً ، والسكتة لا تحتمل عندهم إلا حرفا واحداً ؛ وهذا اعتلال مليح بين جداً .

ومن التزحيف فى الأوساط الإقعاد[1] ، وهو أن تذهب مثلا نون متفاعلن أو مستفعلن فى عروض الضرب الثانى من الكامل ، وتسكن اللام ، فيصير عروضه كضربه فعلاتن أو مفعولن ، كما قال الشاعر ، وهذا هو القطع عند أصحاب القوافى : الإقعاد

أفبعدَ مقتلِ مالكِ بن زُهَيْرِ ترجو النساء عواقبَ الأطهار

فجاء هذا على معنى التصريع وليس به ؛ فهو عيب ، وأقبح منه قول الآخر :

---

(١) فى التونسية « الإقعاء » فى الموضعين .

إنى كَبِرْتُ وإنَّ كل كَبِيرٍ مما يضنّ به علىّ ويقــــتر

لأنه أتى بالعروض دون الضرب بحرف ، لا لتوهم تصريع ولا إشكال، وإنما نذكر مثل هــذا ليجتنب إذا عرف قبحه . وجاء منه فى الطويل قول النابغة الذبيانى :

جزى الله عبساً عَبْس آل بَغِيضٍ جزاء الـكلاب العاويات وقد فعل(١)

أنشده النحاس . وقول ضباب بن سبيع بن عوف الحنظلى :

لعمرى لقد برَّ الضبابَ بَنُوهُ وبعض البنين حُمَّــةٌ وسُعَال

هكذا روايته بالحاء غير معجمة ، وهو الصحيح ، وبعضهم يرويه « غمة » بالغين معجمة .

وزعم الجمحى أن الإقعاد(٢) لا يجوز لمولد ، وقد أتى به البحترى فى عروض الخفيف فقال يهجو شاعراً :

ليس ينفك هاجياً مَضْرُوباً ألفَ حَدّ ومادحا مصفوعا

قياسا على قول الحارث بن حِلِّزة اليشكرى :

أسدٌ فى اللقاء ذو أشْبَالٍ وربيعٌ إن شَنَّعَتْ غَبراء

وابن قتيبة يسمى هذا الزحاف إقواء ، وسأذكره فى أبواب القوافى إن شاء الله تعالى .

مهمات الزحاف

ومن مهمات الزحاف أربعة أشياء : ابتداء ، وهو ما كان فى أول البيت مما لا يجوز مثله فى الحشو : كالثَّلْم فى الطويل ، والعَصْب فى الوافر ، والخرم فى

---

(١) فى إحدى روايات الديوان * جزى الله عبسا والجزاء بفعله * ومن العلماء من يروى البيت بالألفاظ التى رواه المؤلف بها ولـكنه يصغر لفظ «بغيض» بضم الباء وفتح الغين وتشديد الياء مكسورة ، وعلى هذين فلا شاهد للمؤلف فيه .

(٢) فى التونسية « الإقعاء » فى الموضعين .

المزج ؛ وفصل ، وهو ما كان ملتزما فى نصف البيت الذى يسمى عروضاً ، مثل مفاعلن فى عروض الطويل ، وفعلن فى عروض المديد ، وما جرى مجراهما ، هذا هو الحقيقة ، وأما ما كان من جهة التوسع والمجاز ومعنى التقريب فقد مر ذكرهما آنفا ؛ واعتماد ، وهو ما كان من الزحاف الجائز فى الحشو ولا مثل الجزء[1] الذى قبل الضرب ، كقول امرىء القيس :

أعِنِّى على برقٍ أراه وميضِ يضىء حبيا فى شَمَاريخَ بِيضِ

فأثبت ياء « شماريخ » وهى مكان النون من فعولن ، وكان الأجود أن يسقطها بالقبض ؛ لمكان الاعتماد ؛ لأن السبب قد اعتمد على وتدين : أحدهما قبله ، والآخر بعده ، فقوى قوة ليست لغيره من الأسباب ، فحسن الزحاف فيه ، والاعتماد فى المتقارب سلامة الجزء من الزحاف ؛ وغاية ، وهو ما كان فى الضرب الذى هو جزء القافية ملتزما مخالفا للحشو : كالمقطوع والمقصور والمكسوف[2] ، والمقطوف ، وهذه أشياء لا تكون فى حشو البيت ..

قالوا : وأكثر الغايات معتل ؛ لأن الغاية إذا كانت فاعلاتن أو فعولن أو مفاعيلن فقد لزمها أن لا تحذف سواكنُ أسبابِها ؛ لأن آخر البيت لا يكون متحركا ، هذه حقيقة ما ذكر ، وأما المجاز والاتساع فكثير ...

ويتصل بالغايات أنواع أخر : فمن ذلك معرفة ما يلزمه حرف المد واللين الذى هو الردف مما لا يلزمه[3] ذلك ؛ أجمع حُذَّاق أهل العلم من البصريين والكوفيين على أن كل وزن نقص من أتَمِّ بنائه حرف متحرك عوض حرف

---

(١) هكذا فى المصريتين ، والعبارة غير مستقيمة ، وصوابها : « ما كان من الزحاف الجائز فى الحشو فى الجزء الذى قبل الضرب » .

(٢) فى الأصول كلها « والمكشوف » بالشين المعجمة ، وهو تصحيف .

(٣) كذا فى جميع الأصول ، والصواب حذف كلة « ذلك » .

المد واللين من ذلك الحرف فلم يجىء إلا مُرْدَفاً بواو أو ياء أو ألف . ولا يحتسب فى ذلك بما يقع للزحاف ، مثـل مفعولن[١] فى الخفيف . ألا ترى أنه يعاقب فاعلاتن ؟ فهو لا يوجب الردف ، فإن ذهب منه أكثر من حرف متحرك أو ما يقوم مقامه ، وهو حرف ساكن مع حرف آخر متحرك ؛ لم يلزمه الردف ، وإذا التقى ساكنان ألزموه الردف : فما سقط فألزم حرف المد فعولن المحذوف فى الطويل ، لم يعتدوا بالنون لما يدركها من الزحاف فـكأنما ذهبت اللام فقط ، ومن المديد فاعلاتن المقصور ، ومن البسيط فعلن المقطوع . والفرق بين القطع والقصر أن القصر فى الأسباب والقطع فى الأوتاد ، وهما جميعاً ذهاب ساكن من آخر الجزء وحركة متحرك قبله ملاصقه . والردف إنما يكون عوضاً مما بعـده لا مما قبله . ومن الـكامل فعلات[٢] المقطوع ، ومن الرجز مفعولن[٣] المقطوع ، ومن الرمل فاعلاتن المقصور ، ومن المتقارب فعولن المقصور .

ومما التقى فيـه ساكنان وألزموه الردف مستفعلان المُذَال فى البسيط ، وفيه اختلاف : أما من ألزمه الردف فلا لتقاء الساكنين ، أقاموا المد منهما مقام الحركة ؛ وأما من لم يلزمه الرِّدف فلأنه قد تم وزيد على تمامه . والإرداف إنما يأتى عوضاً من النقصان لا من الزيادة . وفى الـكامل متفاعلان المذال ، وفى الرجز شاذ ، أنشده أبو زهرة النحوى فى كتاب العروض ، وهو :

كأننى فوق أقبَّ سَهْوَقٍ جَأْبٍ إذا عشَّرَ صَاتِى الإِرْنَانْ[٤]

(١) فى جميع الأصول « مفعلن » بلا واو ، وهو غير صحيح .

(٢) أصله « متفاعلن » : حذفت النون وسكنت اللام قبلها فصار « متفاعل » فنقل إلى « فعلاتن » .

(٣) أصله « مستفعلن » فبعد حذف النون وإسكان اللام نقل إلى « مفعولن »

(٤) البيت للمرار الأسدى ، وأصل السهوق الطويل من الرجال ، وقد يستعمل فى غيرهم كما هنا . والجأب : الحمار الغليظ من حمر الوحش . والصاتى : المصوت ، والإرنان : الصوت ، وأراد الرفيع الصوت

وفى الرمل فاعلاتن وحدها ، والقول فيها كالقول فى مستفعلان المُذَال فى البسيط ، وفاعلات فى السريع ، وهو مذيلٌ من البسيط عند الجوهرى ؛ فأما على ما عند مَنْ سواه فهو موقوف من مفعولات مطوية ـ أى ساقطة الواو ـ ومفعولات فى مشطور السريع أيضاً ، وفى مَنْهُوكِ المنسرح يلزمها حرف اللين ؛ فعلى هذا إجماع الحذاق ، إلاَّ سيبويه فإنه رَخص فيه لموافقة الوزن مُرْدفاً وغير مردف ، وأنشد قول امرىء القيس :

ولقد رحلتُ العيس ثم زجَرْتُهَا ... وَهِنًا وقلتُ: عَلَيْكِ خَيْرَ مَعَدٌّ

وقول الراجز :

* إنْ تُمنعِ اليومَ نساءٌ يُمْنَعْنْ *

بإسكان العين والنون . وكان الجَرْمى والأخفش يَرَيَان هذا غلطاً من قائله، كالسناد والإكفاء ، يحكى ولا يعمل به ، إلا أن أبا نواس فى قوله :

* لا تَبْكِ لَيْلى وَلاَ تَطْرَبْ إلَى هِنْدِ *

أخذ بقول سيبويه ، وهو قليل ، والقياس الأول حسن مطرد ، وهو المختار.

المطلق والقيد من القوافى

ومن أهم أمور الغايات معرفة ما يُنشد من الشعر مطلقاً ومقيداً . قال أبو القاسم الزَّجاجى وغيره من أصحاب القوافى : الشعر ثلاثة وستون ضرباً ، لا يجوز إطلاق مقيد منها إلا انكسر الشعر ، ما خلا ثلاثة أضرب : أحدها فى الكامل :

أُبَنِيَّ لا تَظلم بمكة لا الصغيرَ ولا الكبيرْ

وهذا هو الضرب السابع يسمى مُذَالا ، وإن شئت قلت : * ولا الكبيرا * فأطلقته وهو الضرب السادس منه يسمى المرفَّلَ ، والضرب الثانى فى الرمل وهو قول زيد الخيل :

يا بَنى الصَّيْدَاء رُدُّوا فَرَسِى إنما يُفعَل هــــذا بالذليلْ

وهو الضرب الثانى منه ، فإن أطلقته صار أول ضرب منـه ، والضرب الثالث فى المتقارب ، أنشد الأصمى وأبو عبيدة :

كأنى ورحلى إذا زُعتها على جَمَزَى جَازِىء بالرِّمَالْ

. غير أن سيبويه أنشد فيما يجوز تقييده وإطلاقه :

صَفِيَّةُ قومى ولا تعجزى وبَــكِّى النساء على حَمْزَة

وهو من المتقارب : إن أطلق كان محذوفا ، وإن قيد كان أبتر . وقد أنشد أبو زيد سعيد بن أوس بن ثابت الأنصارى لعمرو بن شاس ، قال : والشعر مقيد

وما بيضة بات الظليمُ يَحُفُّها إلى جُؤجؤ جاف بميثاء محلال

بأحسن منها يوم بطن قَرَاقِرٍ تخوض به بطن القطاة وقد سال

لطيفة طىِّ الـكشح مضمرة الحشا هَضِيم العِناق هَوْنَةٌ غير مجبال[1]

تميل على مثل الـكَثِيبِ[2] كأنها نقًا كلما حركتَ جانبه مال

هذا شىء لم يذكره العروضيون ، وهو عندهم مطلق محمول على الإقواء ، كما حمل قول امرىء القيس :

أحنظل لو حاميتمُ وصبرتمُ لأثنيتُ خيراً صالحًا ولأرْضان

ثِيابُ بنى عوف طَهَارَى نقية وأوجههم عنـد المشاهد غُرَّان

عوير ومن مثل العوير ورهطه وأسعد فى ليل البلابل صفوان

فقد أصبحوا والله أصْفَاهُمُ به أبرَّ بأيْمَان[3] وأوفى بجيران

---

(١) فى النوادر (ص ٤١) : « هونة غير متفال »

(٢) فى النوادر « على ظهر الـكثيب » ويروى « على ظهر الضجيع » .

(٣) رواية الديوان « أبر بميثاق » .

إلا الأخفش والجرمى ؛ فإنهما يرويان هذا الشعر موقوفا ، ولا يريان فيه إقواء ، وهذا عند سيبويه لا بأس به .

وقد صوَّبَ الناسُ قولَ الخليل فى مخالفة هذا المذهب ، وأنشد بعضُ المتعقبين أظنه البازى العروضى :

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا ... ويأتيك بالأخبار من لم تزود

بالتقييد على أنه من الضرب المحذوف المعتمد ، قال : إلاَّ أنه يدخله عيبٌ لترك حرف اللين ، وهو كثير جداً .

وليس الابتداء والفصل والاعتماد والغاية بعلل ، ولكنها مواضع العلل ؛ فأقيم المضاف إليه مقام المضاف .

زحاف الحشو (المعاقبة)

وأما زحاف الحشو فمن أهمه معرفة المعاقبة والمراقبة : فأما المعاقبة فهى أن يتقابل سببان فى جزءين ، فهما يتعاقبان السقوط : يسقط ساكن أحدهما لثبوت ساكن الآخر ، ويثبتان جميعاً ، ولا يسقطان جميعاً ، والمعاقبة بين سببى جزءين من جميع الأوزان فى أربعة أنواع : المديد ، والرمل ، والخفيف ، والمجتثّ ، وهو عند الجوهرى ضرب من الخفيف ، فإذا كان السبب فى أول البيت أو كان قبله وتد دخله الزحاف فهو برىء من المعاقبة ؛ إذ ليس قبله ما يعاقبه ، ولأن الوتد لا يعاقب السبب ، فإذا زوحف ثانى الجزء لمعاقبة ما بعده فهو عجز ، فإن زوحف أوّله لمعاقبة ما قبله وآخره لمعاقبة ما بعده فهما طرفان ، وياء مفاعيلن فى الطويل والهزَج يعاقب نونها ، وكذلك سين مستفعلن فى الكامل[1] تعاقب فاءها .

المراقبة

والمراقبة : أن يتقابل السببان فى جزء واحد فيسقط ساكن أحدها ، ولا يسقطان جميعا البتة ، وكذلك لا يثبتان جميعا ، وهى من جميع الأوزان فى المضارع والمقتضب ، والجوهرى يعدُّ المقتضب من الرجز كما قدمت ، فهى من

---

(١) لعله « فى الرجز » فإن الكامل « متفاعلن » وهو من سبب ثقيل وسبب خفيف بعدها وتد مجموع ، وورض كلامه فى سببين خفيفين

المضارع فى سببى مفاعيلن ـ أعنى الياء والنون ـ إما أن يأتى مفاعيلن مقبوضا أو مفاعيلن مكفوفا ، ومن المقتضب فى سببى مفعولات ـ أعنى الفاء والواو ـ إما أن تخبَنَ فتصير مفاعيل[1] و إما أن تطوى فتصير[2] فاعلات ، ولا يجوز أن يكون هذا ولا الذى قبله ـ أعنى المضارع ـ سالما البتة .

والفرق بين المراقبة والمعاقبة أن سببى المعاقبة يثبتان معاً ، وأن سببى المراقبة لا يثبتان معاً ، وأن المعاقبة فى جزءيْنِ ، إلا ما كان من مفاعيلن فى الطويل والهزج ومستفعلن فى الكامل[3] وأن المراقبة فى جزء واحد .

وسأفرد لباقى الزحاف باباً أذكره فيه مع المشطور إن شاء الله تعالى .

ولست أحمل أحداً على أرتكاب الزحاف إلا ماخَفَّ منه وخَفِىَ ، ولو أن الخليل ـ رحمه الله ـ وضع كتاب العروض ليتكلف الناس ما فيه من الزحاف و يجعلوه مثالاً دون أن يعلموا أنها رخصة أتت بها العرب عند الضرورة لوجَبَ أن يتكلف ما صنعه من الشعر مُزَاحَفًا ليدل بذلك على علمه وفضل ما نَحَا إليه .

ولسنا نرى الزحاف الظاهر فى شعر محدثٍ ، إلا القليل لمن لا يتهم كالبحترى ، وما أظنه كان يتعمد ذلك ، بل على سجيته ؛ لأنه كان بدويا من قُرَى مَنْبِجَ ، ولذلك أعجب الناس به ، وكثر الغناء فى شعره ؛ استطرافا لما فيه من الحلاوة على طبع البداوة . وذكر ابن الجراح أنه من أهل قنسرين والعواصم .

وقد ذكرت ما يليق ذكره بهذا الموضع ليعرفه المتعلم إن شاء غير متكلف به

---

(١) خبنها : حذف ثانيها الساكن ، وهو الفاء ، فتصير : « معولات » فتنقل إلى « مفاعيل »

(٢) طيها : حذف رابعها الساكن ، وهو الواو ، فتصير « مفعلات » فتنقل إلى « فاعلات »

(٣) لعله « فى الرجز » فإن الكامل « متفاعلن » وهو من سبب ثقيل فسبب خفيف بعدهما وتد مجموع ، وفرض كلامه فى سببين خفيفين

شعراً إلا ما ساعده عليه الطبع ، وصحّ له فيه الذوق ؛ لأنى وجدت تكلُّفَ العمل بالعلم فى كل أمر من أمور الدين أوفق ، إلا فى الشعر خاصة ؛ فإن عمله بالطبع دون العروض أجود ؛ لما فى العروض من المسامحة فى الزحاف ، وهو مما يُهَجِّنُ الشعر ، ويذهب برَوْنقِه .

٢٢ — باب القوافى

منزلة القافية من الشعر

القافية شريكة الوزن فى الاختصاص بالشعر ، ولا يسمى شعراً حتى يكون له وزن وقافية ، هذا على [رَأْيِ] من رأى أن الشعر ما جاوز بيتاً واتفقت أوزانه وقوافيه ويستدلّ بأن المصرّع أدخل فى الشعر ، وأقوى من غيره ، وأما ما قد أراه فقد قدمته فى باب الأوزان .

حد القافية

واختلف الناس فى القافية ماهى؟ فقال الخليل : القافية من آخر حرف فى البيت إلى أول ساكن يليه من قبله ، مع حركة الحرف الذى قبل الساكن ، والقافية ـ على هذا المذهب ، وهو الصحيح ـ تكون مرةً بعض كلمة ، ومرة كلمة ، ومرةً كلمتين ، كقول امرىء القيس :

* كَجُلْمُودِ صَخْرٍ حَطَّهُ السَّيْلُ مِنْ عَلِ *(١)

فالقافية من الياء التى بعد حرف الروى فى اللفظ إلى نون « من » مع حركة الميم ، وهاتان كلمتان . وعلى وزن هذه القافية قوله :

* إذا جَاشَ فيه حَمْيُهُ غَلْىُ مِرْجَلِ *(٢)

فالقافية « مِرْجَل » وهى كلمة ، وعلى وزنها قولُه:

---

(١) صدر هذا البيت : * مكر مفر مقبل مدبر معا *

(٢) صدر هذا البيت : * على العقب جياش كأن اهتزامه *

* وَيَلْوِى بأثواب العَنِيفِ الْمُثَقَّل *(١)

فالقافية من الثاء إلى آخر البيت ، وهذا بعض كلمة . وتابعه على هذا أبو عمر الجرمى ، وأصحابه ، وهو قول مضبوط ، محقق يشهد بالعلم . وقال الأخفش : القافية آخر كلمة من البيت ، واستدلّ على صحة ذلك بأنه لو قال لك إنسان : ا كتب لى قوافى قصيدة لكتبت له كلمات ، نحو : كتاب ، ولعاب ، وركاب ، وصحاب ، وما أشبه ذلك ، وهو المتعارف بين الناس اليوم ، أعنى قول الأخفش ، وكل كلمـة من قوله « عل » وقوله « مِرجَلِ » وقوله « المثقل » فى شعر امرئ القيس قافية بذاتها عند الأخفش ، فعلى هذين القولين مدار الحذاق فى معرفة القافية .

ترجيح رأى الخليل

ورأىُ الخليل عندى أصوب ، وميزانه أرجح ؛ لأن الأخفش إن كان إنما فرّ من جعله القافية بعض الكلمة دون بعضها فقد نجد من القوافى ما يكون فيها حرف الروى وَحْده القافية على رأيه ، فإن وَزَنَ معه ما قبله فأقامهما مقامَ كلمة من الكلمات التى عدها قوافى كان قد شرّك [فى] القافية بعض كلمة أخرى ممـا قبلها ، فإذا جاز أن يشترك فى القافية كلمتان لم يمتنع أن تكون القافية بعض كلمة، مثال ذلك ما شاكل قول أبى الطيب :

طوى الجزيرة حتى جاءنى خبر فَزِعْتُ فيه بآمالى إلى الكذب
حتى إذا لم يَدَعْ لى صدقهُ أملاً شرقْتُ بالدمع حتى كاد يشرق بى

فالقافية فى البيت الأول على قوله « الكذب » لولا أن الألف فيه ألف وصل نابَتْ عنها لام « إلى » فإن قال : [إن] القافية فى البيت الثانى «يشرق بى» رجع ضرورة إلى مذهب الخليل وأصحابه ؛ لأن القافية عنده فى هذا البيت من الياء التى للوصل ــ وهى ههنا ضمير المتكلم ــ إلى شين « يشرق » مع حركة الياء

---

(١) صدر هذا البيت : *يزل الغلام الخف عن صهواته*

التى قبلها فى أول الكلمة . وإن جعل القافية باء الخفض التى فى موضع الروى وياء الضمير التى قامت مقام الوصل رجع إلى قول مَن جعل القافية حرف الروى وهو خلاف مذهبه ، وليس بشىء ؛ لأنه لو كان صحيحا لجاز فى قصيدةٍ واحدةٍ فجر ، وفجار ، وفاجر ، وفجور ، ومنفجر ، وانفجار ، ومُفَجَّر ، ومتفجر ، ومفجور ، وهذا لا يكون أبداً ، إلا أن الفراء يحيى بن زياد قد نصَّ فى كتاب حروف المعجم أن القافية هى حرف الروى ، واتبعه على ذلك أكثر الكوفيين : منهم أحمد ابن كَيْسان ، وغيره ، وخالفه من أهـــل الكوفة أبو موسى الحامض ، فقال : القافية ما لزم الشاعر تكراره فى آخر كل بيت . وهذا كلام مختصر مليح الظاهر ، إلا أنه إذا تأملتـه كلام الخليل[1] بعينه لا زيادة فيـه ولا نقصان .

رأى آخر فى القافية

ومن الناس مَنْ جعل القافية آخر جزء من البيت : قال أبو القاسم عبد الرحمن الزجاجى : بعض الناس من العلماء يرى أن القافية حرفان من آخر البيت ، وحكى أنهم سألوا أعرابيا وقد أنشد :

* بنَاتُ وطَّاء عَلَى خَدِّ الليل *

ما القافية ؟ فقال : « خدُّ الليل » . ولا أدرى كيف قال أبو القاسم هـذا ؟ لأن « خد الليل » كلمتان وليستا حرفين إلا اتساعا ، وهذا هو آخر جزء من البيت على قول من قاله ، ولو قال قائل : إن الأعرابى إنما أراد الياء واللام من « الليل » على مذهب مَنْ يرى القافية حرفين من آخر البيت لـكان وجهاً سائغاً ؛ لأن الأعرابى لا يعرف حروف التهجى فيقول القافية ألياء واللام من « الليل » فـكرر اللفظ ليفهم عنه السائل مراده .

---

(١) لا ، بل هو قول الفراء إذا تأملت بعين النصفة ؛ لأن الذى يلزمك تـكراره فى آخر كل بيت هو حرف الروى ، وأما ما عداه فليس لازما بنفسه أبداً

آراء أخرى

ومنهم من جعل القافية فى الجزء الآخر من البيت ، وقال : لايسمى بيتاً من الشعر ما دام قسيا أول .

ومنهم من قال : البيت كله هو القافية ؛ لأنك لاتبنى بيتاً على أنه من الطويل ، ثم تخرج منه إلى البسيط ، ولا إلى غيره من الأوزان .

ومنهم من جعل القافية القصيدة كلها ؛ وذلك اتساع ومجاز .

لم سميت القافية

وسميت القافية قافية لأنها تقفو إثرَ كل بيت ، وقال قوم : لأنهـا تَقْفُو أخواتها ، والأول عندى هو الوجه ؛ لأنه لو صح معنى القول الأخير لم يجز أن يسمى آخر البيت الأول قافية ؛ لأنه لم يقفُ شيئاً ، وعلى أنه يقفو أثر البيت يصح جذاً ، وقال أبو موسى الحامض : هى قافية بمعنى مَقْفُوة ، مثل « ماء دافق » بمعنى مدفوق ، و « عيشة راضية » بمعنى مَرْضِية ، فكأن الشاعر يقفوها ، أى يتبعها ، وهذا قول سائغ متجه .

حروف القافية وحركاتها

وسأذكر مما يلزم القافية من الحروف والحركات مالا غنى عن ذكره فى هذا الموضع مجملا مُخْتَصَرالبيان والإيضاح ، إن شاء الله تعالى .

فأقول : إن الشعر كله مطلق ومقيد ؛ فالمقيد ما كان حَرْف الروى فيه ساكناً ، وحرف الروى الذى يقع عليه الإعراب ، وتبنى عليه القصيدة ، فيتكرر فى كل بيت وإن لم يظهر فيه الإعراب لسكونه ، وليس اختلاف إعرابه عيباً كما هو فى المطلق إقواء ، وحركة ماقبل الروى فى المقيد خاصة دون المطلق على رأى الزجاج وأصحابه توجيه ، وقال غيره : فى المطلق والمقيد جميعاً يسمى التوجيه ، ما لم يكن الشعر مُرْدَفاً ، ويجوز فى التوجيه التغيير ؛ فيكون سناداً عند بعض العلماء ، وكان الخليل يجيزه على كره من جهة الفتحة ، فأما الضمة والكسرة فهما عنده متعاقبتان كالواو والياء فى الردف ، والفتحة كالألف ، وأنشدوا :

* أحَارِ بْنَ عَمْرٍو كَأَنِّى خَمِرْ *

وفى القصيدة :

* وكندةُ حولى جميعاً صُبُرْ *

وفيها :

* تحرَّقتِ الأرضُ واليومُ قَرْ *

فاختلاف التوجيه : بالكسر ، والضم ، والفتح . وقد سَمَّى ابن قُتَيْبة وأبو عبيدة وغيرهما هذا العيبَ إجازة ، إلا أن منهم من جعل الإجازة اختلاف حركة الروى فيما كان وصله هاء ساكنة خاصة ، وأنشدوا :

الحمـــدُ لله الذى يَعْفُو ويشتدُّ انتقامُهْ
فى كرهِهِمْ ورضاهُمُ لا يستطيعون اهتضامَهْ

وأنشد آخرون فى مثل ذلك ، إلا أن منهم مَنْ أطلق الهاء :

فديتُ من أنصفنى فى الهوى حتى إذا أحكَمَهُ مَلَّهُ
آمنَ ما كنتُ ، ومن ذا الذى قَبلى صَفَا العَيْشُ له كُلُّهُ ؟

وكان ابن الرومى يلتزم حركة ماقبل الروى فى المطلق والمقيد فى أكثر شعره اقتداراً : صنع ذلك فى قصيدته القافية فى السَّوْداء ، وفى مطولته :

* أَبَيْنَ ضُلُوعِى جَمْرَةٌ تتوقَّدُ ؟ *

قال شيخنا أبو عبد الله : الإجازة ـ بالزاى معجمة ـ اختلاف حركات ما قبل الروى ، وهو مأخوذ من إجازة الحبل ، وهو : تَرَاكب قُوَاه بعضها على بعض ، فكأن هذا اختلفت قُوَى حركاته . وقد حكى ابن قتيبة عن ابن الأعرابى مثل قول أبى عبد الله ، وقال : هو مأخوذ من إجازة الحبل والوتر .

والمطلق نوعان : أحدهما : ما تبع حرفَ رويهِ وصلٌ فقط . والوصل أحد أربعة أحرف : الياء ، والواو ، والألف ، والهاء ، ينفرد كل واحد منها بالقصيدة حتى تكمل ؛ فما وَصله ياء :

قِفَا نَبْكِ من ذِكرى حَبيبٍ ومنزلِ

فبعد اللام ياء فى اللفظ ، لايقوم الوزن إلا بها ، ومما وصله واو :

أمِنَ المنون وريبها تتوجَّعُ

فبعد العين فى اللفظ واو كذلك ، ومما وصله ألف :

* أيَّتُهَا النفس أجْمِلِي جَزَعاً *

فبعد العين ألف ثابتة فى الخط ، وإنما أثبتوها دون الياء والواو لخفتها مرة وكونها عوضاً من التنوين مرة ، ومما وصله هاء :

*أشَجَاكَ الرَّبعُ أمْ قِدَمُهْ *

وكلُّ وصلٍ ساكن ماخلا الهاء ، فإنها تكون ساكنة ومتحركة ، وسيرد عليك ذكرها إن شاء الله تعالى . . وإذا كان ما قبل الواو والياء والهاء ساكناً أو كانت مضاعفة لم تكن إلا حروف روى لا غير ؛ لأن الوصل لا يكون ما قبلها ساكنا ، ولعلة أن المقيد لا وصل له[1] فأما الألف فلا يكون ما قبلها ساكنا لأنها أخف من ذلك ؛ وإذا انفتح ما قبل الواو والياء الساكنتين لم يكونا إلا رَوِيا عند سيبويه ، وإذا انكسر ماقبلهماأوانضم كنت فيهما بالخيار ، وكذلك الألف، إذا كانت أصيلةً أنت فيها بالخيار . وأما الياء المشددة المكسور ما قبلها مع الياء المشدَّدة المفتوح ما قبلها فرأىُ القاضى أبى الفضل جعفر بن محمد فيهما أن يكون المكسور ماقبلها ردفا ويكون المفتوح ماقبلها إما ردفا لما بقى فيها من المد وإما غير ردف لذهاب أكثر المد منها ؛ فتكون على المذهب الأول مثل « قَضَيْناَ» مع « رَضِيناَ » وهذا سناد ، وعلى المذهب الثانى مثل إرداف بيت وترك إرداف الآخر ، كقول حسان بن ثابت * ولاتوصِهِ * فى بيتٍ ، ثم

(١) فى التونسية : «لأن ما يكون ماقبله ساكنا مقيد ، والمقيد لا وصل له »

قال فى الآخر : * ولا تَعصِهِ[1] * وهذا أيضاً سناد . وله رأى ثالث ، وهو أن تكون الياءان لما أدغمت إحداهما فى الأخرى صارتا بمنزلة حرف واحد ، وصار التزام التشديد اختياراً من الشاعر ، وإلا فترك التشديد جائز له . وهذا قول الخليل والأخفش جميعاً ، وقد أنكره الجَرْمى وأبو سعيد السِّيرافى ، وكل هاء تحركَ ما قبلها فهى صِلَة ، إلا أن تكون من نفس الكلمة ؛ فإنك تكون فيها بالخيار : إن شئت جعلتها رويا ، وإن شئت سمحت بها فصيرتها صلة والتزمت ما قبلها فجعلته رويا . وكثيراً ما يسقط الشعراء فى هذا النوع ، قال أبو الطيب :

أنا بالوشاة إذا ذكرتكَ أشبهُ ... تأتى الندى ويُذَاعُ عنك فتكره
وإذا رأيتُكَ دون عِرض عارضا ... أيقنتُ أن الله يبغى نصره

فغلط فى التصريع لأنه التزام فيه الهاء ولولا ذلك لكان البيتان رائيين وسمح بهاء « تكره » فصيرها صلة وإن كانت من نفس الكلمة . وقد وقع ابن المعتز فى مثل حال أبى الطيب فقال :

أفنى العــداةَ إمامٌ ماله شَبَهُ ... ولا ترى مثلَهُ يَوْماً ولم تَرَهُ
ضارٍ إذا انقضّ لم تُخْرَم مخالبه ... مُسْتَوْفِزٌ لا تُبَايِع الحقَّ مُنْتَبِهُ
ما يحسن القطرُ أن ينهلّ عارضهُ ... كما تَتَابَعُ أيام الفتـوح لهُ

(١) البيتان اللذان يشير المؤلف إليهما :
إذا كنت فى حاجة مرسلا ... فأرسل حكيما ولا توصه
وإن باب أمر عليك التوى ... فشاور لبيبا ولا تعصه
غير أن نسبتهما إلى حسان بن ثابت لم تصح عندنا ؛ فإن ديوانه خال من الشعر على هذه القافية ، وسيأتى قريبا (ص ١٦٨) ذكر ذلك مرة ثانية

وقال أيضاً يصف كلاب الصيد فى أرجوزة :

إن خرطتْ من قدها لم ترها إلا وما شاءت من الصيد لهَا
تمسكه عضا، ولا يَدْمى به غريزةً منهن أو تَفَقُّها

ووقع بشار بن برد — على تقدمه عليهما — فى مثل ذلك، فقال :

الله صورهـا وصيرها لاقتك أو لم تلقها ترها
نصبا لِعَيْنِكَ لا ترى حَسَناً إلا ذكرت لها به شَبَها

ولا أعلم أن أحداً من العلماء تسامح فى مثل هـذا ، بل هو عندهم عيب كالإكفاء، وروى بيت بشار « نزها » بالنون والزاى ، جمع نزهة ، ولا عيب فيه على هذا . وهاء حمزة وطلحة لا تكون إلا صلة ، و إذا تحركت هاء التأنيث كنت فيها بالخيار : إن شئت التزمت ما قبلها وجعلتها كالصلة مجازاً ، و إن شئت التزمتها فكانت على حقها رويا . وهـذا رأيهم فى كاف المخاطب مع التأسيس : إذا شاءوا جعلوها رويا فلم يلتزم ما قبلها ، و إن شاءوا جعلوها مقام الصلة والتزموا ما قبلها مجازاً ، وهو الأجود ؛ لاختيار الشعراء إياه قديما على اتساعهم فى تركه . قال القاضى أبو الفضل : مَنْ زعم أن التاء والكاف يكونان وَصْلا فإنما حمله على ذلك أنه رأى بعض الشعراء قد لزم فى بعض شعره حرفا لم يفارقه فظن ذلك الحرف رويا . و إنما لم يجز عنده كونهما صلة لأنهما ليس فيهما من مضارعة حروف المد واللين ما فى الهاء . وقال من جعل التاء صلة كالهاء : إنها تجىء للتأنيث مثلها ، وتكون اسما كما تكون الهاء اسما ، وتزاد كما تزاد الهاء ، و إن الهاء تنقلب تاء فى دَرْج الكلام ، وشَبَّهَ الكاف بالهاء لأنها حرف إضمار مثلها ، وأنها تكون اسما للمجرور والمنصوب كالهاء .

والنوع الآخر من المطلق ما كان لوصْلِهِ خروج ، ولا يكون ذلك الوصل إلا هاء متحركة ، نحو قول الشاعر :

والشيخُ لا يَترُكُ أخـــلاقه حتّى يُوَارى فى ثرَى رَمْسِهِ

فالسين حرف الروى ، وحركتها مجرى ، وإن شئت إطلاق ، كلاهما يقال ، والهاء وصل ، وحركتها نفاذ ، وبعدها فى اللفظ ياء هى الخروج ، ولو كانت الهاء مضمومة كان الخروج واواً ، أو مفتوحة كان الخروج ألفا . ولا يكون حرف الروى إلا فى أحد ثلاثة مواضع : إما متأخراً كقول طرفة :

* لخولَةَ أطْلاَلٌ بِبُرْقَةِ ثَهْمَدِ *

فالدال روى ، وإما قبل المتأخر ملاصقا له كقول عمرو بن كُلْثُوم :

* ألا هُبِّى بصحنك فاصْبَحِيناَ *

فالنون حرف الروى ، أو قبل المتأخر بحرف كقول لبيد :

* عفَتِ الدّيار محلها فمقامُهاَ *

فالميم حرف الروى ، وهذه المواضع المذكورة إنما هى فى اللفظ لا فى الخط ، ولا يكون حرف الروى – إذا كان بعده شىء – إلا متحركا ؛ لأن المقيد لا شىء بعده ، وأنشد بعضهم :

* شَلَّتْ يدَا فَارِيَةٍ فَرَتْهاَ *

على أن التاء حرف روى ، فرَد ذلك العلماء بالعلة التى ذ كرتها ، وقالوا : إنما التزم التاء والراء قبلها اتساعاً ، وإلا فالهاء هى الروى .

وكل شعر فلابد أن يكون : مطلقاً ، أو مقيداً ، ثم لا بد أن يكون : مُرْدَفاً أو مؤسّساً ، أو معرّى منهما مجرداً .

فالمُرْدف نوعان : تشترك الياء والواو فى أحـــدهما ، نحو قول علقمة الفحل :

طَحا بكَ قَلْبٌ فى الحسانِ طَروبُ بُعَيْدَ الشبابِ عصْرَحانَ مَشيبُ

فالياء فى «مشيب» مقام الواو فى « طَرُوب»

وتنفرد الألف بالنوع الآخر نحو قول امرىء القيس :

* ألا عم صَبَاحاً أيها الطَّلَلُ البالى *

لا يشركها غيرها ، والحركة التى قبل الردف — ياء كانت أو وَاواً أو ألفاً — تسمى الحذْوَ ، وقد تَجُرُّ الضمة واواً فى اللفظ ، والكسرة ياء ، وذلك مع هاء الضمير ، فتكون ردفا ، وإن لم تثبت فى الخط ، نحو قول ابن المعتز :

صَمَّخُوا عَارِضَهَا بِالْـــمِسْكِ فى خَدٍّ أسِيلِ
تحت صُدْغَيْنِ يُشيرا نِ إلى وجـه جميلِ
عندىَ الشوق إليه والتناسى عندهُ لِى

ومن المردف ما تكون حركة الحَذْوِ فيه مخالفة للردف ؛ فيجعل شعراً على جهته ؛ فإن دخل مع غيره كان سِناداً ، وذلك مثل هَوْلٍ وَسَيْلٍ يكونان فى قصيدة ، ولا يكون معهما سُول وفِيل .

وقياس المردف فى الوصل والخروج وغير ذلك من حروف الروى وحركته جار على ما تقدم فى المجرد من الردف ، إلا الحَذْو والتوجيه ؛ فإن المقيد يختص بالتوجيه ، وهو الروى ، والمردف يختص بالحَذْو ، وهو حركة ما قبل الردف ، وإن كان المردف مقيداً سقط التوجيه وبقى الحـــذو ؛ لأن الردف قد سد موضع التوجيه .

وقد يلتبس بالمردف ما ليس بمردف فيجتنبه الشعراء ، مثل « فيهم » مع « منهم » وهو جائز ؛ لأن الهاء ليست رويّا فتكون الياء ردفا ، وإنما الروى الميم ، ويجتنبون « منكم » مع « منهم » وذلك جائز لا عيب فيه ؛ لما قدمت آنفاً .

وكان ابن الرومى خاصة من بين الشعراء يلتزم ما لا يلزمه فى القافية ، حتى إنه لا يعاقب بين الواو والياء فى أكثر شعره قدرةً على الشعر واتساعا فيه .

والأجود أن يكون الردف والروى جميعاً فى كلمة واحدة ، فإذا كانا فى كلمتين فلا بأس .

المؤسس

والمؤسس من الشعر: ما كانت فيه ألفٌ بينها و بين حرف الروى حرفٌ يجوز تغييره ؛ فذلك الحرف يسمى الدخيل ، وحركته تسمى الإشباع ، ويجوز تغييرها عند الخليل ، ولا يجوز عند أبى الحسن الأخفش ، مثال ذلك ما أنشده أبو زكريا الفراء :

نهوى الخليط وإن أقمنا بعدهم ... إنّ المقيم مكلفٌ بالسائر
إن المطىَّ بنا يَخِدْنَ ضُحى غدٍ ... واليوم يومُ لبانةٍ وتزَاوُرِ

وهو جائز غير معيب ، وأما القاضى أبو الفضل فرأيه أن حركة الدخيل مادامت إشباعا جاز فيها التغيير بالنصب والخفض والرفع ؛ فإذا قيد الشعر وصار موضع الإشباع التوجيه لم يجز الفتح مع واحد منهما ، واعتلّ فى ذلك بحال المطلق غير المؤسس أن ما قبل رويه جائز تغييره ، فإذا قيد لم يجز الفتح فيه إلا وحده ، فهو سناد ، ويشارك الضم والكسر ، وهذا قول واضح البيان ، ظاهر البرهان ، والناس مجمعون على تغيير الدخيل حتى إن بعضهم لم يسمه لتغيره واضطرابه لكن عَدَّه فيما لا يلزم القافية فسكت عنه .

وأما الإشباع فالقول فيه ما قدمت ، وإذا كان ألف التأسيس فى كلمة وحرف الروى فى كلمة أخرى لم يعدوها تأسيساً لبعدها ، إلا أن يكون حرف الروى مع مضمر متصل أو منفصل ، فإن الشاعر بالخيار : إن شاء جعل الألف تأسيساً ، وإن شاء لم يجعلها تأسيساً ؛ فالتى لا تكون عندهم تأسيساً قول عنترة :

* والنَّاذِرَيْنِ ـ إذا لم ألقَهُما ـ دَمِى *

لما كان الاسم ظاهراً ، وقد أنشد بعضهم فى أبيات اللغز والمعاياة :

أقول لعمرو حين خود رأله ونحن بوادى عبد شمس وهاشم (١)

وَهَى : من الوَهْى ، وشِمْ : من الشَّيم للبرق . . وقول الآخر :

أقول لعبد الله لما لقيته ونحن بوادى الروم فوق القَنَاطِرِ

فالقَنَا : جمع قَنَاة ، وطِرْ ، أمر من طار يطير ، فرخص فيه لما انكسرت حركة دخيله على متعارف الشعر ، وهو كلام حسن الظاهر ، إلا أنه خلاف لما قال العلماء ، والتى تكون تأسيساً لكونها مع المضمر قول الشاعر :

تزيد حسى الكأس السفيهَ سفاهةً وتترك أخلاق الكريم كما هيا

وقول جرير :

فرُدِّى جِمَالَ الحىِّ ثم تحمَّلى فمالك فيهم من مُقَامٍ ولا لِيَا

فهذا ضمير متصل ، والذى قبله ضمير منفصل . .

ومما جاءت الألف فيه غير تأسيس مع المضمر قول الشاعر ، وهو من شواهد أبى الفتح عثمان بن جنى النحوى:

أيَّةُ جاراتك تلك المُوصيَهْ قائلةً لا تَسْقِيَا بحبْليَهْ

لو كنتُ حَبْلاً لسقيتها بِيهْ أو قاصراً وَصَلْتَهُ بِثَوْبِيَهْ

فالألف فى «سقيتها» غير تأسيس ، فإذا كانت الهاء والكاف التى للمخاطب دخيلا لم يخلط الشعراء بها غيرها اتساعا ، و إلا فهو جائز .

وأنشد الجرمى لعوف ابن عطية بن الخرع :

---

(١) أحفظ هذا البيت هكذا :

أقول لعبد الله لما سقاؤنا ونحن بوادى عبدشمس وهاشم

على أن أصل الكلام : « لما وهى سقاؤنا ونحن بوادى عبد شمس » وشم : فعل أمر من شام البرق ، ويجوز أن يكون أمرا من قولهم «وشم» إذا غرز الإبرة فى الجسد ؛ فيكون المراد الأمر بخرز السقاء ، وهو ظاهر

وإن شئتما ألقحتما ونُتِجْتُمَا وإن شئتما عَيْناً بعين كَمَا هما
وإن كان عَقْلاً فاعقِلاَ لأخيكما بناتِ المَخاضِ والفصالَ المقاحما

ومن المؤسس والمردف ما يلتبس على المبتدىء فلا يميزه إلا عن كلفة و بعد فترة ، فأوردت منه ما يكون له مثالا يستدل به و يعمل عليه إن شاء الله تعالى .

فمن ذلك تغيير ما قبل الكاف فى القافية المؤسسة لأنه دخيل ، والكاف روى ، والتزامه يعد اتساعا ، فإذا كانت موضع الكاف هاء صار الشعر مردفا موصولا ولم يجز تغيير ما قبل الهاء ؛ لأنك لو غيرته لكنت قد غيرت حرف الروى ، مثال ذلك قول كُثَيِّر أو غيره :

تَرَاغَتْ لَوَشْكِ البين بُزْلُ جِمالك ولو شئت ما فَجَّعْتِنِى بارتحالك

فالتزم اللام فى القصيدة كلها أو فى أكثرها ؛ اتساعا ، ولو غير كما فعل ذو الرمة فى قوله :

أما استحلبت عينيك إلا محلةٌ بجمهور حُزوى أو بجرعاء مالك
أناخت رَوَايَا كل دلو بهِــا وكلٌّ سماكيٍّ أجشٌّ المبارِكِ

لم يكن عيباً ؛ لأن الكاف رَوِيٌّ وصلتها الياء التى بعدها فى اللفظ ، والدخيل راء « المبارك » ولام « مالك » وقد التزمه كثير كأنّ القافية عنده لامية مردفة ، فالكاف مقام الهاء صلة على المجاز لا على الحقيقة ، وقال كثير فى المردف :

عَلَى ابن أبى العاصى دِلاَصٌ حَصينة أجاد المُسَــدِّى سَرْدها وأذالها

فاللام رويّ ، والألف التى قبلها ردفٌ ، والهاء صلة ، والألف التى بعدها خروج ، ولا يجوز أن يقال لهذه القافية مؤسسة ؛ لأن الهاء إذا تحرك ما قبلها وليست من نفس الكلمة لم تكن إلا صلة ، وإذا كانت الهاء صلة لم تكن اللام إلاَّ روياً ، ولا يجوز تغييرها .

حروف القافية وحركاتها

وجميع ما يلحق القوافى من الحروف والحركات ستة أحرف وست حركات، فالأحرف : الرويُّ ، والردف ، والتأسيسُ ، والوصلُ ، والخروج ، والدخيل ؛ والحركات: الإطلاق ، والحذْو ، والرسُّ ، والتوجيه ، والنفاذُ ، والإشباع ، والذى يجتمع منها فى قافيةٍ واحدة خمسة أحرف ، وهى : التأسيس ، والرّوى ، والصلة ، والخروج ، والدخيل ؛ وكلها يلزم تكراره بعينه إلا الدّخيل ، وأربع حركات ، وهى: الرسُّ ، والإشباع ، والإطلاق ، والنفاذ ، وذلك مثل قول الشاعر(١) :

يُوشِكُ مَنْ فَرَّ من مَنِيَّتِهِ فى بعض غِرَّاته يُوَافقهـا

ولا يجتمع فى قافيةٍ الحذْوُ والرس ، كما لا يجتمع الردف والتأسيس ، وكذلك لا يجتمع أيضاً التوجيه والإشباع، فيسقط التوجيه إذا كان المؤسس مطلقاً ، و يسقط الإشباع إذا كان المؤسس مقيداً

وقد أنكر الجرميُّ والأخفش وأصحابهما على الخليل تسمية الرس ، وقالوا : لا معنى لذكر هذه الفتحة ؛ لأن الألف لايكون ما قبلها إلا مفتوحاً ، و إنما احتيج إلى ذكر الحذو قبل الردف لأن الحذو قد يتغير فيكون مرة فتحة قبل ألف ومرة كسرة قبل ياء ومرة ضمة قبل واو ..

عيوب الشعر

ومما يجب أن يراعى فى هذا الباب الإقواء ، والإكفاء ، والإيطاء، والسناد، والتضمين ؛ فإنها من عيوب الشعر .

فأما الإقواء والإكفاء فاختلف العلماء فيهما وفى اشتقاقهما . . وأما السناد

---

(١) هذا البيت من شواهد سيبويه (ج ١ص ٤٧٩) وهو من شواهد الأشمونى (ج ٢ص ١٧٤) وشرحناه فى شرحنا عليه شرحا وافيا. وهو لأمية بن أبى الصلت ، وبعده :

من لم يمت عبطة يمت هرماً الموت كأس والمرء ذائقها

والإيطاء فاتفقوا فيما دون اشتقاقهما .

الإقواء وعند أكثر العلماء : اختلاف إعراب القوافى إقواء ، وهو غير جائز لمولد ، وإنما يكون فى الضم والكسر ، ولا يكون فيه فتح، هذا قول الحامض .. وقال ابن جنى : والفتح فيه قبيح جداً ، إلا أن أبا عبيدة ومن قال بقوله كابن قتيبة يسمون هذا إكفاء ، والإقواء عندهم : ذهاب حرف أو ما يقوم مقامه من عروض البيت ، نحو قول الشاعر — وهو بجير بن زهير بن أبى سُلْمَى :

كانت علالة يوم بطن حنَيْنِ وغداةِ أوطاس ويوم الأبرق(1)

واشتقاقه عندهم ـ فيما روى النحاس ـ من « أقوت الدار » إذا خَلَتْ ، كأن البيت خلا من هذا الحرف . وقال غيره : إنما هو من « أقوَى الفاتل حَبْلَه » إذا خالف بين قُوَاه فجعل إحداهن قوية والأخرى ضعيفة ، أو ممرة والأخرى سَحِيلة ، أو بيضاء والأخرى سوداء ، أو غليظة والأخرى دقيقة ، أو انحلّ بعضها دون بعض أو انقطع ، وهذا يسميه الخليل المقعد ، وهو من باب الوزن ، لا من

---

(1) قال ابن هشام (ج ٣ ص٢٦) : « ولما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من الطائف بعد القتال قال بجير بن زهير بن أبى سلمى يذكر حنينا والطائف ثم ذكر تسعة أبيات أولها هـذا البيت » اهـ وقال السهيلى (ج ٢ ص ٣٠٥) : « وقوله كانت علالة يوم بطن حنين : هذا من الإقواء ، وهو أن ينقص حرفا من آخر القسيم الأول من الكامل ، وهو الذى كان الأصمعى يسميه المقعد ، والعلالة : جرى بعد جرى ، أو قتال بعد قتال . يريد أن هوازن جمعت جمعها علالة فى ذلك اليوم . وحذف التنوين من علالة ضرورة ، وأضمر فى كانت اسمها وهو القصة . وإذا كانت الرواية بخفض يوم فهو أولى من التزام الضرورة القبيحة بالنصب ، ولكنى ألفيته فى النسخة المقيدة . وإذا كان اليوم مخفوضا بالإضافة جاز فى علالة أن يكون منصوبا على خبر كان ؛ فيكون اسمها عائدا على شىء تقدم ذكره ، ويجوز الرفع على أن تكون كان تامة » اهـ كلامه .

باب القافية ، والجمهور الأول من العلماء على خلاف رأى أبى عبيدة فى الإقواء .

الإكفاء

وأما الإكفاء فهو الإقواء بعينه عند جِلّةِ العلماء : كأبى عمرو بن العلاء ، والخليل بن أحمد ، ويونس بن حبيب ، وهو قول أحمد بن يحيى ثعلب ، وأصله من «أكفأت الإناء» إذا قلبته ، كأنك جعلت الكسرة مع الضمة وهى ضدها ، وقيل : من مخالفة المكفوة صواحبها ، وهى النسيجة من نسائج الخِبَاء تكون فى مؤخّرِه ، فيقال : بيت مكفأ ، تشبيهاً بالبيت المكفأ من المساكن إذ كان مشبهاً به فى كل أحواله .. قال الأخفش البصرى : الإكفاء القلب ، وقال الزجاجى وابن دريد : كفأت الإناء إذا قلبته ، وأكفأته إذا أملته ، كأن الشاعر أمال فمه بالضمة فصيرها كسرة ، إلا [أن] ابن دريد رواهما أيضا بمعنى قلبته شاذاً ، وقيل : بل من المخالفة فى البناء والكلام ، يقال «أكفأ البانى» إذا خالف فى بنائه ، و«أكفأ الرجل فى كلامه» إذا خالف نظمه فأفسده ، قال ذو الرمة :

وَدوِّيّةٍ قَفْرٍ ترى وَجْهَ ركبها إذا ما عَلَوْهَا مُكْفأً غيرَ ساجع

وَقال المفضل الضبى : الإكفاء اختلاف الحروف فى الروى ، وَهو قول محمد ابن يزيد المبرد ، وَأنشد :

قُبِّحْتِ من سالفةٍ ومن صُدُغْ كأنها كُشْيَةُ ضَبٍّ فى صُقُعْ

فأتى بالعين مع الغين ، وَاشتقاقه عنده من المماثلة بين الشيئين ، كقولك : فلان كُفْءُ فلان ، أى : مثله ، قال : ومنه كافأتُ الرجل ، كأن الشاعر جعل حرفاً مكان حرف ، وَالناس اليوم فى الإكفاء على رأى المفضل ، وَهو عيب لا يجوز أيضا لمحدث ، وَلا يكون إلا فيما تقارب من الحروف ، وَإلا فهو غلط بالجملة ، هذا رأى الأخفش سعيد بن مسعدة ، وَالخليل يسمى هذا النوع : الإجازة .

الإجازة والإجارة

قال الفراء : الإجازة فى قول الخليل : أن تكون القافية طاء وَالأخرى

دالاً ، وقال أبو إسحاق النجيرمي : الإجارة بالراء لا غير وهى من الجوار ، وهو الموج ، قال ابن السكيت : وهو الماء الكثير ، وأنشد للقطامى يذكر سفينة نوح عليه السلام :

* وَلَوْلاَ اللهُ جَارَ بِهَا الجِوَارُ *

قال المهلبي : ورأيته بخط الطوسى والسكرى بالراء ، وهو قول الكوفيين ، فاما البصريون فيقولون « الإجازة » بالزاى ، حكى ذلك ابن دريد .

وقال بعض شيوخنا : الإجارة فى القوافى مشتقة من الجوار فى السكنى والذِّمام ، ألا ترى أنها فيما تقارَبَ من الحروف ، فكأن الحرف جاور الآخر ودخل فى ذمامه ، وقال قوم : بل هى من الجور ، كأن القافية جارت ، أى : خالفت القصد ، وأجارها الشاعر ، أى : صيرها كذلك ، وعلى هذا يصح قول النجيرمى

فإذا تأملنا أقاويل العلمـــاء وجدنا الإجازة — بالزاى — اختلاف التوجيه ، وهو حركة ، والإجارة — بالراء — اختلاف الروى ، وهو حرف ، وليس هذا من هذا فى شيء ، فكأن العلماء لم يختلفوا حينئذ ؛ لأن التسمية اختلفت باختلاف المسمى .

ومثل الإجازة الإصراف ، حكاه شيخنا أبو عبد الله ، قال : وهو أن تكون القافية دالاً والأخرى طاء ، والقصيدة مصرفة ، ولذلك قال الشاعر : الإصراف

مُقَوَّمَةً قوافيها ولَيْسَتْ بمصرَفةِ الرويّ ولا سناد

وأما السناد فأنواع كثيرة : منها ـ وهو المشهور ـ أن يختلف الحذْو ، وهو حركة ما قبل الردْف ، فيدخل شرط الألف ـ وهى الفتحة ـ على الياء والواو السناد

كقول الفضل بن العباس اللهبى :

* واملئى وَجْهَكِ الجميلَ خُمُوشا *

ثم قال :

* وَبنا سميت قرَيْشٌ قُرَيْشا *[1]

وَهو كثير [جائز] للعرب غير جائز للمولدين، وَمنها اختلاف الإشباع ، كقول النابغة:

* يزرن ألالاً سَيرهنّ التدافعُ *

وَالقصـــيدة كلها إشباع ، وَمنها إرداف قافية وَتجريد أخرى ، كقول[2] حسان بن ثابت فى قافية :

* فأرْسل حكيما ولا تُوصِهِ *

وَقال فى أخرى :

* وَشاوِرْ لبيباً وَلا تَعْصِهِ *

وَمنها تأسيس قافية دون أخواتها ، كقول العجاج :

* فخندِفٌ هامةُ هذا[3] العاَلمِ *

وَأول هذه الأرجوزة :

* يا دَارَ سَلْمَى يا اسْلَمِى ثم اسْلَمِى *

وَكلها غير مؤسسة إلا هذا البيت وَحده ، وَيقال : إن لغته الهمز ، فإذا همز لم يكن تأسيسا . وَمنها اختلاف التوجيه ، نحو قول امرئ القيس بن حجر :

---

(١) فى خزانة الأدب (ج ١ ص ١٨٩ السلفية) نسبة هذا البيت إلى المشمرخ ابن عمرو الحميرى ، ورواه هكذا :

وقريش هى التى تسكنُ البحـــر بهـا سميت قريش قُريشا

ورواية البيت فى لسان العرب كروايته فى الخزانة غير أنه لم ينسبه

(٢) انظر (ص ١٥٧) من هذا الجزء

(٣) وأكثر علماء العربية يروونها هكذا ٭ نخندف هامة هذا العألم ٭

مهموزا ؛ فلا شاهد للمؤلف فيه ، وسيذكر المؤلف بعد ذلك هذه المقالة

لا وأبيكِ ابنةَ العامرىّ لا يَدَّعِى القومُ أنى أفِرْ

ثم قال:

تميمُ بن مرّ وأشياعها وكندةُ حولى جميعا صُبُرْ
إذا ركبوا الخيل واستلأموا تحرّقت الأرض واليوم قَرّ

فما قبل الراء فى البيت الأول مكسور ، وفى الثانى مضموم ، وفى الثالث مفتوح ، وليس هذا بعيب شديد عندهم .

قال الزجاجى : السناد : كل عيب يلحق القافية ، ماخلا الإقواء والإكفاء والإيطاء ، وهذا قول فيه بيان واختصار .

وقال على بن عيسى الرمانى : السناد : اختلاف ما قبل حرف الروى أو بعده على أى وجه كان الاختلاف : بحركة كان ، أو بحرف ..

وقال ابن جنى : السناد : كل عيب يحدث قبل الروى .

واشتقاق السناد من « تساند القوم » إذا جاءوا فرقًا لا يقودهم رئيس واحد ، وقيل : بل هو من قولهم « ناقة سناد » إذا كانت قوية صلبةً ؛ لأن الياء الصلبة أقوى فى النطق من الياء اللينة . . وقالوا : بل السناد الناقة المشرفة ، كأن إحدى القوافى أشرفت على أخواتها .

الإيطاء

وأما الإيطاء فهو أن يتكرر لفظ القافية ومعناهما واحد ، كما قال امرؤ القيس[1] فى قافية * سَرْحة مَرْقَبِ * وفى قافيـــة أخرى * فَوْقَ مَرْقَبِ * وليس بينهما غير بيت واحد . . وكلما تباعد الإيطاء كان أخف ، وكذلك إن خرج الشاعر من مدح إلى ذم ، أو من نسيب إلى أحدهما ، ألا ترى إلى

---

(١) البيتان هما :

عظيم طويل مطمئن كأنه بأسفل ذى ماوان سرحة مرقب
له أيطلا ظبى وساقا نعامة وصهوة عير قائم فوق مرقب

ووقع فى الأصول * سرح مرقب * والسرحة : الشجرة العظيمة ، والسرح : جمعها

قولهم « دَعْ ذا » و « عَدِّ عن ذا » فكأن الشاعر فى شعر آخر ، وأقبح من هذا الإيطاء قول تميم بن أبى [بن] مقبل :

أو كاهتزاز رُدَيْنِيٍّ تَدَاوله أيدى التِّجَار فزادوا متنه لينا

ويروى * تذاوقه * ثم قال فى القصيدة غيرَ بعيدٍ :

نازعْتُ ألبابَهَا لبى بمتصد من الأحاديث حتى زِدْنَنِي لينا

فكرر القافية والمعنى مع أكثر لفظ القسيم ، وأشدُّ من ذلك قولُ أبى ذؤيب فى بنيه :

سبقوا هَوَىَّ وأعْنَقُوا لهواهُمُ فتخرَّمُوا ، ولكلِّ جنب مصرع

ثم قال فى صفة الثور والكلاب :

فصرعنه تحت العجاج فجنبه متترب ، ولكل جنب مصرع

فكرر ثلث البيت . . وإذا اتفق الكلمتان فى القافية واختلف معناهما لم يكن إيطاء عند أحد من العلماء ، إلا عند الخليل وحده ، فإن « يزيد » عنده بمعنى الاسم و « يزيد » بمعنى الفعل إيطاء ، وكذلك « جَوْن » للأبيض والأسود ، و « جَلَل » للكبير والصغير ، وإذا كان أحد الاسمين نكرة والآخر معرفة لم يكن إيطاء ، وكذلك « ضَرَبَ » للواحد و « ضربا » للاثنين ، و « لم تضرب » للمذكر و « لم تضربى » للمؤنث ، و « من غلام » و « من غلامى » مضافاً ، كل هذا ليس بإيطاء . . وأما اختلاف الحروف على الاسم كقولك « لزيد » و « بزيد » وعلى الفعل كقولك « أضرب » و « يضرب » و « تضرب » فى مخاطبة المذكر والحكاية عن المؤنث ؛ فكلُّ ذلك إيطاء . .

والايطاء جائز للمولدين ، إلا عند الجمحى وحده ؛ فإنه قال : قد علموا أنه

عيب . . وقال الفراء : إنما يواطىء الشاعر من عِيّ ، وإذا كرر الشاعر قافية للتصريع فى البيت الثانى لم يكن عيباً ، نحو قول امرىء القيس :

* خليليّ مُرَّا بى على أم جُنْدُبِ *

ثم قال فى البيت[1] الثانىْ * لدى أم جندب * واشتقاقه من الموافقة ، قال الله عز وجل : « لِيُوَاطئوا عِدَّةَ ما حَرَّمَ اللهُ » أى : ليوافقوا . . وقال قوم : بل الإيطاء من الوطء ، كأن الشاعر أوطأ القافية عقب أختها ، كما قال توبة يخاطب بعل ليلى الأخيلية :

لعلك يا تَيْساً نَزَا فى مَرِيرَة   تُعاقِبُ ليلى أن ترانى أزورها
علىّ دماء البُدْن إن كان بَعلها   يرى لىَ ذنباً غير أنى أزورها

التضمين والتضمين : أن تتعلق القافية أو لفظة مما قبلها بمـا بعدها ، كقول النابغه الذبيانى :

وَهُمْ وَرَدوا الجِفَارَ على تميم   وهم أصحاب يومِ عكَاظَ، إنّى
شهدت لهم مواطنَ صالحاتٍ   وثقت لهم بحسن الظن منى

وكلما كانت اللفظة المتعلقة بالبيت الثانى بعيدة من القافية كان أسهل عيباً من التضمين ، ويقرب من قول النابغة قول كعب بن زهير :

ديار التى بَتَّتْ حبالى وصَرَّمَتْ   وكنت إذا ما الحبل من خلةٍ صُرِمْ
فزعت إلى وَجْنَاء حَرْفٍ كأنما   بأقرابها قارٌ إذا جلدها استحم

(١) البيتان هما :

حليلى مرابى على أم جندب   لنقضى حاجات الفؤاد المعذب
فإنكما إن تنظرانى ساعة   من الدهر تنفعنى لدى أم جندب

وقد روى عجز البيت الأول على عدة وجوه أفضلها ما أثبتناه ، على أن اللام فى « لنقضى » لام التعليل ، والفعل بعدها منصوب بالفتحة الظاهرة .

وأخف من هذا قول إبراهيم بن هَرْمَة :

إما تريني شاحباً متبذّلا كالسيف يَخلق جَفْنه فيضيع
فلرب لذة ليـــلة قد نلتها وحرامها بحلالهـــا مدفوع

وليس منه قول متمم بن نويرة :

لعمري وما دهري بتأبين هالكٍ ولا جزعا ممــا أصاب فأوجعا
لقد كَفَّنَ المِنْهَالُ تحت ردائه فتًى غــير مِبْطَانِ العشيات أرْوَعَا

وربما حالت بين بيتي التضمين أبيات كثيرة بقدر ما يتسع الكلام وينبسط الشاعر فى المعانى ، ولا يضره ذلك إذا أجاد .

ألقاب القوافى

ويجمع القوافى كلها خمسة ألقاب : المتكاوِس ، وهو : أربع حركات بين ساكنين ، وله جزء واحد وهو فعلتن ، والفراء لا يعده ؛ لأنه عنده من المتدارك؛ لأن فعلتن إنمــا هى مستفعلن مُزَاحَفَ السببين ؛ والمتراكب ، وهو ثلاث متحركات بين ساكنين ، ولها جزءان مفاعلتن وفعلن ؛ والمتدارك ، وهو : حركتان بين ساكنين ، وهو نحو مفاعلن ومتفاعلن ومستفعلن وفاعلن ؛ والمتواتر ، وهو : ما توالى فيــه متحرك بين ساكنين ، نحو مفاعيلن وفاعلاتن وفعلاتن ومفعولن ؛ والمترادف ، وهو : ما اجتمع فى آخره ساكنان نحو فاعلانْ ومتفاعلانْ ومستفعلانْ ، وما أشبه ذلك .

ولا يجتمع نوعان من هذه الأنواع فى قصيدة ، إلا فى جنس من السريع ؛ فإن المتواتر يجتمع فيه مع المتراكب ، إذا كان الشعر مقيداً كقول المرقّش فى بيت[1] :

* وأطرافُ الأكفِّ عَنَمْ *

(١) هو بتمامه :

النشر مسك والوجوه دنا نير وأطراف الأكف عنم

وفى بيت[1] آخر:

* قد قلتُ فيه غيرَ ما تَعْلَمْ *

(٢٣) — باب التقفية والتصريع

هـذا باب يُشكل على كثير من الناس علمه ، ويلحقه عيب سماه قدامة التجميع ، كأنه من الجمع بين رويّين وقافيتين ، ورأيت من يقول : التخميع — بالخاء — كأنه من أنْخَمِع فى الرجل ، وسأذكره فى موضعه ، إن شاء الله تعالى.

التصريع — فأما التصريع فهو ما كانت عروض البيت فيه تابعة لضربه : تنقص بنقصه ، وتزيد بزيادته ، نحو قول امرىء القيس فى الزيادة :

قفا نَبْكِ من ذكرى حبيب وَعِرْفَانِ ... ورسمٍ عَفَتْ آياتُهُ منذ أزمان

وهى فى سائر القصيدة مفاعلن ، وقال فى النقصان :

لمن طَلَلٌ أبصَرْتُهُ فَشَجَانِى ... كخطِّ زَبورٍ فى عَسيبِ يمانى

فالضرب فعولن ، والعروض مثله لمكان التصريع ، وهى فى سائر القصيدة مفاعلن كالأولى ؛ فكلُّ ما جرى هـذا المجرى فى سائر الأوزان فهو مُصَرَّع .

التقفية — والتقفية : أن يتساوى الجزءان من غير نقص ولا زيادة ، فلا يتبع العروض الضرب فى شىء إلا فى السجع خاصة ، مثال ذلك قوله :

---

(٢) لم يتيسر لى الوقوف على نسخة كاملة من شعر المرقش الأكبر ، ولم أقف فى المختار من شعره على البيت الذى عجزه هذا الذى ذكره المؤلف، ولكنى وجدت فى معاهد التنصيص للعباسى (ح ١ ف١٦٢) كثيرا من أبيات القصيدة التى منها هذان البيتان ، ومن أبياتها التى يستشهد بها على نحو ما ذكره المؤلف قوله:

الدار قفر والرسوم كما ... رقش فى ظهر الأديم قلم

ليس على طول الحياة ندم ... ومن وراء المرء مايعلم

قال العباسى : «وهى قصيدة طويلة ليست بصحيحة الوزن ، ولا حسنة الروى، ولامتخيرة اللفظ ، ولا لطيفة المعنى . قال ابن قتيبة : ولا أعلم فيها شيئاً يستحسن إلا قوله * النشر مسك . . . البيت » اهـ كلامه .

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل   بسقط اللوى بين الدَّخولِ فحومل

فهما جميعاً مفاعلن ، إلا أن العروض مقَفّى مثل الضرب ، فكل ما لم يختلف عروض بيته الأول مع سائر عروض أبيات القصيدة إلا فى السجع فقط فهو مقفى .

اشتقاق التصريع

واشتقاق التصريع من مصراعى الباب ، ولذلك قيل لنصف البيت «مصراع» ، كأنه باب القصيدة ومدخلها ، وقيل : بل هو من الصرعين ، وهما طَرَفا النهار ، قال أبو إسحاق الزجاج : الأول من طلوع الشمس إلى استواء النهار ، والآخر من مَيْل الشمس عن كبِد السماء إلى وقت غروبها . قال شيخنا أبو عبد الله : وهما المصران . وقال قوم : الصرع المثل ، وسبب التصريع مبادرة الشاعر القافية ليعلم فى أول وَهْلة أنه أخذ فى كلام موزون غير منثور ، ولذلك وقع فى أول الشعر ، وربما صَرّع الشاعر فى غير الابتداء ، وذلك إذا خرج من قصة إلى قصة أو من وصف شىء إلى وصف شىء آخر فيأتى حينئذ بالتصريع إخباراً بذلك وتنبيهاً عليه ، وقد كثر استعمالهم هذا حتى صَرّعوا فى غير موضع تصريع ، وهو دليل على قوة الطبع ، وكثرة المادة ، إلا أنه إذا كثر فى القصيدة دل على التكلف ، إلا من المتقدمين ، قال امرؤ القيس :

تروحُ من الحىّ أم تبتكرْ   وماذا عليك بأن تنتظرْ ؟

أمَرْخٌ خيامهمُ أم عُشَرْ   أم القلب فى إثرهِمْ مُنْحَدِرْ

وشاقكَ بين الخليط الشُّطُرْ   وفيمن أقام من الحى هِرّ ⁽¹⁾

(١) تروح : تسير وقت الرواح ، وهو آخر النهار . ويروى الشطر الثانى * وماذا يضرك لو تنتظر * والمرخ : شجر قصار ينبت بنجد ، والعشر : شجر طوال بالغور ، وعرضه بهذه العبارة أن يقول : أهم منجدون أم متغورون ، أى . أيقيمون فى نجد أم فى غور ؟ والشطر : جمع شطير ، وهو القريب ، ويروى البيت الثالث هكذا :

وفى من أقام من الحى هر   أم الظاعنون بها فى الشطر

فوَالَى بين ثلاثة أبيات مصرعة فى القصيدة ، وقد يجعلون أولها :

أحارِ بنَ عَمْرٍو كأنى خَمِرْ ويَعْدُو على المرءِ ما يأتمِر

وقال عنترة العبسى :

أعياكَ رسمُ الدارِ لم يتكلم حتى تكلم كالأصمِّ الأعجم

ثم قال بعد بيت واحد :

هـل غادرَ الشعراء من مُتَرَدَّم أم هل عرفت الدار بعد توهُّم ؟

يا دار عَبْـلة بالجِوَاء تكلمى وعِمِى صباحاً دارَ عبلة واسلمى

فصرع البيت الأول والثالث والرابع .

وقولنا فى شعر امرىء القيس وعنترة وغيرهما مما يستأنف مصرع إنما هو مجاز وجرى على عادة الناس ؛ لئلا يخرج عن المتعارف ، وإلا فقد بينت ذلك أولا.

ومن الناس من لم يصرع أول شعره قلة اكتراث بالشعر ، ثم يصرع بعد ذلك ، كما صنع الأخطل إذ يقول أول قصيدةَ :

حلت صبيرة أمواهَ العداد وقد كانت تحل وأدنى دارها ثـكد

وأقفر اليوم ممن حَـــلّهُ الثمدُ فالشعبتان فذاك الأبلق الفرد

فصرع البيت الثانى دون الأول .. وقال ذو الرمة أول قصيدة :

أداراً بحُزْوَى هِجْتِ للعين عَبْرَةً فماء الهوى يَرْفَضُّ أو يترقرقُ

ثم قال بعد عدة أبيات :

أمِنْ مَيَّةَ اعتادَ الخيالُ المؤرِّقُ ؟ نعم ؛ إنَّهَا مِمَّا على النأى تَطْرُقُ

وكان الفرزدق قليلا ما يصرع أو يُلقِى بالا بالشعر ، كقوله :

ألم تر أنى يوم جوِّ سويقةٍ بكيتُ فنادتنى هُنيدةُ ماليا

فجاء بمثل هذه القصيدة الجليلة غير مُصَرَّعة . وكذلك قوله يرد على جرير

تكاثر يربوعٌ عليك ومالك على آل يربوع فمالك مَسْرَحُ

وأكثر شعر ذى الرمة غير مُصَرَّع الأوائل ، وهو مذهب الكثير من الفحول وإن لم يعد فيهم لقلة تصرفه ، إلا أنهم جعلوا التصريع فى مهمات القصائد فيما يتأهبون له من الشعر ، فدل ذلك على فضل التصريع . وقد قال أبو تمام وهو قدوة :

وتقفو إلى الجَدْوى بجَدْوَى ، وإنما يروقُكَ بيتُ الشعرِ حينَ يُصَرَّعُ

فضرب به المثل كما ترى .

والتصريع يقع فيه من الإقواء والإكفاء والإيطاء والسناد والتضمين ما يقع فى القافية : فمن الإقواء ما أنشده الزجاجى ، وهو قول بعضهم :

ما بال عينك منها الماء مُهْرَاقُ سَحًّا فلا غارب منها ولا راقى

ومن الإكفاء قول(1) حسان بن ثابت ، وأنشده الجاحظ :

ولستَ بخيرٍ من أبيك وخالكا ولستَ بخير من معاظلةِ الكلب

ومن الإيطاء قول عبد الله بن المعتز :

يا سائلا كيف حالى أنت العليم بحالى

ومن السناد قول إسماعيل بن القاسم أبى العتاهية :

---

(1) انظر على أى وجه يتحقق الإكفاء مع التصريع فى هذا البيت ؟ ! نعم إنه ليتصور فيه ذلك النوع من التصريع الذى سماه التجميع وسيأتى ذكره قريباً ، ولكن لا يتصور فيه الإكفاء على وجه من الوجهين اللذين سبق له ذكرهما ، ولو كانت العبارة هكذا « والتصريع يقع فيه من الإقواء والإقعاد . . إلخ ثم يقول: ومن الإقعاد قول حسان . . . إلخ » لكانت أقرب وأحسن ، على أننى لم أجد هذا البيت فى ديوان حسان .

ويلي على الأظعان وَلَّوْا عـــنى بعتبة فاستقلُّوا

ومن التضمين قول البحترى :

عَذِيرِى فيك من لاحٍ إذا ما شكوتُ الحبّ قطّعنى مَلاَما

التجميع

ومن ابتداء القصائد التجميع ، وهو : أن يكون القسيم الأول متهيئاً للتصريع بقافية ما ، فيأتى تمام البيت بقافية على خلافها ، كقول جميل :

يا بُثْنَ إنك قد ملكت فأسْجِحِى وخذى بحظِّكِ من كريم واصل

فتهيأت القافية على الحاء ، ثم صرفها إلى اللام .

ومثله قول حُمَيْد بن ثَوْر الهلالى :

سلِ الرَّبْع أنىّ يَمَّمَتْ أمُّ سالم ؟ وهل عادةٌ للربع أن يتكلما ؟ ! !

فتهيأت له قافية مؤسسة لو شاء ، ثم أتت فى آخر البيت غير مؤسسة ، و يروى * أمُّ أسْلَمَا * فخرج عن التجميع .

ومن أشد التجميع قولُ النابغة الذبيانى :

جزى الله عبساً عبسَ آل بغيضٍ جزاء الـكلاب العاويات وقد فعل[(١)]

و إنما التجميع فيما شابه الإطلاق ، أو قارب ذلك ، كقول جميل فيما تقدم وقول حُمَيْد ، وهو كالإكفاء والسناد فى القوافى ، إلا أنه دونهما فى الـكراهية جداً . . و إذا لم يصرع الشاعر قصيدته كان كالمتسور الداخل من غير باب .

الداخل

والمداخَلُ من الأبيات : ما كان قسيمهُ متصلا بالآخر ، غير منفصل منه ، قد جمعتهما كلمة واحدة ، وهو المدمجُ أيضاً ، وأكثر ما يقع ذلك فى عروض[(٢)]

---

(١) انظر (ص ١٤٤) من هذا الجزء

(٢) مثاله قول أبى العلاء المعرى :

أبنات الهديل ، أسعدن أوعد ن قليل العـــزاء بالإسعاد

أبـكت تلـكم الحمامة أم غنـــت على فرع غصنهـــا المياد

الخفيف ، وهو حيث وقع من الأعاريض دليل على القوة ، إلاّ أنه فى غير الخفيف مستثقل عند المطبوعين ، وقد يستخفونه فى الأعاريض القصار : كالهزج ومربوع الرمل وما أشبه ذلك .

ومن الشعر غير المصرع ما لا يجوز أن يظن تجميعاً ، وذلك نحو قول ذى الرمة واسمه غيلانُ بن عُقْبَةَ :

أأنْ ترسَّمتَ من خرقاء منزلةً ماء الصبابةِ من عينيكَ مَسْجُومُ

لأن القافية من عروض البيت غير متمكنة ، ولا مستعمل مثلها ، وإن كان استعمالها جائزاً لو وقع .

القواديسى من الشعر

ومن الشعر نوع غريب يسمونه القواديسى ، تشبيها بقواديس السانية ؛ لارتفاع بعض قوافيه فى جهة وانخفاضها فى الجهة الأخرى ، فأول مَنْ رأيته جاء به طلحة بن عبيد الله العونى فى قوله من قصيدة له مشهورة طويلة :

كم للدُّمَى الأبكار بالـــخيتين من منازلِ
بمهجتى للوجد من تذكارها منازلُ
مَعَاهِـــدٌ رعيلُها مُثْعَنْجِرُ المواطلِ
لما نأى ساكنها فأدمـــعى هواطِلُ

وهو مربوع الرجز تعمد فيه الإقواءَ وأوطأ فى أكثره قصداً كما فعل فى البيتين الأولين من هذه .

ومن الشعر جنس كله مصرع ، إلا أنه مختلف الأنواع ، وأنا منبه عليها إن شاء الله تعالى .

المسمط

فمن ذلك الشعر المسمَّطُ ، وهو : أن يبتدىء الشاعر ببيت مصرع ، ثم يأتى بأربعة أقسمة على غير قافيته ، ثم يعيد قسيما واحداً من جنس ما ابتدأ به ، [و] هكذا إلى آخر القصيدة ، مثال ذلك قول امرىء القيس ، وقيل إنها منحولة :

توهمتُ من هند معالمَ أطــلالِ عَفَاهُنَّ طُولُ الدهر فى الزمن الخالى
مرابعُ من هنــد خلت ومصايفُ يصيح بمغناها صَدًى وعوازفُ
وغيَّرها هُوجُ الرياحِ العواصف وكل مُسِفٍّ ثم آخر رادف

* بأسحم من نوء السماكين هَطَّالِ *

وهكذا يأتى بأربعة أقسمة على أى قافية شاء ، ثم يكرر قسيما على قافية اللام ، وربما كان المسمط بأقل من أربعة أقسمة كما قال أحدهم :

خيالٌ هاج لى شَجَنَا فبت مُكَابداً حزنا
عميدَ القلب مرتهناً بذكر اللهو والطرب
سبتنى ظبيةٌ عُطُلُ كأن رُضابها عَسَلُ
ينوء بخصرها كَفَلُ ثقيل روادف الحقب

وربما جاءوا بأوله أبياتاً خمسة على شرطهم فى الأقسمة ، وهو المتعارف ، أو أربعة ، ثم يأتون بعد ذلك بأربعة أقسمة ، كما قال خالد القناص ، أنشده الزجاجى أبو القاسم :

لقد نــكرت عينى منازل جيران كأسطار رَقٍّ ناهجٍ خَلَقٍ فانى
توهمتها من بعد عشرين حجة فما أستبينُ الدار إلا بعرفان
فقلتُ لها : حييتِ يادارَ جيرتى أبينى لنا أنَّى تبــدَّدَ إخوانى
وأىَّ بلاد بعد ربعك حالفوا فإن فؤادى عند ظبيةِ جيرانى

فجاء بأربعة أبيات كما ترى ، ثم قال بعدها :

رما نطقت واستعجمت حين كلمت وما رجعت قولا وما إن ترمرمت
وكانــ شفائى عندها لو تكلمت إلىَّ ولو كانت أشارت وَسَلَّمَتْ

* ولكنها ضَنَّتْ على بِتِبْيانِ *

وهكذا إلى آخرها ، وقد جاء هــذا الشاعر فى قصيدته بخمسة أقسمة

مرة واحدة ، ولم يعاودها ، ولو عاودها لم يضره ، وكذلك لو نقص ، إلا أن الاعتدال أحسن .

اشتقاق التسميط

والقافية التي تكرر في التسميط تسمى عمود القصيدة ، واشتقاقه من السمط ، وهو : أن تجمع عدة سلوك في ياقوتة أو خرزة ما ، ثم تنظم كل سلك منها على حِدَتِه باللؤلؤ يسيراً ، ثم تجمع السلوك كلها في زبرجدة أو شبهها[1] أو نحو ذلك ، ثم تنظم أيضاً كل سلك على حدته وتصنع به كما صنعت أولا إلى أن يتم السمط ، هذا هو المتعارف عند أهل الوقت .

وقال أبو القاسم الزجاجي : إنما سمي بهذا الاسم تشبيهاً بسِمْطِ اللؤلؤ ، وهو سلكه الذي يضمه ويجمعه مع تفرق حَبِّهِ ، وكذلك هذا الشعر لما كان متفرق القوافي مُتعقباً بقافية تضمه وترده إلى البيت الأول الذي بنيت عليه في القصيدة صار كأنه سمط مؤلف من أشياء مفترقة .

المخمس

ونوع آخر يسمى مخمساً ، وهو : أن يؤتى بخمسة أقسمة على قافية ، ثم بخمسة أخرى في وزنها على قافية غيرها كذلك ، إلى أن يفرغ من القصيدة ، هذا هو الأصل ، وأكثروا من هذا الفن حتى أتوا به مصراعين مصراعين فقط ، وهو المزدوجُ ، إلا أن وزنه كله واحد وإن اختلفت القوافي ، كذات الأمثال ، وذات الحلل ، وما شاكلهما ، ولا يكون أقل من مصراعين ، وكل مشطور أو منهوك فهو بيت ، وإن قيل مصرع فعلى المجاز ، وما سوى ذلك مما لم يأت مثله عن العرب فهو مصاريع ليس ببيت ، ولم أجدهم يستعملون في هذه المخمسات إلا الرجز خاصة ؛ لأنه وَطِىءٌ سهل المراجعة ، فأما المسمطات فقد جاءت في أوزان كثيرة مختلفة كما قدمت .

---

(١) في المصريتين « أو يشب » وهو مالا وجه له ، والتصحيح عن التونسية

المشطور والمنهوك

ونوعان من الرجز — وهما : المشطور، والمنهوك — فأما المشطور فما بنى على شطر بيت ، نحو قول أبى النجم العِجْلِى :

الحمــــد لله الوهوب المجزِلِ أعطى فـلم يَبْخَلْ ولم يُبَخَّلِ

وأما المنهوك فهو ما بنى على ثُلُثِ بيت ، ونهك بذهاب ثلثيه، أى : أضعف وهذا مثل قول أبى نُوَاس :

و بلدةٍ فيهـــــا زَوَرْ صعراء تخطى فى صعرْ

فأشبه بهما مشطور السريع ومنهوك المنسرح ، وسيأتيان فيما بعد إن شاء الله تعالى . .

وأنشد الزجاجى وزنا مشطراً مُخَيَّر الفصول لا أشك أنه مولد محدث ، وهو :

سقى طللا بحُزْوى هزيمُ الودق أحوى
عهـــــدنا فيه أروى زمانًا ثم أقوى
وأروى لا كنود ولا فيها صــــدود
لها طَرْف صَيُودُ ومُبْتَسِم بَرُودُ
لئن شـــــط المزار بهـا ونأت ديار
فقلبى مُسْتَطَارُ وليس له قرار
ســـــتدنيها ذَمول جَلنفعةٌ ذَلول
إذا عرضت هجول تقصّر ما يطول

وهذا وزن ملتبس : يجوز أن يكون مقطوعا من مربع الوافر ، ويجوز أن يكون من المضارع مقبوضاً مكمفونا ، ذكره الجوهرى . .

وأنشد لبعض المحدثين :

أشاقَك طَيْفُ مامَهْ بمـكة أمْ حَمَامَهْ

أشاقك : مفاعل ، وحقه فى أصل الوزن مفاعيلن .

المتقدمون لا يخمسون ولا يسمطون

وقد رأيت جماعة يركبون المخمسات والمسمطات ويكثرون منها ، ولم أر متقدماً حاذقاً صنع شيئاً منها ؛ لأنها دالة على عجز الشاعر ، وقلة قوافيه ، وضيق عَطَنه ، ما خلا امرأ القيس فى القصيدة التى نسبت إليه وما أصححُها له ، و بشار بن برد ، قد كان يصنع المخمسات والمزدوجات عبثاً واستهانة بالشعر ، و بشر بن المعتمر ؛ فقد أنشد الجاحظ له أول مزدوجة ، وصنع ابن المعتز قصيدة فى ذم الصَّبُوح ، وقصيدة فى سيرة المعتضد ركب فيها هذا الطريق ؛ لما تقتضيه الألفاظ المختلفة الضرورية ، ولمراده من التوسع فى الكلام ، والتملح بأنواع السجع .

وهذا الجنس موقوف على ابن وكيع والأمير تميم [بن المعز] ، ومن ناسب طبعهما من أهل الفراغ وأصحاب الرخص ، وقد يقع لبعض الشعراء البيتان والثلاثة لها قافية واحدة يجعلونها معاياة فيتلاقفها العروضيون ، كالأبيات التى تروى لابن دريد وسترد فى مكانها من سوى هذا الباب ، إن شاء الله تعالى .

٢٤ — باب فى الرجز والقصيد

الرجز وأنواعه

قد خص الناس باسم الرجز المشطور والمنهوك وما جرى مجراها ، و باسم القصيد ما طالت أبياته ، وليس كذلك ؛ لأن الرجز ثلاثة أنواع غير المشطور والمنهوك والمقطع : فأما الأول منها فنحو أرجوزة عَبَدة بن الطبيب :

بَاكَرنى بسُحْرَةٍ عـواذلى ... وعَذْلُهُنَّ خَبَلٌ من الخبلْ
يَلُمْنَنِى فى حاجة ذكرتها ... فى عصر أزمان ودهر قد نسل

والنوع الثانى نحو قول الآخر :

القلبُ منها مُسْتَرِيح سالم ... والقلبُ منى جاهِدٌ مَجْهُود

والنوع الثالث قول الآخر :

قد هاج قلبى مَنْزِل مِنْ أُمِّ عَمْرٍو مقْفِرُ

فهذه داخلة فى القصيد ، وليس يمتنع أيضاً أن يسمى ما كثرت بيوته من مشطور الرجز ومنهوكه قصيدة ؛ لأن اشتقاق القصيد من « قَصَدْتُ إلى الشىء » كأن الشاعر قصد إلى عملها على تلك الهيئة ، والرجز مقصود أيضا إلى عمله كذلك .

مشطور السريع من القصيد

ومن المقصد ما ليس برجز وهم يسمونه رجزاً لتصريع جميع أبياته ؛ وذلك هو مشطور السريع ، نحو قول الشاعر أنشدناه أبو عبد الله محمد بن جعفر النحوى عن أبى على الحسين بن إبراهيم الآمدى ، عن ابن دريد ، عن أبى حاتم السجستانى ، عن أبى زيد الأنصارى :

هل تعرفُ الدارَ بأعْلى ذى القُورْ غَيَّرَهَا نأْجُ الرياحِ وَالْمُورْ
ودرَست غيرَ رَمادٍ مَكْفُورْ مُكْتَئِبِ اللون مَرِيحٍ مَمْطُورْ
وغَيْرَ نُؤْيٍ كبقايا الدُّعثور أزمانَ عَيْناءُ سُرُورُ المسْرُورْ

* عَيْناءُ حَوْرَاءُ مِنَ الْعِينِ الْحُورْ *

وأنشد أبو عبد الله لابن المعتز :

ومقلة قد بات يبكيها فَيْضُ نجيعٍ من مآقيها
وَكَلَّهَا طولُ تمنِّيهَا نأنجمِ الليلِ تُرَاعيها
ومهجة قد كاد يُفْنِيها طول سَقامٍ ثابتٍ فيها
وبرؤها فى كفِّ مُبْلِيها كما ابتلاها فهْوَ يَشْفيها
ليس لها من حبها ناصِرٌ مَنْ ذا على الأحباب يُعْديها؟

وهذا عند الجوهرى من البسيط ، والذى أنشد أبو عبد الله — على قول الجوهرى — هو من الرجز ، وجعل الجزء الآخر « مستفع لن » مفروق فيه الوتد ، فأسكن اللام ؛ لأن آخر البيت لا يكون متحركا ، فخلفه مفعولات .

منهوك المنسرح

وأما منهوك المنسرح * صبراً بنى عبد الدار *(١) فهو عند الجوهرى من الرجز ، ومثله * وَيْلٌ سَعْدٍ سَعْداً(٢) * إلا أنه أقصد منه.

فعلى كل حال تسمى الأرجوزة قصيدة طالت أبياتها أو قصرت ، ولا تسمى القصيدة أرجوزة إلا أن تكون من أحد أنواع الرجز التى ذكرت ، ولو كانت مصرعة الشطور كالذى قدمته ؛ فالقصيد يطلق على كل الرجز ، وليس الرجز مطلقاً على كل قصيد أشبه الرجز فى الشطر .

القريض

قال النحاس: القريض عند أهل اللغة العربية الشعر الذى ليس برجز، يكون مشتقا من « قَرَضَ الشيء » أى: قطَعه ، كأنه قطع جنسًا ، وقال أبو إسحاق: وهو مشتق من القرض ، أى : القطع والتفرقة بين الأشياء ، كأنه ترك الرجز وقطعه من شعره .

وكان أقصر ما صنعه القدماء من الرجز ما كان على جزءين ، نحو قول دريد بن الصمة يوم هوازن :

يا ليتنى فيها جَذَعْ أَخُبُّ فيها وأَضَعْ(١)

حتى صنع بعض المتعقبين – أظنه على بن يحيى ، أو يحيى بن على المنجم – أرجوزةً على جزء واحد ، وهى :

طيفٌ أَلَمّْ * بذى سَلَمْ بعد العَتَمْ * يطوى الأَكَمْ
جادَ بِفَمْ * ومُلْتَزَمْ فيه هَضَمْ * إذا يُضَمْ

---

(١) نسبه الأسنوى فى شرحه على عروض ابن الحاجب لهند بنت عتبة تقوله يوم أحد تخاطب به بنى عبد الدار أصحاب لواء المشركين ، وبعد هذا :

صبراً حماة الأدبار ضربا بكل بتار

(٢) هذا من كلام أم سعد بن معاذ لما مات ابنها سعد من جراحة أصابته يوم الخندق .

ويقال : إن أول من ابتدع ذلك سَلْمٌ الخاسر ، يقول فى قصيدة مدح بها موسى الهادى :

مُوسى المطر * غَيْثٌ بَكَرْ ثم انهمر * ألوى المـرر
كم اعتسر * ثم ايتسر وَكَمْ قَدَرْ * ثُمَّ غَفَـرْ
عَدْلُ السِّيَرْ * باقى الأثر خَيْرٌ وَشَرْ * نَفْعٌ وضُرْ
خَيْرُ الْبَشَرْ * فَرْعُ مُضَرْ بَدْرٌ بَدَرْ * والمفتخـر
لمن غَـبَرْ

والجوهرى يسمى هذا النوع المقطع .

وقد رأى قوم أن مشطور الرجز ليس بشعر ؛ لقول النبى صلى الله عليه وسلم :

هل أنتِ إلاَّ إصْبَعٌ دَمِيتِ وَفِى سَبِيلِ اللهِ ما لَقِيتِ

بكسر التاء ، ورواية أخرى بسكونها وتحريك الياء بالفتح قبلها ـ وليس هذا دليلا ، وإنما الدليل فى قول النبى صلى الله عليه وسلم عدم القَصْد والنية ؛ لأنه لم يقصد به الشعر ولا نواه ؛ فلذلك لا يعد شعراً وإن كان كلاماً مُتَّزناً ، وإلا فالرُّجاز شعراء عند العرب وفى متعارف اللسان ، إلا أن الليث روى أنهم لما ردوا على الخليل قوله « إن المشطور ليس بشعر » قال : لأحتجن عليهم بحجة إن لم يقروا بها كفروا ، قال : فعجبنا من قوله حتى سمعنا حجته . . وقد رواه قوم «دَمِيتْ» بإسكان الياء والتاء جميعا ـ ولا يكون حينئذ موزوناً .

الشعراء والرجاز

والراجز قَلَّمَا يُقَصِّد ؛ فإن جمعهما كان نهايةً نحو أبى النجم ؛ فإنه كان يقصد ، وأما غَيْلان (١) فإنه كان راجزاً ثم صار إلى التقصيد ، وسئل عن ذلك فقال : رأيتُنى لا أقع من هذين الرجلين على شىء ، يعنى العجاج وابنه رؤبة ، وكان جرير والفرزدق

(١) هو ذو الرمة ، واسمه غيلان بن عقبة

يرجزان ، وكذلك عمر بن لجأ كان راجزاً مُقَصِّداً، ومثله حُمَيْد الأرقط ، والعمانى أيضاً ، وأقلهم رجزاً الفرزدق .

وليس يمتنع الرجز على المقصِّد امتناع القصيد على الراجز ، ألا ترى أن كل مقصِّد يستطيع أن يرجز وإن صعب عليه بعضَ الصعوبة ، وليس كل راجز يستطيع أن يقصد ، واسم الشاعر وإن عم المقصِّد والراجز فهو بالمقصد أعلق، وعليه أوقع ، فقيل لهذا شاعر ، ولذلك راجز ، كأنه ليس بشاعر ، كما يقال خطيب أو مرسل أو نحو ذلك .

(٢٥) — باب فى القطع والطوال

متى تحسن الإطالة؟

حدثنا الشيخ أبو عبد الله عبد العزيز بن أبى سهل رحمه الله تعالى ، قال : سئل أبو عمرو بن العلاء : هل كانت العرب تُطِيلُ ؟ فقال : نعم لِيُسمع منها ، قيل : فهل كانت تُوجِزُ ؟ قال : نعم ليحفظ عنها . قال# وقال الخليل بن أحمد : يطول الكلام ويكثر ليفهم ، ويوجز ويختصر ليحفظ ؛ وتستحب الإطالة عند الإعذار ، والإنذار ، والترهيب ، والترغيب ، والإصلاح بين القبائل ، كما فعل زهير ، والحارث بن حِلِّزَة ، ومَنْ شاكلهما ، وإلا فالقِطَعُ أطير فى بعض المواضع، والطوال للمواقف المشهورات . .

رأى فى الفرزدق

ويحكى أن الفرزدق لما وقع بينه وبين جرير ما وقع وحُكِم بينهما قال بعض الحكام : الفرزدق أشعر ؛ لأنه أقواهما أَسْرَ كلام ، وأجراهما فى أساليب الشعر ، وأقدرهما على تطويل ، وأحسنهما قطعاً ، فقُدِّمَ بالقطع كما ترى .

حاجة الشاعر إلى القطع

وقال بعض العلماء : يحتاج الشاعر إلى القطع حاجَتَهُ إلى الطوال ، بل هو عند المحاضرات والمنازعات والتمثل والملح أحوج إليها منه إلى الطوال .

وقال أحد المجودين ، وهو محمد بن حازم الباهلى :

أَبَى لِيَ أَنْ أُطِيلَ الْمَدْحَ قَصْدِي إِلَى الْمَعْنَى وَعِلْمِي بِالصَّوَابِ
وَإِيجَازِي بِمُخْتَصَرٍ قَصِيرٍ حَذَفْتُ بِهِ الطَّوِيلَ مِنَ الجَوَابِ

منزلة القطع القصار

وقيل لابن الزِّبَعْرَى : إنك تقصر أشعارك ، فقال : لأن القصار أولج فى المسامع ، وأجْوَلُ فى المحافل ، وقال مرة أخرى : يكفيك من الشعر غُرَّة لائحة ، وسُبَّة فاضحة . .

وقيل للجماز : لم لا تُطِيلُ الشعر ؟ فقال : لحذْفِي الفُضُول . وقال له بعض المحدثين وقد أنشده بيتين : ما تزيد على البيت والبيتين ؟ فقال : أردتَ أن أنشدك مُذارعة[1] ، وهو القائل :

أقول بيتاً واحداً أكتفي بذكره من دُونِ أبياتِ

وقيل مثل ذلك لعقيل بن عُلَّفة ، فقال : يكفيك من القلادة ما أحاط بالعُنُق .

وقال الجاحظ : [٢] قيل لأبى المهوس : لم لا تطيل الهجاء ، ؟ فقال : لم أجد المثل السائر إلا بيتاً واحداً .

وهجا محمدُ بن عبد الملك الزيات أحمد بن أبى دُؤاد بتسعين بيتاً ، فقال ابن أبى دؤاد يخاطبه :

أحْسَنُ من تسعين بيتاً سُدًى جَمْعُكَ مَعْنَاهُنَّ فى بَيْتِ
مَا أَحْوَجَ المُلْكَ إلى مَطْرَةٍ تَغْسِلُ عَنْهُ وَضَرَ الزَّيْتِ

فرق ما بين المطيل والموجز

غير أن المطيل من الشعراء أَهْيَبُ فى النفوس من الموجزِ وإن أجاد ، على

(١) فى بعض النسخ « مدارعة » بالدال المهملة .
(١) انظر البيان والتبيين (ج ١ ص١٧٨) تجد شيئاً كثيراً مما ذكره المؤلف هنا ولم ينسبه إلى صاحبه الذى أخذه عنه

أن للموجز من فضل الاختصار ما ينكره المطيل ، ولكن إذا كان صاحب القصائد دون صاحب القطع بدرجة أو نحوها وكان صاحب القطع لا يقدر على التطويل إن حاوَلَهُ بَتَّةً سُوِّيَ بينهما ؛ لفضل غير المجهود على المجهود ، فإنا لا نشك أن المطول إن شاء جرد من قصيدته قطعة أبيات جيدة ، ولا يقدر الآخر أن يمد من أبياته التي هي قطعةٌ قصيدةً .

ولام قوم الكميت على الإطالة فقال : أنا على الإقصار أقدر ، هكذا جاءت الدواية ، ولا تكاد ترى مقطعاً إلا عاجزاً عن التطويل ، والمقصد أيضاً قد يعجز عن الاختصار ، ولكن الغالب والأكثر أن يكون قادراً على ما حاوله من ذلك وبالعجز رمى الكميت .

وكان عبد الكريم بهذه الصفة ، لا يكاد يصنع مقطوعاً ، ولا أظن في جميع أشعارهِ خمس قطع أو نحوها .

وكان أبو تمام على جلالته وتقدمه مقصراً في القطع عن رتبة القصائد . . .

المشهورون بالمقطعات

والمشهورون بجودة القطع من المولدين : بشار بن برد ، وعباس بن الأحنف ، والحسن بن الضحاك ، وأبو نُوَاس ، وأبو علي البصير ، وعلي بن الجهم ، وابن المُعَذَّل ، والجماز ، وابن المعتز .

وكانوا يقولون في زمان منصور الفقيه ـ وهو قريب من عصرنا هذا ـ : إياكم ومنصوراً إذا رمح بالزَّوْج ، وكان ربما هجا بالبيت الواحد .

ووصف عبد الكريم أبا الطيب ؛ فزعم أنه أحسن الناس مقاطيع ، ولو قال مقاطع ـ بلا ياء ـ قلنا : صدقت ولم نخالفه .

متى تسمى القصيدة ؟

وقيل : إذا بلغت الأبيات سبعة فهي قصيدة ، ولهذا كان الإيطاء بعد سبعة غير معيب عند أحد من الناس . . . ومن الناس من لا يعد القصيدة إلا ما بلغ

العشرة وجاوزها ولو ببيت واحد . . ويستحسنون أن تكون القصيدة وتراً ، وأن يتجاوز بها العقد ، أو توقف دونه ؛ كل ذلك ليدلوا على قلة الكلفة ، وإلقاء البال بالشعر .

متى قصد الشعر ؟

وزعم الرواة أن الشعر كله إنما كان رجزاً وقطعاً ، وأنه إنمــا قُصِّدَ على عهد هاشم بن عبد مناف ، وكان أولَ من قصده مُهَلْهِلٌ وامرؤ القيس ، وبينهما وبين مجىء الإسلام مائة ونيف وخمسون سنة . ذكر ذلك الجمحى وغيره .

أول من طول الرجز

وأول من طَوَّلَ الرجز وجعله كالقصيد الأغلبُ العجلى شيئاً يسيراً ، وكان على عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم أتى العجاج بعدُ فافتنَّ فيه ؛ فالأغلب العجلى والعجاج فى الرجز كامرىء القيس ومهلهل فى القصيد .

الكامل من الشعراء

والشاعر إذا قطع وقصد ورجز فهو الكامل ؛ وقد جمع ذلك كله الفرزدق ، ومن المحدثين أبو نوَاس ، وكان ابن الرومى يُقصِّد فيجيد ، ويطيل فيأتى بكل إحسان ، وربما تجاوز حتى يُسرِف ، وخير الأمور أوساطها . . وهو القائل :

وإذا امرؤٌ مَدَحَ امرأً لنواله فأطال فيه فقد أرادَ هِجاءَهُ
لو لم يقــدِّر فيه بُعْدَ المستقَى عِنْدَ الوُرُودِ لما أطال رِشَاءَه

(٣٦) ـ باب فى البديهة والارتجال

حد البديهة

البديهة عند كثير من الموسومين بعلم هذه الصناعة فى بلدنا أو من أهل عصرنا هى الارتجال ، وليست به ؛ لأن البديهة فيها الفكرة والتأيد ، والارتجال ما كان انهماراً وتدفقاً لا يتوقف فيه قائله : كالذى صنع الفرزدق وقد دفع إليه سليمان بن عبد الملك أسيرا من الروم ليقتله ، فدس إليه بعض بنى عبس سيفاً كهاماً فنبا حين ضرب به ، فضحك سليمان ، فقال الفرزدق ارتجالا فى مقامه ذلك يعتذر لنفسه ، ويعير بنى عبس بِنُبُوِّ سيف ورقاء بن زهير عن رأس خالد بن جعفر :

فإن يكُ سَيْفٌ خَانَ أو قَدَرٌ أبي لتأخير نفس حَيْنها غـــير شاهد
فسَيْفُ بنى عَبْسٍ وقد ضربوا به نبَا بِيدَىْ وَرْقاء عن رأسِ خالد
كذاك سيوف الهند تنبو ظُباتها وَيَقْطَعْنَ أحياناً مَناطَ القلائد
ولو شِئْتُ قَطَّ السيفُ ما بين أنفه إلى عَلَقٍ دون الشراسيفِ جاسِدِ

ثم جلس وهو يقول :

وَلا نَقْتُلُ الأسْرَى ، ولــكن نَفُــكّهُمْ إذا أثقل الأعناقَ حمــلُ المغارم

وكالذى يروى عن أبى الخطاب عمر بن عامر السعدى المعروف بأبى الأسد ، وقد أنشد موسى الهادى شعراً مدحه به يقول فيه :

يا خيرَ من عَقَدَتْ كفاه حُجزته وخيرَ من قَلّدَتْهُ أمرَها مُضَرُ

فقال له موسى : إلا مَنْ يا بائس ؟ فقال واصلا كلامه ولم يقطعه :

إلا النبىّ رســولَ الله ؛ إن له فخراً ، وأنت بذاك الفخرِ تفتخر

ففطن موسى ومَنْ بحضرته أن البيت مستدرك ، ونظروا فى الصحيفة فلم يجدوه ؛ فضاعف صلته .

أعظم ما وقع من الارتجال

وأعظم ارتجال وقع قصيدةُ الحارث بن حِلِّزة بين يدى عمرو بن هند ؛ فإنه يقال: أتى بها كالخطبة ، وكذلك قصيدة عَبِيْد بن الأبرص ، وقيل : أفضل البديهة بديهة أمْنٍ ، وَرَدَتْ فى موضع خوف ، فما ظنك بالارتجال وهو أسرع من البديهة ؟ .

قدرة أبى نواس على الارتجال والبديهة

وكان أبو نواس قوى البديهة والارتجال ، لا يكاد ينقطع ولا يُرَوِّى إلا فلتةً ، روى أن الخصيب قال له مرة يمازحه وهما بالمسجد الجامع : أنت غير مدافع فى الشعر ، ولـكنك لا تخطب ! فقام من فوره يقول مرتجلا :

منحتكم يا أهــل مصر نصيحتى ألا فَخُذُوا من ناصحٍ بنصيب
رماكم أمــيرُ المؤمنين بحيةٍ أكولٍ لحيّاتِ البلاد شَرُوبِ

فإن يكُ باقى سحر فِرْعَوْنَ فيكُمُ فإنَّ عصا موسى بكَفٍّ خَصيب

ثم التفت إليه وقال : والله لا يأتى بمثلها خطيب مِصْقَعٌ فكيف رأيت ؟ فاعتذر إليه وحلف إنْ كنتُ إلا مازحا .

مسلم ابن الوليد وأبو نواس

وسمعت جماعة من العلماء يقولون : كان مسلم بن الوليد نظير أبى نواس ، وفوقه عند قوم من أهل زمانه فى أشياء ، إلا أن أبا نواس قهره بالبديهة والارتجال ، مع تقبض كان فى مسلم وإظهار توقر وتصنع ، وكان صاحب روية وفكرة لا يبتده ولا يرتجل .

أبو العتاهية

وكان أبو العتاهية — فيما يقال — أقْدَرَ الناس على ارتجال وبديهة ؛ لقرب مأخذه ، وسهولة طريقته ، اجتمع عدة من الشعراء فيهم أبو نواس ؛ فشرب أحدهم ماء ، ثم قال : أجيزوا :

* عَذُبَ المـــاء وطـــابا *

فكلهم تلعثم ، حتى طلع أبو العتاهية ، فقال : فيم أنتم ؟ فأنشـــدوه ، فقال وما تروَّى :

* حَبَّذَا المـــاء شَرَابا *

فأتى بالقسيم رَسْلاً شبيهاً بصاحبه ، وذلك هو الذى أعْوَزَ القومَ لا وزن الكلام .

وصحب رفقة فسمع زُقَاء الديوك ، فقال لرفيقه :

* هل رأيتَ الصُّبْحَ لاَحا ؟*

قال : نعم ، قال :

* وسمعت الديك صاحا *

قال : نعم ، قال :

إنما تَبكِّى على المُغْـــتَرِّ بالدنيا وناحا

فاستيقظ رفيقه للكلام أنه شعر ، فرواه ؛ فما جرى هذا المجرى فهو ارتجال .

حد البديهة

وأما البديهة فبعد أن يفكر الشاعر يسيراً و يكتب سريعاً إن حضرت آلة ، إلا أنه غير بطيء ولا مُتَرَاخٍ ، فإن أطال حتى يفرط أو قام من مجلسه لم يُعَدَّ بديهاً .

بديهة الجماز

وقالوا : اجتمع الشعراء بباب الرشيد ، فأذن لهم ، فقال : من يجيز هذا القسيم وله حكمه ؟ فقالوا : وما هو يا أمير المؤمنين ؟ قال :

الملكُ لله وَحْدَهْ

فقال الجماز :

وللخليفة بَعْدَهْ

وللمحب إذا ما حَبيبه بَاتَ عِنْدَهْ

فقال : أحسنت ، وأتيت على ما فى نفسى ، وأمر له بعشرة آلاف درهم .

بديهة أبى تمام

ومن عجيب ماروى فى البديهة حكاية أبى تمام حين أنشد أحمد بن المعتصم بحضرة أبى يوسف يعقوب بن إسحاق بن الصباح الكندى وهو فيلسوف العرب :

إقدام عَمرٍو ، فى سماحة حاتم فى حِلْمِ أَحْنَفَ ، فى ذَكاء إياسِ

فقال له الكندى : ما صنعت شيئاً ، شبهت ابن أمير المؤمنين وولى عهد المسلمين بصعاليك العرب ! ومَنْ هؤلاء الذين ذكرت ؟ وما قدرهم ؟ فأطرق أبو تمام يسيراً ، وقال :

لا تنكروا ضَرْبى له مَنْ دونه مثلا شَرُوداً فى النَّدَى والباس
فالله قد ضرب الأقــلَّ لنوره مثلاً من المشكاة والنبراس

فهذا أيضاً وما شاكله هو البديهة ، و إن أعجب ما كان البديهة من أبى تمام ؛ لأنه رجل متصنع ، لا يحبُّ أن يكون هذا فى طبعه . وقد قيل : إن الكندى لما خرج أبو تمام قال : هذا الفتى قليل العمر ؛ لأنه ينحت من قلبه ، وسيموت قريباً ، فكان كذلك .

بديهة المتنبي وارتجاله

وقد كان أبو الطيب كثير البديهة والارتجال ، إلا أن شعره فيهما نازل عن طبقته جداً ، وهو لعمرى فى سَعَة من العذر ؛ إذ كانت البديهه كما قال فيها ابن الرومى :

نار الروية نارٌ جِدُّ مُنْضِجَةٍ ... وللبديهة نارٌ ذاتُ تلويح

وقَدْ يُفَضِّلُها قومٌ لسرعتها ... لـكِنَّها سُرْعَةٌ تمضى مع الريح

وقال عبد الله بن المعتز :

والقولُ بعد الفِـكرِ يُؤْمَنُ زَيْغُهُ ... شَتَّانَ بين رَوِيَّةٍ وبديه

شعراء بديهتهم كرويتهم

ومن الشعراء مَنْ شعره فى رويته وبديهته سواء عند الأمن والخوف ؛ لقدرته ، وسكون جَأْشِه ، وقوة غريزته : كَهُدْبَةَ بن الخَشْرَم العذرى ، وطرفَةَ أبن العبد البكرى ، ومرة بن محكان السعدى ؛ إذ يقول وقد أمر مصعب بن الزبير رجلا من بنى أسد بقتله :

بنى أسد إنْ تَقْتُلُونِى تُحَارِبُوا ... تميما ، إذا الحرب العَوَانُ اشْمَعَلَّتِ

ولستُ وإن كانت إلى حبيبةً ... بباكٍ على الدنيا إذا ما تَوَلَّتِ

وهذا شعر لو روَّى فيه صاحبه حولا كاملا على أمن ودَعَةٍ وفرط شهوة أو شدة حمية لمـا أتى فوق هذا .

وكذلك عبد يغوث بن صلاءة ؛ إذ يقول فى كلمة طويله :

أقول وقد شَدُّوا لسانى بنسعةٍ ... أمعشرَ تَيْمٍ أَطْلِقُوا من لسانيا

فيَارَاكِبًا إمَّا عَرَضْتَ فَبَلِّغَنْ ... نَدَامَاىَ من نَجْرَانَ أنْ لاَ تلاقِيَا

وكانوا قد شدوا لسانه خوفًا من الهجاء ، فعاهدهم ، فأطلقوه لينوح على نفسه ، فصنع هذه القصيدة ، وعرض عليهم فى فدائه ألف ناقة ، فأبوا إلا قتله ، فقال :

فإن تقتلونى تقتلونى بخيركم ... وإن تطلقونى تحربونى بماليا

وهذه شهامة عظيمة وشدة .

ومن قول طرفة بن العبد لما أيقن بالموت :

أبا مُنْذِرٍ كانت غُرُوراً صحيفتى ... ولم أعطكم بالطوع مالى ولا عرضى

أبا منذر أفنيْتَ فاسْتَبْقِ بَعْضَنَا ... حَنَانَيْكَ بَعْضُ الشرأهون من بعض

عبيد ابن الأبرص

وأين هؤلاء من عَبِيدِ بن الأبرص ــ وهو شيخ الصناعة ، ومقدم فى السن على الجماعة ــ إذ يقول له النعمان[1] يوم بؤسه : أنشدنى ، فقال : حال الجريضُ دون القريض ، قال : أنشدنى قولك :

أقفرَ من أهله مَلْحُوبُ ... فالقُطَبِيَّات فالذَّنوب

فقال : لا ، ولكن :

أقفرَ من أهــله عَبِيدُ ... فاليَوْمَ لاَ يُبْدِى ولا يُعِيدُ

فبلغت به حال الجزع إلى مثل هذا القول ، على أن فى بيتى طرفة بعضَ الضراعة . . .

تميم بن جميل أمام المعتصم

وممن وجد نفسه عند إحاطة الموت به تميم بن جميل ؛ فإنه القائل بين يدى المعتصم وقد قدم السيف والنطع لقتله :

أرى الموتَ بين النطع والسيفِ كامناً ... يُلاَحظنى من حيثُ مَا أَتَلَفَّتُ

وأكْبَرُ ظنى أنك اليــوم قاتلى ... وأىُّ امرىء مما قضى الله يُفْلِتُ

وأىُّ امرىء يُدْلى بعُذْرٍ وحجــة ... وَسَيْفُ المنايا بين عينيه مُصْــلَتُ

---

(١) كتبنا فى (ص ٤١) من هذا الجزء نستظهر أن المؤلف يظن صاحب يومى البؤس والنعيم هو النعمان بن المنذر وقد صرح به هنا ، وهذا غير صحيح لأن صاحب اليومين هو المنذر بن ماء السماء صاحب الغريين اللذين بناهما قبرين لنديمين له : أحدهما اسمه خالد بن نضلة الفقعسى ، والثانى اسمــه عمرو بن مسعود ، وانظر (ص ١٠٣) أيضاً

يعــز على الأوس بن تغلب موقف يُسَلُّ عَلَيَّ السيفُ فيه وأسكتُ
وما حَــزَنى أنى أموت وإننى لأعــلم أن الموت شيء مُؤَقَّتُ
ولكنّ خلفى صِبْيَةً قد تركتهم وأكبــادُهُمْ من حَسْرَةٍ تتفتَّتُ
كأنى أراهم حــين أُنعَى إليهمُ وقد خمشوا تلك الوجوهَ وصوّتوا
فإنْ عِشْتُ عاشوا خافضــين بنعمة أذود الردى عنهم ، وإن مُتُّ مَوَّتوا
فـكم قائلٍ : لا أبعــد الله داره وآخرَ جَذْلانَ يُسَرُّ ويَشْــمَتُ

فعفا عنه المعتصم ، وأحسن إليه ، وقلده عملا .

على بن الجهم

وعلى بن الجهم هو القائل وقد صُلِبَ عريانًا :

لم ينصبوا بالشاذياخ عشية الا إثنين مغلولا ولا مجهولا
نصبوا بحمد الله مِلْءَ عيونهم حُسْنًا، ومِلْءَ قلوبهم تبجيلاَ
ما ضَرَّهُ أنْ بُزَّ عنه لِباسُهُ فالسيفُ أهولُ ما يُرَى مسْلُولاً

وهذا من جَزْل الـكلام ، لا سيا فى مثل ذلك المقام ، وكان على من الفضلاء علماً بالشعر وصناعة له .

حكى عن على بن يحيى أنه قال : كنت عند المتوكل إذ أتاه رسول برأس إسحاق بن إسماعيل ، فقام على بن الجهم يخطر بين يديه ويقول :

أهلاً وَسَهْلاً بكَ مِنْ رَسُولِ جِئْتَ بما يَشْفى منَ الْغَلِيلِ
بِرأسِ إسحاق بن إسْمَاعِيلِ

فقال المتوكل : قوموا التقطوا هذا الجوهر لايضيع .

والشاعر الحاذق المبرِّز إذا صنع [على] البديهة قُنِعَ منه بالعفو اللين ، والنزر التافه ؛ لما فيها من المشقة ، وهو فى الارتجال أعذر .

اشتقاق البديهة

واشتقاق البديهة من «بدَه» بمعنى بدأ ، أبدلت الهمزة هاء كما أبدلت فى أشياء

كثيرة لقربهامنها؛ فقد قالوا مدَح(١) ومدَه ، ولَهِنَّكَ تفعل كذا، بمعنى لإنك ، ومثل ذلك كثير .

اشتقاق الارتجال

والارتجال مأخوذ من السهولة والانصباب ، ومنه قيل : شَعْرٌ رَجِلٌ ، إذا كان سَبْطاً مسترسلاً غير جَعْدٍ، وقيل : هو من ارتجال البئر وهو أن تنزلها برجليك من غير حبل .

(٢٧) — باب فى آداب الشاعر

الصفات التى يجب أن يتحلى بها الشاعر

من حكم الشاعر أن يكون حُلْو الشمائل ، حسن الأخلاق ، طَلْقَ الوجه ، بعيد الغَوْر ، مأمونَ الجانِب ، سَهْل الناحية ، وطيء الأكناف ، فإن ذلك مما يحببه إلى الناس ، ويُزَيِّنه فى عيونهم ، ويقربه من قلوبهم ، وليكن مع ذلك شريف النفس ، لطيف الحس، عَزُوف الهمة(٢)، نظيف البزة ، أنفاً ؛ لتهابه العامة، ويدخل فى جملة الخاصة ، فلا تمجه أبصارهم ، سَمْحَ اليدين ، وإلا فهو كما قال ابن أبى فنن واسمه أحمد :

وإنّ أحقّ الناسِ باللّوْم شاعرٌ يلوم على البخلِ الرِّجالَ ويَبْخَلُ

وإلى هذا المعنى ذهب الطائى بقوله :

أألوم مَن بخلت يداه وأغتدى للبخل ترْباً ؟ ساء ذاك صنيعاً !!

حاجة الشعر إلى مواد الثقافة

والشاعر مأخوذ بكل علم ، مطلوب بكل مكرمة ؛ لاتساع الشعر واحتماله كلّ ما حمل : من نحو ، ولغة ، وفقه ، وخبر ، وحساب ، وفريضة ، واحتياج أكثر هذه العلوم إلى شهادته ، وهو مُكْتَفٍ بذاته، مستغنٍ عما سواه ؛ ولأنه قيد للأخبار ، وتجديد للآثار .

---

(١) ليس فى المثال الأول تقارض بين الهاء والهمزة ، وإنما غرض المؤلف إثبات ذلك ، والأمثلة فى العربية كثيرة ، فقد قالوا فى حرف الاستفهام « أل » كما قالوا « هل » وقالوا « أيا » و « هيا » فى النداء .

(٢) فى المصريتين والتونسية «عزوب الهمة» .

وصاحبه الذى يذم ويَحْمَد ، ويهجو ويمدح ، ويعرف ما يأتى الناس من محاسن الأشياء وما يذَرونه ، فهو على نفسه شاهد ، وبحجته مأخوذ .

الرواية أوثق آلات الشاعر

وليأخذ نفسه بحفظ الشعر والخبر ، ومعرفة النسب ، وأيام العرب ؛ ليستعمل بعض ذلك فيما يريده من ذكر الآثار ، وضرب الأمثال ، وليعلق بنفسه بعض أنفاسهم ويقوى بقوة طباعهم ، فقد وجدنا الشاعر من المطبوعين المتقدمين يفضل أصحابه برواية الشعر ، ومعرفة الأخبار ، والتلمذة بمن[1] فوقه من الشعراء ، فيقولون : فلانٌ شاعر راويةٌ ، يريدون أنه إذا كان راوية عرف المقاصد ، وسهل عليه مأخذ الكلام ، ولم يضق به المذهب ، وإذا كان مطبوعاً لا علم له ولا رواية ضَلّ واهتدى من حيث لا يعلم ، وربما طلب المعنى فلم يصل إليه وهو ماثل بين يديه ؛ لضعف آلته : كالمُقْعَدِ يجد فى نفسه القوة على النهوض فلا تعينه الآلة .

وقد سئل رؤبة بن العجاج عن الفحل من الشعراء ، فقال : هو الراوية ، يريد أنه إذا رَوَى استفحل .

قال يونس بن حبيب : وإنما ذلك لأنه يجمع إلى جيد شعره معرفةَ جَيدِ غيره ، فلا يحمل نفسه إلا على بصيرة ، وقال رؤبة فى صفة شاعر :

لَقَدْ خَشِيتُ أن تكون ساحِرَا   رَاوِيةً مَرًّا ومَرًّا شاعِرَا[2]

فاستعظم حاله حتى قرنها بالسحر .

وقال الأصمعى : لا يصير الشاعر فى قريض الشعر فَحْلاً حتى يروى أشعار العرب ، ويسمع الأخبار ، ويعرف المعانى ، وتدور فى مسامعه الألفاظ . وأول

(١) كذا فى عامة الأصول ، وأفضل من هذا « والتلمذة لمن فوقه إلخ »

(٢) انظر (ص ٢٧) من هذا الجزء .

ذلك أن يعلم العروض ؛ ليكون ميزاناً له على قوله ؛ والنحو ؛ ليصلح به لسانه وليقيم به إعرابه ؛ والنسب وأيام الناس ؛ ليستعين بذلك على معرفة المناقب والمثالب وذكرها بمدح أو ذم .

رواية بعض الشعراء عن بعض

وقد كان الفرزدق ــ على فضله فى هذه الصناعة ــ يروى للحطيئة كثيراً ، وكان الحطيئة راوية زهير ، وكان زهير راوية أوس بن حَجَر وطُفَيْل الغنوى جميعاً ، وكان امرؤ القيس راوية أبى دؤاد الإيادى : مع فضل نَحِيزة ، وقوة غريزة ، ولا بد بعد ذلك أن يلوذ به فى شعره ، ويتوكأ عليه كثيراً ، وقد نزل أعشى بنى قيس بن ثعلبة بين يدى النابغة الذبيانى بسوق عكاظ وأنشده فقدمه ، وأنشده حسان بن ثابت ، ولبيد بن ربيعة ؛ فما عابهم ذلك ، ولا غضَّ منهم ، وكان كُثَيِّر راوية جميل ومفضلا له : إذا استنشد لنفسه بدأ بجميل ، ثم أنشد ما يراد منه ، ولم يكن بدون جرير والفرزدق ، بل يقدم عليهما عند جميع أهل الحجاز ، وكان أبو حية النميرى ــ واسمه الهيثم بن الربيع ، وهو من أحسن الناس شعراً ، وأنظفهم كلاماً ـــ مؤتمًّا بالفرزدق ، آخذاً عنه ، كثير التعصب له والرواية عنه .

حاجة الشاعر إلى شعر المولدين

ولا يستغنى المولد عن تصفح أشعار المولدين ؛ لما فيها من حلاوة اللفظ ، وقرب المأخذ ، وإشارات الملح ، ووجوه البديع الذى مثله فى شعر المتقدمين قليل ، وإن كانوا هم فتحوا بابه ، وفتقوا جلبابه ، وللمتعقب زيادات وافتنان ، لا على أن تكون عمدةُ الشاعر مطالعةَ ما ذكرته آخر كلامى هذا دون ما قدمته ؛ فإنه متى فعل ذلك لم يكن فيه من المتانة وفضل القوة ما يبلغُ به طاقة من تبع جَادَّته ، وإذا أعانته فصاحة المتقدم وحلاوة المتأخر اشتد ساعده ، وبَعُدَ مرماه ، فلم يقع دون الغرض ؛ وعسى أن يكون أرْشَقَ سِهاماً ، وأحسن موقعاً ، ممن لو عَوَّل عليه من المحدثين لقصَّرَ عنه ، ووقع دونه ،

وليجعل طلبه أولا السلامة ، فإذا صحت له طَلَبَ التجويدَ حينئذ ، وليرغب فى الحلاوة والطلاوة رَغْبَتَهُ فى الجزالة والفخامة ، وليجتنب السوقىَّ القريب ، والحوشىَّ الغريب ، حتى يكون شعره حالاً بين حالين كما قال بعض الشعراء :

عليك بأوساط الأمور ؛ فإنها نجاةٌ ، ولا تركب ذلولا ولا صَعْبَا

أول ما يحتاجه معرفة مقاصد الكلام

فأول ما يحتاج إليه الشاعر — بعد الجد الذى هو الغاية ، وفيه وحده الكفاية — حُسْنُ التأتى والسياسة ، وعلم مقاصد القول ؛ فإن نَسَبَ ذل وخضع ، وإن مدح أطرى وأسمع ، وإن هجا أخل[1] وأوجع ، وإن فخر خَبَّ ووَضَع ، وإن عاتب خفض ورفع ، وإن استعطف حَنّ ورجع ، ولكن غايته معرفة أغراض المخاطب كائنا من كان ؛ ليدخل إليه من بابه ، ويداخله فى ثيابه ، فذلك هو سر صناعة الشعر ومغزاه الذى به تفاوت الناس وبه تفاضلوا . .

لكل مقام مقال

وقد قيل : لكل مقام مقال[2] وشِعْرُ الشاعر لنفسه وفى مراده وأمور ذاته — من مزح ، وغزل ، ومكاتبة ، ومجون ، وخمرية ، وما أشبه ذلك — غَيْرُ شعره فى قصائد الحفل التى يقوم بها بين السماطين : يُقْبَلُ منه فى تلك الطرائق عَفْوُ كلامِهِ ، وما لم يتكلف له بالا ، ولا ألقى به ، ولا يقبل منه فى هذه إلا ما كان محككا ، معاوداً فيه النظر ، جيداً ، لا غثّ فيه ، ولا ساقط ، ولا قَلِقَ ؛ وشعرُهُ للأمير والقائد غيرُ شعره للوزير والكاتب ، ومخاطبته للقضاة والفقهاء بخلاف ما تقدم من هذه الأنواع . . وسيأتى هذا فى موضعه من هذا الكتاب مفصلا ، إن شاء الله تعالى .

---

(١) فى نسخة « أقل » ولعلها أحسن

(٢) كذا فى التونسية ، وهو المعروف ، وفى المصريتين « لكل مقام مثال »

يجب أن يتفقد الشاعر شعره

والمتأخر من الشعراء فى الزمان لا يضره تأخره إذا أجاد ، كما لا ينفع المتقدم تقدمهُ إذا قصر ، و إن كان له فضل السَّبْقِ فعليه درك التقصير ، كما أن للمتأخر فضل الإجادة أو الزيادة ، ولا يكون الشاعر حاذقا مجوداحتى يتفقّد شعره ، ويعيد فيه نظره ، فيسقط رديه ، ويثبت جيده ، وَيكون سَمْحاً بالركيك منه ، مطرحاً له ، راغباً عنه ؛ فإن بيتا جيداً يقاوم ألفى رديء .

وقال امرؤ القيس وهو أول من زعموا أنه أختبر له وعلم به أنه يكون أفضل الشعراء والمقدم عليهم :

أذود القوافِيَ عَنِّى ذِيَاداً ذيادَ غلامٍ جَرِىء جرادا
فلما كَثُرْنَ وَعَنَّيْنَهُ تَخَيَّرَ مِنْهُنَّ شَتَّى جيادا
فأعزِلُ مَرْجَانَهَا جَانباً وآخُذُ من دُرِّها المستجادا

هكذا فى أكثر النسخ ، وفى بعضها « حراد » بالحاء مكسورة غير معجمة ، و « شتى جيادا » بالشين معجمة مفتوحة غير منونة التاء .

فإذا كان أشعر الشعراء يصنع هذا ويحكيه عن نفسه ، فكيف ينبغى لغيره أن يصنع ؟

وزعم ابن الكلبى أنه امرؤ القيس بن بكر بن امرىء القيس بن الحارث ابن معاوية الكندى ، وروى « سفى » فى موضع « جرىء » والسفى : السفيه والخفيف أيضاً ، و إليه يرجع اشتقاقه ، وزعم غير ابن الكلبي أن الأبيات لامرىء القيس بن عابس الكندى[1] .

ويقال : إن أبا نواس كان يفعل هذا الفعل ؛ فينفى الدنى ويبقى الجيد .

---

(١) ولم أجد هذه الأبيات فيما شرحه الوزير أبو بكر من شعر امرىء القيس ابن حجر ، والعلماء يسمون الآخر امرأ القيس بن مالك الحميرى :

وليلتمس له من الكلام ما سَهُلَ ، ومن القصد ما عدل ، ومن المعنى ما كان واضحا جليًّا يُعْرَفُ بَدِيًّا ، فقد قال بعض المتقدمين : شر الشعر ما سئل عن معناه ، وكان الحطيئة يقول : خير الشعر الحولىُّ المحكك ، أخذ فى ذلك بمذهب زهير ، وأوس ، وطفيل .

لا يجوز أن يكون الشاعر معجبا بنفسه

ولا يجوز للشاعر — كما يجوز لغيره — أن يكون مُعجَبًا بنفسه ، مثنيًا على شعره ، وإن كان جيداً فى ذاته ، حسناً عند سامعه ، فكيف إن كان دون ما يظن ؟ كقوم أفردوا لذلك أنفسهم ، وأفنوا فيه أعمارهم وما يحصلون على طائل ، وقد قال الله عز وجل : (فلا تزكوا أنفسكم) اللهم إلا أن يريد الشاعر ترغيب الممدوح أو ترهيبه فيثنى على نفسه ، ويذكر فضل قصيدته ؛ فقد جعلوه مَجازاً مُسَامحاً فيه : كالذى يعرض لكثير من الشعراء فى أشعارهم من مدح قصائدهم ، على أن أبا تمام يقول :

ويُسِىءُ بالإحْسَانِ ظَنًّا لا كَمَنْ   يأتيك وهو بِشِعْرِهِ مَفْتُونُ

وإن كان أوصف الناس لقصيده ، وأكثرهم وَلُوعاً بذلك ، وهذا ما دام شعراً كان محمولا على ما قدمناه ، وإنما المكروه المعيب أن يكون ذلك منثوراً أو تأليفاً مسطوراً : كالذى فعل الناشىء أبو العباس فى أشياء من شعره ذكرها فى كتابه الموسوم بتفضيل الشعر ؛ فشكرها ، ونوه [بها] ، ونبه عليها ، وفضلها على أشعار الفحول : مثل جرير وغيره ، منها قول جرير :

إن العيون التى فى طرفها مرض (١)   قَتَلْنَنَا ثُمَّ لم يُحْيِينَ قتلانا
يَصْرَعْنَ ذَا اللبِّ حَتَّى لاحِرَاكَ به   وهُنَّ أَضْعَفُ خَلْقِ الله إنْسَانا

وزعم — بعد إقامة ما حسبه برهانا — أن قوله :

لا شَىْء أعْجَبُ مِنْ عَيْنَيْكِ؛ إنّهما   لا يُضْعِفَانِ القُوَى إلاّ إذا ضَعُفَا

(١) يروى * إن العيون التى فى طرفها حور *

خير منه ، وأسلم من الأعتراض ، وأكثر اختصاراً .

بين امرىء القيس وشاعر يشكرى

ويجب على الشاعر أن يتواضع لمن دونه ، ويعرف حق من فوقه من الشعراء ؛ فإن امرأ القيس — وكان شديد الظنة فى شعره ، كثير المنازعة لأهله ، مُدِلا فيه بنفسه ، واثقاً بقدرته — لقى التوأم اليشكرى ، واسمه الحارث [١] بن قتادة ، فقال له: إن كنت شاعراً كما تقول فملط [٢] لى أنصاف ما أقول فأجزها ، قال : نعم ، فقال امرؤ القيس :

أحارِ تَرَى بُرَيْقاً هَبَّ وَهْنَا

فقال التوأم : كنارِ مَجُوسَ تستعر استعارا

فقال امرؤ القيس : أرقت له ونام أبو شريحٍ

فقال التوأم : إذا ماقلتُ قد هدأ استطارا

فقال امرؤ القيس : كأن هزيمه بوراء غيب [٣]

---

(١) جعل ياقوت اسمه الحارث بن التوأم اليشكرى ، وجعل قتادة وأبا شريح أخوين للحارث . وذكر هذه القصة وأنها وقعت لامرىء القيس مع الإخوة الثلاثة وأن امرأ القيس قال * أحار ترى . . . * فقال الحارث * كنار مجوس . . . . فقال قتادة * أرقت له . . . . استطارا * فقال أبو شريح * كأن هزيزه . . عشارا * فقال الحارث * فلما أن علا . . . فحارا * فقال قتادة * فلم يترك ببطن السر . . . حمارا * فقال امرؤ القيس بعد هذا : إنى لأعجب من بيتكم هـذا كيف لايحترق من جودة شعركم ! ! فسموا بنى النار يومئذ .

(٢) قال المجد فى القاموس : « ومالطه : قال نصف بيت وأتمه الآخر كملطه تمليطا » اهـ

(٣) يروى

* كأن هزيزه بوراء غيث *

كما سمعت .

فقال التوأم : عِشارٌ وَالهٌ لاَقَتْ عشارا
فقال امرؤ القيس : فلما أن علاَ كَنَفَىْ أَضاخ(١)
فقال التوأم : وَهَتْ أَعجازُ رَيِّقِهِ فحارا
فقال امرؤ القيس : فلم يترك بذات السر ظبيا
وقال التوأم : ولم يترك بجَلْهَتِهَا حِمارا

فلما رآه امرؤ القيس قد ماتنه ، ولم يكن فى ذلك الحَرْس ـ أى : القصْر ـ من يماتنه ـ أى : يقاومه ويطاوله ـ آلى ألاّ ينازع الشعر أحداً آخر الدهر ، روى ذلك أبو عبيدة عن أبى عمرو بن العلاء ، ولو نظر بين الكلامين لوجد التوأم أشعر فى شعرهما هذا ؛ لأن امرأ القيس مبتدىء ما شاء ، وهو فى فسحة مما أراد ، والتوأم محكوم عليه بأول البيت ، مضطر فى القافية التى عليها مدارهما جميعاً ، ومن ههنا ـ والله أعلم ـ عرَفَ له امرؤ القيس من حق المماتنة ما عرف ، ونازع أيضاً علقمة بن عبدة فكان من غلبة علقمة عليه ما كان ..

بين جرير وشاعر

وأما جرير فهجاه شاعر يقال له : البرْدَخْتُ ، فقال : ما اسمه ؟ قيل له : البردخت ، فقال : وما معنى البردخت ؟ قالوا له : الفارغ ، فقال : إذاً والله لا أشغله بنفسى أبداً ، وسالمه ؛ هذا وهو جرير الذى غلب شياطين الشعراء ، وسَكَّنَ شقاشق الفحول ..

بين عقبة ابن رؤبة وشاعر

وأما عقبة بن رؤبة بن العجاج فإنه أنشد عقبة بن سَلْم(٢) بحضرة بشار أرجوزة ، فقال : كيف ترى يا أبا معاذ ؟ فأثنى بشار كما يجب لمثله أن يفعل ، وأظهر الاستحسان ، فلم يعرف له عقبة حقه ، ولا شكر له فعله ، بل قال له : هذا

---

(١) أضاخ ـ بالضم وآخره خاء معجمة ـ من قرى اليمامة لبنى نمير ، ذكره ياقوت ، ويروى : * فلما أن علا شرجى أضاخ *

(٢) عقبة بن سلم : كان واليا على البصرة ، من قبل أبى جعفر المنصور ، وكان جبارا عاتيا .

طِرَازٌ لاتحسنه ، فقال له بشار : أَمثلى يقال هذا الكلام ؟ أنا والله أرجز منك ومن أبيك ومن جدك ، ثم غدا على عقبة بن سَلم بأرجوزته التى أولها :

يا طلل الحىِّ بذات الصَّمَدِ[1] بالله خبر كيف كنتَ بعدى

فَضَحَ بها ابن رؤبة فضيحة ظاهرة كان غنيا عنها ..

إعجاب البحترى بنفسه

وكان فى البحترى إعجاب شديد ، إذا أنشد يقول : مالكم لا تعجبون ؟ أما حَسَنٌ ما تسمعونَ ؟ فأنشد المتوكل يوماً قصيدته التى أولها :

عَنْ أىِّ ثغرٍ تَبْتَسِمْ ؟ وبأى طَرْفٍ تحتكم ؟

وأبو العباس الصَّيْمَرِى حاضر ، فلما رأى إعجابه قام حذاءه فقال :

من أى سَلْحٍ تَلْتَقِمْ ؟ وبأى كَفٍّ تَلْتَقِطم ؟
ذَقْنُ الوليــدِ البحترىِّ أبى عُبَادة فى الرَّحِمْ

فَوَلّى البحترى وهو غضبان ، فقال: وعلمتُ أنك تنهـــزم

فضحك المتوكل حتى فحص برجليه ، وأعطى الصَّيْمرى جائزة سنية .

(٢٨) — باب عمل الشعر ، وشحذ القريحة له

لكل شاعر فترة

لابد للشاعر — وإن كان فحلا ، حاذقاً ، مُبَرِّزاً ، مقدماً — من فترة تَعرِض له فى بعض الأوقات : إما لشغل يسير ، أو موت قريحة ، أو نُبُوٍّ طبع فى تلك الساعة أو ذلك الحين . وقد كان الفرزدق — وهو فحل مُضَرَ فى زمانه — يقول : تمرُّ على الساعة وقَلْع ضرس من أضراسى أهونُ علىَّ من عمل بيت من الشعر . فإذا تمادى ذلك على الشاعر قيل : أصْفَى وأفْعَى ، كما يقال « أفصت الدجاجة »

---

(١) فى معجم ما استعجم : الصمد : موضع فى ديار بنى يربوع . وفى معجم ياقوت : الصمد ماء للضباب .

إذا انقطع بيضها ، وكذلك يقال له : أَجْبَلَ ، كما يقال لحافر البئر إذا بلغ جبلا تحت الأرض لا يعمل فيه شيء : أَجْبَلَ ، ومثل أجبل: أَكْدَى ، إلا أنهم خصوا به العطاء ، وذلك أن يصادف حافر البئر كدية فلا يزيد شيئاً على ما حفر ، ويقال : أفحم الشاعر على أفعل ، قالوا : وهو من «فُحِمَ الصبيُّ» إذا انقطع صوته من شدة البكاء ، فإن ساء نقظه وفسدت معانيه قيل له : أَهْتَرَ فهو مهتر . وقد قيل في الذبياني : إنه إنما كان شعره نظيفاً من العيوب لأنه قاله كبيراً ، ومات عن قرب ، ولم يهتر . . وأكثر ما جاء الإهتار في صفة الكبير الذي يختلط كلامه وقولهم في شعر النابغة إنه قاله وهو كبير يَدُلُّ على أنه بهذا سمى نابغة كما عند أكثر الناس ، لا لقوله :

* فَقَدْ نَبَغَتْ لَنَا مِنْهُمْ شُئُونُ *

كما تقدم [1] من قول بعضهم . ويقال : أخلى الشاعر ، كما يقال أخلى الرامى ، إذا لم يُصِبْ معنى .

رأى فى أشجع السلمى

حكى عن البحترى أنه قال : فاوضت ابن الجهم علياً فى الشعر ، وذكر أَشْجَعَ السُّلَمى فقال : إنه كان يخلى ، فلم أفهمها عنه ، وأنفت أن أسأله عنها ، فلما انصرفت فكرت فيها ، ونظرت فى شعر أشجع ، فإذا هو ربما مرت له الأبيات مغسولة ليس فيها بيت رائع .

وسائل الشعراء لاستدعاء الشعر

ثم إن للناس فيما بعد ضروباً مختلفة : يستدعون بها الشعر ، فتشحذ القرائح وتنبه الخواطر ، وتلين عريكة الكلام ، وتسهل طريق المعنى : كل امرئ على تركيب طبعه ، واطراد عادته ، وسيأتى ذلك فى أقاويل العلماء بما أرجو أن تكون فيه هداية إن شاء الله تعالى .

---

(١) انظر (ص ٤٧) من هذا الجزء .

قال بكر بن النَّطّاح الحَنَفِي : الشعر مثل عين الماء : إن تركتها اندفنت ، و إن استهتنتها هتنت ، وليس مراد بكر أن تستهتن بالعمل وحـدهُ ؛ لأنا نجد الشاعر تكلُّ قريحته مع كثرة العمل مراراً ، وتنزف مادته ، وتنفد معانيه ، فإذا أجم طبعه أياماً — وربما زمانا طويلا — ثم صنع الشعر جاء بكل آبِدَةٍ ، وانهمر فى كل قافية شاردة ، وانفتح له من المعانى والألفاظ ما لو رامه من قبل لاستغلق عليه ، وأبهم دونه ، لـكن بالمذاكرة مرة ؛ فإنها تقدح زناد الخاطر ، وتفجر عيون المعانى ، وتوقظ أبصار الفطنة ، و بمطالعة الأشعار كرة ؛ فإنها تبعث الجدّ ، وتولد الشهوة .

وسئل ذو الرمة : كيف تفعل إذا انقفل دونك الشعر ؟ فقـال : كيف ينقفل دونى وعندى مفاتحه ؟ قيل له : وعنه سألناك ، ما هو ؟ قال : الخلوة بذكر الأحباب ، فهـذا لأنه عاشق ، ولعمرى إنه إذا انفتح للشاعر نسيبُ القصيدة فقد ولَجَ من البابِ ، ووضع رجله فى الركاب ، على أن ذا الرمة لم يكن كثير المدح والهجاء ، و إنما كان واصف أطلال ، ونادب أظْعَان ، وهو الذى أخرجه من طبقة الفحول .

وقيل لـكثير : كيف تصنع إذا عسر عليك الشعر ؟ قال : أطوف فى الرباع المحيِـلَةِ ؛ والرياض المُعْشِبة ، فيسهل على أرْصَنُه ، و يسرع إلى أحسنه .

وقال الأصمعى : ما استدعى شارد بمثل المـاء الجارى ، والشرف العالى ، والمـكان الخالى — وقيل : الحالى ، يعنى الرياض —

وحدثنى بعض أصحابنا من أهل المهدية—وقد مررنا بموضع بها يعرف بالـكدية هو أشرفها أرضاً وهواء — قال : جئت هذا الموضع مرة فإذا عبد الـكريم على سطح برج هنالك قد كشف الدنيا ، فقلت : أبا محمد ؟ قال : نعم ، قلت : ما تصنع ههنا ؟ قال : ألقح خاطرى ، وأجلو ناظرى ، قلت : فهل نتج لك شىء ؟

قال : ماتقرّ به عيني وعينك إن شاء الله تعالى ، وأنشدنى شعراً يدخل مسام القلوب رقة ، قلت : هذا اختيار منك اخترعته ، قال : بل برأى الأصمعى .

وقالوا : كان جرير إذا أراد أن يؤبد قصيدة صنعها ليلا : يشعل سراجه ويعتزل ، وربما علا السطح وحده فاضطجع وغطى رأسه رغبة فى الخلوة بنفسه . يحكى أنه صنع ذلك فى قصيدته التى أخزى بها بنى نمير ، وقد تقدم ذكرها[١] .

وروى أن الفرزدق كان إذا صعبت عليه صنعة الشعر ركب ناقته ، وطاف خالياً منفرداً وحده فى شعاب الجبال وبطون الأودية والأماكن الخَرِبة الخالية ، فيعطيه الكلام قياده . حكى ذلك عن نفسه فى قصيدته الفائية :

عَزَفْتَ بأعشاشٍ وما كِدْتَ تعزِفُ

وذكر أن فتى من الأنصار بحضرة كثير ــ أو غيره ــ فاخره بأبيات حسان ابن ثابت :

لنا الجفناتُ الغرُّ يَلْمَعْنَ بالضحى وأسيافُنا يَقْطُرْنَ من نجْدَةٍ دَمَا

فأنظره سنة فمضى حَنِقاً ، وطالت ليلته ولم يصنع شيئاً ، فلما كان قرب الصباح أتى جبلا بالمدينة يقال له ذُباب، فنادى : أخاكم يابنى لبينى ، صاحبكم ، صاحبكم ، صاحبكم ، وتوسَّدَ ذراع ناقته ، فانثالت عليه القوافى انثيالا ، وجاء بالقصيدة بكرة وقد أعجزت الشعراء وبَهَرَتْهم طولا وحسنا وجودة .

وقيل لأبى نواس : كيف عملك حين تريد أن تصنع الشعر ؟ قال : أشرب حتى إذا كنت أطيب ما أكون نفسا بين الصاحى والسكران صنعت وقد داخلنى النشاط وهَزَّتْنِي الأرْيحية .

---

(١) انظر (ص ٥٠) من هذا الجزء .

أوقات صنعة الشعر

قال ابن قتيبة : وللشاعر أوقات يسرع فيها أَتِيُّه، ويسمح فيها أَبِيُّه : منها أول الليل قبل تغشى الكرى ، ومنها صدر النهار قبل الغَدَاء ، ومنها يوم شرب الدواء ، ومنها الخلوة فى الحبس والمسير ، ولهذه العلل تختلف أشعار الشاعر ورسائل المترسل .

وحكى عن أبي تمام — وقد سأله البحترى عن أوقات صنعة الشعر — قريبٌ من هذا لا أحفظه نصا ، ولا أشك أن ابن قتيبة به اقتدى ، إن كان مما رواه(١)

ومما يجمع الفكرة من طريق الفلسفة استلقاء الرجل على ظَهْره ، وعلى كل حال فليس يفتح مُقْفَلَ بحار الخواطر مثلُ مباكرة العمل بالأسحار عند الهُبُوب من النوم ؛ لكون النفس مجتمعة لم يتفرق حِسُّهاَ فى أسباب اللهو أو المعيشة أو غير ذلك مما يعييها ، وإذ هى مستريحة جديدة كأنما أنشئت نشأة أخرى ؛ ولأن السَّحَر ألطف هواء ، وأرق نسيماً ، وأعدل ميزاناً بين الليل والنهار ، وإنما لم يكن العشيُّ كالسحر — وهو عَدِيلُه فى التوسط بين طرفى الليل والنهار — لدخول الظلمة فيه على الضياء بضد(٢) دخول الضياء فى السحر على الظلمة ، ولأن النفس فيه كالَّة [مريضة] من تعب النهار وتصرفها فيه ، ومحتاجة إلى قوتها من النوم متشوقة نحوه ؛ فالسحر أحسن لمن أراد أن يصنع، وأما لمن أراد الحفظ والدراسة وما أشبه ذلك فالليل ، قال الله تعالى وهو أصدق القائلين : (إن ناشئة الليل هى أشدُّ وطأ وأقوم قيلا) وهذا الكلام

---

(١) فى التونسية « إن كان رآه » وهى عبارة قريبة الصحة : وقدمات ابن قتيبة فى سنة ٢٧٦ من الهجرة ، ومات أبو تمام فى سنة ٢٣١ من الهجرة على المختار من أقوال الناس فى وفاته .

(٢) فى المصريتين « بعد » وهو خطأ ظاهر .

الذى لامَطْعَنَ فيه ، ولا اعتراض عليه ، وعلى قراءة من قرأ (وطاء) يكون معناه أثقل على فاعله ، و إذا كان كذلك كان أ كثر أجرا ، فهذ يشهَدُ لنا أن العمل أول الليل يصعب ؛ لأن النوم يغلب والجسم يَكِلُّ .

بعض أحوال أبى تمام

وكان أبو تمام يُكرِه نفسه على العمل حتى يظهر ذلك فى شعره . . حكى ذلك عنه بعض أصحابه ، قال : استأذنت عليه — وكان لايستتر عنى — فأذن لى فدخلت [فإذا هو] فى بيت مصهرج قد غسل بالماء ، يتقلب يميناً وشمالاً ، فقلت : لقد بلغ بك الحرُّ مبلغاً شديداً ، قال : لا ، ولكن غيره ، ومكث كذلك ساعة ثم قام كأنما أطلق من عقال ، فقال : الآن وردت ، ثم استمدَّ وكتب شيئًا لاأعرفه ، ثم قال: أتدرى ما كنت فيه مذالآن ؟ قلت : كلا ، قال : قول أبى نواس :

كالدهرِ فيه شرَاسَةٌ وليانُ

أردت معناه فشَمَسَ علىَّ حتى أمكن الله منه فصنعت .

شرسْتَ، بل لنتَ،بل قانيتَ ذاكَ بذَا فأنتَ لا شَكَّ فيكَ السهل والجبل

ولعمرى لو سكتَ هذا الحاكى لنَمَّ هذا البيت بما كان داخل البيت ؛ لأن الكلفة فيه ظاهرة ، والتعمل بين ، على أن مثل حكاية أبى تمام وأشد منها قد وقعت لمن لا يتهم ، وهو جرير : صنع الفرزدق شعراً يقول فيه :

جرير والفرزدق

فإنى أنا الموتُ الذى هو ذاهبٌ بنَفْسِكَ،فانظر كيف أنتَ تُحاوله

وحلف بالطلاق أن جريراً لا يغلبه فيه ، فكان جرير يتمرغ فى الرَّمْضاء و يقول : أنا أبو حَزْرَةَ ، حتى قال :

أنا الدهرُ : يَفْنَى الموتُ والدهرُ خالدٌ فجئنى بمثلِ الدَّهْرِ شيئا يطاوله

كيف كان أبوتمام ينظم ؟

وكان أبو تمام ينصب القافية للبيت ؛ ليعلق الأعجاز بالصُّدُور ، وذلك هو الـ..ير فى الشعر ، ولا يأتى به كثيراً إلا شاعر متصنع كحبيب ونظرائه ،

والصواب أن لا يصنع الشاعر بيتا لا يعرف قافيته ، غير أنى لا أجد ذلك فى طبعى جملة ، ولا أقدر عليه ، بل أصنع القسيم الأول على ما أريده ، ثم ألتمس فى نفسى ما يليق به من القوافى بعد ذلك ، فأبنى عليه القسيم الثانى : أفعل ذلك فيه كما يفعل مَنْ يبنى البيت كله على القافية ، ولم أر ذلك بمخل علىّ ، ولا يزيحنى عن مُرادى ، ولا يغير علىّ شيئاً من لفظ القسيم الأول ، إلا فى النُّدرة التى لا يعتدبها أو على جهة التنقيح المفرط .

عبد الله بن رواحة

وسأل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عبدَ الله بن رواحة كالمتعجب من شعره، فقال : كيف تقول الشعر ؟ قال : أنظر فى ذلك ثم أقول ، قال : فعليك بالمشركين ولم يكن أعدّ شيئاً ، فأنشد أبياتاً منها :

فَخَبِّرُونِىَ ، أَثْمَانَ الْعَبَاء ، مَتَى كُنْتُمْ بَطَارِيقَ أَوْدَانَتْ لَكُمْ مُضَرُ؟؟

فعرف الكراهية فى وجه النبى صلى الله عليه وسلم ، لما جعل قومه أثمان العَباء ، فقال :

نُجَالِدُ الناسَ عن عرض ونأسرهم فينا النبىّ ؛ وفينا تَنْزِلُ السُّوَرُ
وقد علمتم بأنا ليسَ يَغْلِبُنَا حىٌّ من الناس: إن عزوا، و إن كثروا

ينتهى إلى أن يقول فى النبى صلى الله عليه وسلم :

فَثَبَّتَ اللهُ مَا أعطَاكَ مِنْ حَسَنٍ تَثْبِيتَ موسى ، ونصرا كالذى نصروا

فأقبل عليه النبى صلى الله عليه وسلم بوجهه ، فقال : « و إياك فثبت الله يا ابن رواحة » .

طريقة جماعة من الشعراء فى النظم

ومن الشعراء من يسبق إليه بيت واثنان ، وخاطره فى غيرهما : يجب أن يكونا بعد ذلك بأبيات ، أو قبله بأبيات ، وذلك لقوة طبعه ، وانبعاث مادته ، ومنهم من ينصب قافية بعينها لبيت بعينه من الشعر مثل أن تكون ثالثة أو رابعة أو نحو ذلك لا يعدو بها ذلك الموضع إلا انحل عنه نظم أبياته ، وذلك

عيب في الصنعة شديد ، ونقص بين ؛ لأنه ـ أعنى الشاعر ـ يصير محصوراً على شيء واحد بعينه ، مُضَيَّقاً عليه ، وداخلا تحت حكم القافية .

وكانوا يقولون : ليكن الشعر تحت حكمك ، ولا تكن تحت حكمه .

ومنهم مَنْ إذا أخذ فى صنعة الشعر كتب من القوافى ما يصلح لذلك الوزن الذى هو فيه ، ثم أخذ مستعملها ، وشريفها ، ومساعد معانيه ، وما وافقها ، واطَّرَحَ ما سوى ذلك ، إلا أنه لا بد أن يجمعها ليكرر فيها نظره ، ويعيد عليها تخيره فى حين العمل ، هذا الذى عليه حُذَّاق القوم .

ومن الشعراء مَنْ إذا جاءه البيت عَفْوا أثبته ، ثم رجع إليه فنقحه ، وصفاه من كدره ، وذلك أسرع له ، وأخف عليه ، وأصح لنظره ، وأرخى لباله ..

وآخَرُ لا يثبت البيت إلا بعد إحكامه فى نفسه ، وتثقيفه من جميع جهاته ، وذلك أشرف للهمة ، وأدل على القدرة ، وأظهر للكلفة ، وأبعد من السرقة .

وسألت شيخا من شيوخ هذه الصناعة فقلت : ما يعين على الشعر ؟ فقال : زهرة البستان ، وراحة الحمام .

وقيل : إن الطعام الطيب ، والشراب الطيب ، وسَماع الغناء ، مما يرقُّ الطبع ، ويصفى المزاجَ ، ويعينَ على الشعر .

ولما أرادت قريش معارضة القرآن عكف فصحاؤهم الذين تعاطَوْا ذلك على لُبَاب البرِّ وسُلاَف الخمر ولحوم الضأن والخلوة إلى أن بلغوا مجهودهم . فلما سمعوا قول الله عز وجل (وَقيلَ يا أرض ابلعى ماءكِ ، ويا سماء أقلعى ، وغِيضَ الماء ، وقضى الأمر ، واستوتْ على الجودىِّ ، وقيلَ بُعْداً للقوم الظالمين) يئسوا مما طمعوا فيه ، وعلموا أنه ليس بكلام مخلوق .

وَقيل : مِقْوَدُ الشعر الغِناء به ، وذكر عن أبى الطيب أن متشرفاً تشرف عليه وهو يصنع قصيدته التى أولها :

* جَلَلاً كما بى فَلْيَكُ التبريح[١] *

وهو يتغنّى و يَصْنَع ، فإذا توقف بعض التوقف رَجّع بالإنشاد من أول القصيدة إلى حيث انتهى منها .

وقال بعضهم : مَنْ أراد أن يقول الشعر فليعشق فإنه يرق ، وليَرْوِ فإنه يدل ، وليطمع فإنه يصنع . وقالوا : الحيلة لـكَلاَل القريحة انتظار الجمام ، وتصيد ساعات النشاط ، وهذا عندى أنجع الأقوال ، و به أقول ، و إليه أذهب ..

وقال بكر بن عبد الله المزنى : لا تـكدوا القلوب ولا تهملوها ، وخير الفـكر ما كان فى عقب الجمام ، ومَنْ أ كره بصره عشى ، واشحذوا القلوب بالمذاكرة ولا تيئسوا من إصابة الحـكمة إذا منحتم ببعض الاستغلاق ، فإن من أدْمَنَ قَرْع الباب وَصَل .

وقال الخليع : من لم يأت شعره من الوحدة فليس بشاعر ، قالوا : يريد الخلوة ، وربما أراد الغربة ، كما قال ديك الجن : ما أصْفَى شاعر مغترب قط .

صحيفة بشر بن المعتمر فى البلاغة

ومما لا يسع تركه فى هذا الموضع صحيفة كتبها بشر بن المعتمر ، ذكر فيها البلاغة ، ودل على مظان الـكلام والفصاحة ، يقول فيها : خذ من نفسك ساعةَ فراغك ، وفراغ بالك ، و إجابتها إياك ، فإن قلبك تلك الساعةَ أ كرمُ جوهر وأشرف حساً ، وأحسن فى الأسماع[٢] ، وأحلى فى الصدور ، وأسلم من فاحش الخطأ ، وأجلب لـكل عين وغرة من لفظ شريف ومعنى بديع ، واعلم أن ذلك أجْدَى عليك مما يعطيك يومُكَ الأطول بالـكد والمجاهدة ، و بالتكلف والمعاندة ، ومهما أخطأك لم يخطئك أن يكون مقبولا قصـداً ، أو خفيفاً على اللسان سهلا

---

(١) تمامه * أغذاء ذا الرشأ الأغن الشيح * وهو مطلع قصيدة مدح بها مساور بن محمد الرومى (انظر الديوان : ج ا ص ١٦٤) .

(٢) فى المصريتين المطبوعتين « وأحسن فى الإسماح » وهو تصحيف .

كما خرج من ينبوعه ، ونَجَمَ من معدنه . و إياك والتوعر ، فإن التوعر يسلمك إلى التعقيد ، والتعقيد هو الذى يستهلك معانيك ، و يشين ألفاظك ، ومن أراغ [1] معنى كريماً فَلْيَلْتمس له لفظاً كريماً ؛ فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف، ومن حقهما أن يصونهما عما يفسدهما و يُهَجِّنهما ، وعما تَعُودُ من أجله أسوأ حالا منك من قبل أن تلتمس إظهارهما ، وترهن نفسك فى ملابستهما وقضاء حقهما ؛ وكن فى إحدى ثلاث منازل : فإن أولى الثلاث أن يكون لفظك رشيقا عذبا ، وفخما سهلا ، و يكون معناك ظاهراً مكشوفا ، وقريبا معروفا : إما عند الخاصة إن كنت للخاصة قصدت ، و إما للعامة إن كنت للعامة أردت ، والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معانى الخاصة ، وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معانى العامة . و إنما مَدَارُ الشرف مع الصواب و إحراز المنفعة ، ومع موافقة الحال ، ومع ما يجب لكل مقام من المقال ، وكذلك اللفظ العامى والخاصى ، فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك ، و بلاغة قلمك ، ولطف مداخلك ، واقتدارك فى نفسك على أن تفهم العامة معانى الخاصة وتَكْسُوهَا الألفاظ المتوسطة التى لا تلطف عن الدهماء، ولا تجفو عن الأكفاء ؛ فأنت البليغ التام . وإن كانت المنزلة الأولى لا تواتيك ولا تعتريك ولا تسمح لك عند أول نظرك فى أول تكلفك ، وتجد اللفظة لم تقع موقعها ولم تصل إلى قرارها و إلى حقها من أماكنها المقسومة لها ، والقافية لم تحل فى مركزها وفى نصابها ولم تتصل بشكلها ، وكانت قَلِقَةً فى مكانها نافرة عن موضعها ؛ فلا تُكْرِهْهَا على اغتصاب مكانها ، والنزول فى غير أوطانها ؛ فإنك ـ إذا لم تتعاط قَرْضَ الشعر الموزون ، ولم تتكلف اختيار الكلام المنثور ـ لم يعبك بترك ذلك أحد ؛ فإن أنت تكلفتها ولم تكن حاذقاً مطبوعاً ، ولا محكماً

---

(١) أراغ ـ بالغين المعجمة والهمزة أوله ـ أراد وطلب ، ومثله ارتاغ ، وفى التونسية « راغ » وهو خطأ .

لشأنك ، بصيراً بما عليك ولك ؛ عابك من أنت أقل منه عيباً ، ورأى من هو دونك أنه فوقك . فإن أنت ابتليت بأن تتكلف القول وتتعاطى الصنعة ، ولم تسمح لك الطباع ؛ فلا تعجل ، ولا تضجر ، ودَعْهُ بياضَ يومك أو سواد ليلك ، وعاوِدْهُ عند نشاطك وفراغ بالك ؛ فإنك لا تعدم الإجابة والمُواتاةَ إن كانت هناك طبيعة ، أو جَرَيْتَ فى الصناعة[١] على عِرْقٍ ، فإن تَمَنَّع عليك بعد ذلك من غير حادث شغل ، ومن غير طول إهمال ؛ فالمنزلة الثالثة أن تتحول عن هذه الصناعة إلى أشهى الصناعات إليك ، وأخفها عليك ؛ فإنك لم تشتهه ولم تنازع[٢] إليه إلا و بينكما نسب ، والشيء لا يحن إلا إلى ما شاكله ، و إن كانت المشاكلة قد تكون فى صفات[٣] ، إلا أن النفوس لا تجود بمكنونها مع الرغبة ، ولا تسمح بمخزونها مع الرهبة ، كما تجود به مع الشهوة والمحبة .

أفضل ما استعان به شاعر

وقال بعض أهل الأدب : حسب الشاعر عَوْناً على صناعته أن يجمع خاطره ، بعد أن يُخَلِّي قلبه من فضول الأشغال ، ويدع الامتلاء من الطعام والشراب ، ثم يأخذ فيما يريده . وأفضل ما استعان به الشاعر فضل غنى أو فرط طمع[٤] . والفقر آفة الشعر ، و إنما ذلك لأن الشاعر إذا صنع القصيدة وهو فى غنى وسعة نقحها وأنعم النظر فيها على مهل ، فإذا كان مع ذلك طمعٌ قَوِيَ انبعاثها من يَنْبُوعها ، وجاءت الرغبة بها فى نهايتها محكمة ، و إذا كان فقيراً مضطراً رضى بعفو كلامه ، وأخذ ما أمكنه من نتيجة خاطره ، ولم يتسع فى بلوغ مراده ولا بلوغ مجهود نيته ؛ لما يحفزُه من الحاجة والضرورة ، فجاء دون عادته فى سائر أشعاره

(١) فى التونسية « من الصناعة » .

(٢) كذلك هو فى عامة الأصول ، ولعله « ولم تنزع إليه » .

(٣) فى التونسية « فى طبقات » .

(٤) هكذا فى التونسية ، وفى المصريتين « أو فضل طمع » .

وربما قصر عمن هو دونه بكثير ، ومنهم من تحمى الحاجة خاطره ، وتبعث قريحته ؛ فيجود ، فإذا أوسع أبِفَ ، وصعب عليه عمل الأبيات اليسيرة فضلا عن الكثيرة ، وللعادة فى هذه الأشياء فعل عظيم ، وهى طبيعة خامسة كما قيل فيها .

(٢٩) — باب فى المقاطع والمطالع

حد المقاطع والمطالع

اختلف أهل المعرفة فى المقاطع والمطالع : فقال بعضهم : هى الفصول والوصول بعينها ، فالمقاطع : أواخر الفصول ، والمطالع : أوائل الوصول ، وهذا القول هو الظاهر من نحوى الكلام ، والفصل : آخر جزء من القسيم الأول كما قدمت ، وهى العروض أيضاً ، والوصل : أول جزء يليه من القسيم الثانى

وقال غيرهم : المقاطع : منقطع الأبيات ، وهى القوافى ، والمطالع : أوائل الأبيات

وقال قدامة بن جعفر فى بعض تآليفه وقد ذكر الترصيع : هو أن يتوخّى تصييرَ مقاطع الأجزاء فى البيت على سَجْع ، أو شبيه به ، أو من جنس واحد فى التصريف ، فأشار بهذه العبارة إلى أن المقاطع أواخر أجزاء البيت كما ترى . وقد نجد من الشعر المرصع ما يكون سجعه فى غير مقاطع الأجزاء ، نحو قول أم مَعدان الأعرابية فى مرثية لها :

فعل الجميل وتفريج الجليل وإعــطاء الجَزِيلِ الذى لم يُعْطِهِ أحَدُ

فالسجع فى هذا البيت اللام المطردة فى ثلاثة أمكنة منه ، وآخر الأجزاء التى هى المقاطع على شريطة الياء التى قبل اللام ، اللهم إلا أن يجعل السجع هو الياء الملتزمة فحينئذ ، على أنا لا نعلم حرف السجع يكون إلا متأخراً فى مثل هذا المكان ، ومثل هذا فى أنواع الأعاريض كثير .

ومن الناس من يزعم أن المطلع والمقطع أول القصيدة وآخرها ، وليس ذلك

بشيء ؛ لأنا نجد في كلام جهابذة النقاد إذا وصفوا قصيدة قالوا : حسنة المقاطع ، جيدة المطالع ، ولا يقولون المقطع والمطلع ، وفي هذا دليل واضح ؛ لأن القصيدة إنما لها أول واحد ، وآخر واحد ، ولا يكون لها أوائل وأواخر ، إلا على ما قدمت من ذكر الأبيات والأقسمة وانتهائها .

وسألت الشيخ أبا عبد الله محمد بن إبراهيم بن السمين عن هذا ، فقال : المقاطع أواخر الأبيات ، والمطالع أوائلها ، قال : ومعنى قولهم « حسن المقاطع جيد المطالع » أن يكون مقطع البيت — وهو القافية — متمكناً غير قلق ولا متعلق بغيره ، فهذا هو حُسْنه ، والمطلع — وهو أول البيت — جودته أن يكون دالا على ما بعده كالتصدير وما شاكله .

وروى[1] الجاحظ أن شَبِيبَ بن شَيْبَة كان يقول : الناس موكلون بتفضيل جودة الابتداء و بمدح صاحبه ، وأنا موكل بتفضيل جودة المقطع و بمدح صاحبه ، وحظ جودة القافية — و إن كانت كلمة واحدة — أرفع من حظ سائر البيت أو القصيدة[2] ، وحكاية الجاحظ هذه تدل على أن المقطع آخر البيت أو القصيدة ، وهو بالبيت أليق ؛ لذكر حظ القافية .

وحكى أيضاً عن صديق له أنه قال للعَتَّابي : ما البلاغة ؟ فقال : كل كلام أفهمك صاحبه حاجته من غير إعادة ولا حُبْسَة ولا استعانة فهو بليغ ، قال : قلت : قد عرفت الإعادة والحبسة ، وما الاستعانة ؟ قال : أما تراه إذا تحدث قال عند مقاطع كلامه : ياهَنَاه اسمع مني ، واستمع إلي ، وافهم ، وألست تفهم ؟ هذا كله عيّ وفساد .

قال صاحب الكتاب : وهذا القول من العَتَّابي يدل على أن المقاطع أواخر الفصول . ومثله ما حكاه الجاحظ أيضاً عن المأمون أنه قال لسعيد

(١) انظر البيان والتبيين (ج ١ ص ١٠٦) .

(٢) هذه الكلمة غير موجودة في نسخة البيان والتبيين .

أبن سلم[1] والله إنك لتُصغى لحديثى ، وتقف عند مقاطع كلامى .

وإذا جعل المقطع والمطلع مصدرين بمعنى القطع والطلوع كانت الطاء واللام مفتوحتين ، وإذا أريد موضع القطع والطلوع كسرت اللام خاصة ، وهو مسموع على غير قياس .

(٣٠) — باب المبدأ ، والخروج ، والنهاية

منزلة هذه الأمور الثلاثة

قيل لبعض الحذاق بصناعة الشعر : لقد طار اسمك واشتهر ، فقال : لأنى أقللت[2] الحز ، وطبقت المَفصِلَ ، وأصبت مقاتل الكلام ، وقرطست نكت الأغراض بحسن الفواتح والخواتم ولطف الخروج إلى المدح والهجاء ، وقد صدق ، لأن حسن الافتتاح داعية الانشراح ، ومطية النجاح ، ولطافة الخروج إلى المديح ، سببُ ارتياح الممدوح ، وخاتمة الكلام أبقى فى السمع ، وألصق بالنفس ؛ لقرب العهد بها ؛ فإن حسنت حسن ، وإن قبحت قبح ، والأعمال بخواتيمها ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

(١) فى المصريتين « سعيد بن أسلم » وكتب بحواشيهما « وفى نسخة سعيد ابن مسلم » ، والصواب ما أثبتناه ، وسعيد بن سلم : هو سعيد بن سلم بن قتيبة ابن سلم الباهلى ، وكان من أمراء الدولة العباسية ، وقدولى أرمينية والموصل والسند وطبرستان وسجستان والجزيرة . وذكره الجاحظ فى البيان والتبيين كثيرا ، وروى الجاحظ هذه العبارة هكذا « والله إنك لتستفهم حديثى ، وتقف عند مقاطع كلامى ، وتخبر عنه بما كنت قد أغفلته » انظر (ج ٢ص ٣٠) وأبو سلم قدولى إمرة البصرة ليزيد بن عمر بن هبيرة فى أيام مروان الحمار ، ثم وليها مرة أخرى فى أيام أبى جعفر المنصور ، وتوفى سنة ١٤٩ هـ . وتوفى ابنه سعيد فى سنة ٢٠٩ هـ .

(٢) كذا فى المصريتين ، وفى التونسية « أجدت الحز » وأظنه «أصبت المحز»

وبعد ، فإن الشعر قُفْلٌ أوله مفتاحه ، وينبغي للشاعر أن يجوِّد ابتداء شعره ؛ فإنه أول مايقرَعُ السمع ، وبه يستدل على ماعنده من أول وَهْلَة ،وليجتنب « ألا » و « خليليّ » و « قد » فلا يستكثرُ منها فى ابتدائه ؛ فإنها من علامات الضعف والتكلان ، إلا للقدماء الذين جرَوْا على عرق ، وعملوا على شاكلة ، وليجعله حلواً سهلا ، وفخما جزلا ، فقد اختار الناس كثيراً من الابتداءات أذكر منها ههنا ما أمكن ليستدل به ، نحو قول امرىء القيس :

مختار من المطالع الجيدة

* قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ *(١)

وهو عندهم أفضل ابتداء صنعه شاعر ؛ لأنه وقف واستوقف وبكى واستبكى وذكر الحبيب والمنزل فى مصراع واحد ، وقوله :

* ألاعِمْ صَبَاحاً أيها الطلل البالى *(٢)

ومثله قول القطاميِّ ــ واسمه عُمَير بن شُيَيم التغلبى ــ :

* إنَّا مُحَيُّوكَ فاسْــلَمْ أيها الطَّلَلُ *(٣)

وكقول النابغة :

كِلِينِي لِهَمٍّ يا أُمَيْمَةُ نَاصِبِ وَلَيْلٍ أُقَاسِيه بَطِيءِ الْكَوَاكِبِ

وقوله :

كتمتكَ ليلا بالجومَين ساهراً وهمَّيْنِ همًّا مُستكنا وظاهراً

---

(١) هذا مطلع معلقته ، وعجزه * بسقط اللوى بين الدخول فحومل *
وقد نسب بعض أهل العلم مدح هذا المبدأ لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٢) تمامه * وهل يعمن من كان فى العصر الخالى *

(٣) تمامه * وإن بليت وإن طالت بك الطيل *

هذا بعض ما اختير للقدماء .. ومما اختير لهم فى الرثاء قول أوس بن حَجَر :

أيتها النفسُ أجْمِلِي جزَعًا إنّ الذى تحذَرِينَ قدْ وَقعَا

ومما اختير للمحدَثين قول بشار بن برد :

* أبَى طَلَلٌ بالجزْعِ أنْ يتَـكلَّمَا[1] *

وهو عندهم أفضل ابتداء صنعه محدَث ، وقول أبى نواس :

لمن دمنٌ تزدادُ طيب نَسِيمِ على طول ما أقْوَتْ وحسن رُسوم

وقوله :

رسمُ الـكرى بين الجفون مُحِيلُ عَفَّى عليه بُكَى عليك طو يلُ

وقوله :

أعْطَتْكَ رَيْحانهــا العُقَارُ وَحان من ليلنا انسفار

وقوله:

دَعْ عنكَ لَوْمِى فإنّ اللَّوْمَ إغْرَاء وَدَاوِنِى بالتى كانَتْ هى الداء

وما أشبه ذلك مما لو تقصيته لطال وكثر ..

بين دعبل وديك الجن

وليرغب عن التعقيد فى الابتداء ؛ فإنه أول العِىّ ، ودليل الفَهّة ، فقد حكى أن دعبل بن على الخزاعى ورد حمص فقصد دار عبد السلام ابن رَغْبان ديكِ الجن ، فـكتم نفسه عنه خوفاً من قوارصه ومُشَارّته ، فقال : ماله يستتر وهو أشعر الجن والإنس ؟ أليس هو الذى يقول ؟ :

---

(١) تمامه * وماذا عليه لو أجاب متيما * وبعده :

وبالقاع آثار بقين ، وباللوى ملاعب لا يعرفن إلا توهما

وانظر الأغانى (ج ٣ ص ١٤٨) طبعة دار الـكتب المصرية .

بها غَيْرَ مَعْذُولٍ(١) فَدَاوِ خُمارها وَصِلْ بِعَشِيَّاتِ الْغَبُوقِ ابتِكَارَهَا
ونَلْ من عظيم الردف كلَّ عظيمة إذَا ذُكِرَتْ خاف الحفيظانِ نارَهَا

فظهر إليه ، واعتذر له ، وأحسن نُزُلَه ، ثم تناشدا فأنشد ديك الجن ابتداء قصيدة :

كَأَنَّها ما كأنه خلل الـــخلة وَقْفُ الهَلُوكِ إذ بَغَمَا(٢)

فقال له دعبل : أَمْسِكْ ، فوالله ما ظننتك تتم البيت إلا وقد غشى عليك ، أو تَشَكَّيت فكيك ، ولكأنك فى جهنم تخاطب الزبانية ، أو قد تخبَّطك الشيطان من المس ، و إنما أراد الديك أن يهول عليه ، ويقرع سمعه ، عسى أن يروعه و يردعه ، فسمع منه ما كره أن يسمعه ، ولعمرى ما ظلمه دعبل ، ولقد أبعد مسافة الكلام ، وخالف العادة ، وهذا بيت قبيح من جهات : منها إضمار مالم يذكر قبلُ ، ولا جرت العادة بمثله فيعذر ، ولا كثر استعماله فيشتهر ، مع إحالة تشبيه على تشبيه ، وثقل تجانسه الذىهوحشو فارغ ، ولو طرح من البيت لكان أحزم ، واستدعى قافيته لالشىء إلا لفساد المعنى واستحالة التشبيه ، ما الذى يريد بـ « ببُغَامه » فى تشبيهه الوقف ــ وهو السِّوَار ــ ولم كان وَقْفَ الهَلُوك خاصة ؟ ومعنى البيت أن عشيقته كأنها فى جيدها وعينها الغزال الذى كأنه بين نبات الخلة سوارُ الجارية الحسنة المشى المتهالكة فيه ، وقيل : الهلوك البغىُّ الفاجرةُ ــ فما هذا كله ؟ وأى شىء تحته ؟ .

ومثله قول محمد بن عبد الملك الزيات يصف ناقته أول قصيدة مدح بها الحسن ابن سهل :

---

(١) فى المصريتين * بها غير معلول . . . *

(٢) حل ألفاظه هكذا : كأنها الذى كأنه فى حال وجوده خلل الخلة وقت بغامه وقف الهلوك ، وهو شىء فى غاية الثقل .

كأنها حين تنَاءَى خَطْوُهَا أخنس مَطْوِيُّ الشَّوَى يَرعى القُلَلْ

فالعيب الأول فى مخالفة العادة لازم له ، ومع ذلك قوله « حين تناءى خطوها » مقصر بها ، وهو يقدر أن يقول « حين تدانى خطوها » وخالف جميع الشعراء بذلك ؛ لأنهم إنما يصفون الناقة بالظَّلِيم والحمار والثور بعد الكَلاَل غلواً فى الوصف ومبالغة ، هذا هو الجيد ، فإن لم يفعلوا لم يذكروا أنها بذلت جهدها ، واستفرغت جميع ما عندها ، بل يَدَّعُون التأويلَ محتملا للزيادة ، ثم قال « يرعى القلل » والثور لا يرعى قلل الجبال ، و إنما ذلك الوَعِلُ ؛ فإنه لا يسهل ، والثور فى السهول والدماث ومواضع الرمال ، إلا أن يريد قلل النبات [أى] أعاليه ، فربما أن تكون القلل نبتاً بعينه أو مكاناً فقد يمكن ، وما سمعت بهما .

من عيوب المطالع

ومن الشعراء من يقطع المصراع الثانى من الأول إذا ابتدأ شعراً ، وأكثر ما يقع ذلك فى النسيب ، كأنه يدل بذلك على وَلَهٍ وشدة حال ، كقول أبى الطيب :

جَلَلاً كما بِى فَلْيَكُ التَّبْرِيحُ أغِذاء ذَ الرشأ الأغنّ الشِّيحُ ؟

فهذا اعتذار من اعتذَر له ، ولو وقع مثل هذا فى الرثاء والتفجع لكان موضعه أيضاً ، وكذلك عند العظائم من الأمور والنوازل الشديدة .

وليحترس مما تناله فيه بادرة ، أو يقع عليه مطعن ؛ فإن أبا تمام امتدح أبا دُلَفَ بحضرة من كان يكرهه ، فافتتح ينشد قصيدته المشهورة :

* على مِثْلِها من أرْبُع ومَلاَعِبِ (١) *

وكانت فيه حبسةٌ شديدةٌ فقال الرجل : « لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » فدهش أبو تمام حتى تبين ذلك عليه ، على أنه غير مأخوذ بما قيل ،

(١) تتمته * تذال مصونات الدموع السواكب *

ولا هو مما يُدْخِلُ عليه عيباً ، ولا يلزمه ذنباً على الحقيقة ، إلا أن الحوطة والتحفظ من خجلة البادرة أفضل وأهيب ، والتفريط أرذل وأخذل .

مأخذ على جرير

ودخل جرير على عبد الملك بن مروان فابتدأ ينشده :

* أتَصْحُو أمْ فؤَادُكَ غَيْرُ صاحٍ (١) *

فقال له عبد الملك : « بل فؤادك يابن الفاعلة » كأنه استثقل هذه المواجهة وإلا فقد علم أن الشاعر إنما خاطب نفسه .

مأخذ على المتنبي

ومن هذه الجهة بعينها عابوا على أبي الطيب قوله لكافور أول لقائه مبتدئاً ، وإن كان إنما يخاطب نفسه لا كافوراً :

كفى بكَ داء أن ترى الموتَ شافيا وحسبُ المنايا أنْ يَكُنَّ أمانيا

فالعيب من باب التأدب للملوك ، وحسن السياسة لازم لأبي الطيب في هذا الابتداء ، لا سيما وهذا النوع ــ أعنى جودة الابتداء ــ من أجَلِّ محاسن أبي الطيب ، وأشرف مآثر شعره إذا ذكر الشعر .

مأخذ على ذي الرمة

ودخل ذو الرمة على عبد الملك بن مروان ، فاستنشده شيئا من شعره، فأنشده قصيدته :

ما بال عينك منها الماء ينسكبُ (٢)

وكانت بعين عبد الملك ريشة ،وهي تَدْمَعُ أبداً ، فتوهم أنه خاطبه أو عرَّض به ، فقال : وما سؤالك عن هذا يا جاهل ؟ !! فمقته وأمر بإخراجه.

مأخذ على أبي النجم

وكذلك فعل ابنه هشام بأبي النجم وقد أنشده في أرجوزة :

والشَّمسُ قد كادت ولمَّا تَفْعَلِ كأنها في الأفقِ عَيْنُ الأحْوَلِ

وكان هشامٌ أحْوَلَ ، فأمر به فحجب عنه مدة ، وقد كان قبل ذلك من خاصته : يسمر عنده ، ويمازحه .

سبب وقوع الشاعر فيه

وإنما يؤتى الشاعر في هذه الأشياء ؛ إما من غفلة في الطبع وغلظ ، أو من

---

(١) تتمته * عشية هم صحبك بالرواح *

(٢) تتمته * كأنه من كلى مفرية سرب *

استغراق فى الصنعة وشغل هاجس بالعمل يذهب مع حسن القول أبن ذهب .

والفطن الحاذق يختار للأوقات مايشا كلها ، و ينظر فى أحوال المخاطبين ؛ فيقصد مَحَابَّهُمْ ، و يميل إلى شهواتهم و إن خالفت شهوته ، و يتفقد ما يكرهون سماعه فيجتنب ذكره . . ألا ترى أن بعض الملوك قال لأحد الشعراء وقد أورد بيتاً ذكر فيه « لو خلد أحد بكرم لـكنت مخلدا بكرمك » وقال كلاماً نحو هذا ، فقال الملك : إن الموت حق ، و إن لنا منه نصيباً ، غير أن الملوك تـكره ذكر ما ينكد عيشها ، و ينغص لذتها ، فلا تأتنا بشيء مما نكره ذكره . .

ومن المشهور أن النعمان بن المنذر رأى شجرة ظليلة ملتفة الأغصان ، فى مرج حسن كثير الشقائق ، وكان مُعْجَباً بها ، و إليه أضيفت «شقائق النعمان» فنزل وأمر بالطعام والشراب فأحضر ، وجلس للذته ، فقال له عدى بن زيد العبادىّ وكان كاتبه: أتعرف أبيت اللعن ما تقول هذه الشجرة ؟ فقال : وما تقول ؟ قال : تقول :

رُبَّ رَكْبٍ قد أناخوا حولنا يشربون الخمرَ بالماء الزُّلال

عَطَفَ الدهر عليهم فتَوَوْا وكذاك الدهرُ حالٌ بعد حال[(١)]

مَن رآنا فَلْيُوَطِّن نفسه إنما الدنيا على قرب زوال[(٢)]

كأنه قصد موعظته ، فتنغص عليه ما كان فيه ، وأمر بالطعام والشراب فرفعا من بين يديه ، وارتحل من فَوْرِه ، ولم ينتفع بنفسه بقية يومه وليلته ، وكانا جميعاً[(٣)] نصرانيين ؛ فهذا شأن الملوك قديماً وحديثاً .

---

(١) يروى صدره * عصف الدهر بهم فانقرضوا * وفى التونسية * عكف الدهر عليهم فتووا * وفى المصريتين * . . . فتووا * بالمثلثة

(٢) فى المصريتين « فرط زوال » وفى التونسية « قرنى زوال » ولـكن المعروف فى الرواية « قرب زوال » كما أثبتناه ، ويرى أيضا « قرن زوال » .

(٣) يقول بعض الناس : إن النعمان كان إلى ذلك العهد وثنيا ، وإنه تنصر على يدى عدى بن زيد بعد هذه الموعظة وأشباهها ، ويحكون مع هذا قصصا وروايات كثيرة .

من دعاء الشعراء للملوك

ومن هذه الجهة أكثر الناس من الدعاء لهم بطول العمر ، حتى بلغوا بهم مالا يمكن ، فقالوا : عش أبداً ، وأُسلم مدى الدهر ، وابق بقاء الزمان ، ودم مدة الأيام .

واعترض النقاد فى ذلك واختلفوا بحسب ماينتحل كل واحد منهم فى قول أبى نواس للأمين :

يا أمين الله عِشْ أبدا دُمْ عَلَى الأيّام والزَّمَنِ
أنتَ تبقى وَالفَنَاء لنــا فإذا أفنيتنــا فَكُنِ

وفى كثير من مثله . و إذا خرج الكلام عن حد الإمكان فإنما يراد به بلوغ الغاية لا غير ذلك .

من إساءات أبى نواس

ومن قبيح ما وقع لأبى نواس الذى أساء فيه أدبه ، وخالف فيه مذهبه ؛ أن بعض بنى بَرْمَك بَنَى داراً استفرغ فيها مجهوده ، وانتقل إليها ، فصنع أبو نُوَاس فى ذلك الحين أو قريباً منه قصيدة يمدحه بها يقول أولها :

أربْعَ البلى ، إن الخشوعَ لبادٍ عَلَيْكَ ، و إنى لم أخُنْكَ ودادى

وختمها أو كاد بقوله :

سلامٌ على الدنيا إذا ما فقدتم بنى بَرْمكٍ من رائحين وغادى

فتطير منها البرمكى ، واشمأز حتى كلح وظهرت الوجمة عليه ، ثم قال : نعيت إلينا أنفسنا يا أبا نواس ، فما كانت إلا مُدَيْدَة حتى أوقع بهم الرشيد وصحت الطيرة . . وزعم قوم أن أبا نواس قصد التشاؤم لهم لشىء كان فى نفسه من جعفر ، ولا أظن ذلك صحيحاً ؛ لأن القصيدة من جيد شعره الذى لا أشك أنه يحتفل له ، اللهم إلا أن يصنع ذلك حيلة منه ، وسَتْراً على ما قصد إليه بذلك .

مذهب الشعراء في الافتتاح

وللشعراء مذاهب فى افتتاح القصائد بالنسيب ؛ لما فيه من عطف القلوب ، واستدعاء القَبُول بحسب مافى الطباع من حب الغزل ، والميل إلى اللهو والنساء ، وإن ذلك استدراج إلى مابعده .

ومقاصد الناس تختلف : فطريق أهل البادية ذكر الرحيل والانتقال ، وتوقع البين ، والإشفاق منه ، وصفة الطلول والحمول ، والتشوق بحنين الإبل ولمع البروق ومر النسيم ، وذكر المياه التى يلتقون عليها والرياض التى يحلُّون بها من خزَامى ، وأقْحُوان ، وبَهار ، وحنْوَة ، وظَيَّان ، وعَرَار ، وما أشبهها من زهر البرية الذى تعرفه العرب . وتنبته الصحارى والجبال وما يلوح لهم من النيران فى الناحية التى بها أحبابهم ، ولا يعدون النساء إذا تغزلوا ونسبوا ، فإن وقع مثل قول طرفة :

وفى الحى أحْوَى ينفضُ المرْدَشادِنٌ مظاهرُ سِمْطَىْ لؤلؤٍ وزَبَرْجَدِ

فإنما هو كناية بالغزل عن المرأة .

وأهل الحاضرة يأتى أكثر تغزلهم فى ذكر الصدود ، والهجران ، والواشين ، والرقباء ، ومَنَعة الحَرَس والأبواب ، وفى ذكر الشراب والندامى ، والورد والنسرين والنيلوفر ، وماشاكل ذلك من النواوير البلدية ، والرياحين البستانية ، وفى تشبيه التفاح والتحية به ، ودس الكتب ، وما شاكل ذلك مما هم به منفردون . . وقد ذكروا الغلمان تصريحاً ، ويذكرون النساء أيضاً : منهم من سلك فى ذلك مسلك الشعراء اقتداء بهم ، وأتباعاً لما ألفته طباع الناس معهم ، كما يذكر أحدهم الإبل ، ويصف المفاوز على العادة المعتادة ، ولعله لم يركب جملا قط ، ولا رأى ما وراء الجبانة ، ومنهم من يكون قوله فى النساء أعتقاداً منه ، وإن ذكر جريا على عادة المحدَثين ، وسلوكا لطريقتهم ؛ لئلا يخرج عن سلك أصحابه ، ويدخل فى غير سلكه وبابه ، أو كناية بالشخص عن الشخص لرقته ، أو حب رشاقته . . وهذا مما لا يطلب عليه شاهد لكثرته ، إلا أنى أتلمح فى هذا المكان بقول أبى نواس :

على عينٍ وأذنٍ من مذكرة موصولةٍ بهوى الوطى والغزلِ
كلاهما نحوها سامٍ بهمته على اختلافهما فى موضع العمل

يذكر الشاعر المفاوز والركاب قبل المديح

والعادة أن يذكر الشاعر ما قطع من المفاوز ، وما أنضى من الركائب ، وما تجشم من هول الليل وسهره ، وطول النهار وهجيره ، وقلة الماء وغؤوره ، ثم يخرج إلى مدح المقصود ؛ ليوجب عليه حق القصد ، وذِمامَ القاصد ، و يستحق منه المكافأة .

وكانوا قديماً أصحاب خيام : ينتقلون من موضع إلى آخر ؛ فلذلك أول ماتبدأ أشعارهم بذكر الديار ، فتلك ديارهم ، وليست كأبنية الحاضرة ؛ فلامعنى لذكر الحضرى الديار إلا مجازاً ؛ لأن الحاضرة لا تنسفها الرياح ، ولا يمحوها المطر ، إلا أن يكون ذلك بعد زمان طويل لا يمكن أن يعيشه أحد من أهل الجيل ، وأحسن ما استعمله المولدون المحدثون ما ناسب قول على بن العباس الرومى :

سَقَى اللهُ قَصْرا بالرّصَافَةِ شَاقَنِى بأعلاه قَصْرِىُّ الدلال رصافى[1]
أشارَ بِقُضْبان من الدر قُمِّعَتْ يَوَاقيتَ حُمْراً فاستباح عَفَافى

وكانت دوابهم الإبل لكثرتها ، وعدم غيرها ، ولصبرها على التعب وقلة الماء والعلف ، فلهذا أيضا خصوها بالذكر دون غيرها ، ولم يكن أحدهم يرضى بالكذب فيصف ماليس عنده كما يفعل المحدثون ؛ ألا ترى أن امرأ القيس لما كان ملكا كيف ذكر خيل البريد والفرانق ــ يعنى البريد ــ على أنه لم يستغن عن ذكر الإبل للعادة التى جرت على ألسنتهم ، فقال يصف رحيله إلى قيصر ملك الروم :

---

(١) هكذا فى التونسية ، وفى المصريتين « قصرى الديار » .

إذا قلت رَوِّحْنا أرَنَّ فُرَانِقٌ على جلعدٍ واهى الأباجل أبترا(١)
على كل مقصوص الذُّنَابَى معاودٍ بريد السرى بالليل من خيل بَرْبَرَا(٢)
إذا زُعْتَهُ مِنْ جانبيه كليهما مَشَى الهَيْذَبَى فى دَفِهِ ثم فَرْفَرَا(٣)
أقبَّ كسِرْحَان الغضا مُتمطرٍ ترى المـاءَ من أعطافه قد تحدرا(٤)

وكانت الخيل البربرية تهلب أذنابها كالبغال؛ لتدخل مداخلها فى خدمة البريد، وليعلم أنها للملك. وقال الفرزدق:

راحت بمسلمةَ البِغالُ عَشِيَّةً فَارْعَىْ فَزَارَةُ لا هَنَاكِ المَرْتَعُ

لما كان الذى راحت به البغال أميراً يذكر رحيله وقد عُزِل
وقال ابن ميادة فى ابن هبيرة لما كان أميراً أيضاً:

---

(١) روحنا: أرحنا من تعب السير. أرن: أعلن بالصياح. فرانق — بوزان علابط ــ الأسد وهو معرب، قاله الوزير أبو بكر. جلعد: غليظ قوى. الأباجل: جمع أبجل، وهو عرق الأكحل. أبتر: محذوف الذنب، وكذلك خيل البريد.

(٢) الذنابى: الذنب، وخيل البريد من علاماتها حذف أذنابها كما قلنا، وبريد السرى: معمول لمعاود فهى بالنصب، وذكر أبو بكر فيه رواية بالجر، على أنه نعت لما قبله. وخص خيل بربر لأنها عندهم أصلب الخيل، قال أبو بكر: وبربر: قبيلة.

(٣) زعته: حذبته باللجام، وفى المصريتين «رعته» بالراء مهملة، وهو تحريف، والهيذبى ــ بالدال المهملة وبالذال المعجمة ــ من الإهذاب وهو سرعة السير ورواه ابن دريد «الهربذى» وهو مشى فى تبختر، والدف: الجنب، وفرفر: نفض رأسه، ومنهم من يرويه «قرقر» بقافين.

(٤) أقب: ضامر. السرحان: الذئب، والغضا: شجر، وذئابه أخبث الذئاب متمطر: سباق، الماء: أراد به العرق، وكنى بذلك عن أنه يجهده.

جاءت به مُعْتَجِراً بِبُرْدِهِ   سفواءُ تردى بنسيجٍ وحده
تقدحُ قيسٌ كلها بزندِهِ

إلا أن منهم من خالف هذا كله فوصف أنه قصد الممدوح راجلا : إما إخباراً بالصدق ، وإما تعاطىَ صعلكةٍ ورجلة . .

قال أبو نواس للفضل بن يحيى بن خالد :

إليك أبا العباس من بين من مشى   عليها امتطينا الحَضْرَمِيَّ الْمُلَسَّنَا
قلائصُ لم تعرف حنيناً على طَلاً (١)   ولم تدر ما قَرْعُ الفَنِيقِ ولا الهِنَاَ

فذكر أن قلائصهم التى امتطوها إليه نعالهم ، فأخرجه كما ترى مخرج اللغز، وأتبعه أبو الطيب فقال :

لا ناقتى تحمل الرديف ، وَلاَ   بالسَّوْطِ يوم الرِّهَانِ أجْهَدُهَا
شرَاكُهَا كُورُها ، ومِشْفَرُها   زِمَامُهَا ، والشُّسُوع مِقْوَدُها

وقال كَرَّةً أخرى فى مثل ذلك يتشكى :

وَحُبِيتُ مِنْ خُوصِ الركابِ بأسْوَدٍ   مِنْ دَارِشٍ فَغَدَوْتُ أمْشِى رَاكِبَا (٢)

وقال أيضاً يتصعلك ويتفقر :

وَمَهْمَهٍ جُبْتُــهُ عَلَى قَدَمِى   تَعْجِزُ عَنْهُ الْعَرَامِسُ الذُّلُلُ

---

(١) فى الديوان * لم تسقط جنينا من الوجى * والمحفوظ * لم تعرف حنيناً إلى طلا *

(٢) البيت من قصيدة له يمدح فيها على بن منصور الحاجب (ج ١ ص ٨٨) والخوص : جمع خوصاء ، وهى الناقة الغائرة العينين من الإعياء . والركاب : الإبل والدارش : ضرب من السختيان ، وهو جلد أسود ، يقول : أعطيت بدلا من النياق الخوص جلدا أسود ــ وهو الخف ــ فأنا راكب ماش .

بصَـــارِمِي مُرْتَدٍ، بِمَخْبُرَتِي مُجتَزِىءٌ، بالظَّلاَمِ مُشْتَمِلُ (١)

ولو شاء قائل أن يقول : إن أبا نواس لم يرد ما ذهب إليه أبو الطيب ، لكن أراد أنه معه فى بلدة واحدة قصده فى حاجته محتذياً نعليه ؛ لكان ذلك أظهر وجهاً ، ما لم يكن الحضرمىّ من الجلود مخصوصاً به المسافر دون الحاضر ، وظاهر الكلام أن مقصد الشاعرين واحد .

المتنبى يذكر الخيل بدل الإبل

وقد ذكر أبو الطيب الخيل أيضاً فى كثير من شعره ، وكان يؤثرها على الإبل ؛ لما يقوم فى نفسه من التهيب بذكر الخيل ، وتعاطى الشجاعة ، فقال (٢) يذكر قدومه إلى مصر على خوف من سيف الدولة :

وَيَوْمٍ كليل العاشقين كَمَنْتُهُ أراقب فيه الشَّمْسَ أيّانَ تَغْرُبُ
وَعَيْنِي إلَى أُذُنَيْ أغرَّ كأنه مِنَ اللَّيْلِ بَاقٍ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَوْكَبُ
له فَضْلَةٌ عنْ جِسْمِهِ فى إهابه تجىء عَلَى صَدْرٍ رَحِيبٍ وتَذْهبُ
شَقَقْتُ به الظَّلْمَاءَ أُدْنِي عِنَانَهُ فيطغى ، وَأُرْخِيهِ مِراراً فَيَلْعَبُ
وأصْرَعُ أىَّ الوحشِ قَفَّيْتُهُ به وَأَنْزِلُ عَنْهُ مِثْله حينَ أرْكَبُ
وما الخيلُ إلاّ كالصديق قليلةٌ وإن كَثُرَتْ فى عَيْنِ مَنْ لايُجرِّبُ
إذَا لَمْ تُشَاهِدْ غَيْرَ حُسْنِ شِيَاتِهَا وأعْضَائِهَا فَالْحُسْنُ عَنْكَ مُغَيَّبُ

(١) البيتان من قصيدة يمدح فيها بدر بن عمار (ج ٢ ص ١٥٠) والمهمه : الفلاة . جبته : قطعته وسرت فيه . العرامس : النوق الصلاب الشديدة . الذلل : المذللة بالعمل « بصارمى مرتد » مبتدأ مؤخر وخبر مقدم « بمخبرتى مجتزىء » : مثله أيضاً ، والمخبرة ـ بالخاء معجمة ـ المعرفة . يقول : قد قطعت هذا المكان القفر وأنا متقلد سيفى مكتف بعلمى وخبرتى فلم أحتج إلى دليل .

(٢) انظر الديوان (ج ١ ص ١٢٤) .

وليس فى زماننا هذا ولا من شرط بلدنا خاصة شيء من هذا كله ، إلا ما [لا] يعد قلةً ؛ فالواجب اجتنابه ، إلا ما كان حقيقة ، لا سيما إذا كان المادح من سكان بلد الممدوح : يراه فى أكثر أوقاته ، فما أقبح ذكر الناقة والفلاة حينئذ ! .

من شعر مؤلف الكتاب

وقد قلت أنا ـ وإن لم أدخل فى جملة مَنْ تقدم ، ولا بلغت خُطَّتَه ـ من قصيدة اعتذرت بها إلى مولانا خلد الله أيامه من طول غيبة غبتها عن الديوان :

إليكَ يُخَاضُ البحرُ فَعْماً كأنه ... بأمواجه جيشٌ إلى البر زاحفُ
ويبعث خلف النُّجْحِ كل منيفة ... تريك يداها كيف تُطْوَى التنائفُ
من المُوجِفاتِ اللاءِ يَقْذِفْنَ بالحصى ... ويُرْمَى بهنَّ المَهْمَهُ المتقاذِفُ
يطير اللغَامُ الجَعْدُ عنها كأنه ... من القطن أو ثلج الشتاء نَدَائِفُ (١)
وقد نازعَتْ فضلَ الزمام ابن نكبة ... هُوَ السَّيْفُ لا ما أخلصته المَشَارِفُ
فكيف ترانى لو أعِنْتُ على الغنى ... بجَدّ ، وإنى للغنى لَمُشَارِفُ
وقد قَرَّبَ الله المسافةَ بيننا ... وأنجزنى الوعدَ الزمانُ المساوِفُ
ولولا شقائى لم أغِبْ عنك ساعةً ... ولا رَامَ صَرْفى عن جنابك صارِف
ولكننى أخطأت رُشْدِى فلم أصب ... وقد يخطئُ الرشدَ الفتى وَهْوَ عارِفُ

فذكرت قرب المسافة بينى وبينه حَوْطةً وإخباراً أن خوض البحر وجَوْبَ الفلاة من صفة غيرى من القصّاد والغرباء والمنتجعين من الأمصار .

---

(١) اللغام : الزبد الذى يخرجه الجمل من فمه ، وقد لغم من باب منع . والندائف : جمع نديفة ، وهى القطعة من القطن تضرب بالمندف ، وهى الخشبة التى يضرب بها الوتر ليرق القطن .

ومن قصيدة صنعتها بديهة بالمهدية ساعة وصولى إليه ـ أدام الله عزه ـ عن اقتراح بعض شعراء وقتنا هذا :

وذيَّالٍ له رِجْلٌ طَحُونٌ ... لما نزلت به ، وَيَدٌ زَجُوجُ
يَطِير بأَرْبَع لا عَيْبَ فيها ... لظهران الصَّفَا منها عَجيجُ
خرجتُ به عن الأوهام سَبْقا ... وقَلَّ له عن الوهم الخروجُ
إلى الملك المعز أبى تميم ... أمرُّ بمن سواهُ فلا أعِيجُ

ومن أخرى فى معنى التفقر والرحلة :

وماء بَعيدِ الْغَوْرِ كالنجم فى الدُّجَى ... وَرَدْتُ طَرُوقا أو وردت مُهَجِّراً(١)
على قدم أخت الجنـاح وأخمص ... يخال حصى المعزاء جمـراً مسعراً
فريداً من الأصحاب صلتا من الكسا ... كما أسلم الغمدُ الحُسَامَ المذكرا

من الشعراء من لا يجعل لشعره بسطا من النسيب

ومن الشعراء مَنْ لا يجعل لكلامه بسطا من النسيب ، بل يهجم على ما يريده مكافحة ، ويتناوله مصافحة، وذلك عندهم هو : الوثب ، والبتر ، والقطع ، والكسع ، والاقتضاب ، كل ذلك يقال . . والقصيدة إذا كانت على تلك الحال بتراء كالخطبة البتراء والقطعاء ، وهى التى لا يبتدأ فيها بحمد الله عز وجل على عادتهم فى الخطب . قال أبو الطيب :

إِذَا كَانَ مَدْحٌ فَالنَّسِيبُ الْمُقَدَّمُ ... أَكُلُّ فَصِيحٍ قالَ شِعْراً مُتَيَّمُ ؟

فأنكر النسيب ، وزعموا أن أول من فتح هـذا الباب وفتق هذا المعنى أبو نواس بقوله :

لاَ تَبْكِ لَيْلَى ، وَلاَ تَطْرَبْ إلى هِنْدِ ... وَاشرَبْ عَلَى الوَرْدِ مِنْ حَمْرَاءَ كالْوَرْدِ

---

(١) الطرق ـ بفتح فسكون ـ ومثله الطروق ـ بضم الطاء والراء جميعاً ـ الإتيان بالليل ، والطروق ـ بفتح الطاء ـ الوصف منه . ومهجراً : اسم فاعل من هجر ، إذا أتى وقت الهاجرة .

طريق أبي نواس في الابتداء

وقوله وهو عند الحاتمي فيما روى عن بعض أشياخه أفضل ابتداء صنعه شاعر من القدماء والمحدثين :

صِفَةُ الطُّلُولِ بلاغةُ القُدُمِ فَاجْعَلْ صِفَاتِكَ لابْنَةِ الْكَرْمِ

ولما سجنه الخليفة على اشتهاره بالخمر ، وأخذ عليه أن لا يذكرها في شعره قال:

أعِرْ شِعْرَكَ الأطْلالَ وَالْمَنْزِلَ الْقفْرَا فَقَدْ طَالَمَا أزْرَى بِهِ نَعْتُكَ الْخَمْرَا
دَعَانِي إلَى نَعْتِ الطُّلولِ مُسَلَّطٌ تَضِيقُ ذِرَاعِي أنْ أرُدَّ لهُ أمْرَا
فَسَمْعًا أميرَ المؤمنينَ وَطَاعَةً وإن كنْتَ قَدْ جَشَّمْتَنِي مَرْكَبا وَعْرَا

فجاهر بأن وصفه الأطلال والقفر إنما هو من خشية الإمام ، وإلا فهو عنده فراغ وجهل ، وكان شعوبي اللسان ، فما أدرى ما وراء ذلك ، وإن في اللسان وكثرة ولوعه بالشيء لشاهداً عدلا لا ترد شهادته . وقد قال أبو تمام :

* لِسَانُ الْمَرْءِ مِنْ خَدَمِ الْفُؤَادِ *(١)

ومن عيوب هذا الباب أن يكون النسيب كثيراً والمدح قليلا ، كما يصنع بعض أهل زماننا هذا ، وسنبين وجه الحكم والصواب من هذا في باب المدح إن شاء الله تعالى .

من الشعراء من لا يجيد الابتداء

ومن الشعراء من لا يجيد الابتداء ، ولا يتكلف له ، ثم يجيد باقي القصيدة وأكثرهم فعلا لذلك البحتري : كان يصنع الابتداء سهلا ، ويأتي به عفواً ، وكلما تمادى قوي كلامه ، وله من جيد الابتداءات كثير ؛ لكثرة شعره ، والغالبُ عليه ما قدمت ، غير أن القاضي الجرجاني فضله بجودة الاستهلال ـ وهو الابتداء ـ على أبي تمام وأبي الطيب ، وفضلهما عليه بالخروج والخاتمة ، ولست أرى لذلك وجهاً ، إلا كثرة شعره كما قدمت ؛ فإنه لو حاسبهما ابتداء

(١) هذا عجز بيت من قصيدة له يمدح فيها أبا عبد الله أحمد بن أبي دؤاد ، وصدره * ومما كانت الحكماء قالت * انظر الديوان (ص ٨٠) .

جيداً بابتداء مالأُرْبى عليهما وقصرا عن عذره . . فأما الحاتمى فإنه يغض من أبى عُبادة غضاً شديدا ، ويجور عليه جوراً بيناً لا يقبل منه ولا يسلم إليه .

من ابتداءات أبى تمام الجيدة

وكان أبو تمام فَخْم الابتداء ، له روعة ،وعليه أبهة ، كقوله :

الْحَقُّ أَبْلَجُ ، وَالسُّيُوفُ عَوَارِ فَحَذَارِ مِنْ أَسَدِ الْعَرِينِ حَذَارِ

وقوله :

السَّيْفُ أَصْدَقُ إِنْبَاءً مِنَ الْكُتُبِ فِى حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْجِدِّ وَاللَّعِبِ

وقوله :

أَصْغَى إِلَى البين مُغْتَرًّا فَلَا جرما(١)

وقوله :

يَا رَبْعُ لَوْ رَبَعُوا عَلَى ابْنِ هُمُومِ(٢)

والغالب عليه نحت اللفظ ، وجهارة الابتداء . .

وكان أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدى يفضل ابتداءات البحترى جداً ، وهو الذى وضع كتاب الموازنة والترجيح بين الطائيين ، ونوه فيه بالبحترى أعظم تنويه . . ومن جيد ابتداءاته قوله :

من جيد ابتداءات البحترى

عَارَضْنَنَا أُصُلاً فَقُلْنَا الرَّبْرَبُ حَتَّى أَضَاءَ الْأُقْحُوَانُ الْأَشْنَبُ

وقوله :

مَا عَلَى الرَّكْبِ مِنْ وُقُوفِ الرِّكَابِ فِى مَغَانِى الصِّبَا وَرَسْمِ التَّصَابِى ؟ ؟

---

(١) هذا مطلع قصيدة له يمدح فيها إسحاق بن إبراهيم المصعى ، وعجزه * إن النوى أسأرت فى عقله لمما * انظر الديوان (ص ٣٠١) .

(٢) وهذا صدر مطلع قصيدة له يمدح فيها إسحاق السابق ، وعجزه * مستسلم لجوى الفراق سقيم * انظر الديوان (ص ٣٠٥) .

وقوله :

ضَمَانٌ عَلَى عَيْنَيْكِ أَنِّى لاَ أَسْلو (١)

وقوله :

تُرَى عِنْدَهُ عِلْمٌ بِشَجْوِى وَأَدْمُعِى وَأَنِّى مَتَى أَسْمَعْ بِذِكْرَاهُ أَجْزَعِ ؟

الخروج أمثلته

وأما الخروج فهو عندهم شبيه بالاستطراد ، وليس به ؛ لأن الخروج إنما هو أن تخرج من نسيب إلى مدح أو غيره بلطف تحيل ، ثم تتمادى فيما خرجت إليه كقول حبيب فى المدح :

صُبَّ الفراق علينا ،صُبَّ مِنْ كَثَبِ عليه إسحاقُ يوم الروْع مُنْتَقِمَا
سَيْفُ الإمام الذى سَمَّتْــهُ هَيْبَتُهُ لما تخرَّمَ أهـل الأرض مُخْتَرِماً (٢)

ثم تمادى فى المدح إلى آخر القصيدة .

وكقول أبى عُبَادة البحترى :

سُقِيَتْ رُبَاكِ بكل نَوْء عاجل من وَبْله حقًا لها مَعْــلوما
وَلَوَ انَّنِى أُعْطِيتُ فِيهِنَّ المُـنَى لَسَقَيْتُهُنَّ بِكَفِّ إِبْرَاهِيمَا (٣)

وأكثر الناس استعمالا لهذا الفن أبو الطيب ؛ فإنه ما يكاد يفلت له ، ولا يشذ عنه ، حتى ربما قبح سقوطه فيه ، نحو قوله :

هَا فَانْظُرِى أَوْ فَظُنِّى بِى تَرَىْ حُرَقاً مَنْ لَمْ يَذُقْ طَرَفاً مِنْهَا فَقَدْ وَأَلا

---

(١) هذا صدر مطلع قصيدة له يمدح فيها الفتح بن خاقان ، وعجزه :
* وأن فؤادى من جوى بك لايخلو * وانظر ديوانه (ج ١ ص ٣٧ طبع الجوائب) .

(٢) فى الديوان (ص ٣٠٢) * سمته همته . . . . تخرم أهل الشرك *

(٣) البيتان من قصيدة له يمدح فيها إبراهيم بن الحسن بن سهل ، انظر الديوان (ج ١ ص ١٨٦) .

عَلَّ الأمـــيرَ يَرَى ذلىّ فيَشْفَعَ لى ... إلى التى تركتنى فى الهوَى مَثَلاَ(١)

فقد تمنى أن يكون له الأمير قوّاداً ، وليس هذا من قول أبى نواس :

سأشكو إلى الفَضْلِ بْنِ يَحْيَى بْن خالدٍ ... هَوَانَا ؛ لَعَلَّ الفَضْلَ يَجْمَعُ بَيْنَنَا

فى شىء ؛ لأن أبا نواس قال « يجمع بيننا » ثم أتبع ذلك ذكر المال والسخاء به ، فقال :

أمـــيرٌ رَأَيْتُ المَالَ فى نعمائه ... مَهِينًا ذَلِيلَ النَّفْس بالضَّيْمِ مُوقِنَا

فكأنه أشار إلى أن جَمْعَه بينهما بالمال خاصة : يُفْضِلُ عليه ، ويُجْزِل عطيته ، فيتزوجها أو يتسرّى بها ، وأبو الطيب قال : « يشفع » والشفاعة رغبة وسؤال ، ثم أتبع بيته بما هو مُقَوّ لمعناه فى القيادة فقال :

أيْقَنْتُ أنّ سَعِيداً طَالِبٌ بِدَمِى ... لَمَّا بَصُرْتُ بِهِ بِالرُّمْحِ مُعْتَقِلاَ(١)

فدل على أنه يشفع ، فإن أجيب إلى مساعدة أبى الطيب فذاك ، وإلا رجع إلى القهر . .

والذى يشاكل قول أبى نواس قوله :

أُحِبُّ التى فى البَدْرِ مِنهَا مَشَابِهٌ ... وَأَشْكُو إلى مَنْ لا يُصَابُ لَهُ شَكْلُ(٢)

فلفظة « الشكوى » تحمل عنه كما حملت عن أبى نواس

ومما سقط فيه — وإن كان مليح الظاهر — قوله يخاطب امرأة نسب بها :

---

(١) ثلاثة الأبيات — هذان والذى سيذكره بعد عدة أسطر — من كلمة له يمدح فيها سعيد بن عبد الله بن الحسن الكلابى المنبجى ، وهى مما قاله فى صباه (انظر الديوان : ج ٢ ص ١٢٣) وها : حرف دال على التنبيه . ووأل : نجا

(٢) البيت من قصيدة له يمدح فيها شجاع بن محمد الطائى المنبجى (الديوان : ج ٢ ص ١٣٣) .

لَوْ أَنَّ فَنَّاخُسْرَ صَبَّحَكُم ... وَبَرَزْتِ وَحْدَكِ عَاقَهُ الْغَزَلُ(١)
وَتَفَرَّقَتْ عَنْــهُ كَتَائِبُهُ ... إِنَّ الْمِلَاحَ خَوَادِعٌ قُتُلُ(٢)
مَا كُنْتِ فَاعِلَةً وَضَيْفُكُمُ ... مَلِكُ الْمُلُوكِ وَشَأْنُكِ الْبَخَلُ
أَتُمَنِّعِينَ قِرًى فَتَفْتَضِحِي ... أَمْ تَبْذُلِينَ لَهُ الَّذِى يَسَلُ
بَلْ لَا يَحُلُّ بِحَيْثُ حَلَّ بِهِ ... بُخْلٌ وَلَا جَوْرٌ وَلَا وَجَلُ

ختم على فنا خسرو بأن الغزل يَعُوقه ، وأن كتائبه تتفرق عنه ، وجعله يسأل هذه المرأة ، وتشكك هل تمنعه أم تبذل له ، ثم أوجب أن البخل لا يحل بحيث حل ؛ فأوقعه تحت الزنى أو قارب ذلك ، ولعل هـذا كان اقتراحا من فناخسرو ؛ وإلا فما يجب أن يقابل مَنْ هو ملك الملوك بمثل هذا ، وما أسرع ما انحط أبو الطيب : بينا هو يسأل الأمير أن يشفع له إلى عشيقته صار يشفع للأمير عندها . .

الاستطراد

والاستطراد : أن يبنى الشاعر كلاماً كثيراً على لفظة من غير ذلك النوع ، يقطع عليها الـكلام ، وهى مراده دون جميع ما تقدم ، ويعود إلى كلامه الأول ، وكأنما عثر بتلك اللفظة عن غـير قصد ولا اعتقاد نية ، وجُلُّ ما يأتى تشبيهاً ، وسيرد عليك فى بابه مبيناً إن شاء الله تعالى ..

التخلص

ومن الناس من يسمى الخروج تخلصاً وتوسلا ، وينشدون أبياتا منها :

إِذَا مَا اتَّـقَى اللهَ الْفَتَى وأطاعه ... فَلَيْسَ بِهِ بَأْسٌ ولو كَانَ مِنْ جَرْمِ

(١) هذه الأبيات من قصيدة له مدح بها عضد الدولة ، وذكروقعة وهوذان بالطرم ، وكان ركن الدولة أبو عضد الدولة قد أنفذ إليه جيشا من الرى فهزمه وأخذ بلده (انظر الديوان : ج ٢ ص ٢١٣ ومابعدها)

(٢) فى الديوان ... * وتفرقت عنكم كتائبه *

ولو أن جَرْماً أُطْعِمُوا شَحْمَ جَفْرَةٍ لَبَاتُوا بِطَاناً يَضْرُطُونَ مِنَ الشَّحْمِ

وأولى الشعر بأن يسمى تخلصاً ما تخلص فيه الشاعر من معنى إلى معنى ، ثم عاد إلى الأول وأخذ فى غيره . ثم رجع إلى ما كان فيه . كقول النابغة الذبيانى آخر قصيدة اعتذر بها إلى النعمان بن المنذر :

وكفكفتُ منى عبرةً فرددتها إلى النحر منها مُسْتَهِلٌ ودامع (١)

عَلَى حِينَ عَاتَبْتُ الْمَشِيبَ عَلَى الصِّبَا وَقُلْتُ أَلَمَّا أَصْحُ وَالشَّيْبُ وازع؟!!

ثم تخلص إلى الاعتذار فقال :

وَلَكِنَّ هَمًّا دُونَ ذَلِكَ شَاغِلٌ مَكَانَ الشِّغَافِ تَبْتَغِيهِ الأَصَابِعُ (٢)

وَعِيدُ أَبِى قَابُوسَ فى غَيْرِ كُنْهِهِ أَتَانِى وَدُونِى رَاكِسٌ فَالضَّوَاجِعُ (٣)

ثم وصف حاله عند ما سمع من ذلك فقال :

فَبِتُّ كَأَنِّى سَاوَرَتْنِى ضَئِيلَةٌ مِنَ الرُّقْشِ فى أَنْيَابِهَا السُّمُّ نَاقِعُ

يُسَهَّدُ فى لَيْلِ التَّمَامِ سَلِيمُهَا لِحَلْىِ النِّسَاءِ فى يَدَيْهِ قَعَاقِعُ (٤)

---

(١) فى الديوان (ص ٦٨) * فكفكفت . . . . على النحر . . *

(٢) فى الديوان * وقد حال هم دون ذلك والج . . . *

والشغاف : حجاب القلب ، أوجبته ، وهو بزنة سحاب .

(٣) فى غير كنهه : أى : فى غير وقته . وراكس والضواجع : موضعان .

(٤) فى الديوان * يسهد من ليل التمام . . . * ويسهد : يمنع النوم . وليل التمام ـ بكسر التاء ـ ليالى الشتاء الطوال . والقعاقع : جمع قعقعة ، وهو الصوت ، والسليم : اللديغ ، سموه بذلك تفاؤلا له بالسلامة ، وكان من عادة العرب إذا لدغ أحدهم علقوا عليه حلى النساء ؛ ليسمع صوتها فلا ينام ، ومن أمثالهم « السليم لا ينام ولا ينيم » .

تَنَاذَرَهَا الرَّاقُونَ مِنْ سُوءِ سمها تُطَلِّقُهُ طوْراً ، وَطوْراً تُرَاجِعُ(١)

فوصف الحية والسليم الذى شبه به نفسه ما شاء ، ثم تخلص إلى الاعتذار الذى كان فيه فقال :

أتانى - أبيْتَ اللّعْنَ - أنّكَ لُمْتَنِي وَتِلْكَ الّتِي تَسْتَكُّ مِنْهَا الْمَسَامع(٢)

ويروى * وَخُبِّرْتُ خَيْرَ النَّاسِ أَنَّكَ لُمْتَنِي * ثم اطرد له ما شاء من تخلص إلى تَخَلُّصٍ ، حتى انقضت القصيدة ، وهو مع ماأشرت إليه غيرُ خافٍ إن شاء الله تعالى .

وقد يقع من هذا النوع شيء يعترض فى وسط النسيب مِنْ مدح مَنْ يريد الشاعر مدحه بتلك القصيدة ، ثم يعود بعد ذلك إلى ما كان فيه من النسيب ، ثم يرجع إلى المدح ، كما فعل أبو تمام وإن أتى بمدحه الذى تمادى فيه منقطعا ، وذلك قوله فى وسط النسيب من قصيدة له مشهورة :

ظلمَتْكَ ظَالِمَةُ الْبَرِيء ظَلومُ وَالظُّلْمُ مِنْ ذِى قُدْرَةٍ مَذْمُومُ
زَعَمَتْ هَوَاكَ عَفَا الْغَدَاةَ كَمَاعَفَتْ مِنهَا طُلُولٌ بِاللِّوَى وَرُسُومُ
لا ، وَالّذِى هوَ عَالِمٌ أنّ النّوَى أَجَلٌ وَأَنّ أَبَا الْحُسَيْنِ كَرِيمُ(٣)

---

(١) يروى « . . . من سوء سمها » تناذرها الراقون : أنذر بعضهم بعضا بها ، والراقون : جمع راق . وهو الذى يفعل الرقية ، وسوء سمها : أى أنها لاتسمع فلا تجيب إلى رقية الراقى ، ومن روى « من سوء سمها » فهو ظاهر المعنى .

(٢) كرر النابغة هذا المعنى بهذه الألفاظ فى كلمات من اعتذاراته : منها هذا فى هذه القصيدة ، ومنها قوله فى أخرى :

أتانى - أبيت اللعن - أنك لمتنى وتلك التى أهتم منها وأنصب

(٣) يذكر علماء المعانى هذا البيت هكذا * لا ، والذى هو عالم أن النوى * صبر -إلخ .

مَا زُلْتُ عَنْ سَنَنِ الوِدَادِ وَلاَ غَدَتْ ... نَفسى عَلَى إِلْفٍ سِوَاكِ تَحُومُ

ثم قال بعد ذلك :

لِمُحَمَّدِ بْنِ الْهَيْثَمِ بْنِ شبَابَةٍ ... مَجْدٌ إلى جَنْبِ السماكِ مُقِيم

ويسمى هذا النوع الإلمام .

طريق العرب فى الخروج

وكانت العرب لا تذهب هذا المذهب فى الخروج إلى المدح ، بل يقولون عند فراغهم من نعت الإبل وذكر القفار وما هم بسبيله : « دع ذا » و « عَدِّ عن ذا » ويأخذون فيما يريدون أو يأتون بأن المشددة ابتداء للكلام الذى يقصدونه ، فإذا لم يكن خروج الشاعر إلى المدح متصلا بما قبله ولا منفصلا بقوله « دع ذا » و« عَدِّ عن ذا» ونحو ذلك سمى طفراً وانقطاعاً . وكان البحترى كثيرا ما يأتى به ، نحو قوله

لَوْلاَ الرَّجاءُ لَمُتُّ مِنْ أَلَمِ الهَوَى ... لَـكِنَّ قَلْبِي بِالرَّجاءِ مُوَكَّلُ

إِنَّ الرَّعِيَّةَ لَمْ تَزَلْ فى سِيرَةٍ ... عُمَرِيَّةٍ مُذْ سَاسَهَا الْمُتَوَكِّلُ

ولربما قالوا بعد صفة الناقة والمفازة « إلى فلان قصدتُ » و « حتى نزلت بفناء فلان » وما شاكل ذلك .

الانتهاء

وأما الانتهاء فهو قاعدة القصيدة ، وآخر ما يبقى منها فى الأسماع ، وسبيله أن يكون محكما : لا تمكن الزيادة عليه ، ولا يأتى بعده أحسن منه ، وإذا كان أول الشعر مفتاحاً له وجب أن يكون الآخر قفلا عليه .

وقد أرْبَى أبو الطيب على كل شاعر فى جودة فصول هذا الباب الثلاثة ، إلا أنه ربما عَقَّدَ أوائل الأشعار ثقةً بنفسه، وإغراباً على الناس ، كقوله أوله قصيدة :

وَفَاؤُكُماَ كالرَّبْعِ أَشْجَاهُ طَاسِمُهْ ... بأَنْ تُسْعِدَا وَالدمْعُ أَشْفَاهُ سَاجِمُه[1]

---

(١) هذا البيت مطلع قصيدة له يمدح فيها سيف الدولة ، وهى أول ما أنشده ، وتقديره مع شىء يسير من المخالفة : وفاؤكما (والخطاب لعينيه) بإسعادى مثل الربع أشده تهييجا للأسى ما كان طامسا ــ أى : طامس الآثار خافى المعالم ــ والدمع أشفاه لقلب المحزون ما كان مدرارا .

فإن هذا يحتاج الأصمعي إلى أن يفسر معناه .

من سوء خروج المتنبي أيضا

وَيقع له في الخروج ما كان تركه أولى به ، وأشعر له ، وإنما أدخله فيه حب الإغراب في باب التوليد ، حتى جاء بالغث البارد ، والبشع المتكلف ، نحو قوله :

أُحِبُّكِ أَوْ يَقُولُوا جَرَّ نَمْلٌ ثَبِيراً ، وَابْنُ إِبْرَاهِيمَ رِيعَا

فهذا من البشاعة والشناعة بحيث لا يخفى على أحد ، وما أظنه سرق هـذا المعنى الشريف إلا من كذبة كذبها أبو العباس الصَّيْمَرِيُّ عن لسان رجل زعم أنه قال : رأيت رجلا نام ويَدُه غَمِرَة(١) تجره النمل ثلاثة فراسخ ، فقد جعل أبو الطيب مكان الرجل جَبَلاً ، وإن أعلمنا الإغراق في مراده ولفظه . . وقال :

أَعَزُّ مَكَانٍ فِي الدُّنَا سَرْجُ سَابِحٍ وَخَيْرُ جَلِيسٍ فِي الزَّمانِ كِتَابُ

وَبَحْرٌ أَبُو الْمِسْكِ الْخِضَمُّ الَّذِي لَهُ عَلَى كُلِّ بَحْرٍ زَخْــرَةٌ وَعُبَابُ

يريد وخير بحر(٢) أبو المسك ، وهذه غاية التصنع والتكلف .

ومن العرب من يختم القصيدة فيقطعها والنفس بها متعلقة ، وفيها راغبة مشتهية ، ويبقى الكلام مبتوراً كأنه لم يتعمد جَعْله خاتمة : كل ذلك رغبة في أخذ العَفْو ، وإسقاط الكلفة ، ألا ترى معلقة امرىء القيس كيف ختمها بقوله يصف السيل عن شدة المطر :

---

(١) غمرة – بفتح الغين المعجمة وكسر الميم – أي : دنسة من دسم اللحم ، وفعله من باب فرح .

(٢) تقدير المؤلف لهذا البيت على أن قوله « وبحر » بالجر ، وهو عليه معطوف على « جليس » في البيت الذي قبله ، ولكنا لا نوافقه على ذلك ؛ وقد ضبطناه برفع « بحر » على أنه خبر مقدم ، وقوله « أبو المسك » مبتدأ مؤخر ، و « الخضم » صفة له . وهذا قول شراحه المتقدمين ، وزخرة : امتداد ماء وكثرته ، وعباب : كثرة موج .

كأن السِّبَاعَ فيـــهِ غَرْقَى غُدَيّةً   بأَرْجَائِهِ القُصْوَى أنابيشُ عُنْصُلِ (١)

فلم يجعل لها قاعدة كما فعل غيره من أصحاب المعلقات ، وهى أفضلها .

ختم القصيدة بالدعاء

وقد كره الحُذّاقُ من الشعراء ختم القصيدة بالدعاء ؛ لأنه من عمل أهل الضعف ، إلا للملوك ؛ فإنهم يشتهون ذلك كما قدمت ، ما لم يكن من جنس قول أبى الطيب يذكر الخيل لسيف الدولة :

فَلاَ هَجَمْتَ بِهَا إلاّ عَلَى ظَفَرٍ   وَلاَ وَصَلْتَ بِهَا إلاّ إلى أمَلِ

فإن هذا شبيه ما ذكر عن بغيض : كان يصابح الأمير فيقول : لا صَبَّحَ الله الأمير بعافية ، ويسكت ثم يقول : إلاّ ومَسَّاه بأكثر منها ، ويماسيه فيقول : لا مسّى الله الأمير بنعمة ، ويسكت سكتة ثم يقول : إلا وصَبَّحه بأتم منها ، أو نحو هـذا ، فلا يدعو له حتى يدعو عليه ؛ ومثل هذا قبيح ، لا سيما عن مثل أبى الطيب .

(٣١) — باب البلاغة

منزلة الإيجاز

تكلم رجل عنـد النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : « كم دون لسانك من حجاب ؟ » فقال : شفتاى ، وأسنانى ، فقال له : « إن الله يكره الانبعاق فى الـكلام ، فَنَضَّر الله وجه رجل أَوْجَزَ فى كلامه واقتصر على حاجته » .

وسئل النبى صلى الله عليه وسلم : فيم الجمال ؟ فقال : « فى اللسان » يريد البيان .

---

(٢) يروى ﴿ .. .. .. غرقى عشية ﴾ والأنابيش : جماعات من العنصل تجمعها الصبيان ، ويقال : الأنابيش العروق ، سميت بذلك لأنها تنبش أى تخرج من تحت الأرض ، والعنصل ـ بوزن قنفذ وجندب ـ بصل برى يعمل منه خل شديد الحموضة .

وقال أصحاب المنطق : حد الإنسان : الحيُّ الناطق ؛ فمن كان فى المنطق أعلى رتبةً كان بالإنسانية أولى.

حدود للبلاغة والبلغاء

وقالوا : الروح عماد الجسم ، والعلم عماد الروح ، والبيان عماد العلم .

وسئل بعض البلغاء : ما البلاغة ؟ فقال : قليل يُفْهَم ، وكثير لا يُسأم .

وقال آخر : البلاغة إجاعة اللفظ ، و إشباع المعنى .

وسئل آخر فقال : مَعَانٍ كثيرة ، فى ألفاظ قليلة .

وقيل لأحدهم : ما البلاغة ؟ فقال : إصابة المعنى وحُسْنُ الإيجاز .

وسئل بعض الأعراب : مَنْ أبلغ الناس ؟ فقال : أسهلهم لفظا ، وأحسنهم بَدِيهــةً ..

وسأل الحجاج ابن القَبَعْثَرَى : ما أوجز الـكلام ؟ فقال : ألا تبطىء ، ولا تخطىء ، وكذلك قال صحار[1] العبدى لمعاوية بن أبى سفيان .

وقال خلف الأحمر : البلاغة لمحة دالة .

وقال الخليل بن أحمد : البلاغة كلمة تـكشف عن البقية .

وقال المفضل الضبى : قلت لأعرابى : ما البلاغة عندكم ؟ فقال : الإيجاز من غير عجز ، والإطناب من غير خَطَل .

وكتب جعفر بن يحيى بن خالد البَرْمَكى إلى عمرو بن مسعدة : إذا كان الإكثار أبلغ كان الإيجاز تقصيراً ، و إذا كان الإيجاز كافياً كان الإكثار عيًّا .

وأنشد المبرد فى صفة خطيب :

طَبِيبٌ بِدَاء فُنُونِ الْـكَلاَ م لَمْ يَعْىَ يَوْماً وَلَمْ يَهْذِرِ

---

(١) صحار ــ بضم الصاد المهملة وتخفيف الحاء ــ رجل من عبد القيس ، وفى التونسية « سحار » بالسين ، وليس بشىء .

فَإِنْ هُوَ أَطْنَبَ فِي خُطْبَةٍ قَضَى لِلْمُطِيلِ عَلَى الْمُنْزِرِ
وَإِنْ هو أَوْجَزَ فى خُطْبَةٍ قَضَى لِلْمُقِلِّ على الْمُكْثِرِ

قال أبو الحسن على بن عيسى الرُّمّانى : أصل البلاغة الطبع ، ولها مع ذلك آلات تعين عليها ، وتوصل للقوة فيها ، وتكون ميزاناً لها ، وفاصلة بينها و بين غيرها ، وهى ثمانية أضرب : الإيجاز ، والاستعارة ، والتشبيه ، والبيان ، والنظم ، والتصرف ، والمشاكلة ، والمثل ، وسيرد كل واحد منها بمكانه من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى .

وقال معاوية لعمرو بن العاص : مَنْ أبلغ الناس ؟ فقال : من اقتصر على الإيجاز ، وتنكّب الفضول .

وسئل ابن المقفع : ما البلاغة ؟ فقال : اسم لمعانٍ تجرى فى وجوه كثيرة : فمنها ما يكون فى السكوت ، ومنها ما يكون فى الاستماع ، ومنها ما يكون فى الإشارة ، ومنها ما يكون شعراً ، ومنها ما يكون سَجْعاً ، ومنها ما يكون ابتداء ، ومنها ما يكون جَوَاباً ، ومنها ما يكون فى الحديث ، ومنها ما يكون فى الاحتجاج ، ومنها ما يكون خطباً ، ومنها ما يكون رَسَائِلَ ؛ فعامة هذه الأبواب الوَحْىُ فيها والإشارة إلى المعنى والإيجاز هو البلاغة .

قال صاحب الكتاب : فهذا ابن المقفع جعل من السكوت بلاغة رغبة فى الإيجاز

وقال بعض الكاتبيين :

وَاعْلَمْ بأَنَّ مِنَ السُّكُوتِ إِبَانَةً وَمِنَ التَّكَلُّمِ مَا يَكُونُ خَبَالاَ

وقلت أنا فى مثل ذلك :

وأخرق أ كَثْلِى للحَرِ حَدِيقه وَلَيْسَ لِجَارِى رِيقِهِ بِمُسِيغ
سَكَتُّ لَهُ صَبًّا بِعِرْضِى لَمْ أُجِبْ وَرُبَّ جَوَابٍ فِى السُّكُوتِ بَلِيغِ

وقلت أيضاً ولم أذكر بلاغة :

أيهـــا المُوحِى إلينا نَفْثَةَ الصِّلِّ الصَّمُوتِ
ما سَكَتْنا عنك عِيًّا رُبَّ نُطْقٍ فى السكوت
لك بيت فى البيوت مثل بيت العنكبوت
إن يَهُنْ وَهْنًا ففيه حيلتا سكنى وقوت

وقيل لبعضهم : ما البلاغة ؟ فقال : إبلاغ المتكلم حاجَتَه بحسن إفهام السامع ، ولذلك سميت بلاغة .

وقال آخر : البلاغة أن تُفْهِم المخاطب بقدر فهمه ، من غير تعب عليك .

وقال آخر : البلاغة معرفة الفصل من الوصل .

وقيل : البلاغة حسن العبارة ، مع صحة الدلالة .

وقيل : البلاغة أن يكون أول كلامك يدلُّ على آخره ، وآخره يرتبط بأوله .

وقيل : البلاغة القوة على البيان ، مع حسن النظام .

من شعر أبى الحسن فى البلاغة

ومن قول السيد أبى الحسن — أدام الله عزه — فى صفة كاتب بالبلاغة وحسن الخط :

فَضَلَ الأنامَ بِفَضْلِ عِلْمٍ واسِعٍ وَعَلاَ مَقَالَهُمُ بِفَصْلِ الْمَنْطِقِ
وحكى لنا وَشْيَ الرياض وقد وَشَتْ أَقْلاَمُهُ بالنقش بَطْنَ الْمُهْرَقِ

فبلغ ما أراد من الوصف فى اختصار وقلة تكلف . ونحو ذلك قوله أيضاً :

إذا مشقت يمناك فى الطِّرْسِ أسْطُراً حكيت بها وَشْيَ الملاء المعضد[1]
يروق مُجِيـدَ الخطِّ حُسْنُ حروفها وَيُعْجَبُ منها بالمقال المُسَدَّدِ

وهذا الشعر كالأول فى الحز ، وإصابة المَفْصِل ، وإن أبا الحسن لـكما قال سَمِيُّه أبو الطيب خاتم الشعراء :

عَلِيمٌ بِأَسْرَارِ الديانات واللُّغَى لهُ خَطَرَاتٌ تَفْضَحُ النَّاسَ وَالْكُتْبَا

بل كما قال ولى نعمته ، وشاكر منته :

(١) اتفقت الأصول على هذه الكلمة ، وأظنها « المنضد » بالنون بدل العين .

إنى لأعجب كيف يُحْسِنُ عِقْدَهُ   شِعْرٌ منَ الأشعار مع إحْسَانِهِ

ما ذاكَ إلا أنه دُرُّ النهى   يَفِدُ التِّجارُ به عَلَى دِهْقَانِهِ

أستغفر الله ! لا أجْحَد أبا الطيب حقه ، ولا أنـكر فضله ، وقد قال :

مَلِكٌ مُنْشِدُ الْقَرِيضِ لديْهِ   يَضَعُ الثَّوْبَ فى يدَىْ بَزَّازِ

عود إلى حد البلاغة والبلغاء

ثم نرجع إلى وصف البلاغة ، بعد ما أفضنا وشحنا هذا الباب من ذكر السيد ، فنقول : وقالوا : البلاغة ضد العى ، والعى : العجز عن البيان .

وقيل : لا يكون الـكلام يستوجب اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ، ولفظه معناه ، ولا يكون لفظه أسْبَقَ إلى سمعك من معناه إلى قلبك .

وسأل عامر بن الظَّرِب العَدْوانى حمامة بن رافع الدوسى بين يدى بعض ملوك حمير فقال : من أبلغ الناس ؟ قال : من حلى المعنى المزيز[1] باللفظ الوجيز ، وطبق المفصل قبل التحزيز .

قيل لأرسطاطاليس : ما البلاغة ؟ قال : حسن الاستعارة .

وقال الخليل : البلاغة ما قَرُبَ طَرَفاه ، و بعد منتهاه .

وقيل لخالد بن صَفْوان : ما البلاغة ؟ قال : إصابة المعنى ، والقصد إلى الحجة

وقيل لإبراهيم الإمام : ما البلاغة ؟ قال الجزالة ، والإطالة ، وهذا مذهب جماعة من الناس جلة ، و به كان ابن العميد يقول فى منثوره .

وقيل لبعض الجلة : ما البلاغة ؟ فقال : تقصير الطويل ، وتطويل القصير ، يعنى بذلك القدرة على الـكلام .

وقال أبو العَيْنَاء : من أجْتَزَأ بالقليل عن الـكثير ، وقَرَّبَ البعيد إذا شاء ، و بعد القريب ، وأخفى الظاهر ، وأظهر الخفى .

---

(١) المزيز — بزاءين — اللذيذ الطعم ، مأخوذ من تسميتهم الخمر مزة ، والمعنى على التشبيه ، وهو واضح .

وقال البحترى يمدح محمد بن عبد الملك الزيات حين استوزر ، ويصف بلاغته :

ومعانٍ لو فصَّلتها القوافي(١) هجَّنت شعر جرْوَلٍ ولبيدِ
حُزْنَ مستعمل الكلام اختياراً وتجنَّبْنَ ظُلْمة التعقيد
وركبن اللَّفظَ القريب فأدركـنَ به غايَةَ المراد البعيدِ

والبيت الأول من هذه القطعة يشهد(١) بفضل الشعر على النثر.

وحكى الجاحظ عن الإمام إبراهيم بن محمد قوله : كفى من حظ البلاغة ألا يؤتى السامع من سوء إفهام الناطق ، ولا يؤتى الناطق من سوء فَهْم السامع . ثم قال الجاحظ : أما أنا فأستحسن هذا القول جداً .

ومن كلام ابن المعتز : البلاغة بلوغ المعنى ، ولما يطُلْ سَفَرُ الكلام .

وقال ابن الأعرابى : البلاغة التقرب من البغية ، ودلالة قليل على كثير .

وقال بعض المحدثين : البلاغة إهداء المعنى إلى القلب فى أحسن صورة من اللفظ .

ومن كلام أبى منصور عبد الملك بن إسماعيل الثعالبى ، قال : قال بعضهم : البلاغة ماصعب على التعاطى وسهل على الفطنة . وقال : خير الكلام ما قل ودل ، وجل ولم يُمَلّ . وقال : أبلغ الكلام ماحسن إيجازه ، وقلّ مجازه ، وكثر إعجازه ، وتناسبت صدوره وأعجازه . قال : وقيل : البليغ مَنْ يجتنى من الألفاظ نُوّارَها ، ومن المعانى ثمارها .

---

(١) أراد المؤلف أن يجد لمذهبه دليلا ، وإن لم يكن فى معرض الاستدلال عليه ، فتصحفت عليه الكلمة ، وصوابها ٭ ومعان لوفصلتها القوافى ٭ بالصاد المهملة .

وهذا الذى حكاه الثعالبى مما يدلك على حذق أبى الطيب فى قوله لابن العميد:

قَطَفَ الرِّجَالُ الْقَوْلَ قَبْلَ نَبَاتِهِ   وَقَطَفْتَ أَنْتَ الْقَوْلَ لَمَّا نَوَّرَا

وكان يمكنه أن يقول « لما أثمر » لكن ذهب إلى ما قدّمتُ ، وإنما اقتدى بقول أبى تمام :

وَيَجِفُّ نُوَّارُ الْكَلَامِ ،وَقَلَّمَا   يُلْفَى بقاء الغَرْسِ بعد الماء

وكان بعضهم يقول : تلخيص المعانى رِفْق ، والاستعانة بالغريب عَجْز ، والتشادق فى غير أهل البادية نقص ، والخروج مما بنى عليه الكلام إسهاب .

وقال العَتَّابى : قَيِّم الكلام العقل ، وزينته الصواب ، وحليته الإعراب ، ورائضه اللسان ، وجسمه القريحة ، وروحه المعانى . .

وقال عبدالله بن محمدبن جميل المعروف بالباحث : البلاغة الفهم والإفهام وكشف المعانى بالكلام ، ومعرفة الإعراب ، والاتساع فى اللفظ ، والسداد فى النظم ، والمعرفة بالقصد ، والبيان فى الأداء ، وصواب الإشارة ، وإيضاح الدلالة ، والمعرفة بالقول ، والاكتفاء بالاختصار عن الإكثار ، و إمضاء العزم على حكومة الاختيار .

قال : وكل هذه الأبواب محتاج بعضها إلى بعض ، كحاجة بعض أعضاء البدن إلى بعض ، لا غنى لفضيلة أحدها عن الآخر ؛ فمن أحاط معرفةً بهذه الخصال فقد كمل كل الكمال ، ومن شذّ عنه بعضها لم يبعد من النقص بما اجتمع فيه منها .

قال : والبلاغة تخير اللفظ فى حسن إفهام .

وسئل الكندى عن البلاغة ، فقال : ركنها اللفظ ، وهو على ثلاثة أنواع : فنوع لا تعرفه العامة ولا تتكلم به ، ونوع تعرفه وتتكلم به ، ونوع تعرفه ولا تتكلم به ، وهو أحمدها .

ومن كتاب عبد الكريم قالوا : حسن البلاغة أن يصور الحق فى صورة الباطل ، والباطل فى صورة الحق .

قال : ومنهم مَنْ يعيب ذلك المعنى ، ويعده إسهاباً ، وآخره يعده نِفَاقاً .

قال : ومر غَيْلاَن بن خرشة الضبى مع عبد الله بن عامر بنهر أم عبد الله الذى يشق البصرة فقال عبد الله بن عامر : ماأصلح هذا النهر لأهل هذا المصر ! ! فقال غيلان : أجل والله أيها الأمير : يتعلم فيه العَوْمَ صبيانُهم . ويكون لسقياهم ، ومسيل مياههم ، ويأتيهم بميرتهم . . قال : ثم مر غيلان يساير زياداً على ذلك النهرْ وقد كان عادى ابن عامر . فقال له : ما أضر هذا النهر لأهل هذا المصر !! فقال غيلان : أجل والله أيها الأمير : تَنْدَى منه دورهم ، وَيغرق فيه صبيانهم ، ومن أجله يكثر بَعُوضُهم ؛ فكره الناس من البيان مثل هذا ، انقضى كلام عبد الكريم .

والذى أراه أنا أن هذا النوع من البيان غير مَعِيب بأنه نِفَاق ؛ لأنه لم يجعل الباطل حقاً على الحقيقة ، ولا الحق باطلا ، وإنما وصف محاسن شىء مرة ، ثم وصف مساويه مرة أخرى : كما فعل عمرو بن الأهتم بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم — وقد سأله عن الزِّبْرِقَان بن بدر ، فأثنى خيراً — فقال : مانع لحوزته ، مطاع فى أنديته — ويروى فى أذينِهِ — فلم يرض الزبرقان بذلك ، وقال : أما إنه قد علم أكثر مما قال ، ولكن حَسَدَنى لشرفى — وفى رواية أخرى حسدنى مكانى منك ، يخاطب النبى صلى الله عليه وسلم — فأثنى عليه عمرو شراً ، وقال : أما لئن قال ما قال لقد علمته ضَيِّقَ الصدر ، زَمِرَ المروءة ، أحمق الأب ، لئيم الخال ، حديث الغنى ، ثم قال : وَالله يا رسول الله ما كذبت عليه فى الأولى ، ولقد صدقت فى الآخرة ، ولكن أرضانى فقلت بالرضا ، وأسخطنى فقلت بالسخط ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إن من البيان لسحراً[1]» قال أبو عبيد القاسم بن سلام : وكأن المعنى — والله أعلم — أنه يبلغ من بيانه أنه يمدح الإنسان فَيَصْدُقُ فيه حتى يصرف

(١) انظر ص ١٧ و٢٧ و ٢٥٤ من هذا الجزء ، وانظر المثل رقم ١ فى مجمع الأمثال بتحقيقنا .

القلوب إلى قوله ، ثم يذمه فيصدق فيه حتى يصرف القلوب إلى قوله الآخر ، فكأنه سَحَرَ السامعين بذلك.

كلام فى البذاء

وقال الجاحظ : العربى يعاف البَذَاء، ويهجو به غيره ، فإذا ابتلى به فخر به ، ولكنه لا يفخر به لنفسه من جهة ما هجا به صاحبه .

ودخل أبو العيناء على المتوكل ، فقال له : بلغنى عنك بَذَاء ، قال : إن يكن البذاء صفة المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته؛ فقد زكّى الله وذم فقال : (نعم العبد إنه أوّاب) وقال : (هماز مَشّاء بنميم ، مَنّاعٍ للخير مُعْتَدٍ أثيم ، عُتُل بعد ذلك زَنيم) فذمه حتى قذفه ، وأما أن أكون كالعقرب التى تلسع النبى والذمى فقد أعاذ الله عبدك من ذلك ، وقد قال الشاعر :

إذا أنا بالمعروف لم أُثْنِ صادقاً ... ولم أشتم الجِبْسَ اللَّئيمَ الْمُذَمَّمَا
فَفِيمَ عَرَفْتُ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ بِاسْمِهِ ... وَشَقَّ لِيَ اللهُ الْمَسَامِعَ وَالْفَمَا؟

وصف البيان لجعفر بن يحيى

قال الجاحظ : قال ثمامة بن أشرس : قلت لجعفر بن يحيى : ما البيان ؟ قال: أن يكون اللفظ يحيط بمعناك ، ويخبر عن مَغْزَاك ، ويخرجه من الشركة ، ولا يستعين عليه بالكثرة ، والذى لا بد منه أن يكون سليما من التكلف ، بعيداً من الصنعة ، بريًا من التعقيد ، غنيًا عن التأويل . قال الجاحظ : وهذا هو تأويل قول الأصمعى: البليغ من طبق المفصل ، وأغناك عن المفسر .

الكلام البليغ

قال أبو عبيدة : البليغ : البَلْغُ ، بفتح الباء ، وقال غيره : البَلْغُ : الذى يبلغ ما يريد من قول وفعل، والبِلْغُ : الذى لا يبالى ما قال وما قيل فيه ، كذلك قال أبو زيد ، وحكى ابن دريد كلام بَلْغ و بليغ ، وقال ابن الأعرابى : يقال بَلْغٌ و بِلْغٌ ، ولا شك أن ابن الأعرابى قال : إنما هو فى الأهوج الذى لا يبالى حيث وقع من القول .

وقد تكرر فى هذا الباب من أقاويل العلماء ما لم يخف عنى ، ولا غفلته ، لكن اغتفرت ذلك لاختلاف العبارات ، ومَدَار هذا الباب كله على أن البلاغة

وَضْعُ الكلام موضعه من طول أو إيجاز ، مع حسن العبارة ، ومن جيد ما حفظته قول بعضهم : البلاغة شد الكلام معانيه وإن قَصُر ، وحسن التأليف وإن طال.

(٣٢) — باب الإيجاز

حد الإيجاز

الإيجاز عند الرُّمَّاني على ضربين : مطابق لفظه لمعناه : لا يزيد عليه ، ولا ينقص عنه ، كقولك : « سَلْ أهلَ القرية » ، ومنه ما فيه حذف للاستغناء عنه في ذلك الموضع ، كقول الله عز وجل : (واسأَلِ القَرْيَةَ) وعبر عن الإيجاز بأن قال : هو العبارة عن الغرض بأقل ما يمكن من الحروف ، ونعم ما قال ، إلا أن هذا الباب متسع جداً ، ولكل نوع منه تسمية سماها أهل هذه الصناعة . .

المساواة

فأما الضرب الأول مما ذكر أبو الحسن فهم يسمونه المساواة . ومن بعض ما أنشدوا في ذلك قول الشاعر :

يا أيُّهَا الْمُتَحَلِّي غَيْرَ شِيمَتِهِ   إنَّ التَّخَلُّقَ يَأْتِي دُونَهُ الْخُلُقُ
وَلاَ يُوَاتِيكَ فيما نَابَ مِنْ حَدَثٍ   إلاَّ أخُو ثِقَةٍ ، فانْظُرْ بِمَنْ تَثِقُ

فهذا شعر لا يزيد لفظه على معناه ، ولا معناه على لفظه شيئاً . . ومثله قول أبي العتاهية — ورواه بعضهم للحطيئة ، وهذا شرف عظيم لأبي العتاهية إن كان الشعر له ، ولا أشك فيه :

الحمـــد لله إني في جِوَارِ فتى   حَامِي الحقيقة نَفَّاعٍ وَضَرَّارِ
لا يرفع الطَّرْفَ إلا عندَ مَكْرُمَةٍ   مِنَ الحَيَاء ، ولا يُغْضِي على عَارِ

مثال من اعتدال الوزن

وأنشد عبد الكريم في اعتدال الوزن :

إنَّمَا الذلفَـــاءُ هَمِّي   فَلْيَدَعْنِي مَنْ يَلُومُ
أحْسَنُ النَّاسِ جَمِيعاً   حِينَ تَمْشِي وَتَقُومُ

أَصِلُ الْحَبْـلَ لِتَرْضَى وَهْيَ لِلْحَبْلِ صَرُومُ

ثم قال : عندهم أنه ليس فى هذا الشعر فَضْلة عن إقامة الوزن ، وهذه الأبيات وأشكالها داخلة فى باب حسن النظم عند غير عبد الكريم .

الاكتفاء

والضرب الثانى مما ذكر الرمانى — وهو قول الله عز وجل (واسأل القرية)ـ يسمونه الاكتفاء ، وهو داخل فى باب المجاز ؛ وفى الشعر القديم والمحدَث منه كثير ، يحذفون بعض الكلام لدلالة الباقى على الذاهب : من ذلك قول الله عز وجل : (وَلَوْ أنَّ قرآنًا سُيِّرَتْ به الجبالُ أو قُطِّعَتْ به الأرضُ أو كُلِّمَ به الموتى) كأنه قال : لكان هذا القرآن . ومثله قولهم : لو رأيت عليًا بين الصفين ، أى : لرأيت أمراً عظيما ، وإنما كان هذا معدوداً من أنواع البلاغة لأن نفس السامع تتسع فى الظن والحساب ، وكل معلوم فهو هين ؛ لكونه محصوراً ، وقال امرؤ القيس :

فلَوْ أنها نَفْسٌ تَمُوتُ سَوِيَّةً وَلَـكِنَّهَا نَفْسٌ تَسَاقَطُ أنفُسًا(١)

كأنه قال: لهان الأمر ، ولكنها نفس تموت موتات ، ونحو هذا ، ومن الحذف قول الله عز وجل : (فأما الذين اسودَّتْ وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم) أى : فيقال لهم : أكفرتم بعد إيمانكم ؟ . ومن كلام النبى صلى الله عليه وسلم قوله للمهاجرين وقد شكروا عنده الأنصار : « أليس قد عرفتم ذلك لهم ؟ » قالوا : بلى ، قال :

---

(١) فى الديوان * . . . . تموت جميعة * وقد روى « تساقط » بفتح التاء على أن الأصل « تتساقط » فحذف إحدى التاءين ، وهذه رواية الأصمعى ، وقال فى معناها : لو أنى أموت بدفعة واحدة ، ولكن نفسى لما بى من المرض تخرج شيئا فشيئا ، وتفسير المؤلف من هذا القبيل ، وأنكر الوزير أبو بكر هذا التفسير وهذه الرواية ، فروى «تساقط» بضم التاء ، وقال : معناه يموت بموتها بشر كثير ، كما قال عبدة بن الطبيب :

فما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدما

« فإن ذلك » يريد فإن ذلك مكافأة لهم . وروى أبو عبيدة أن سفيان الثورى قال : جاء رجل من قريش إلى عمر بن عبدالعزيز يكلمه فى حاجة له ، فجعل يحث بقرابته ، فقال عمر : « فإن ذلك » ثم ذكر حاجته ، فقال : «لعل ذلك»..

وقال الطرماح يوما للفرزدق : يا أبا فراس ، أنت القائل :

إنَّ الذى سَمَكَ السماء بَنَى لنا بَيْتًا دعائمُهُ أعزُّ وأطْوَلُ

أعز مما ذا وأطول مما ذا ؟ وأذن المؤذن ، فقال له الفرزدق : يا لُكَع ألا تسمع ما يقول المؤذن «الله أكبر» أكبر مما ذا أعظم مما ذا؟؟ فانقطع الطرماح انقطاعاً فاضحاً وزعم بعض العلماء أن معنى قول الفرزدق عزيز طويل ، ولكنه بناه على أفعل مثل أبيض وأحمر وما شاكلهما ، فجعله لازماً لما فى ذلك من الفخامة فى اللفظ والاستظهار فى المعنى.

من الإيجاز

ومن الإيجاز قول الأعرابى فى صفة الذئب :

أطلس يُخْفِى شَخْصَهُ غُبَارُهُ فى شِدْقِه شَفْرَتُهُ ونَارُهُ

فقوله فى الشفرة والنار إيجاز مليح .

وقال آخر فى صفة سهم صادر :

* غادر داءٍ ونجا صحيحاً *

وقال آخر فى صفة ناقة :

* خرقاء إلا أنها صَنَاع *

وقال أبو نواس يصف جنين ناقة مُخْدَجًا(١) :

* مَيّتُ النَّسَا حَىُّ الشّعَرْ *

وقال ابن المعتز يصف بازياً :

* مباركٌ إذا رأى فقَدْ رُزِقْ *

(١) يقال : خدجت الناقة ، إذا ألقت ولدها قبل أوانه ، وإن كان تام الخلق ، ويقال : أخدجته ــ بالهمزة ــ إذا ولدته ناقص الخلق ، وإن كان لتمام الحمل ، ومخدج: اسم مفعول من ذى الهمز ، والنسا : عرق يخرج من الورك فيستبطن الفخذ ، هذا أصله .

مثل من الإيجاز البديع

ومن الإيجاز البديع قول الله عز وجل : (وقيلَ يا أرضُ ابلعى ماءكِ ، ويا سماءُ أقلعى ، وغِيضَ الماءُ ، وقُضِىَ الأمرُ ، واستوت على الجودى ، وقيلَ : بُعْداً للقومِ الظالمين) وقوله تعالى : (خُذِ العفوَ ، وأمُرْ بالعُرْفِ ، وأعرض عن الجاهلين) فكل كلمة من هذه الكلمات فى مقام كلام كثير ، وهى على ماترى من الإحكام والإيجاز ، ومثل ذلك قوله تعالى : (يحسبون كل صيحة عليهم ، همُ العدوُّ ، فاحذَرْهُمْ ، قاتَلَهُمُ الله أنى يؤفكون) وقوله تعالى : (وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاطَ اللهُ بها) وقوله :(إنْ تتبعونَ إلا الظنَّ وماتهوى الأنفس) وقال النبى صلى الله عليه وسلم للأنصار : « إنكم لتكثرون عندالفزع ، وتَقلونَ عندالطمع » وقال « كفى بالسلامةداء» ومثل هذا كثير فى كلامه صلى الله عليه وسلم ، ومَنْ أولى منه بالفصاحة وأحق بالإيجاز ؟ وقد قال : « أُعطِيتُ جوامع الكلم »

ما يظن من الحذف وليس منه

فأما قوله عليه الصلاة والسلام : « كفى بالسيف شا » يريد «شاهداً» فقد حكاه قوم من أصحاب الكتب : أحدهم عبد الكريم ، والذى أرى أن هذا ليس مما ذكروا فى شىء ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما قطع الكلمة وأمسك عن تمامها لئلا تصير حكما ، ودليل ذلك أنه قال : « لولا أن يتتابع فيه الغيران والسكران » فهذا وجه الكلمة والله أعلم ، لا كما قال علقمة ابن عبدة :

كَأَنَّ إِبْرِيقَهُمْ ظَبْيٌ عَلَى شَرَفٍ مُفَدَّمٌ بِسَبَا الْكَتَّانِ مَلْثُومُ

يريد « بسبائب الكتان » فحذف اضطراراً ؛ لأن الوزن لا يستقيم له إلا بعد الحذف ، وكذلك قول لبيد [1] :

---

(١) قد ذكر سيبويه فى أول كتابه بابا سماه « باب مايحتمل الشعر » وذكر فيه أمثلة من هذا النوع ، وبينها الأعلم شارح شواهده بيانا واضحا فارجع إليه إن شئت

* دَرَسَ المَنَا بمتالع فأبَانِ *

يريد « المنازل » فحذف للضرورة أيضاً ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم غير متكلف ولا مضطر . فأما سائر العرب فالحذف فى كلامهم كثير ؛ لحب الاستخفاف ، وتارة للضرورة ، وسيرد عليك فى باب الرخص ، إن شاء الله تعالى .

(٣٣) — باب البيان

حد البيان

قال أبو الحسن الرمانى فى البيان[١] : هو إحضار المعنى للنفس بسرعة إدراك، وقيل ذلك لئلا يلتبس بالدلالة ؛ لأنها إحضار المعنى للنفس وإن كان بإبطاء .

وقال : البيان : الكشف عن المعنى حتّى تدركه النفس من غير عقلة ، وإنما قيل ذلك لأنه قد يأتى التعقيد فى الكلام الذى يدل ، ولا يستحق اسم البيان .

قال صاحب الكتاب : وقد مرّ بى فى باب البلاغة قول غيلان بن خرشة فى صفة نهر أم عبد الله مادحاً وذامّاً ، وهو من جيد البيان عندهم ، وكذلك قول عمرو بن الأهتم فى الزبرقان بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال النبى صلى الله عليه وسلم : « إن من البيان لسحرا » وقال مثل ذلك للعلاء ابن الحضْين[٢] وقد سأله : هل تروى من الشعر شيئاً ؟ فأنشد :

حَيِّ ذَوِى الأَضْغانِ تَسْبِ عُقُولَهُمْ تحيتَكَ الحُسْنَى وَقَدْ يُرْقَعُ النَّعْلْ

---

(١) انظر ص ١٧ و٢٧ و٢٤٨ من هذا الجزء .

(٢) الذى فى اللسان (مادة دحس) : « قال الأزهرى : وأنشد أبو بكر لأبى العلاء الحضرمى أنشده للنبى صلى الله عليه وسلم » .

فإن دَحَسُوا بالكره فاعْفُ تكرماً وَإنْ خَنَسوا عَنكَ الحَديثَ فَلا تَسَلْ[(١)]
فإنّ الذى يؤذيك منه سماعه وإنّ الذى قالوا وراءك لم يُقَلْ

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « إن من الشعر لحكما » وروى « لحكمة » .

أمثلة من البيان الموجز

ومن البيان الموجز الذى لا يقرن به شىء من الكلام قولُ الله تعالى : (ولكم فى القصاص حَيَاةٌ) وقوله فى الإعراب عن صفته : (قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يُولد، ولم يكن له كفوا أحد) فبين تعالى أنه واحد لا ثانى معه ، وأنه صمد لا جوف له ـ وقيل : الصمد السيد الذى يُصْمَد إليه فى الأمور كلها ، ولا يعدلُ عنه ، وقيل : العالى المرتفع ـ وأنه غير والد ولا مولود ، وأنه لا شِبْهَ له ولا مِثْلَ ـ وقيل : إن الكفو ههنا الصاحبة تعالى الله ـ وإنما نزلت هذه السورة لما سألت اليهودُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقالوا له : صِفْ لنا ربك وانْسُبه فقد وصف نفسه فى التوراة ونسبها ، فأكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك ، وقال : لو سألتمونى أن أصف لكم الشمس لم أقدر على ذلك ، فبينما هو كذلك إذ هَبَطَ عليه جبريل عليه السلام فقال : يا محمد (قل هو الله أحد) السورة .

ومن كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته رضى الله عنهم قوله صلى الله عليه وسلم : « المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يَدٌ على مَنْ سِوَاهم » و« المرء كثير بأخيه » فهذا كلام فى نهاية البيان والإيجاز .

وقال أبو بكر رضى الله عنه فى بعض مقاماته « وليت أموركم ولست بخيركم ،

---

(١) فى اللسان « فإن دحسوا بالشر » ، وكان فى الأصل « وإن خنسوا عند الحديث » وكتب فى هامشه « وفى نسخة : حبسوا عنك » والصواب ما أثبتناه كما فى اللسان ، وقال بعد إنشاده : « وهذا حجة لمن جعل خنس واقعا » اهـ أراد : متعديا ، ومعنى دحسوا أفسدوا

أطيعونى ما أطَعْتُ الله ورسوله ، فإن عصيت[الله] فلا طاعة لى عليكم » فقد بلغ بهذه الألفاظ الموجَزَة غايةَ البيان .

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى بعض خطبه « أيها الناس ، إنه والله ما فيكم أحَدٌ أقْوَى عندى من الضعيف حتى آخذ الحق له،ولاأضعف عندى من القوى حتى آخذ الحق منه » روى ذلك المبرد عن العتبى ، ودكر الأخفش عن على بن سليمان هذه الخطبة فقال : الصحيح عندى أنها لأبى بكر ..

ومن كلام عمر رضى الله عنه « كفى بالمرء غياً أن تكون فيه خلة من ثلاث: أن يعيب شيئاً ثم يأتى مثله ، أو يبدو له من أخيه مايخفى عليه من نفسه، أو يؤذى جَليسَهُ فيما لا يعنيه » .

وكتب عثمان بن عفان إلى على بن أبى طالب رحمةُ الله عليهما لما أحيط به « أما بعد فإنه قد جاوَزَ الماء الزُّبىَ، و بلغ الحزام الطُّبْيَين ، وتجاوز الأمر بى قدره، وطمع فىَّ مَنْ لايدفع عن نفسه .

فإن كنتُ مأكُولاً فكُنْ أنت آكِلِي

وإلا فأدركى ولما أمزق »

البيت الذى [قد] تضمنتْهُ الرسالة من شعر الممزَّقِ العبدى ، يقوله لعمرو ابن هند فى قصيدة مشهورة ، و به سمى الممزق ، واسمه شاس بن نهار .

وخاطب عثمان علياً يعاتبه وهو مُطْرِق ، فقال له : ما بَالُكَ لا تقول ؟ فقال على : إن قلت لم أقل إلا ما تكره ، وليس لك عندى إلا ماتحب ، قال المبرد : تأويل ذلك : إن قلت اعْتَدَدْتُ عليك بمثل مااعتددت به على ، فلدغك عتابى ، وعقدى ألا أفعل ـ و إن كنت عاتباً ـ إلا ماتحب .

وهذا قليل[1] من كثير يستدل به عليه ، ولو تقصيت ما وقع من ألفاظ التابعين ، وما تقدمت به شعراء الجاهلية والإسلام ؛ لأفنيت العمر دون

(١) تجد أكثر الأمثلة التى أثرها المؤلف فى هذا الفصل فى مطلع كتاب « الكامل » لأبى العباس المبرد .

ذلك ، وقد استفرغ أبو عثمان الجاحظ ـ وهو علامة وقته ـ الجُهدَ وصنع كِتاباً لا يُبْلَغُ جودةً وفضلاً ، ثم ما ادعى إحاطة بهذا الفن لكثرته وأن كلام الناس لا يحيط به إلا الله عز وجل .

٣٤ — باب النظم

قال أبو عثمان الجاحظ : أجود الشعر ما رأيتهُ مُتَلاَحم الأجزاء ، سهل المخارج ، فتعلم بذلك أنه أفرغ إفراغا واحداً ، وسبك سبكا واحداً ؛ فهو يجرى على اللسان كما يجرى الدهان .

وإذا كان الكلام على هذا الأسلوب الذى ذكره الجاحظ لَذَّ سماعه ، وخَفَّ مُحْتَمله ، وقرب فهمه ، وعذب النطق به ، وحلِىَ فى فم سامعه ، فإذا كان متنافراً متبايناً عسر حفظه ، وثقل على اللسان النطق به ، ومَجَّتْهُ المسامع فلم يستقر فيها منه شىء .

وأنشد[1] الجاحظ قال : أنشدنى أبو العاصى قال : أنشدنى خلف :

وَبَعْضُ قَرِيضِ القومِ أَبْنَاءُ عَلَّةٍ ... يُكَدُّ لِسَانَ النَّاطِقِ المُتَحَفِّظِ

وأنشد عنه عن أبى البيداء الرياحى :

وَشِعْرٍ كَبَعْرِ الكَبْشِ فَرَّقَ بَيْنَهُ ... لِسَانُ دَعِىٍّ فى القَرِيضِ دَخِيلِ

واستحسن أن يكون البيت بأسْرِهِ كأنه لفظة واحدة لخفته وسهولته ، واللفظة كأنها حرف واحد ، وأنشد قول الثقفى :

من كان ذَا عَضُدٍ يُدْرِكْ ظُلَامَتَهُ ... إنَّ الذَّلِيلَ الذى لَيْسَتْ لَهُ عَضُدُ

تَنْبُو يَدَاهُ إذَا ما قَلَّ نَاصِرُهُ ... ويأنَفُ الضَّيْمَ إنْ أثرى له عَدَدُ

(١) انظر البيان والتبيين (ج ١ ص ٧٠ و ٧١) .

مثل من مزاوجة الألفاظ

والناس مختلفو الرأى فى مزاوجة الألفاظ : منهم من يجعل الكلمة وأختها، وأكثر ما يقع ذلك فى ألفاظ الكتّاب ، وبه كان يقول البحترى فى أكثر أشعاره ، من ذلك قوله :

تَطيبُ بِمَسْرَاهَا البلادُ إذا سَرَتْ   فيَفْغَمُ ريَّاهَا وَيَصْفُو نَسِيمُهَا(١)

ففى القسم الآخر تناسب ظاهر . . وكذلك قوله :

ضَاقَ صَدْرِى بِمَا أُجِنُّ وَقَلْبى بِمَا أَجِدْ

وقوله أيضاً فى مدح المتوكل :

لَقَدِ اصْطَفَى رَبُّ السَّمَاءِ لهُ الخَلائِقَ وَالشِّيَمْ

ومنهم من يقابل لفظتين بلفظتين ، ويقع فى الكلام حينئذ تفرقة وقلة تكلف : فمن المتناسب قول على بن أبى طالب رضى الله عنه فى بعض كلامه « أين من سعى واجتهد ، وجمع وعدَّد ، وزخرف ونجَّد ، وبنى وشيَّد » فأتبع كل لفظة ما يشاكلها ، وقرنها بما يشبهها . ومن الفرق المنفصل قول امرىء القيس :

كأنِّىَ لَمْ أَرْكَبْ جَوَاداً لِلَذَّةٍ   ولمْ أتبطَّنْ كاعِباً ذاتَ خَلْخَالِ

وَلَمْ أَسْبَإِ الزِّقَّ الرَّوِىَّ ، ولمْ أَقُلْ   لِخَيْلِىَ كُرِّى كَرَّةً بعد إجفال

وكان قد ورد على سيف الدولة رجل بغدادى يعرف بالمنتخب ، لا يكاد يَسْلَمُ منه أحد من القدماء والمحدثين ، ولا يذكر شعر بحضرته إلا عابه ، وظهر على صاحبه بالحجة الواضحة ، فأنشد يوماً هذين البيتين ، فقال : قد خالف فيهما وأفسد ، لو قال :

كأنى لم أركب جواداً ، ولم أقل   لخيلى كرى كرة بعد إجفال

ولم أسبإ الزق الروىّ للذة   ولم أتبطن كاعباً ذات خلخال

لكان قد جمع بين الشيء وشكله ؛ فذكر الجواد والكر فى بيت ،

(١) فغمه الطيب : سد خياشيمه وملأها ، ووقع فى كل الأصول « فينعم » .

وذكر النساء والخمر فى بيت ، فالتبس الأمر بين يَدَى سيف الدولة ، وسَلَّموا له ما قال ، فقال رجل ممن حضر : ولا كرامة لهذا الرأى ، الله أصْدَقُ منك حيث يقول : (إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرَى ، وأنك لا تظمأ فيها ولا تَضْحَى) فأتى بالجوع مع العرى ولم يأت به مع الظمأ ، فَسُرَّ سيفُ الدولة ، وأجازه بصلة حسنة .

قال صاحب الكتاب : قول امرىء القيس أصوب ، ومعناه أعر وأغرب؛ لأن اللذة التى ذكرها إنما هى الصيد ، هكذا قال العلماء ، ثم حكى عن شبَابِهِ وغشيانه النساء : فجمع فى البيت معنيين ، ولو نظمه على ما قال المعترض لنقص فائدة عظيمة ، وفضيلة شريفة تدل على السلطان ، وكذلك البيت الثانى : لو نظمه على ما قال لكان ذكر اللذة حشواً لا فائدة فيه ؛ لأن الزق لا يسبأ إلا لِلَّذَّةِ ، فإن جعل الفتوة كما جعلناها فيما تقدم الصيد قلنا : فى ذكر الزق الروى كفاية ولكن امرأ القيس وصف نفسه بالفتوة والشجاعة بعد أن وصفها بالتملك والرفاهة .

وأما احتجاج الآخر بقول الله عز وجل فليس من هذا فى شىء ؛ لأنه أجرى الخطاب على مستعمل العادة ، وفيه مع ذلك تناسب ؛ لأن العادة أن يقال : جائع عُرْيَان ، ولم يستعمل فى هذا الموضع عطشان ولا ظمآن ، وقوله تعالى « تظمأ » و « تضحى » متناسب ؛ لأن الضاحى هو الذى لا يستره شىء عن الشمس ، والظمأ من شأن مَنْ كانت هذه حاله .

فى القرآن ألفاظ لا تكاد تفترق

وقال الجاحظ : فى القرآن معانٍ لا تكاد تفترق، من مثل: الصلاة والزكاة ، والخوف والجوع ، والجنة والنار ، والرغبة والرهبة ، والمهاجرين والأنصار ، والجن والإنس ، والسمع والبصر .

ومن الشعراء مَنْ يضع كل لفظة موضعها لا يعْدُوه ؛ فيكون كلامه ظاهراً

عيب التقديم والتأخير في الكلام

غير مشكل ، وسهلا غير متكلف ، ومنهم من يُقَدِّم ويؤخر : إما لضرورة وَزْن ، أو قافية وهو أعذر ، وإما ليدل على أنه يعلم تصريف الكلام ، ويقدر على تعقيده ، وهذا هو العِيُّ بعينه ، وكذلك استعمال الغرائب والشذوذ التي يقل مثلها في الكلام ، فقد عيب على مَنْ لا تعلق به التهمة نحو قول الفرزدق :

عَلَى حَالَةٍ لَوْ أَنَّ فى البحر حاتماً عَلَى جُودِهِ ما جَادَ بالمَاءِ حاتِمِ[1]

فخفض حاتماً على البدل من الهاء التى فى «جوده» حتى رأى قوم من العلماء أن الإقواء فى هذا الموضع خير من سلامة الإعراب مع الكلفة ، وكذلك قوله :

نُفَلِّقُ هَاماً لم تَنَلْهُ أَكُفُّنَا بِأَسْيَافِنَا هَامَ الملوك القماقم

أراد : نفلق بأسيافنا هام الملوك القماقم ، ثم نبه وقرر فقال : هاما لم تنله أكفنا ، يريد أى قوم لم نملكهم ونقهرهم ، وهذا عند الصدور المذكورين بالعلم تكلُّف وتعمل ، لا تعرفه العرب المطبوعون ، وكذلك :

إنَّ الفرزدق صخْرَةٌ عَادِيَّةٌ طَالَتْ فليس تنالها الأوعالا

نصب الأوعال بطالت ، ويروى «عزت» . وأكثر شعر أبى الطيب من هذه العلامة ، ومما لا بأس به قولُ الخنساء :

فَنِعْمَ الفَتَى فى غَدَاةِ الهياج إذا مَا الرِّمَاحَ نَجِيعاً رَوَيْنَا

فقدمت «نجيعا» على «روينا» مبادرة للخبر بالرى من أى شىء هو ، وكذلك قول أبى السفاح بكير بن معدان اليربوعى :

نَهْنَهْتُهُ عَنْكَ فَلَمْ يَنْتَهِ بالسيفِ إلاَّ جَلَدَاتٍ وِجَاعُ

---

(١) يروى هذا البيت هكذا :

على حالة لو أن فى القوم حاتما على جوده ضنت به نفس حاتم

أراد نهنهته عنك بالسيف ، أو أراد فلم ينهه إلا جـلدات وجاع بالسيف ، وكلاهما فيه تقديم وتأخير .

ورأيت من علماء بلدنا مَنْ لا يحكم للشاعر بالتقدم ، ولا يقضى له بالعلم ، إلا أن يكون فى شعره التقديم والتأخير ، وأنا أستثقل ذلك من جهة ما قدمت ، وأكثر ما تجده فى أشعار النحويين

عيب تقارب الحروف وتكررها

ومن الشعر ما تتقارب حروفه أو تتكرر فتثقل على اللسان ، نحو قول ابن بشر :

لم يَضِرْهَا وَالْحَمْـــدُ للهِ شَىْءٌ وَانْثَنَتْ نَحْوَ عَزْفِ نَفْسٍ ذهول

فإن القسيم الآخر من هذا البيت ثقيل ؛ لقرب الحاء من العين، وقرب الزاى من السين .

وقال آخر :

وَقَـبْرُ حَرْبٍ فى مَكانٍ قَفْرٍ وَلَيْسَ قُرْبَ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرٍ

فتكررت الألفاظ ، وترددت الحروف ، حتى صار أُلقية(1) يختبر به الناس ، ولا يقدر أحد أن ينشده ثلاث مرات إلا عثر لسانه فيه وغلط .

وقال كعب بن زهير :

تجلو عوَارِضَ ذى ظَلْمٍ إذا ابتسمتْ كأنه مُنْهَلٌ بالرَّاحِ مَعْلُولُ

فجمع بين الضاد والذال والظاء ، وهى متقاربة متشاكلة .

التبييج

ومن حسن النظم أن يكون الكلام غير مُثَبَّج ، والتثبيج : جنس من المعاظلة ترد فى بابها إن شاء الله تعالى .

قيام كل بيت بنفسه

ومن الناس من يستحسن الشعر مبنيا بعضه على بعض ، وأنا أستحسن أن يكون كل بيت قائما بنفسه لا يحتاج إلى ما قبله ولا إلى ما بعده ، وما سوى ذلك فهو عندى تقصير ، إلا فى مواضع معروفة ، مثل الحكايات وما شاكلها، فإن بناء

(1) الأُلقية ــ على مثال أفعولة ــ ما يلقى من مسائل المعاياة ، ومثلها الأحجية والأدعية ، وزنا ومعنى .

اللفظ على اللفظ أجود هنالك من جهة السَّرْدِ ، ولم أستحن الأول على أن فيه بعداً ولا تنافرا ، إلا أنه إنْ كان كذلك فهو الذى كرهت من التشبيح .

(٣٥) — باب المخترع والبديع

حد المخترع

المخترع من الشعر هو : ما لم يُسْبَقْ إليه قائلُه ، ولا عمل أحد من الشعراء قبله نظيره أو ما يقرب منه ، كقول امرىء القيس :

سَمَوْتُ إلَيْها بَعْدَ مَانَامَ أَهْلُهَا ... سُمُوَّ حَبَابِ الْمَاءِ حَالاً عَلَى حَالِ

فإنه أول من طَرَقَ هذا المعنى وابتكره ، وسلم الشعراء إليه ، فلم ينازعه أحد إياه ، وقوله :

كأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْباً وَيَابِساً ... لدَى وَكْرِهَا الْعُنَّابُ وَالحَشَفُ الْبالِى

وله اختراعات كثيرة يضيق عنها الموضع ، وهو أول الناس اختراعاً فى الشعر، وأكثرهم توليداً .

ومن الاختراع قولُ طرفة :

وَلَوْلاَ ثَلاَثٌ هُنَّ مِنْ لذَّةِ الْفَتَى(١) ... وَجَدِّكَ لَمْ أَحْفِلْ مَتَى قَامَ عُوَّدِي
فَمِنْهُنَّ سَبْقُ الْعَاذِلاَتِ(٢) بِشَرْبَةٍ ... كُمَيْتٍ مَتَى مَا تُعْلَ بالماء تُزْبِدِ
وَكَرِّى إِذَا نَادَى الْمُضَافُ مُحَنَّباً ... كَسِيدِ الْغَضَاذِى الطخيةِ المتوردِ(٣)

---

(١) يروى * . . . هن من عيشة الفتى *

(٢) يروى * سبقى العاذلات . . . *

(٣) يروى * كسيد الغضا نبهته المتورد * والمحنب — بالحاء المهملة ، ووقع فى الأصول بالجيم موحدة وهو تحريف — فرس أقنى الذراع ، ونصبه بكرى . والسيد : الذئب ، والغضا : شجر ، وذئابه أخبث الذئاب . ونبهته : هيجته . والمتورد : الذى يطلب ورود الماء .

وَتَقصِيرُ يَوْمِ الدَّجْنِ وَالدَّجْنُ مُعْجِبٌ ... بِبَهْكَنَةٍ تَحْتَ الطِّرَافِ الْمُعَمَّدِ(١)

وقوله يصف السفينة فى جريها :

يَشُقُّ حَبَابَ الْمَاءِ حَيْزُومُها بِهَا ... كَمَا قَسَمَ التُّرْبَ الْمُفَائِلُ بِالْيَدِ

وله أيضا اختراعات أكثرها من هذه القصيدة . وقال نابغة بنى ذبيان :

سَقَطَ النَّصِيفُ وَلَمْ تُرِدْ إِسْقَاطَه ... فَتَنَاوَلَتْهُ وَاتَّقَتْنَا بِالْيَدِ

وقوله أيضاً من الاختراعات :

لَوْ أَنَّهَا عَرَضَتْ لِأَشْمَطَ رَاهِبٍ ... عَبَدَ الإِلَهَ صَرُورَةٍ مُتَعَبِّدِ

لَرَنَا لِرُؤْيَتِهَا وحسن حديثها ... وَلَخَالَهُ رَشَداً وَإِنْ لَمْ يَرْشُدِ

وما زالت الشعراء تخترع إلى عصرنا هذا وتولد ، غير أن ذلك قليل فى الوقت

التوليد

والتوليد : أن يستخرج الشاعر معنى من معنى شاعر تقدمه ، أو يزيد فيه زيادة ؛ فلذلك يسمى التوليد ، وليس باختراع ؛ لما فيه من الاقتداء بغيره ، ولا يقال له أيضاً « سرقة » إذا كان ليس آخذاً على وجهه ، مثال ذلك قول امرىء القيس :

سَمَوْتُ إِلَيْهَا بَعْدَ مَا نَامَ أَهْلُهَا ... سُمُوَّ حَبَابِ الْمَاءِ حَالاً عَلَى حَالِ

فقال عمر بن عبد الله بن أبى ربيعة ، وقيل : وَضَّاح اليمن :

فَاسْقُطْ علينا كَسُقُوطِ النوى ... لَيْلَةَ لَا نَاهٍ وَلَا زَاجِرُ

فولّد معنى مليحًا اقتدى فيه بمعنى امرىء القيس ، دون أن يشركه فى شىء من لفظه ، أو ينحو نحوه إلا فى الحصول ، وهو لطف الوصول إلى حاجته فى خفية.

وأما الذى فيه زيادة فكقول جرير يصف الخيل :

---

(١) الدجن : إلباس الغيم السماء وإن لم يكن مطر ، أو هو الندى والمطر الخفيف ، والبهكنة : الجارية الخفيفة الروح ، والطراف المعمد : الخباء ذى العمد.

يَخْرُجْنَ مِنْ مُسْتَطِيرِ النَّقْعِ دَامِيَةً … كَأَنَّ آذَانَهَا أَطْرَافُ أَقْلَامِ

فقال عدى بن الرِّقَاع يصف قرن الغزال :

تُزْجِي أَغَنَّ كَأَنَّ إِبْرَةَ رَوْقِهِ … قَلَمٌ أَصَابَ مِنَ الدَّوَاةِ مِدَادَهَا

فولد بعد ذكر القلم إصابتهَ مداد الدواة بما يقتضيه المعنى ؛ إذ كان القرن أسود . وقال العُمَانى الراجز بين يدى الرشيد يصف الفرس :

تَخَالُ أُذْنَيْهِ إِذَا تَشَوَّفَا … قَادِمَةً أو قَلَماً محرفا(١)

فولد ذكر التحريف فى القلم ، وهو زيادة صفة .

ومن التوليد قول أمية بن أبى الصَّلْت يمدح عبد الله بن جُدْعَان :

لكل قبيلة ثبجٌ وصلب … وأنت الرأسُ أولُ كل هاد

فقال نُصَيْب لمولاه عمر بن عبد العزيز :

فأنتَ رأس قُرَيْشٍ وَابْنُ سَيِّدِهَا … والرأسُ فيهِ يكون السمعُ والبصر

فولّدَ هذا الشرح وإن كان مجملا فى قول أمية بن أبى الصلت . . . ثم أتى على بن جَبَلة فقال يمدح حميد بن الحميد :

فالناسُ جسمٌ ، وَإِمَامُ الهُدَى … رأسٌ ، وأنتَ العينُ فى الراس

فأوقع ذكر العين على مشبه معين ، ولم يفعل نصيب كذلك ، لكن أتى بالسمع والبصر على جهة التعظيم ؛ لأن من ولد عمر ولى عهد ، ففى قول على بن جبلة زيادة . . وجاء ابن الرومى فقال :

عَيْنُ الأميرِ هى الوزيـــر ، وأنتَ نَاظِرُهَا البصير

فرتَّبَ أيضاً ترتيباً فيه زيادة ، فهذا مجرى القول فى التوليد .

---

(١) يروى النحويون هذا البيت ❊ كأن أذنيه … قادمة أو قلما محرفا ❊ ويستدلون به على أن من الناس من ينصب المبتدأ والخبر جميعا بعد كأن .

وأكثر المولدين اختراعاً وتوليداً — فيما يقول الحذاق — أبو تمام، وابن الرومى .

الفرق بين الاختراع والإبداع

والفرق بين الاختراع والإبداع ـ وإن كان معناهما فى العربية واحدا ـ أن الاختراع : خَلْقُ المعانى التى لم يُسْبَق إليها ، والإتيان بما لم يكن منها قط، والإبداع إتيان الشاعر بالمعنى المستظرف ، والذى لم تجر العادة بمثله ، ثم لزمته هذه التسمية حتى قيل له بديع وإن كثر وتكرر ، فصار الاختراع للمعنى ، والإبداع للفظ ؛ فإذا تم للشاعر أن يأتى بمعنى مخترع فى لفظ بديع فقد استولى على الأمد ، وحاز قصب السبق .

اشتقاق الاختراع

واشتقاق الاختراع من التليين يقال « بيت خرع » إذا كان ليناً ، والخروع فِعْوَل منه ، فكأن الشاعر سهل طريقة هذا المعنى ولينه حتى أبرزه .

البديع

وأما البديع فهو الجديد ، وأصله فى الحبال ، وذلك أن يفتل الحبل جديداً ليس من قُوَى حبلٍ نقضت ثم فتلت فتلا آخر . وأنشدوا للشّمّاخ بن ضرار :

أطار عقيقه عنـــه نسالا وأدمج دمج ذى شطر بديع

أنواع البديع عند ابن المعتز

والبديع ضروب كثيرة ، وأنواع مختلفة ، أنا أذكر منها ما وسعته القدرة وساعدت فيه الفكرة، إن شاء الله تعالى ، على أن ابن المعتز— وهو أول من جمع البديع ، وألف فيه كتاباً — لم يعده إلا خمسة أبواب : الاستعارة أولها ، ثم التجنيس ، ثم المطابقة ، ثم رد الأعجاز على الصُّدُور، ثم المذهب الكلامى ، وعَدَّ ما سوى هذه الخمسة أنواع محاسن ، وأباح أن يسميها مَنْ شاء ذلك بديعا ، وخالفه من بعده فى أشياء منها يقع التنبيه عليها والاختيار فيها حيثما وقعت من هذا الكتاب ، إن شاء الله تعالى .

٣٦ — باب المجاز

منزلة المجاز

العرب كثيرا ما تستعمل المجاز ، وتعده من مفاخر كلامها ؛ فإنه دليل الفَصَاحة ، ورأس البلاغة ، وبه بانت لغتها عن سائر اللغات

معنى المجاز

ومعنى المجاز طريقُ القول ومَأْخَذُه ، وهو مصدر « جُزْتُ مجازاً » كما تقول « قمت مقاماً ، وقلت مقالا » حكى ذلك الحاتمى ، ومن كلام عبد الله بن مسلم ابن قتيبة فى المجاز قال : لو كان المجاز كذباً لكان أكثر كلامنا باطلا ؛ لأنا نقول: نَبَتَ البَقْلُ ، وطالت الشجرة ، وأينعت الثمرة ، وأقام الجبل ، ورخُصَ السعر ، ونقول : كان هذا الفعل منك فى وقت كذا ، والفعل لم يكن وإنما يكون ، وتقول : كان الله ، وكان بمعنى حدث ، والله قبل كل شىء ، وقال فى قول الله عز وجل : (فوجَدَا فيها جِداراً يريدُ أن ينقضّ فأقامه) لو قلنا للمنكر هذا كيف تقول فى جدار رأيته على شفا انهيار ؟ لم يجد بداً من أن يقول : يهم أن يَنْقَضّ ، أو يكاد ، أو يقارب ، فإن فعل فقد جعله فاعلا ، ولا أحسبه يصل إلى هذا المعنى فى شىء من ألسنة العجم إلا بمثل هذه الألفاظ .

المجاز أبلغ من الحقيقة

والمجاز فى كثير من الكلام أبلغ من الحقيقة ، وأحسن موقعاً فى القلوب والأسماع ، وما عدا الحقائق من جميع الألفاظ ثم لم يكن مُحالا مَحْضاً فهو مجاز ؛ لاحتماله وجوه التأويل ، فصار التشبيه والاستعارة وغيرهما من محاسن الكلام داخلة تحت المجاز ، إلا أنهم خصوا به — أعنى اسم المجاز — باباً بعينه ؛ وذلك أن يسمى الشىء باسم ما قاربَهُ أو كان منه بسبب ، كما قال جرير ابن عطية :

إذا سَقَطَ السّماء بأرض قوم (١) رَعَيْناه وإن كانوا غِضَابَا

أراد المطر لقربه من السماء ، ويجوز أن تريد بالسماء السحاب ؛ لأن كل ما أظلك فهو سماء ، وقال « سقط » يريد سقوط المطر الذى فيه ، وقال «رعيناه» والمطر لا يُرْعَى ، ولكن أراد النبت الذى يكون عنه ؛ فهذا كله مجاز ، وكذلك قول العَتَّابى :

---

(١) يروى * إذا نزل السماء . . . *

ياليلةً لى بحُوّارين ساهرةً حتى تكلم فى الصبح العصافيرُ

فجعل الليلة ساهرة على المجاز ، وإنما يُسْهَر فيها ، وجعل للعصافير كلاماً ، ولا كلام لها على الحقيقة . ومثله قول الله عز وجل إخباراً عن سليمان صلى الله على سيدنا محمد وعليه: (يا أيها الناسُ عُلِّمنَا منطق الطير) وإنما الحيوان الناطق الإنس والجن والملائكة ، فأما الطير فلا ، ولكنه مجاز مليح واتساع ، وهذا أكثر من أن يحصره أحد ، ومثله فى كتاب الله عز وجل كثير ، من ذلك قوله تعالى : (وأسأل القرية) ومثله (وأُشْرِبُوا فى قلوبهمُ العجلَ بكفرهم) يعنى حبه ، ومنه : (فتبارك الله أحسن الخالقين) وهو الخالق حقاً وغيره خالق مجازاً ، وقوله : (والله خير الماكرين) وإنما سمى ذلك مكراً لكونه مُجَازاة عن مكر ، وكذلك قوله : (فبشرهم بعذاب أليم) والعذاب لا يُبَشَّر به ، وإنما هو أنه مكان البشارة .

ومن أناشيد هذا الباب قول الفرزدق :

والشَّيْبُ يَنْهَضُ فى الشَّبَابِ كأنَّهُ لَيْلٌ يَصِيحُ بجانبيه نهار

وقال يعقوب بن السكيت : العرب تقول: بأرض بنى فلان شجر قد صاح ؛ إذا طال ، وأنشدوا للعجاج :

* كالكرم إذ نادى من الكافور *

قال ابن قتيبة : لما تبين الشجر بطوله ودل على نفسه جعله كأنه صائح ؛ لأن الصائح يدل على نفسه بصوته . وأنشد غيره قول سُوَيْد بن كُرَاع فى نحو هذا :

رَعَى غَيْرَ مَذْعُورٍ بهنّ ، وراقه لُعَاعٌ تهاداه الدكادكُ واعد

يقال : نبات واعد ، إذا أقبل كأنه قد وَعَدَ بالتمام ، وكذلك إذا نوَّرَ أيضاً قيل : قد وَعَدَ . ومن المجاز عندهم قول الشاعر وغيره : فعلت ذاك والزمان غِرٌّ ، والزمان غُلَام ، وماأشبه ذلك ، وهو يريد نفسه ليس الزمان ، ولا أرى ذلك مستقيما

بل عندى الصواب ونفس الاستعارة أن يبقى الكلام على ظاهره مجازا ؛ لأنا نجد فى هذا النوع ما لا ينساغ فيه هذا التأويل ، كقول بعضهم:

سألتني عن أناس هلكوا شربَ الدهرُ عليهم وأكلْ

فليس معناه شربْتُ وأكلْتُ عليهم ؛ لأنه إنما يعنى بعد العهد لا السلو وقلة الوفاء . وقال أبو الطيب :

أفنتْ مودّتَها الليالى بعدنا ومشى عليها الدهرُ وهو مُقَيَّدُ

فإنما أراد الدهر حقيقة . وقال الصَّنَوْبرى :

كان عَيْشى بهِمْ أنيقاً فولّى وزمانى فيهم غُلاماً فشاخا

فليس مراده كُنْتُ فيهم غلاماً فشِخْتُ ، ولكل موضع ما يليق به من الكلام ويصح فيه من المعنى .

التشبيه من المجاز

وأما كون التشبيه داخلا تحت المجاز فلأن المتشابهين فى أكثر الأشياء إنما يتشابهان بالمقاربة على المسامحة والاصطلاح ، لا على الحقيقة ، وهذا يبين فى بابه إن شاء الله تعالى .

الكناية

وكذلك الكناية فى مثل قوله عز وجل إخبارا عن عيسى ومريم عليهما السلام : (كانا يأكلان الطعام) كناية عما يكون عنه من حاجة الإنسان ، وقوله تعالى حكاية عن آدم وحَوّاء صلى الله عليهما : (فلما تَغَشّاها) كناية عن الجماع ، وقول النبى صلى الله عليه وسلم : « العين وِكَاء السَّهِ » وقوله لحادٍ كان يحدو به « إياك والقوارير » كناية عن النساء لضعف عزائمهن ، إلى أكثر من هذا .

٣٧ — باب الاستعارة

منزلة الاستعارة

الاستعارة أفضل المجاز ، وأول أبواب البديع ، وليس فى حِلَى الشعر أعجب منها ، وهى من محاسن الكلام إذا وقعت مَوْقِعَهَا ، ونزلت موضعها ،

والناس مختلفون فيها : منهم من يستعير للشيء ما ليس منه ولا إليه ، كقول لبيد :

وَغَدَاةِ رِيحٍ قَدْ وَزَعْتُ وَقِرَّةٍ   إذ أَصْبَحَتْ بيدِ الشَّمالِ زِمَامُها(١)

فاستعار للريح الشمال يداً ، وللغَدَاة زِماماً ، وجعل زمام الغداة ليد الشمال إذ كانت الغالبة عليها ، وليست اليد من الشمال ، ولا الزمام من الغداة . ومنهم من يخرجها مخرج التشبيه كما قال ذو الرمة:

أَقامَتْ بِهِ حَتَّى ذَوَى العُودُ والتَوَى   وَسَاقَ الثُّرَيَّا فى مُلاَءَتِهِ الفَجْرُ

فاستعار للفجر مُلاَءة ، وأخرج لفظه مخرج التشبيه .. . وكان أبو عمرو بن العَلاَء لا يرى أن لأحد مثل هذه العبارة ، ويقول : ألا ترى كيف صير له ملاءة، ولا ملاءة له ، وإنما استعار له هذه اللفظة ؟ وبعض المتعقبين يرى ما كان من نوع بيت ذى الرمة ناقص الاستعارة ؛ إذ كان محمولا على التشبيه ، ويفضل عليه ما كان من نوع بيت لبيد ، وهذا عندى خطأ ؛ لأنهم إنما يستحسنون الاستعارة القريبة ، وعلى ذلك مضى جِلَّة العلماء ، وبه أتت النصوص عنهم ، وإذا استعير للشيء ما يقرب منه ويليق به كان أَوْلى مما ليس منه فى شيء ، ولو كان البعيد أحسن استعارة من القريب لما استهجنوا قول أبى نُوَاس :

---

(١) وزعت : كففت ، ويروى « كشفت » يريد أنه وزع القر وكفه بإطعام الطعام وإيقاد النيران . وقوله « إذ أصبحت بيد الشمال زمامها » أى : إذ أصبحت الغداة الغالب عليها ريح الشمال وهى أبرد الرياح ، قال التبريزى « وجعل للرياح يدا وللغداة زماما » اهـ وقال الشيخ عبد القاهر : « ليس فى بيت لبيد شىء أكثر من أن يخيل إلى نفسك أن الشمال فى تصريف الغداة على حكم طبيعتها كالمدبر المصرف لما فى زمامه بيده ومقادته فى كفه ، وذلك كله لا يتعدى التخيل والتوهم » اهـ

من معيب الاستعارة

بُحَّ صَوْتُ المَـالِ مِمَّا مِنْكَ يَشْـكُو وَيَصِيحُ

وأى شىء أبعد استعارة من صوت المال ؟ فكيف حتى بُحَّ من الشكوى والصياح مع ما أن له صوتاً حين يوزن أو يوضع ؟ ولم يرده أبو نواس فيما أقَدِّرُ ؛ لأن معناه لا يتركب على لفظه إلا بعيداً ، وكذلك قول بشار :

وَجَذَّتْ رِقَابَ الوَصْلِ أَسْيَافُ هَجْرِها وقَدَّتْ لِرِجْلِ البَيْنِ نعلينِ من خَدِّى

فما أهْجَنَ « رجل البين » وأقبح استعارتها ! ! ولو كانت الفصاحة بأسرها فيها ، وكذلك « رقاب الوصل » ولا مثل قول ابن المعتز وهو أنقد النقاد :

* كلَّ وَقْتٍ يَبُول زُبُّ السَّحَابِ *

فهذا أردأ من كل ردىء ، وأمقت من كل مَقِيتٍ .

حدود مختلفة للاستعارة

قال القاضى الجرجانى : الاستعارة ما اكتفى فيها بالاسم المستعار عن الأصلى ، ونقلت العبارة فجعلت فى مكان غيرها ، وملاكها بقرب التشبيه ، ومناسبة المستعار للمستعار له ، وامتزاج اللفظ بالمعنى حتى لا يوجد بينهما منافرة ، ولا يتبين فى أحدهما إعراض عن الآخر

وقال قوم آخرون منهم أبو محمد الحسن بن على بن وكيع : خير الاستعارة ما بعد ، وعلم فى أول وَهْـلَة أنه مستعار ، فلم يدخله لبس ، وعاب على أبى الطيب قوله :

وقد مَدَّتِ الخيلُ العِتَاقُ عيونَهَا إلى وَقْتِ تبديلِ الركاب من النعل

إذ كانت الخيل لها عيون فى الحقيقة ، ورجح عليه قول أبى تمام :

سَاسَ الأُمُورَ سياسةَ ابن تَجَارِبٍ رَمَقَتْهُ عَيْنُ الملك وَهْوَ جَنِينُ

إذ كان الملك لا عَيْنَ له فى الحقيقة .

وقال أبو الفتح عثمان بن جنى : الاستعارة لا تكون إلا للمبالغة ، وإلا فهى حقيقة ، قاله فى شرح بيت أبى الطيب :

فَتًى يَملأُ الأفعالَ رَأْياً وحِكْمةً و بادرةً أحيانَ يَرْضَى وَيَغْضَبُ

وكلام ابن جِنى أيضاً حَسَنٌ فى موضعه ؛ لأن الشىء إذا أعطى وصف نفسه لم يسم استعارة ، فإذا أعطى وصف غيره سمى استعارة ، إلا أنه لا يجب للشاعر أن يبعد الاستعارة جداً حتى يتنافر ، ولا أن يقربها كثيراً حتى يحقق ، ولكن خير الأمور أوساطها .. قال كُثَيِّر يمدح عمر بن عبد العزيز واستعار حتى حقق :

وَقَدْ لَبِسَتْ لبسَ الْهَلُوكِ ثيابها وأبْدَتْ لك الدنيا بكف ومعصم

وترمق أحيانًا بعينٍ مريضةٍ وتَبْسِمُ عَنْ مثلِ الْجُمانِ الْمُنَظَّمِ

وحَسْبُك أنه وصف العين التى استعار بالمرض ، وشبه المبسم بالجمان ، وهذا إفراط غير جيد ههنا .

قال أبو الحسن الرمانى : الاستعارة استعمال العبارة على غير ما وضعت له فى أصل اللغة ، وذكر قول الحجاج « إنى أرى رُءوساً قَدْ أيْنعَتْ وَحانَ قِطَافُها » .

مما يجتنبه المحدثون الاستعارة

وقد يأتى القدماء من الاستعارات بأشياء يجتنبها المحدثون ، ويستهجنونها ، ويعافون أمثالها ظرفاً ولطافة ، وإن لم تكن فاسدة ولا مستحيلة . ؛ فمنها قول امرىء القيس :

وَهِرٌّ تَصِيدُ قلوبَ الرِّجَالِ وَأَفْلَتَ مِنْهَا ابْنُ عَمْرٍو حُجُر

فكان لفظة « هِر » واستعارة الصيد معها مضحكة هجينة ، ولو أن أباه حُجراً من فارات بيته ماأسِف على إفلاته منها هذا الأسَفَ ، وأين هذه الاستعارة من استعارة زهير حين قال يمدح :

ليثٌ بِعَثَّرَ يَصْطَادُ الرجالَ إذا مَا كَذَبَ اللَّيْثُ عَنْ أقرانِهِ صَدَقَا

لا على أن امرأ القيس أتى بالخطأ على جهته ، ولكن للكلام قرائن تحسنه ، وقرائن تقبحه ، كذكر الصيد فى هذين البيتين .

ولعل معترضاً يقول : العرب لا تعرف إلا الحقائق ، ولا تلتفت إلى كلام

السفلة ، فقد قدمت هذا فى أول كلامى ، وعرفت أنه لا يلزم ، ولكن يرغب عنه فى الواجب ، ألا ترى أن بعض الوزراء — وقيل : بل هو المأمون — غَيَّر المَسْلَحة[1] واستهجنها لما فيها فقال : قولوا المصلحة ، وليس ذلك لعلة إلا موافقة كلام السفلة .

وقال الرمانى : الاستعارة الحسنة ما أوجب بلاغة ، ببيان لا تنوب منابه الحقيقة ، كقول امرىء القيس : * قَيْدِ الأَوَابدِ[2] *

واسترذل قول بعض المولدين :

* اسْفِرِى لِى النقابَ ياضَرَّةَ الشمس *

بأن قال : أتراه ظن أن الضرة لا تكون إلا حسنة ؟! وإلا فأىُّ وجه لاختياره هذه الاستعارة .

ومثل قول امرىء القيس المتقدم ذكره فى القبح قولُ مسلم بن الوليد :

وليـلةٍ خُلِسَتْ للعينِ من سَنَةٍ هَتَكْتُ فيها الصبا عن بيضةِ الحجل

فاستعار للحجل — يعنى الكلل — بيضة ، كما استعارها امرؤ القيس للخدر فى قوله :

* وَبَيْضَةِ خِدْرٍ لا يُرامُ خباؤها[3] *

وكلاهما يعنى المرأة ، فاتفق لمسلم سوء الاشتراكِ فى اللفظ ؛ لأن بيضة الحجل من الطير تشاركها ، وهى لعمرى حسنة المنظر كما عرفت . . وقال فى موضع آخر :

---

(١) المسلحة : موضع السلاح ، وهى أيضا الثغر أى الموضع الذى يخاف أن يأتى منه العدو . وإنما كره لفظها لأنه يأتى من السلاح — بضم السين — وهو التعوط

(٢) ذلك فى قوله من المعلقة :

وقد أغتدى والطير فى وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل

(٣) تمامه : * تمتعت من لهو بها غير معجل *

رُمْتُ السُّلُوَّ وناجانى الضميرُ به   فاستعطفتنى على بيضاتها الحَجَلُ

فما الذى أعجبه من هذه الاستعارة قبحها الله !!؟ ولو قال «الـكلل» لتخلَّصَ وأبدع فـكان تبعاً لامرىء القيس فى جودة هذه الاستعارة . .

وقال حبيب على بصره بهذا النوع :

* والله مفتاحُ باب المعقِلِ الأشِبِ *

فجعل الله تعالى اسمه مفتاحاً ، وأىُّ طائل فى هذه الاستعارة مع ما فيها من البشاعة والشناعة !!؟ و إن كنا نعلم أنما أراد أمر الله وقضاءه .

واعترض بعض الناس على قول أبى تمام :

للجودِ بابٌ فى الأنام ولم تزل   مُذْ كنتَ مفتاحاً لِذَاكَ البابِ

بحضرة بعض أصحابنا ، وقال : أتى إلى ممدوحه فجعله مفتاحاً ، فهلا قال كما قال ابن الرومى :

قَبِّلْ أنامله فَلَسْنَ أناملا   لـكِنَّهُنَّ مَفَاتحُ الأرزاق

فقال له الآخر : عجبت منك تعيب أن يجعل ممدوحه مفتاحاً وقد جعل ر به كذلك ، وأنشد البيت المتقدم عجزه .

وقال فى ممدوح ذكر أنه يعطيه مرة و يشفع له أخرى إلى من يعطيه :

فإذا ما أردتَ كنتَ رشاءً   و إذا ما أردتَ كنتَ قَلِيباً

فجعله مرة حبلا ومرة بئرا .. وقال الآخر هو أبو تمام :

ضاحى المحيا للهجيرِ وللقنا   تحتَ العجاج تخاله محراثاً

فلعنة الله على المحراث ههنا ، ما أقبحه وأركَّهُ ! !! وأين هذا كله من قوله المليح البديع :

أو ما رأت بردىَّ من نَسْجِ الصبا   ورأت خضابَ الله وهو خضابى

وإن كان إنما أخذه من قول الله عز وجل : (صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ من اللهِ صِبغة) قالوا : يريد الختان ، وقيل : الفطرة .

السر في استعارتهم لفظ الشيء لغيره

والاستعارة إنما هي من اتساعهم في الكلام اقتداراً ودالة ، ليس ضرورة ؛ لأن ألفاظ العرب أكثر من معانيهم ، وليس ذلك في لغة أحد من الأمم غيرهم ، فإنما استعاروا مجازاً واتساعاً . ألا ترى أن للشيء عندهم أسماء كثيرة وهم يستعيرون له مع ذلك ؟ على أنا نجد أيضاً اللفظة الواحدة يُعَبر بها عن معانٍ كثيرة ، نحو « العين » التي تكون جارحة ، وتكون الماء ، وتكون الميزان ، وتكون المطر الدائم الغزير ، وتكون نَفْسَ الشيء وذاته ، وتكون الدينار ، وما أشبه ذلك كثير ، وليس هذا من ضيق اللفظ عليهم ، ولكنه من الرغبة في الاختصار ، والثقة بفهم بعضهم عن بعض . ألا ترى أن كل واحد من هذه التي ذكرنا له اسمٌ غيرُ العينِ أو أسماء كثيرة ؟

أمثلة من الاستعارة المختارة

ومما اختاره ابن الأعرابي وغيره قول أرْطَاة بن سُهَيَّة .

فقلتُ لها يا أمَّ بيضاء[1] إننى هُرِيقَ شبابى واستشنَّ أديمى

فقال * هريق شبابى * لما في الشباب من الرونق والطراوة التي هي كالماء ، ثم قال * استشن أديمى * لأن الشَّنَّ هو القربة اليابسة ؛ فكأن أديمه صار شناً لما هريق ماء شبابه ؛ فصحت له الاستعارة من كل وجه ولم تبعد .

ومثل ذلك في الجودة ما اختاره ثعلب وفضله بجماعة ممن قبله ، وهو قول طُفَيل الغَنَوِى :

فوضعتُ رحلى فوقَ ناجيةٍ يَقْتَاتُ شَحْمَ سَنامِها الرَّحْلُ[2]

---

(١) في نسخة « ياأم عمران »

(٢) الناجية : الناقة السريعة ، والرحل : ما يقتعد عليه الراكب ، يريد أن الرحل فوقها دائما ـ كناية عن طول ما يسافر عليها ـ فينتقص شحم سنامها.

فجعل شحم سنامها قوتاً للرحـل ، وهذه استعارة كما تراها كأنها الحقيقة لتمكنها وقربها ، وقد تناولها جماعة منهم كُلْثوم بن عمرو العَتّابى : قال فى قصيدة يعتذر فيها إلى الرشيد :

ومن فوق أكوار المهارِى(١) لُبانة　　أحلّ لها أكْلَ الذرى والغوارب

ثم أتى أبو تمام وعَوّل على العَتّابى وزاد المعنى زيادة لطيفة بينة فقال :

وقد أكلوا منها الغَوارب بالسُّرَى　　فصارت لها أشباحُهُمْ كالغوارب

وكان ابن المعتز يفضل ذا الرمة كثيراً ، ويقدمه بحسن الاستعارة والتشبيه ، لاسيما بقوله :

فلما رَأيتُ الليلَ والشمسُ حَيَّة　　حَيَاةَ الذى يقضى حُشَاشَة نازع

لأن قوله * والشمس حية * من بديع الكلام والاستعارة ، وباقى البيت من عجيب التشبيه . واختار الحاتمى فى باب الاستعارة فى وصف سحائب — وأظنه لابن مَيّادة ، واسمه الرَّمّاح بن أبْرَدَ من بنى مرة ، وميادة أمه :

إذا ما هَبَطْنَ القاعَ قد مات بَقْلُه　　بكَيْنَ به حتى يعيش هشيم

ورواه قوم لأبى كبير ، وابن ميادة أولى به وأشبه .

أمثله من الاستعارة فى القرآن والحديث

والاستعارة كثيرة فى كتاب الله عز وجل وكلام نبيه صلى الله عليه وسلم : من ذلك قوله تعالى : (لما طغَى الماءُ) وقوله : (فلما سَكتَ عن موسى الغضب) وقوله : (سمعوا لها شهيقاً وهىَ تفورُ، تكادُ تميزُ من الغيظ) ، فالشهيق والغيظ استعارتان ، وقوله تعالى : (ياأرضُ ابْلَعِى ماءكِ) وكثير من هذا لو تقصى لطال جداً . وقول النبى صلى الله عليه وسلم : « الدنيا حُلْوَة خَضِرة » ، وقوله لحالب حلب ناقة : «دَعْ داعى اللبن» يعنى بقيةً من اللبن فى الحلب ، وقوله :«تمسحوا

---

(١) فى نسخة « المطايا »

بالأرض فإنها بكم برة » . قال أبو عبيد : يريد أنها منها خَلْقهم ، ومنها مَعَادهم ، وهى بعد الموت : كِفَاتُهُم[١] وقوله : « رب تقبل تَوْبَتى ، واغسِلْ حَوْبَتِى » فغسل الحوبة استعارة مليحة .

ومن أناشيد هذا الباب — وهو فيما زعم ابن وكيع أول استعارة وقعت — قولُ امرىء القيس يصف الليل :

وَلَيْلٍ كموج البحرِ أَرْخَى سُدُولَه ... علىَّ بأنواعِ الهموم ليبتلى
فقلت له لما تمطَّى بجَوْزِهِ[٢] ... وأردف أعجازاً وناءَ بكلكل

فاستعار لليل سدولا يرخيها ، وهو الستور ، وصُلْباً يتمطى به ، وأعجازاً يردفها ، وكلكلا ينوء به ، وقال حسان بن ثابت يذكر قتلة عثمان رحمة الله عليه :

ضَحَّوْا بأشمطَ عنوانُ السجود به ... يُقَطِّعُ اللَّيْلَ تسبيحاً وقرآنا

فالاستعارة قوله * عُنْوَانُ السجود به * وقد أخذه من قول الله تعالى : (سِيمَاهُمْ فى وجوههم من أثر السجود) وقال جميل العذرى :

أكلما بانَ حىٌّ لا تلاؤُمهم ... ولا يبالون أن يَشْتَاق مَنْ فَجَعُوا
علقتنى بهوى منهم ، فقد جَعَلَتْ ... من الفراق حَصَاةُ القلب تنصدع

البديع « حَصَاة القلب » . ومن كلام المولدين قولُ أبى نواس :

بصَحْنِ خد لم يغض ماؤه ... ولم تخضهُ أعين الناس

البديع كل البديع عجز البيت . وقال أيضاً :

فإذا بدا اقتادَتْ محاسنُه ... قَسْراً إليه أعِنَّةَ الحَدَق

---

(١) الكفات — بكسر الكاف — الموضع يضم فيه الشيء ويجمع .

(٢) فى إحدى روايات المعلقة * فقلت له لما تمطى بصلبه * وهى رواية الخطيب والأعلم ، والذى رواه المؤلف رواية الأصمعى ، والمعنى لما تمدد بوسطه .

البديع « أعنة الحدق » وقوله «اقتادت» . وقال أبو الطيب :

ضممتَ جناحيهم على القلب ضمة تموت الخوافي تحتها والقَوادم

أراد بالجناحين مَيْمنة العسكر ومَيْسرته ، و بالقلب موضع الملك ، و بالخوافي والقوادم السيوف والرماح ، وهذا تصنيع بديع ، كله حسن الاستعارات.. وقال :

صدمْتَهُمْ بِخَميسٍ أنت غُرّته وسمهريته في وجهه شَمَمُ

وهذا كالأول جودة .. وقال السري الموصلي :

يشق جيوب الورد في شَجَراته نسيمٌ متى ينظر إلى الماء يبرد

فالبديع قوله « متى ينظر » .

(٣٨) — باب التمثيل

ومن ضروب الاستعارة التمثيل ، وهو المماثلة عند بعضهم ، وذلك أن تمثل شيئا بشيء فيه إشارة[١] ، نحو قول امرىء القيس وهو أول من ابتكره ، ولم يأت أملح منه :

حد التمثيل وأول من ابتكره

وَمَا ذَرَفَتْ عَيْنَاكِ إلا لتقدحي بِسَهْمَيْكِ في أعشَارِ قَلْبٍ مُقَتَّلِ[٢]

فمثل عينيها بسَهْمَي الميسر — يعني المُعَلَّى ، وله سبعة أنصباء ، والرقيب ، وله ثلاثة أنصباء — فصار جميع أعشار قلبه للسهمين اللذين مثل بهما عينيها ، ومَثَّلَ قلبه بأعشار الجزور ؛ فتمت له جهات الاستعارة والتمثيل .

وقال حريث بن زيد الخيل :

أَبَانَا[٣] بقتلانا مِنَ القَوْمِ عُصْبَةً كِراما، ولم نَأْكل بهم حَشَفَ النَّخْلِ

---

(١) كذا ، وربما كان صوابها « فيه استعارة » ويؤيده قوله في آخر تعليقه على بيت امرىء القيس « فتمت له جهات الاستعارة والتمثل »

(٢) ذرفت : دمعت ، إلا لتقدحي : يروى في مكانه « إلا لتضربي » في أعشار قلب : أي في قلب معتشر ، أي : مكسر ، مقتل ، مذلل ، منقاد ، يقول : ما بكيت إلا لتجرحي قلبا قد ذلله العشق .

(٣) في الأصول « أفأنا » .

فمثل خساس الناس بحشف النخل ، ويجوز أن يريد أخذ الدية فيكون حينئذ حذفا أو إشارة . . وقال الأخطل لنابغة بنى جعدة :

لَقَدْ جَازَى أبو لَيْلَى بقحم ... وَمُنْتَكِثٍ عَنِ التَّقْرِيبِ وَانِ
إذَا هَبَطَ الْخَبَارَ كَبَا لِفِيهِ ... وَخَرَّ على الجحافل وَالْجِرَانِ

وإنما عيره بالكبر ، وإنما هو شاب حديث السن . . وقال بعض الرواة : إنما تهاجيا فى مُسَابقة فرسين ، وهو غلط عند الحذاق .

ومن التمثيل أيضا قوله :

فَنَحْنُ أَخٌ لم تَلْقَ فى النَّاسِ مِثْلَنَا ... أَخَا حِينَ شَابَ الدَّهْرُ وَابْيَضَّ حَاجِبُهْ

ومعنى التمثيل اختصار قولك مثل كذا وكذا كذا وكذا . . .

وقال أبو خِرَاش فى قصيدة رثى بها زهير بن عجردة ، وقد قتله جميل بن معمر يوم حنين مأسوراً :

فَلَيْسَ كَعَهْدِ الدَّارِ يا أُمَّ مَالِكٍ ... وَلَكِنْ أَحَاطَتْ بالرِّقَابِ السَّلَاسِلُ

يقول : نحن من عهد الإسلام فى مثل السلاسل ، وإلا فكنا نقتل قاتله ، وهو من قول الله عز وجل فى بنى إسرائيل (وَيَضَعُ عنهم إصْرَهُمْ والأغلال التى كانت عليهم) يريد بذلك الفرائض المانعة لهم من أشياء رَخَّصَ فيها لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وإلى نحو ذلك ذهب عمرو بن معدى كرب حين خَفَقَهُ عمر رضى الله عنه بالدِّرَّة ، فقال له : الْحمى أَضْرَعَتْنِى لك ، يعنى الدين ، وإن كان المثل قديما إنما [هو] الحمى أضرعتنى للنوم .

ومن جيد التمثيل قول ضُبَاعَة بنت قُرْط ترثى زوجها هشام بن المغيرة المخزومى :

إنَّ أبا عثمان لم أنسه ... وإنَّ صَمْتًا عن بكاه لَحُوبْ
تفاقدوا من معشر ! ما لهم ... أىَّ ذَنُوبٍ صوبوا فى القليب؟

ومن كلام النبى صلى الله عليه وسلم فى التمثيل قوله : « الصوم فى الشتاء الغنيمةُ الباردةُ » وقوله : « ظَهْرُ المؤمن مِشْجَبُه ، وخزانته بطنه ، وراحلته رجله،

وذخيرته ربه » وقوله : « المؤمن فى الدنيا ضيف ، وما فى يديه عارية ، والضيف مرتحل ، والعارية مُؤَدَّاة ، ونعم الصهر القبر » .

ومن مليح أناشيد التمثيل قول ابن مُقْبل :

إنى أُقَيِّد بالمأثور راحلتى ولا أبالى و إن كنا على سفر

فقوله * أقيد بالمأثور * تمثيل بديع ، والمأثور هو السيف الذى فيه أثرٌ ، وهو الفرند ، وقوله * ولا أبالى * حشو مليح ، أفاد مبالغة عجيبة ، وقوله * و إن كنا على سفر * زيادة فى المبالغة ، وهذا النوع يسمى إيغالا ، و بعضهم يسميه التبليغ ، وهو يرد فى مكانه من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى . الإيغال (أو التبليغ)

ومما اختاره عبد الكريم وقدمه قولُ ابن أبى ربيعة :

أَيُّهَا الْمُنْكِحُ الثُّرَيَّا سُهَيْلاً عمرَكَ اللهَ كيف يلتقيان!!؟
هى شاميَّة إذا ما استقلَّتْ وسهيلٌ إذا استقلَّ يمانى

يعنى الثريا بنت على بن عبد الله بن الحارث بن أمية الأصغر ، وكانت نهاية فى الحسن والكمال ، وسهيل بن عبد الرحمن بن عوف ، وكان غاية فى القبح والدَّمامة . فمثل بينهما و بين سميهما ، ولم يرد إلا بُعْدَ ما بينهما وتفاوته خاصة ، لا أن سهيلا اليمانى قبيح ولا دميم ، ولا أدرى هل هذا الرأى موافق لرأى عبد الكريم أم لا ؟ وحسبك أن الشاعر لم ينكر إلا التقاءهما .

وقال أبوالطيب وذكر نزاراً :

فأقرحت المقاودُ ذِفْرَيَيْهَا وصَعَّرَ خدها هذا العذار

ووصف رمحاً فقال ، وهو مليح متمكن جداً :

يغادر كلَّ ملتفتٍ إليه ولبته لثعلبه وِجارُ

وقال يخاطب سيف الدولة :

بنو كعب وما أثَّرْتَ فيهم يَدٌ لم يُدْمِهَا إلاَّ السِّوَارُ

بها من قطعها ألمٌ وَنَقْصٌ وفيها من جلالتها افتخار

الفرق بين الاستعارة والتشبيه والتمثيل

والتمثيل والاستعارة من التشبيه ، إلا أنهما بغير أداته ، وعلى غـير أسلوبه ، والمثل المضروب فى الشعر نحو قول طرفة :

سَتُبْدِى لكَ الأيام ما كُنْتَ جَاهِلاً ويأتيك بالأخبار من لم تُزَوِّدِ

راجع إلى ما ذكرته ؛ لأن معناه ستبدى لك الأيام كما أبدت لغيرك ويأتيك بالأخبار من لم تزود كما جرت عادة الزمان . . وتسمية المثل دالة على ما قلته ؛ لأن المثَلَ والمِثْلَ الشبيه والنظير ، وقيل : إنما سمى مثلا لأنه ماثل لخاطر الإنسان أبداً ، يتأسَّى به ، ويعظ ويأمر ويزجر ، والماثل : الشاخص المنتصب ، من قولهم «طَلَل ماثل» أى : شاخص ، فإذا قيل «رسم ماثل» فهو الدارس ، والماثل من الأضداد . . وقال مجاهد فى قول الله عز وجل (وقد خلت من قبلهم المَثُلَاتُ) : هى الأمثال . وقال قتادة : هى العقوبات . وقال قوم : إنما معنى المثل المثال الذى يُحْذَى عليه ، كأنه جعله مقياساً لغيره ، وهو راجع إلى ما قدمت . وقال بعضهم : فى المثل ثلاث خلال : إيجاز اللفظ ، وإصابة المعنى ، وحسن التشبيه ، وقد يكون المثل بمعنى الصفة ، من ذلك قول الله تعالى : (مثل الجنة التى وُعِدَ المتقون) أى : صفة الجنة ، وقوله : (وله المثل الأعلى فى السموات والأرض) أى : الصفة العليا ، وهى قولنا « لا إلٰهَ إلا الله » وقوله تعالى : (ذلك مثلهم فى التوراة ، ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شَطْأَه) أى : صفتهم .

(٣٩) — باب المثل السائر

أفضل المثل

المثل السائر فى كلام العرب كثير نظماً ونثراً ، وأفضله أوْجَزُه ، وأحكمه أصدقه ، وقولهم «مَثَلٌ شَرُودٌ وشارِدٌ» أى سائر لا يُرَدُّ كالجمل الصَّعْب الشارد الذى لا يكاد يعرض له ولا يرد . وزعم قوم أن الشرودَ مالم يكن له نظير كالشاذ والنادر ، فأما قول أبى تمام وكان إمام الصنعة ورئيسها :

لاَ تُنْـكِرُوا ضَرْبِي لهُ مَنْ دُونَهُ مَثَلاً شَرُوداً فى النَّدَى والْبَاسِ

حين عيب عليه قوله فى ابن المعتصم :

إِقْدَامُ عَمْرٍو فى سَمَاحَةِ حاتم فى حلم أَحْنَفَ فى ذَكَاء إِيَاسِ

فإنه يشهد للقول الأول ؛ لأن المثل بعمرو وحاتم مضروبٌ قديماً ، وليس بمثل لا نظير له كما زعم الآخر . ه

الأمثال الطوال والقصار

وقد تأتى الأمثال الطوال محكمة إذا تولاها الفصحاء من النـــاس ، فأما ما كان منها فى القرآن فقد ضمن الإعجاز ، قال الله عز وجل : (كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً ، وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت) وقال : (فمثله كمثل الـكلب : إن تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث) وقال : (كمثل الحمار يحمل أسفاراً) فهذه أمثال قصار . . وقال : (إن الله لا يستحيى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها) ومن الأمثال الطوال قوله تعالى : (ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط) الآية (وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون) الآية (ومريم ابنة عمران) الآية ، وقال : (فمثله كمثل صَفْوَانٍ عليه تراب) الآية ، وقال (والذين كفروا بربهم أعمالهم كسَرَاب بِقِيعة يحسبه الظمآن ماء ، حتى إذا جاءهلم يجده شيئاً) الآية ، ثم قال : (أو كظلمات فى بحر لجى) الآية . . ومن كلام النبى صلى الله عليه وسلم فى الأمثال قوله : « كلُّ الصيد فى جوف الفَرَا » قاله لأبى سفيان بن حرب حين أسلم ، وقوله : «مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع تميلها الريح مرة هكذا ومرة هكذا ، ومثل المنافق مثل الأَرْزَةِ الْمُجْذِيَةِ[1]

(١) فى المصريتين « الأرزة المحرية » وفى التونسية « المجدية » وكل هذا تصحيف ، وإنما هو « مثل الأرزة المجذية » كما أثبتناه ، قال ابن الأثير : « الأرزة بسكون الراء وفتحها – شجرة الأرزن وهو حشب معروف ،وقيل : هو الصنوبر، وقال فى بعضهم . هى الآرزة – بوزن فاعلة – وأنكرها أبو عبيد » اه ، وقال فى موضع آخر : « المجذية : هى الثابتة المنتصبة ، يقال : جذت تجذو ، وأجذت تجذى » اه

على الأرض حتى يكون انجعافها مرة » وقوله حين ذكر الدنيا وزينتها فقال : «وإن مما ينبت الربيع ما يقتل حَبَطاً أو يُلِمّ » وقوله : «وإياكم وخَضْرَاءَ الدِّمَنِ » قيل : وما خضراء الدمن ؟ قال : « المرأة الحسناء فى المَنْبِتِ السوء »

والأناشيد فى هذا الباب كثيرة : فمنها ما فيه مثل واحد ، ومنها ما فيه مثلان ، ومنها ما فيه ثلاثة أمثال ، ومنها ما فيه أربعة أمثال ، وهو قليل جداً ، وكل نوع من هذه الأنواع فيه احتياج واستغناء .

لم نظم المثل ؟

والمثل إنما وزن فى الشعر ليكون أشْرَدَله ، وأخف للنطق به ، فمتى لم يتزن كان الإتيان به قريباً من تركه .. وقد حكى الحاتمى أشياء لا أدرى كيف وجهها، وزعم أن حمادا الراوية سئل : بأى شىء فضل النابغة ؟ فقال : إن النابغة إن تمثلت ببيت من شعره اكتفيت به ، مثل قوله :

حَلَفْتُ فلمْ أتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيبَةً وَلَيْسَ وَرَاء اللهِ لِلْمَرْءِ مَذْهَبُ

بل لو تمثلت بنصف بيت من شعره اكتفيت به ، وهو قوله * وليس وراء الله للمرء مذهب * بل لو تمثلت بربع بيت من شعره اكتفيت به ، وهو قوله * أى الرجال المهذب ؟ *(١) ولا أعرف كيف يجعل حماد هذا ربع بيت وفيه زيادة سببين وهما أربعة أحرف ؟ إلا أن يُرِيد التقريب ، فهذا من الاحتياج الذى ذكرته ؛ لأنه لا يتمثل به على أنه شعر إلا احتاج إلى ما قبله واستغنى ما قبله عنه ، ألا ترى [أنه] لو قال * ولست بمستبق أخاً لا تلمه * أنه يكون مثلا كافياً ، ثم لا يتعلق قوله * على شَعَثٍ * بشىء من المثل الثانى وإن بقى موزوناً ، فإذا رده على الصدر تعلق به و بقى المثل الثانى مكسوراً .

ومثله قول القَطَامى ، واسمه عُمَيْر بن شُيَيم التغلبى :

---

(١) البيت بتمامه هو قوله :

ولست بمستبق أخا لا تلمه على شعث ، أى الرجال المهذب ؟

وستقف على هذا البيت مفرقا فى كلام المؤلف .

وَالنَّاسُ مَنْ يَلْقَ خيراً قائِلُونَ لهُ ما يَشْتهِى ، وَلأُمِّ المُخْطِىء الهَبَلُ

فقوله * ولأم المخطِىء الهَبَلُ * مثل ، إلا أنه غير موزون حتى يتصل بقوله * ما يشتهى * وذلك من تمام المثل الأول الذى فى صدر البيت ، وهذا كله احتياج

ومما لا احتياج فيه قول امرىء القيس :

اللهُ أَنْجَحَ ما طَلَبْتَ به وَالْبِرُّ خَيْرُ حَقِيبةِ الرَّحْلِ

فى كل قسيم من هذين مثل قائم بنفسه ، غير محتاج إلى صاحبه . .

وكذلك قول الحطيئة:

مَن يَفْعَلِ الخيْرَ لاَ يَعْدِمْ جَوَازِيَه لا يَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللهِ والناسِ

وقال عَبيد بن الأبرص الأسدى :

الخير يَبقى و إن طال الزمان به والشَّرُّ أخبثُ ما أَوْعَيْتَ من زاد

ومما فيه مثل واحد قول عنترة العبسى :

نُبِّئْتُ عَمْراً غير شاكر نعمتى وَالْكُفْرُ مَخْبَثَة لنفس المنعم

فجاء بالمثل غير محتاج إلى ماقبله . . وقال أبو ذؤيب :

تركُوا هَوَىَّ وأَعْنَقُوا لهواهُمُ فَتَخَرَّمُوا، ولِكُلِّ جَنْبٍ مَصْرَعُ

فإن بدأت بالقسيم الثانى كان مثلا سائراً ، و إن أسقطت جزأ منه بقى المثل سائراً غير موزون ، إلا أن يكون فى المرفوع من الأمثال مُصْمَت يأتى فى البيت بأسْرِهِ كقول الأول :

وَإِنَّكَ لَنْ تَرَى طَرْداً لِحُرٍّ كَإِلْصَاقٍ به طَرَفَ الْهَوَانِ

وقول أبى نواس :

إذَا امْتَحَنَ الدُّنْيا لَبِيبٌ تَكَشَّفَتْ لهُ عَنْ عَدُوٍّ فِي ثِيَاب صَـدِيقِ

ومما فيه ثلاثة أمثال قول زهير :

وفى الحلم إِدْعَانٌ ، وفى العفو دُرْبَةٌ ، وفى الصدق منجاة من الشر فَاصْدُقِ

فأتى بكل مثلٍ فى ربع بيت ، ثم جعل الربع الآخر زيادة فى شرح معنى ماقبله . وكذلك قول النابغة الذبيانى :

الرفق يُمْنٌ ، وَالأناة سَلامة فاستأنِ فى رفقٍ تُلاقِ نجاحاً

فجاء بثلاثة أمثال إلا أنهـــا مُدَاخلة لم تسلم سلامة ما قبلها من كلام زهير .
وقال ابن عبد القدوس :

كُلُّ آتٍ لاَ بد آتٍ ، وَذُو الجهـــلِ مُعَنًّى ، والغم والحزن فَضْلُ

فأتى بثلاثة أمثال مداخلة الوزن أيضاً ، وكان قول ضابىء بن الحارث :

وفى الشك تفريط ، وفى الحزم قوة ، ويخطىء فى الحَدْسِ الفَتى وَيُصيبُ

أحسن تعـــديلا فى القسمة ؛ لأن شطره الأول مشتمل على مثلين ، وَشطره الثانى مشتمل على مثل قائم بنفسه . وقال عبد الله بن المعتز :

والعيش هر ، والموت مر مستكره ، والمُنَى ضَلاَل
والحرص ذل ، والبُخْل فقد وآفة النـــائل المِطَال

ففى البيت الأول ثلاثة أمثال فى أحدها احتياج ، وفى البيت الثانى ثلاثة أمثال لا احتياج فيها على حَذْو ما أتى به ضابىء ، ولم أر بيتـــاً فيه أربعة أمثال كل واحد منها قائم بنفسه إلا قليلا ، أنشد الأصمعى :

فالهمُّ فَضْلٌ ، وطول العيش منقطعٌ ، والرزق آتٍ ، وَرَوْحُ الله منتظر

وقال أبو الطيب وحكم عليه الوزن أيضا :

والمرء يأملُ ، والحياة شهية ، والشيبُ أوقر ، والشبيبة أنْزَقُ

فأتى بمثلين فى كل قسيم ، وصنعت أنا :

كلٌّ إلى أجلٍ ، والدهرُ ذو دُوَل والحرص مخيبة ، والرزقُ مقسوم

وأقل من ذلك ما كان فيه خمسة أمثال ، ولا أعرف منه فى حفظى إلا بيتاً

واحداً للقزاز السناط فى بسط قصيدة مدح بها الأمير تميم بن [المعز] معد ، وهو قوله :

خَاطِرْ تُفِدْ،وَارْتَدْ تَجِدْ،وَاكْرُمْ تَسُدْ وَانْقُدْ تَقُدْ ، واصغر تُعَدَّ الأَكبَرَا

وأما ما فيه ستة فإنى صنعت :

خُذِ العَفْوَ ، وَأْبَ الضَّيْمَ ، واجتنبِ الأذى
وَأَغْضِ تَسُدْ ، وَارْفُقْ تَنَلْ ، وَاسْخُ تُحْمَدِ

ومن الأمثال أيضا كلمات سارت على وجـه الدهر : كقولهم « تسمع بالمعيدى خـير من أن تراه » يضرب مثلا للذى رؤيته دون السماع به ، وفى كل ما جرى هـذا المجرى ، وكذلك قولهم : « عَلَى أهلها جَنَتْ بَرَاقش » يضرب مثلا للرجل يهلك قومه بسببه . وأما قولهم فى تفسير ما يقع فى الشعر من جنس قول الحطيئة :

* شَدُّوا العِنَاجَ وشَدُّوا فَوْقَهُ الكَرَبا *

هو مثل ؛ فإنما ذلك مجاز ، أرادوا التمثيل.

وهذه الأشياء فى الشعر إنما هى نبذ تستحسن ، ونـكت تستظرف ، مع القلة ، وفى الندرة ، فأما إذا كثرت فهى دالة على الـكلفة ، فلا يجب للشعر أن يكون مثلا كله وحكمة كشعر صالح بن عبد القدوس ؛ فقد قَعَدَ به عن أصحابه وهو يقدمهم فى الصناعة لإكثاره من ذلك ، وما نصّ عليه العلماء فى كتبهم ، وكذلك لا يجب أن يكون استعارة وبديعاً كشعر أبى تمام ؛ فقد رأيت ما صنع به ابن المعتز ، وكيف قال فيه ابن قتيبة ، وما ألف عليـه المتعقبون كالجُرجانى وأبى القاسم بن بشر الآمدى وغيرهما ، وإنما هرب الحذاق عن هذه الأشياء ؛ لما تدعو إليه من التكلف لا سيما إن كان فى الطبع أيسر شىء من الضعف والتخلف . وأشد ما تكلمه الشاعر صعوبة التشبيه ؛ لما يحتاج إليه من شاهد العقل واقتضاء العيان . ولا ينبغى للشعر

أن يكون أيضاً خالياً مغسولا من هذه الحِلَى فارغاً ككثير من شعر أشْجَعَ وأشباهه من هؤلاء المطبوعين جملة ، مع أنه لا بد لكل شاعر من طريقة تغلب عليه فينقاد إليها طبعه ، ويسهل عليه تناولها : كأبى نُوَاس فى الخمر ، وأبى تمام فى التصنيع ، والبحترى فى الطَّيْف ، وابن المعتز فى التشبيه ، وديك الجن فى المراثى ، والصَّنَوْبرى فى ذكر النور والطير ، وأبى الطيب فى الأمثال وذم الزمان وأهله . وأما ابن الرومى فأولى الناس باسم شاعر ؛ لكثرة اختراعه ، وحسن افتتانه ، وقد غلب عليه الهجاء حتى شهر به ؛ فصار يقال : أهجى من ابن الرومى ، ومَنْ أكثر من شىء عُرِفَ به ، وليس هجاء ابن الرومى بأجْوَدَ من مدحه ولا أكثر . ولكن قليل الشر كثير .

ما اشتهر به جماعة من المحدثين

(٤٠) — باب التشبيه

حد التشبيه

التشبيه : صفة الشىء بما قاربه وشاكله ، من جهة واحدة أو جهات كثيرة لا من جميع جهاته ؛ لأنه لو ناسبه مناسبة كلية لكان إياه ، ألا ترى أن قولهم « خَدٌّ كالورد » إنما أرادوا حمرة أوراق الورد وطراوتها ، لا ما سوى ذلك من صُفْرة وسطه وخضرة كمائمه ، وكذلك قولهم « فلان كالبحر ، وكالليث » إنما يريدون كالبحر سَمَاحة وعلماً ، وكالليث شَجَاعة وقرما ، وليس يريدون ملوحة البحر وزعوقته ، ولا شَتَامة الليث وزهومته ؛ فوقوع التشبيه إنما هو أبداً على الأعراض لا على الجواهر ؛ لأن الجواهر فى الأصل كلها واحد ، اختلفت أنواعها أو اتفقت ؛ فقد يشبهون الشىء بسميه ونظيره من غير جنسه ، كقولهم « عين كعين المَهَاة ، وجِيدٌ كجيد الرِّيمِ » فاسم العين واقع على هذه الجارحة من الإنسان والمَهَاة ، واسم الجيد واقع على هذا العضو من الإنسان والريم ، والكاف للمقاربة ، وإنما يريدون أن هذه العين لكثرة سوادها قاربت أن تكون سوداء كلها كعين المَهَاة ، وأن هذا الجيد لانتصابه وطوله كجيد الريم ، ألا ترى أن الأصمعى

سئل عن الحَوَرِ فقال : أن تكون العين سوداء كلها كعيون الظباء والبقر ، ولا حور فى الإنسان ، هــذا أحد أقوال الأصمعى فى الحور ، ويدلك على أن التشبيه إنما هو بالمقاربة كما قلنا .

فائدة التشبيه

والتشبيه والاســتعارة جميعاً يُخرِجان الأغمض إلى الأوضح ، ويقربان البعيد ، كما شرط الرمانى فى كتابه ، وهما عنــده فى باب الاختصار .

أنوع التشبيه

قال : واعلم أن التشبيه على ضربين : تشبيه حسن ، وتشبيه قبيح ؛ فالتشبيه الحسن هو الذى يخرج الأغمض إلى الأوضح فيفيد بيانًا ، والتشبيه القبيح ما كان على خلاف ذلك ، قال : وشرح ذلك أن ما تقع عليــه الحاسة أوضح فى الجملة مما لا تقع عليه الحاسة ، والمشاهد أوضح من الغائب ؛ فالأول فى العقل أوضح من الثانى ، والثالث أوضح من الرابع ، وما يدركه الإنسان من نفسه أوضح مما يعرفه من غيره ، والقريب أوضح من البعيد فى الجملة ، وما قد ألف أوضح مما لم يؤلف ؛ ثم عاب على بعض شعراء عصره :

صُدْغُهُ ضِدٌّ خَدِّهِ مِثْلُ ما الْوَعْــــدُ ــ إذا مااعتبرت ــ ضدٌّ الوعيد

من قبل أنه شبه الأوضح بالأغمض ، وما تقع عليه الحاسة بما لا تقع عليه ، وكذلك قوله :

وَلَهُ غُرَّةٌ كَلَوْنِ وِصَالٍ فَوْقَهَا طُرَّةٌ كَلَوْنِ صُدُودِ

وقال فى موضع آخر : التشبيه على ضربين والأصل واحد : فأحدها التقدير ، والآخر التحقيق ؛ فالذى يأتى على التقدير التشبيه من وجه واحد دون وجه ، والذى يأتى على التحقيق التشبيه على الإطلاق ، وهو التشبيه بالنفس ، مثل تشبيه الغراب بالغراب ، وحجر الذهب بحجر الذهب إذا كان مثله سواء ، وحمرة الشقائق بحمرة الشقائق .

قال صاحب الــكتاب : أما ما شَرَطَ فى التشبيه فهو الحق الذى لا يدفع ،

لا أنه قد حمل على الشاعر فيما أخذ عليه ؛ إذ كان قصد الشاعر أن يشبه ما يقوم فى النفس دليله بأكثر مما هو عليه فى الحقيقة ، كأنه أراد المبالغة ، ولعله يقول أو يقول المحتج له : معرفة النفس والمعقول أعظم من إدراك الحاسة ، لاسيما وقد جاء مثل هذا فى القرآن وفى الشعر الفصيح : قال الله عز وجل : (طلعها كأنه رءوس الشياطين) فقال قوم : إن شجرة الزقوم ـ وهى أيضاً الأستن(١) ـ لها صورة منكرة وثمرة قبيحة يقال لها : رؤوس الشياطين ، وقال قوم : الشياطين الحيات فى غير هذا المكان ، والأجود الأعرف أنه شبه بما لا يشك أنه منكر قبيح ؛ لما جعل الله عز وجل فى قلوب الإنس من بشاعة صُوَرِ الجن والشياطين ، و إن لم يروها عيانا ، فخوفنا تعالى بما أعد للعقوبة ، وشبهه بما نخاف أن نراه ، وقال امرؤ القيس :

أَيَقْتُلُنِي وَالْمَشْرَفِيُّ مُضَاجِعِي ... وَمَسْنُونَةٌ زُرْقٌ كَأَنْيَابِ أَغْوَالِ

فشبه نصال النَّبْلِ بأنياب الأغوال لما فى النفس منها . وعلى هذا التأويل قال أبو تمام وفيه عكس :

وَأَحْسَنُ مِنْ نَوْرٍ يُفَتِّحُهُ النَّدَى(٢) ... بَيَاضُ الْعَطَايَا فِي سَوَادِ الْمَطَالِبِ

وقال أعرابى قديم :

يزمِّلونَ حديثَ الضِّغْنِ بينهم ... والضغن أسود أو فى وَجْهِه كَلَفُ

فوصفه بما يتصور و يقوم فى النفس ، كأنه يقول : لو كان صورة لكان هكذا ، وقال بعض المولدين :

---

(١) قال المجد : الأستن والأستان ـ بفتح الهمزة وسكون السين فيهما ـ أصول الشجر يفشو فى منابته فإذا نظر الناظر إليه شبهه بشخوص الناس اهـ .

(٢) فى نسخة « تفتقه الصبا » .

وَتُدِيرُ عَيْناً فى صَفِيحَةِ فِضَّةٍ كَسَوَادِ يَأْسٍ فى بَيَاضِ رَجَاءِ

فاليأس على الحقيقة غير أسود ؛ لأنه لا يُدْرَكُ بالعِيَان ، لكن صورته فى المعقول وتمثيله كذلك مجازاً ، والرجاء أيضاً على هذا التقدير فى البياض .

وقد يقول المحتج الأول : إن هذا داخل فى باب الاستطراد ، كأن الشاعر لم يقصد الإخبار عن الغرة والطرة وشبههما ، لكن عن الوصال والصدود ، وعكس التشبيه ثقة بأن ما أشبه شيئاً من جهة فقد أشبهه الآخر من تلك الجهة .

فأما قول ابن المعتز يصف شرب حمار :

وَأَقْبَلَ نَحْوَ الماء يَسْتَلُّ صَفْوَهُ كما أُغْمِدَتْ أيدى الصياقلِ مُنْصُلاَ

فإنه بديع ، يشبه فيه انسياب الماء فى شدقيه إلى حلقه بمنصل يُغمد ، وهذا تشبيه مليح يدرك بالحس ، ويتمثل فى المعقول ، وكرر هذا التشبيه فقال يذكر إبل سفر :

وأغمدْنَ فى الأعناقِ أسيافَ لُجّةٍ مصقـلةً تُفْرَى بهنَّ المفَاوِزُ

أفضل التشبيه

وزعم قُدَامة أن أفضل التشبيه ما وقع بين شيئين اشتراكُهما فى الصفات أكثر من انفرادهما ، حتى يدنى بهما إلى حال الاتحاد ، وأنشد فى ذلك وهو عنده أفضل التشبيه كافةً :

له أيطلا ظبي ، وساقا نعامةٍ وإرْخَاءُ سِرْحَانٍ ، وتقريبُ تَتْفُلِ

وهذا تشبيه أعضاء بأعضاء هى بعينها ، وأفعال بأفعال هى هى أيضاً بعينها ، إلا أنها من حيوان مختلف كما قدمت ، والأمر كما قال فى قرب التشبيه ، إلا أن فضل الشاعر فيه غير كبير حينئذ ؛ لأنه كتشبيه نفس الشىء المُشَبَّه الذى ذكرهُ الرمانى فى تشبيه الحقيقة ، وإنما حُسْنُ التشبيه أن يقرب بين البعيدين حتى تصير بينهما مناسبة واشتراك ، كما قال الأشجعى :

كأن أزبَّ الـكيرِ إرزام شَخْبِهَا إذا امتَاحَهَا فى مِحْلبِ الحىِّ مَاتِحُ

فشبه ضرع العنز بالكير، وصوت الحلب بأزيزه، فقرب بين الأشياء البعيدة بتشبيهه حتى تناسبت، ولو كان الوجه ما قال قدامة لكان الصواب أن يشبه الأشجعي ضرع عنزة بضرع بقرة، أوخِلْفَ ناقةٍ؛ لأنه إنما أراد كبره وكثرة ما فيه من اللبن، وكان يعدل عن ذكر الكير وأزيزه الذى دل به على أعظم ما يكون من صفة كبر الضرع وكثرة لبنه.

سبيل التشبيه

وسبيل التشبيه ـ إذ كانت فائدته إنما هى تقريب المشبه من فهم السامع، وإيضاحه له ـ أن تشبه الأدون بالأعلى إذا أردت مدحه، وتشبه الأعلى بالأدون إذا أردت ذمه، فتقول فى المدح: تراب كالمسك، وحَصًى كالياقوت، وما أشبه ذلك، فإذا أردت الذم قلت: مسك كالسَّك[1] أو التراب، وياقوت كالزجاج أو كالحصى؛ لأن المراد فى التشبيه ماقدمته من تقريب الصفة وإفهام السامع، وإن كان ما شابه الشىء من جهة فقد شابهه الآخر منها، إلا أن المتعارف وموضوع التشبيه ما ذكرت.

أصل التشبيه وفيه تشبيه متعدد بمتعدد

وأصل التشبيه مع دخول الكاف وأمثالها أو كأن وما شاكلها شىء بشىء فى بيت واحد، إلى أن صنع امرؤ القيس فى صفة عُقَاب:

كأنَّ قلوبَ الطَّيرِ رَطْباً ويابساً لدى وَكْرِها العُنَّابُ والحَشَفُ البالى

فشبه شيئين بشيئين فى بيت واحد، واتبعه الشعراء فى ذلك؛ فقال لبيد ابن ربيعة

وجلا السيولُ عن الطُّلولِ كأنها زُبُرٌ تُجِدُّ متونَها أقلامُها

فشبه الطلول بالزبر والسيول بالأقلام، بل زاد فشبه جلاء هذه عن هذه

(١) السك: إلقاء النعام ما فى بطنه، أو الرمى بالسلح رقيقا، وقد أراد به المؤلف نفس السلح أوما فى بطن النعام، وهو ظاهر.

بتجديد تلك لتلك . وحكى عن بشار أنه قال : ما قرّ بى القرار مذ سمعت قول امرىء القيس * كأن قلوب الطّير رطبًا ويابسًا * حتى صنعت :

كأنَّ مُثَارَ النَّقْعِ فَوْقَ رءوسنا وأسيافَنا لَيْلٌ تَهاوَى كواكبه

فإن كان مراده الترتيب فصدق ، ولم يقع بعد بيت امرىء القيس فى ترتيبه كبيته ، وإن كان المراد تشبيهين فى بيت فقد قال الطِّرِمّاح فى صفة ثور وحشى :

يَبْدُو وتُضْمِرُهُ الْبِلَادُ كأنه سَيْفٌ عَلى شَرَفٍ يُسَلُّ وَيُغْمَدُ

وهذا نهاية فى الجودة . وأما قول من قال فى بيت الحارث بن حِلِّزة .

وَحَسِبْتِ وَقْعَ سُيُوفنا برءوسهم وَقْعَ السَّحابة بالطِّرَافِ الْمُشْرَجِ

إن فيه تشبيهين من جهة الكثرة والحس أو السرعه والحس ؛ فمحتمل ، إلا أن الشاعر لم يصرح إلا بالوقع خاصة ، يريد بذلك الحس وحده ظاهر الأمر ولذلك خص الطراف ؛ لكونه من الأدم ، فصوت القَطْر عليه أشد منه على غيره من سائر البيوت . وقال بشار أيضاً :

خلقْنا سَمَاءً فَوْقَهُمْ بنُجُومها سُيُوفًا وَنَقْعًا يَقْبِض الطرْفَ أقْتَما

وقال فشبه شيئين مختلفين بشيئين من جنس واحد :

من كل مشتهر فى كفِّ مشتهر كأنَّ غُرَّتَهُ والسَّيْفَ نَجْمَانِ

وربما شبهوا شيئاً بشيئين كقول القَطَامى :

فهن كالحُلَل الْمَوْشِيِّ ظَاهِرُهَا أو كالكتابِ الذى قد مَسّه الْبَلَلُ

وربما شبهوا بثلاثة أشياء كما قال البحترى :

كأنما يَبْسِمُ عَنْ لُؤْلُؤٍ مُنَظَّمٍ أَوْ بَرَدٍ ، أَوْ أقاحْ

فقول الشاعر « أو » زيادة تشبيه وإن لم يصح من جميع المشبَّهِ بها إلا شىء واحد من جهة الحكم فى « أو » . ومِنَ الناس مَنْ يرويه :

كأنما يبسم عن لؤلؤ أو فضة ، أو برد ، أو أقاح

وهى ـ زعموا ـ رواية أكثر أهل الأندلس والمغرب؛ فيكون حينئذ الثغر مشبها بأربعة أشياء ، وقد تقدم أبو تمام فقال :

وثناياكِ إنَّهـا إغْرِيضٌ ولآلٍ تُومٌ وبَرْقٌ وَمِيضٌ

فشبهها بثلاثة أشياء حقيقة ؛ لأن حكم الواو غير حكم « أو » لا سيما وقد أتى التشبيه بغير كاف ولا شىء من أخواتها ، فجاء كأنه إيجاب وتحقيق .

تشبيه ثلاثة بثلاثة

وكثر تشبيههم شيئين بشيئين حتى لم يَصِرْ عجباً ، وقد جاءوا بتشبيه ثلاثة أشياء بثلاثة أشياء فى بيت واحد : بالكاف ، و بغير كاف ؛ فقال مرقش :

النشرُ مسكٌ ، والوجوه دنا نير، وأطراف الأكف عَنَمْ

وقال ابن الرومى :

كأن تلك الدموعَ قَطرُ نَدًى يَقْطُرُ من نرجسٍ على ورد

وقال أيضاً ويدخل فى باب قول مرقش :

إن أقبلتْ فالبدرُ لاح ، وإن مَشَتْ فالغصن مادَ ، وإن رَنَتْ فالرِّيمُ

وقال ابن المعتز :

بدر وليل وغُصْنٌ وجه وشَعْر وَقَدٌّ

خمر ودر ووَرد رِيق وثَغْرٌ وخَدٌّ

وقال صاحب الكتاب :

كأن ثناياه أقاحٍ ، وخَـدَّه شَقِيقٌ ، وعينيه بَقِيَّة نَرْجِس

وقال أيضاً على جهة التفسير :

بكؤوس حَكَيْنَ من شَفَّ قلبى شَفَةً لم تذق وثَغْرا وريقا

يريد حافة الكأس والحَبَاب والخمر .

تشبيه أربعة بأربعة

ثم أتوا بتشبيه أربعة بأربعة : بالكاف أيضاً ، وبغير كاف ، فقال امرؤ القيس وهو أول من فتح هذا الباب :

لهُ أَيْطَلَاظَبيٍ ، وساقا نعامة ، وإرخاء سِرْحَانٍ، وتَقْرِيب تَتْفُل

فجاء بتشبيه إضافة كما ترى حتى جعله تحقيقا لولا مفهوم الخطاب .

وقال أبو الطيب :

بدَتْ قمراً ،ومالت خُوطَ بَانٍ، وَفَاحَتْ عَنْبَراً ، وَرَنَتْ غزَالاَ

فجاء بالتشبيه على إسقاط الكاف . وقال أيضاً :

تَرْنُو إلىَّ بِعَيْنِ الظَّبي مُجْهِشَةً وتمسحُ الطَّلَّ فوق الْوَرْدِ بِالْعَنَمِ

فشبه فى القسيم الأول عينها بعين الظبي ، وشبه فى القسيم الآخر ثلاثة بثلاثة ، وقد تقدم أبو نواس فقال :

يَبْكِى فَيُذْرِى الدُّرَّمِنْ نَرْجِسٍ وَيَلْطِمُ الْوَرْدَ بِعُنَّابِ

وهذا مليح جداً . سئل ابن مناذر : مَنْ أشعر الناس ؟ فقال : الذى يقول :

يَا قَمَراً أَبْصَرْتُ فى مَأْتمٍ يَنْدُبُ شَجْواً بَيْنَ أَتْرَابِ
يَبْكِى فَيُذْرِى الدُّرَّمِنْ نَرْجِسٍ وَيَلْطِمُ الْوَرْدَ بِعُنَّابِ

هذا أشعر الجن والأنس . وقد جاء بالشعر على سجيته ـ أعنى أبا نواس ـ وشاهد ذلك ظاهر فى لفظه ، وإلا فهو قادر أن يجعل مكان الدر الطل حتى يتناسب الكلام ، لكنه لم يكن يؤثر التصنيع ولا يراه فضيلة؛ لما فيه من الكلفة ومن الناس من يرويه كذلك ، ومنهم من يرويه * فيذرى الدر من جفنه *

ومما شبه أربعة بأربعة مع الكاف قول ابن حاجب ـ وهو عبد العزيز وزير القادر بالله أبى العباس النعمان ـ :

ثغرٌ وخدٌّ ونَهْدٌ واختِضَابُ يدٍ كَالطَّلْعِ والوردِ والرُّمَّانِ والبلح

وقال صاحب الكتاب :

بِفَرْعٍ وَوَجْهٍ وَقَدٍّ وَرِدْفٍ كَلَيْلٍ و بَدْرٍ وغُصْنٍ وحِقْفٍ

تشبيه خمسة بخمسة

ومما وقع فيه تشبيه خمسة بخمسة قول أبى الفرج الوأواء ، وأتى به بغير آلة تشبيه :

فأسْبَلَتْ لؤلؤا من نرجس وسَقَتْ وَرْداً وَعَضَّتْ على العُنَّاب بالبَرَدِ

وقال أبو الفتح البُسْتى شاعر مصر فى وقتنا هذا يصف شمعة :

قد شابهتنىَ فى لونٍ وفى قضَف وفى احتراق وفى دمع وفى سهر

فقوله * قد شابهتنى * أظهر مقدرة من المجىء بالكاف ؛ لأنهم إنما استصعبوا ذلك مع الكاف وأخواتها من جهة ضيق الكلام بها ، فهذا الذى أتى به البستى أشد ضيقا ، ألا ترى أنه لو قال « كأنها أنا » لكان هو الصواب ويكون قد أتى بكأنَّ وضميرين بعدها فضلا عن الكاف .

التشبيه بغير أداة

ومنهم من يأتى بالتشبيه الواحد بغير كاف كقول امرىء القيس :

سَمَوْتُ إليها بَعْدَ مَا نامَ أهلها سُمُوَّ حَبَاب الْمَاء حَالاً عَلَى حَالِ

وقوله أيضًا :

إذَا مَا الثُّرَيَّا فِى السَّمَاءِ تَعَرَّضَتْ تَعَرُّضَ أثْنَاء الوِشَاحِ الْمُفَصَّلِ

يريد كسمو حَبَابِ الماء ، وكتعرض أثناء الوشاح .

وأبدع من هذا عندهم وأغرب قول المنخل اليشكرى :

دَافَعْتُهَا فَتَدَافَعَتْ مَشْىَ القَطَاةِ إلى الْغَدِيرِ

و إنما بَرَاعته عندهم لما لم يكن قبله فعلٌ من لفظه .

من مليح التشبيه

ومن مليح التشبيه قول أبى كبير الهذلى :

فَالطَّعْنُ شَغْشَغَةٌ ، وَالضَّرْبُ هَيْقَعَةٌ ضَرْبَ الْمُعَوِّلِ تحتَ الديمة العَضَدَا

وَلِلْقِسِيِّ أَزَامِيلٌ وَغَمْغَمَةٌ حِسَّ الْجَنُوبِ تَسُوقُ الماءَ والبَرَدَا(١)

فالأول من نوع بيتى امرىء القيس ، والثانى من نوع بيت المنخل ، وأنا أستحسن هذين البيتين جداً.

تشبيه المختلفين والضدين

وقد يقع التشبيه بين الضدين والمختلفين : كقولك « العسل فى حلاوته كالصبر فى مرارته ، أو كالخل فى حموضته » .

قال أبو الحسن الرمانى : وهذا الضرب من التشبيه لا يقال إلا بتقييد وتفسير ومن هذا النوع الذى ذكره الرمانى قول ابن المهدى للمأمون يعتذر :

لَئِنْ جَحَدْتُكَ مَعْرُوفاً مَنَنْتَ بِهِ إِنِّى لَفِى اللُّؤْمِ أَحْظَى مِنْكَ فى الْكَرَمِ

وكذلك قول أبى نواس :

أَصْبَحَ الْحُسْنُ مِنْكَ يَا أَحْسَنَ الأُمَّةِ يَحْكِى سَمَاجَةَ ابْنِ حبيش

يريد أن هذا غاية كما أن ذاك غاية .

قال الجرجانى : التشبيه والتمثيل يقع مرة بالصورة والصفة ، وأخرى بالحالة والطريقة ؛ اعتذر بذلك عن قول أبى الطيب :

بَلِيتُ بِلَى الأَطْلَالِ إِنْ لَمْ أَقِفْ بِهَا وُقُوفَ شَحِيحٍ ضَاعَ فِى التُّرْبِ خَاتَمُهُ

إنه إنما أراد وقوفاً خارجاً عن المتعارف . وأنشد :

رُبَّ لَيْلٍ أَمَدُّ مِنْ نَفَسِ العَا شِقِ طُولاً قَطَعْتُهُ بِانْتِحَابِ

---

(١) نسب صاحب اللسان البيتين لعبد مناف بن ربع الهذلى . والشغشغه : ضرب من الهدير ، وحكاية صوت الطعن على التشبيه بالأول . والهيقعة : ضرب الشىء اليابس على مثله كالحديد ، وهى أيضا حكاية لصوت الضرب . والمعول : الذى يمى العالة ، وهو شجر يقطعه الراعى فيجعله على شجرتين يستظل تحته من المطر . والعضد ـــ بفتحتين ـــ ماعضد من الشجر ، أى : قطع . والقسى : جمع قوس . والغمغمة ـــ فى الأصل ـــ كلام غير بين . والجنوب : الريح المعروفة .

فهذا والله هو النقد العجيب الذى غفل الناس عنه ، بل عَمُوا وصَمُّوا .
والبيت لمحمد بن عبد الملك الزيات ، ويروى لمانى الموسوس . ومثلهُ قولُ أبى تمام :

وَمَسَافَةٍ كَمَسَافَةِ الهَجْرِ ارْتَقَى   فِى صَدْرِ بَاقِى الْحُبِّ والبُرَحَاء

وأنشد الرمانى لذى الرمة :

كأنه كَوْكَبٌ فى إثْرِ عفريت   مُسَوَّمٌ فى سَوَادِ اللَّيْلِ مُنْقَضِبُ

ثم قال : قد اجتمع الثور والكوكب فى السرعة إلا أن انقضاض الكوكب أسرع ، واستدل بهذا على جودة التشبيه .

وأنا أرى أن فيه دركا على الشاعر ، وإغفالا من الشيخ المفسر ، وذلك أن الثور مطلوب ، والكوكب طالب ، فشبهه به فى السرعة والبياض ، ولو شبهه بالعفريت وشبه الكلب وراءه بالكوكب لكان أحسن وأوضح ، لكنه لم يتمكن له المعنى الذى أراده من فوت الثور الذى شبه به راحلته ؛ وأما ما أغفله الشيخ فإن الشاعر إنما رغب فى تشبيه الثور بالكوكب ، واحتمل عكس التشبيه : بأن جعل المطلوب طالباً لبياضه فإن الثور لهق لا محالة ؛ وأما السرعة التى زعم فإن العفريت لو وصفه به وشبهه بسرعته لما كان مقصراً ، ولا متوسطاً ، بل فوق ذلك.

التشبيهات العقم

ومن التشبيهات عُقْم لم يُسْبَقْ أصحابها إليها ، ولا تعدى أحد بعدهم عليها ، واشتقاقها فيما ذُكِرَ من الريح العقيم ، وهى التى لا تلقح شجرة ولا تنتج ثمرة ، نحو قول عنترة العبسى يصف ذباب الروض :

وَخَلاَ الذُّبَابُ بها فليس ببارح   غَرِداً كَفِعْلِ الشَّارِبِ المترنم
هَزِجاً يَحُكُّ ذراعَــه بذراعه   قَدْحَ المُكِبِّ على الزناد الأجذم

وقوله أيضا فى صفة الغراب :

خرِقُ الجَناحِ كأنَّ لَحيَيْ رأسِهِ   جَلَمانِ(١) بالأخيارِ هَشٌّ مُولَعُ

وقال الحطيئة يصف لغام ناقته :

ترى بينَ لَحيَيها إذا ما ترَغَّمَتْ   لُغامًا كبَيْتِ العنكبوتِ الممدَّدِ

وقال الشماخ يصف آثار ريش نعامة :

كأنما مُنْثَنِي أقْماعٍ ما مَرَطَتْ   مِنَ العِفاءِ بِلِيتَيْها الثآليلُ(٢)

وقول عدى بن الرِّقَاع يصف قرن ظبى :

تُزْجِي أغنَّ كأن إبرة رَوْقِهِ   قَلَمٌ أصابَ منَ الدَّواةِ مِدادَها(٣)

وقول الراعى يصف جعد الرأس :

جدلا أسكَّ كأن فَرْوَةَ رأسِهِ   بُذِرَتْ فأنبتَ جانباها فُلْفُلا

وقول بشر بن أبى خازم يصف عروق الأرْطَى وقد كشفها ثور :

يثير ويُبْدِي عَنْ عُرُوقٍ كأنها   أعِنَّةُ خــــرازٍ تخط وتنشر

وقول الطِّرِمَّاح فى صفة الظَّلِيمِ :

(١) جلمان : مثنى جلم ، وهو المقراض ، وقوله «بالأخيار» بالياء المثناة ، وفى نسخة « بالأخبار » بالباء الموحدة ،

(٢) المنثنى : المتثنى . والأقماع : جمع قمعة ، وهى بثرة تخرج فى أصول الأشفار يريد أن ريشها يشبهها ، ويروى « كأنما منثنى أقمام » والأقمام : جمع قيم ، وهو يابس البقل ، وقوله « مرطت » معناه أسرعت ، وروى فى مكانه « مرحت » من المرح وهو النشاط ، والثآليل : البثور التى تكون فى الجسد . روى أن الرشيد سأل الأصمعى : هل تعرف تشبيها أبدع وأرق من تشبيه الشماخ لنعامة سقط ريشها وبقى أثره ؛ وأنشده هذا البيت ، فقال له الأصمعى : لا والله يا أمير المؤمنين .

(٣) تزجى : تسوق ، والروق : القرن من كل ذى حافر .

مُجْتَابِ شملةِ بُرْجُـــدٍ لسَرَاتِه قِدَداً ، وأسلمَ ما سواه البرجد (١)

وقول ذى الرمة فى صفة الليل :

ولَيْلٍ كَجِلْبَابِ العروس قَطَعْتُهُ (٢) بأَرْبَعَةٍ وَالشَّخْصُ فى العين وَاحِدُ

وقول مُضَرِّس بن رِبْعى فى صفة رأس النعامة :

سَكَّاءُ عَارِيَةُ الأخادع رأسُهَا مِثْلُ الْمُدُقِّ وَأَنْفُهَا كالمِسْرَدِ (٣)

وقال النابغة فى صفة النسور :

تَرَاهُنَّ خَلْفَ الْقَوْمِ خُزْراً عيونُها جُلُوسَ الشُّيُوخِ فى ثيابِ المرانب (٤)

وهذا التشبيه عندهم عقيم ، إلا أنى أقول : إنه من قول طَرَفة يصف عُقَاباً :

وَعَجْزَاءُ دَفَّتْ بالجناح كأنها مَعَ الصُّبْحِ شَيْخٌ فى بِجَادٍ مقنع (٥)

---

(١) يروى « مجتاب حلة برجد » والبرجد : كساء من صوف أحمر ، وقيل : كساء مخطط ضخم ، وسراته : ظهره ، وقددا : فرقا ، ويروى « وأحلف ماسواه البرجد » وبعد هذا البيت قوله :

يبدو وتضمره البلاد كأنه * سيف على شرف يسل ويغمد

وقد تقدم ذكره (ص ٢٩١) أول الباب ، وكان أبو عبيدة والأصمعى يفضلان الطرماح بهذين البيتين ويزعمان أنه أشعر الناس بهما .

(٢) يروى * وليل كجلباب العروس ادرعته *

(٣) سكاء : مقطوعة الأذنين ، المدق : حجر يدق به الطيب ، وقياسه كسر الميم ، ولكن المسموع ضمها وضم الدال . والمسرد : المثقب .

(٤) خزرا : جمع أخزر ، وهو الذى ينظر بمؤخر عينه ، ثياب المرانب — بالنون موحدة — ثياب إلى السواد أقرب ، ويقال : كساء مرنبانى ، أى : أخذ من جلد الأرنب ، شبه ألوان النسور بها .

(٥) دفت — بالدال المهملة — دنت فى طيرانها من الأرض ، وبالمعجمة حركته وضربت به ، والبجاد : الكساء ، ومقنع : متغش به ، وأراد عقابا ؛ لأن فى عجزها بياضا ، ويقال : لأنها شديدة الدارتين .

و ينظر أيضاً إلى قول امرىء القيس قبله :

كأنَّ ثبيراً فى عرانين وَبْلِهِ   كبيرُ أناسٍ فى بجادٍ مُزَمَّلِ

وقال عبد الله بن الزَّبير الأسدى فى تشبيه رأس القطاة :

تُقَلِّبُ لِلإصْغاء رَأساً كأنها   يَتِيمَةُ جَوْزٍ أغْبَرَتْهَا المَكَاسِرُ

وفى الشعر من هذا صدر جيد ، وفى القرآن تشبيه كثير كقوله تعالى:(والقمر قدرناها منازل حتى عاد كالعُرْجُونِ القَدِيم) وقوله تعالى : (والذين كفروا أعمالهم كَسَرَابٍ بِقِيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا) وقوله : (و إذا غَشِيَهم موج كالظلل) وقوله : (كأنهم جَرَاد منتشر) ومن كلام النبى صلى الله عليه وسلم « الناس كأسنان المشط ، و إنما يتفاضلون بالعافية » وقال« الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النارُ الحطَبَ » وكثير من هذا يطول تقصيه.

تشبيهات للقدامى تركها المولدون

وقد أتت القدماءُ بتشبيهات رغب المولدون إلا القليل عن مثلها استبشاعاً لها ، و إن كانت بديعة فى ذاتها ، مثل قول امرىء القيس :

وَتَعْطُو بِرَخْصٍ غَيْرِ شَثْنٍ كأنه   أسَارِيعُ ظَبْيٍ أو مَسَاوِيكُ إسْحِلِ(١)

فالبنانة لا محالة شبيهة بالأسْرُوعَة ، وهى دودة تكون فى الرمل ، وتسمى جماعتها بنات النقا ، و إياها عنى ذو الرمة بقوله :

خَرَاعِيبُ أمْثَالٌ كأنَّ بَنَانَها   بَنَاتُ النَّقَا تَخْفَى مِرَاراً وَتَظْهَرُ

وهى كأحسن البنان : ليناً ، و بياضاً ، وطولاً ، واستواء ، ودقة ، وحمرة رأس ، كأنه ظُفُرٌ قد أصابه الحناء ، وربما كان رأسها أسود ، إلا أن نفس الحضرى المولد إذا سمعت قول أبى نُوَاس فى صفة الكاس :

---

(١) تعطو : تتناول . برخص : أراد به بنانا رخصا لينا ، غير شثن : ليس بخشن . أساريع : دود صغار ، ظبي : اسم رملة بعينها ، إسحل : شجر تتخذ من عروقه مساويك كالأراك .

تُعَاطِيكَهَا كَفٌّ كَأَن بَنَانَهَا ... إِذَا اعْتَرَضَتْهَا العَيْنُ صَفُّ مَدَارِى

أو قول علىٍّ بن العباس الرومى :

سَقى الله قصراً بالرصافة شاقنى ... بأعلاه قصرى الدَّلاَلِ رصَافِى

أَشَارَ بِقُضْبَانٍ مِنَ الدُّرِّ قُمِّعَتْ ... يَوَاقِيتَ حُمْراً واسْتَبَاحَ عَفَافِى

أو قول عبد الله بن المعتز :

أَشَرْنَ عَلَى خَوْفٍ بأَغْصَانِ فِضَّةٍ ... مُقَوَّمَةٍ أَثْمَارُهُنَّ عَقِيقُ

كان ذلك أحبَّ إليها من تشبيه البنان بالدود فى بيت امرىء القيس ، وإن كان تشبيهه أشدَّ إصابة . وفى قول الطائى أبى تمام :

بَسَطَتْ إِلَيْكَ بَنَانَةً أَسْرُوعَا ... تَصِفُ الْفِرَاقَ وَمُقْلَةً يَنْبُوعَا

وقرب هذا عنده وهو مدح من قول حسان فى الهجو :

وَأُمُّكَ سَوْدَاء نُوبِيَّةٌ ... كَأَنَّ أناملها الْحُنْظُبُ(١)

إذ كانا جميعًا من خَشَاشِ الأرض . فأما قول امرىء القيس * أومساويك إسحل * فجارٍ مجرى غيره من تشبيهاتهم ؛ لأنهم يصفونها بالعَنَم والأقلام وما أشبه ذلك ، والبنان قريب الشبه من أعواد المساويك : فى القدر ، والاستواء ، والاملاس ، إلا أن الأول على كراهته أشبه بها ، والإسحل : شجر المخيطا .

وقد استبشع قوم قول الآخر يصف روضًا :

كأَنَّ شَقَائِقَ النُّعْمَانِ فِيهِ ... ثِيَابٌ قد رَوِينَ من الدماء

فهذا و إن كان تشبيها مصيبًا فإن فيه بشاعة ذكر الدماء ، ولو قال من العصفر مثلا أو ما شاكله لكان أوْقَعَ فى النفس وأقرب إلى الأنس .

وكذلك صفتهم الخمر فى حبابها بسلخ الشجاع وما جرى هذا المجرى من التشبيه ،

---

(١) الحنظب : دابة مثل الخنفساء ، وقيل : هو ضرب من الخنافس طويل

فإنه وإن كان مصيبًا لعين الشبه فإنه غير طيب فى النفس، ولا مستقر على القلب، ومن ذلك قول أبى عون الكاتب :

تلاعبها كفُّ المزاج محبةً   لها، وليجرى ذات بينهما الأنسُ
فتُزْبِدُ مِنْ تِيهٍ عليها كأنها   غريرة خِدْرٍ قَدْ تَخَبَّطَهَا المَسُّ

فلو أن فى هذا كل بديع لكان مَقِيتاً بشعاً ، ومَنْ ذا يَطِيبُ له أن يشرب شيئاً يشبه زَبَدِ المصروع وقد تخبطه الشيطان من المس ؟ !

وكأنى أرى بعض مَنْ لا يحسن إلا الاعتراض بلا حجة قد نعى علىّ هذا المذهب ، وقال: رد على امرىء القيس ، ولم أفعل،ولكنى بينت أن طريق العرب القدماء فى كثير من الشعر قد خُولِفَتْ إلى ما هو أليق بالوقت وأشكل بأهله .

وقد عاب الأصمعى بين يدى الرشيد قول النابغة :

نَظَرَتْ إلَيْكَ بحاجةٍ لم تقضها   نَظَرَ السَّقِيم إلى وُجُوهِ العُوَّدِ

على أنه تشبيه لا يلحق ، ولا يشق غبار صاحبه ، ولم يجد فيه المطعن إلا بذكر السقيم ؛ فإنه رغب عن تشبيه المحبوبة به ، وفَضَّلَ عليه قولَ عدى بن الرقاع العاملى :

وكأنها وَسْطَ النساء أعَارَهَا   عَيْنَيْهِ أحْوَرُ من جآذر جَاسِمِ
وَسْنَانُ أقصدهُ النُّعاسُ فَرَنَّقَتْ   فى عَيْنِهِ سِنَةٌ وليسَ بنائم

وأجرى الناسُ هذا المجرى قولَ صريع الغوانى على أنه لم يقع لأحد مثله ، وهو :

فَلَطَتْ بأيديها ثِمَارَ نُحُورِهَا   كأيدى الأسَارَى أثقلَتْهَا الجَوَامِعُ (١)

فهذا تشبيه مصيب جداً ، إلا أنهم عابوه بما بينت ، وإنما أشار إلى قول النابغة:

---

(١) الجوامع : الأكبال ، قال النابغة :

وذلك أمر لم أكن لأقوله   ولو جمعت فى ساعدى الجوامع

[و] يَخْطِطْنَ بالعِيدَانِ فى كل منزل وَيَخْبَأْنَ رُمَّانَ الثُّدِىِّ النَّوَاهِدِ

ومثله قول أبى محجن الثقفى فى وصف قَيْنَة :

[و] تَرْفَعُ الصَّوْتَ أَحْيَانًا وَتَخْفِضُهُ كما يَطِنُّ ذُبَابُ الرَّوْضَةِ الْغَرِدُ

وأىُّ قينة تحب أن تشبه بالذباب ؟ وقد سرق بيت عنترة وقلبه فأفسده .

٤١ — باب الإشارة

منزلة الإشارة

والإشارة من غرائب الشعر وملحه ، و بلاغة عجيبة ، تدل على بعد المرمى وفَرْط المقدرة ، وليس يأتى بها إلا الشاعر المبرز ، والحاذق الماهر ، وهى فى كل نوع من الـكلام لمحة دالة ، واختصار وتلويح يعرف مجملا ومعناه بعيد من ظاهر لفظه ؛ فمن ذلك قول زهير :

فإنى لو لقيتـــك واتّجهْنَا لـكان لـكل مُنْـكَرَةٍ كفاء[1]

فقد أشار له بقبيح ما كان يصنع لو لقيه ، هذا عند قدامة أفضل بيت فى الإشارة . . وقول الآخر :

جعَلْتُ يَدَىَّ وشَاحًا لَهُ وَبعْضُ الفَوَارِسِ لاَيعْتَنِقْ

وهذا النوع من الشعر هو الوَحْى عندهم . . وأنشد الحاتمى عن على بن هارون عن أبيه ، عن حماد ، عن أبيه إسحاق بن إبراهيم الموصلى :

جعلنا السيفَ بين الخدِّ منه و بين سوادِ لِمّتِهِ عِــذارا

---

(١) رواية البيت فى الديوان هكذا :

وإنى لو لقيتك فاجتمعنا لـكان لـكل مندية لقاء

والمندية : الداهية التى تندى صاحبها عرقا لشدتها ، ولقاء أى : شىء تلاقى به حتى يصلح الله أمرها .

فأشار إلى هيئة الضربة التى أصابه بها دون ذكرها إشارة لطيفة دلت على كيفيتها ، وإنما وصف أنهم ضربوا عنقه ، ويروى * بين الجيد * ومثله قول الآخر :

وَيَوْمٍ يُبيلُ النساء الدماء   جعلت رداءك فيه خِمَارَا

يريد بالرداء الحسام كما قال مُتمم بن نُوَيرة :

لقَدْ كفَّنَ المُنْهَالُ تحت ردائه   فتى غَيْرَ مِبْطَانِ العشيات أرْوَعا

وقوله إنه جعله خماراً أى قنعت به الفرسان ، وأشار بقوله * يُبيل النساء الدماء * إلى وضع الحوامل من شدة الفزع .

مما جاء من الإشارة على معنى التشبيه

ومما جاء من الإشارة على معنى التشبيه قول الراجز يصف لبناً ممذوقاً

* جاءوا بمذق هَلْ رَأَيْتَ الذِّئْبَ قَطْ *

فإنما أشار إلى تشبيه لونه ؛ لأن الماء غلب عليه فصار كلون الذئب .

التفخيم والإيماء

ومن أنواع الإشارة التفخيم والإيماء ؛ فأما التفخيم فكقول الله تعالى : (القارعة ما القارعة) وقد قال كعب بن سعد الغنوى :

أخِى ما أخِى لا فاحِشٌ عِنْدَ بَيْتِهِ   وَلاَ وَرِعٌ عِنْدَ اللِّقَاء هَيُوبُ

وأما الإيماء فكقول الله عز وجل : ﴿ فغشيهم من اليم ماغشيهم ﴾ فأومأ إليه وترك التفسير معه . . وقال كثير :

تجافيتِ عَنِّى حِينَ لاَلِيَ حِيلَةٌ   وَخَلَفْتِ ماخَلَفْتِ بَيْنَ الجَوانِحِ

فقوله * وخلفت ماخلفت * إيماء مليح . . ومثله قول ابن ذَرِيح :

أقول إذا نَفْسى مِنَ الوَجْدِ أصْعَدَتْ   بهَا زَفْرَةٌ تَعْتَادُنِى هِىَ ماهِيَا

التعريض

ومن أنواعها التعريض : كقول كعب بن زهير لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

فى فِتْيَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ قال قَائِلُهُمْ   بِبَطْنِ مَكَّةَ لَمَّا أسْلَمُوا زُولوا

وعرض بعمر بن الخطاب — وقيل : بأبى بكر رضى الله عنهما ، وقيل : برسول الله صلى الله عليه وسلم — تعريضَ مدحٍ ، ثم قال :

يَمْشُونَ مَشْىَ الْجِمَالِ الزُّهْرِ يَعْصِمُهُمْ ضَرْبٌ إِذَا عَرَّدَ السُّودُ التَّنَابِيلُ

فقيل : إنه عرض فى هذا البيت بالأنصار ، فغضبت الأنصار ، وقال المهاجرون : لم تمدحنا إذ ذممتهم ، حتى صرح بمدحهم فى أبيات يقول فيها :

مَنْ سَرَّهُ كَرَمُ الحياة فَلاَ يَزَلْ فى مِقْنَبٍ من صَالِحِى الأَنْصَارِ

ومن مليح التعريض قول أيمن بن خريم الأسدى لبشر بن مروان يمدحه ويعرض بكلف كان بوجه أخيه عبد العزيز حين نفاه من مصر على يدى نصيب الشاعر مولاه :

كَأَنَّ التَّاجَ تَاجَ بَنِى هِرَقْلٍ جَلَوْهُ لأَعْظَمِ الأَعْيَادِ عِيدَا
يُصَافِحُ خَدَّ بِشْرٍ حينَ يُمْسِى إذا الظَّلْمَاءُ بَاشَرَتِ الْخُدُودَا

فهذا من خفى التعريض ؛ لأنه أوهَمَ السامع أنه إنما أراد المبالغة بذكر الظلماء لاسيما وقد قال * حين يمسى * وإنما أراد الكلف ، هكذا حكت الرواة .

ومن أفضل التعريض ما يجل عن جميع الكلام قولُ الله عز وجل : (ذُقْ إنك أنت العزيز الكريم) أى : الذى كان يقال له هذا أو يقوله ، وهو أبو جهل ؛ لأنه قال : ما بين جبليها ــ يعنى مكة ــ أعز منى ولا أكرم ، وقيل : بل ذلك على معنى الاستهزاء به .

التلويح

ومن أنواعها التلويح ، كقول المجنون قيس بن معاذ العامرى :

لَقَدْ كُنْتُ أَعْلُو حُبَّ لَيْلَى فَلَمْ يَزَلْ(١) بِى النقضُ والإبرامُ حَتَّى عَلاَنِيَا

فلوح بالصحة والكتمان ثم بالسقم والاشتهار تلويحاً عجيباً ، وإياه قصد أبو الطيب بعد أن قلبه ظهراً لبطن فقال :

كَتَمْتُ حُبَّكِ حَتَّى مِنْكِ تَكْرِمَةً ثُمَّ اسْتَوَى فيكِ إِسْرَارِى وَإِعْلاَنِى

(١) يروى * لقد كنت أعلو الحب حيناً فلم يزل *

لأنَّهُ زَادَ حَتَّى فَاضَ عَنْ جَسَدِى فَصَارَ سُقْمِى به فى جِسْمِ كِتْمَانِى

إلاّ أنه أخفاه وعقده كما ترى ، حتى صار أُحْجِيَّةً يتلاقاها الناس .

ومن أجْوَدِ ما وقع فى هذا النوع قولُ النابغة يصف طول الليل :

تَقَاعَسَ حَتَّى قُلْتُ : لَيْسَ بِمُنْقَضٍ وَلَيْسَ الَّذِى يَرْعَى النُّجُومَ بِآيِبِ (١)

« الذى يرعَى النجوم » يريد به الصبح ، أقامه مقام الراعى الذى يغدو فيذهب بالإبل والماشية ؛ فيكون حينئذ تلويحه هذا عجبا فى الجودة ، وأما من قال : إن الذى يرعى النجوم إنما هو الشاعر الذى شكا السَّهَرَ وطول الليل ؛ فليس على شىء . وزعم قوم أن الآيب لايكون إلا بالليل خاصة ، ذكره عبدالكريم .

الكناية والتمثيل

ومن أنواع الإشارات الكناية والتمثيل ، كما قال ابن مقبل — وكان جافياً فى الدين : يبكى أهل الجاهلية وهو مسلم ، فقيل له مرة فى ذلك — فقال :

وَمَالِىَ لا أبكى الدِّيَارَ وأَهْلَهَا وَقَدْ رَادَهَا رُوَّادُ عَكٍّ وَحِمْيَرَا

وجاء قطاالأحبابِ من كل جانب فَوَقَّعَ فى أعطاننا ثمَّ طَيَّرَا

فكنى عما أحدثه الإسلام ومثل كما ترى .

الرمز

ومن أنواعها الرمز : كقول أحدِ القدماء يصف امرأة قتل زوجها وسبيت :

عَقَلْتُ لها من زوجها عَدَدَ الحصى مع الصبح أو مع جُنْحِ كُلِّ أصيل

يريد أنى لم أعطها عقلا ولا قَوَداً بزوجها ، إلا الهم الذى يدعوها إلى عدّ الحصى ، وأصله من قول امرىء القيس :

ظَلِلْتُ رِدَائِى فَوْقَ رَأْسِىَ قاعداً أَعُدُّ الحَصَى مَاتَنْقَضِى عَبَرَاتِى (٢)

(١) فى رواية الديوان * تطاول حتى . . . . . وليس الذى يهدى النجوم . . . . *

(٢) يريد أنه لما غشى ديار الحى فلم يجد أحدا وضع رداءه فوق رأسه وجلس مفكرا يعد الحصى ودموعه لاترقأ .

ومن مليح الرمز قول أبي نواس يصف كؤوساً ممزوجة فيها صور منقوشة :

قَرَارَتُهَا كسرى،وفي جَنَبَاتِها مَهاً تدَّرِيها بالقِسِيِّ الْفَوَارِسُ
فللخمر ما زُرَّتْ عليه جُيُوبُها وللماءِ ما دَارَتْ عليه القَلَانِسُ

يقول : إن حَدَّ الخمر من صُوَر هذه الفوارس التى فى الكؤوس إلى التَّرَاقى والنُّحُور ، وزبد الماء فيها مزاجاً ، فانتهى الشراب إلى فوق رءوسها ، ويجوز أن يكون انتهاء الحَبَاب إلى ذلك الموضع لما مزجت فأزبدت ، والأول أملح ، وفائدته معرفة حدها صرفاً من معرفة حدها ممزوجة ، وهذا عندهم مما سَبَقَ إليه أبو نواس ، وأرى — والله أعلم — أنما تحلق على المعنى من قول امرىء القيس :

فلَمَّا اسْتَطَابوا صُبَّ فى الصَّحْنِ نِصفُهُ وَوَافى بِماء غَـيْرِ طَرْقٍ ولا كَدِرِ[(١)]

ويروى « ووافوا » وإياه أردت ، ويروى « استظلوا » من الظل مكان « استطابوا » : جعل الماء والشراب قسمين لقوة الشراب ،فتسلَّقَ الحسنُ عليه[(٢)]، وأخفاه بما شغل به الكلام من ذكر الصورة المنقوشة فى الكؤوس ، إلّا أنها سرقة ظريفة مليحة ، ولم يكن أبو نواس يرضى أن يتعلق بمن دون امرىء القيس وأصحابه .

وأصل الرمز الكلام الخفى الذى لايكاد يفهم ، ثم استعمل حتى صار الإشارة وقال الفراء : الرمز بالشفتين خاصة .

اللمحة

ومن الإشارات اللَّمْحَة ، كقول أبى نواس يصف يوماً مطيراً :

---

(١) استطابوا : أخذوا أطيب الماء وأعذبه،و الصحن : قدح كبير، ويروى * وشجت بماء * أى : مزجت ، وغير طرق : لم تطرقه الإبل لتبول فيه، فهو يريد أنه نظيف نقى لا كدر فيه ، وبعد هذا البيت قوله :

بماء سحاب زل عن متن صخرة إلى بطن أخرى طيب ماؤها خصر

(٢) الحسن : هو أبو نواس .

وشَمْسُهُ حُرَّةٌ مُخَدَّرَةٌ ... لَيْسَ لها فى سَمائها نُورُ

فقوله «حرة» يدل على ما أراد فى باقى البيت ؛ إذ كان من شأن الحرة الخَفَرُ والحياء ، ولذلك جعلها مخدرة، وشأن القيان والمملوكات التبذل والتبرج، وأما زَعْمُ مَنْ زَعَم أن قوله «حرة» إنما يريد خلوصها كما تقول : هذا العِلْقُ من حُرِّ المتاع ؛ فخطأ ؛ لأن الشاعر قد قال : «ليس لها فى سمائها نور» فأىُّ خلوص هناك ؟ وكذلك قول حسَّان ويكون أيضاً تتبيعاً :

أَوْلادُ جَفْنَةَ حَوْلَ قبرِ أبيهمُ ... قبرِ ابن مَارِيَةَ الكريمِ المُفْضِلِ

يريد أنهم ملوك ذوو حاضرة ومُسْتَقَرِّ عز ، ليسوا أصحاب رحلة وانتجاع.

اللغز ومن أخفى الإشارات وأبعدها اللغز ، وهو : أن يكون للكلام ظاهر عجب لا يمكن ، وباطن ممكن غير عجب ، كقول ذى الرمة يصف عين الإنسان :

وأصغر من قَعْبِ الوَليدِ تَرَى به ... بيوتاً مبناة وأودِيَةً قَفْـــرَا

فالباء فى «به» للالصاق كما تقول «لمسته بيدى» أى : ألصقتها به وجعلتها آلة اللمس ، والسامع يتوهمها بمعنى فى ، وذلك ممتنع لا يكون، والأول حسن غير ممتنع ومثله قول أبى المقدام :

وَغُلامٍ رَأيته صَـــارَ كَلْباً ... ثمَّ مِنْ بَعْدِ ذاكَ صارَ غَزَالاَ

فقوله : «صار» إنما هو بمعنى عَطَفَ وما أشبهه من قول الله عز وجل : (فخذ أربعة من الطير فصُرْهُنَّ إليك) ، ومستقبله يَصُورُ ، وقد قيل «يصير» وهى لغة قليلة ، وليس صار التى هى من أخوات كان مستقبلها يصير فقط ومعناها استقر بعد تحول

واشتقاق اللغز من ألْغَزَ اليربوع ولغز، إذا حفر لنفسه مستقيما ثم أخذ يمنة ويسرة، يورى بذلك ويعمى على طالبه.

اللحن ومن الإشارات اللَّحْنُ ، وهو كلام يعرفه المخاطب بفَحْوَاه ، وإن كان على

غير وجه ، قال الله تعالى : (ولتعرفنهم فى لحن القول) وإلى هذا ذهب الحذّاق فى تفسير قول الشاعر :

مَنْطِقٌ صَائبٌ وتَلْحَن أحيا ... نًا، وخَيْرُ الْحديثِ ما كانَ لَحْنا

ويسميه الناس فى وقتنا هذا المحاجاة لدلالة الحجا عليه. وذلك نحو قول الشاعر يحذر قومه :

خَلّوا على النـــاقة الحمراء أرْحُلَـكُمْ ... والبازلَ الأصهبَ المعقولَ فاصْطَنِعُوا
إنَّ الذّئابَ قد اخضَرّتْ بَرَاثِنُهَا ... والناسُ كلّهُمُ بَكْرٌ إذا شـــبعوا

أراد « بالناقة الحمراء » الدّهْناء ، و « بالجمل الأصهب » الصمان ، « و بالذئاب » الأعداء ، يقول : قد اخضرت أقدامهم من المشى فى الكلأ والخصب ، والناس كلهم إذا شبعوا طلبوا الغزو فصاروا عدواً لكم كما أن بكر بن وائل عدوكم . .

ومثل ذلك قول مهلهل لما غدَرَه عبداه وقد كبرت سنه وشق عليهما ما يكلفهما من الغارات وطلب الثارات ، فأرادا قتله ، فقال : أوصيكما أن ترويا عنى بيت شعر ، قالا : وما هو ؟ قال :

مَنْ مُبْلِــغُ الحيين أن مهلهلا ... لله دركما ودر أبيكما

فلما زعما أنه مات قيل لهما : هل أوْصَى بشىء ؟ قالا : نعم ، وأنشدا البيت المتقدم ، فقالت ابنته : عليكم بالعبدين فإنما قال أبى :

من مبلغ الحيين أن مهلهلا ... أمسى قتيلا بالفلاة مجندلا
لله دركما ودر أبيكما ... لا يبرح العبدان حتى يقتلا

فاستَقرُوا العبدين فأقرا أنهما قتلاه ، ورويت هذه الحكاية لمرقش .

وسبيل المحاجاة أن تكون كالتعريض والكناية، وكل لغز داخل فى الأحاجِىّ، وقد حَاجى شيخُنا أبو عبد الله بعضَ تلاميذه فقال له :

أحاجيك عبّاد كزينب فى الورى ... ولم تؤت إلا من حميم وصاحب

فأجابه التلميذ بأن قال :

سأكتم حتى ما تحسُّ مدامعى بما انهلَّ منها من دموع سواكب

فكان معكوس قول أبى عبد الله « عباد كزينب » سرك ذائع ، فقال الآخر « سأكتم » فأجابه على الظاهر إجابة حسنة ، ومعكوس سأكتم « منك أتيت » فكأنه قابل به قول الشيخ « ولم تؤت إلا من صديق وصاحب » وهذا كله مليح .

التعمية

ومنها التعمية ، وهذا مَثَلٌ للطير وما شاكله ، كقول أبى نواس :

* واسم عليه خبن للصفا *

وما أشبهه ، وهو معنى مشهور .

من الإشارات مصحوبة

ومن الإشارات مصحوبة ، وهى عند أكثرهم معيبة كأنها حَشْو واستعانة على الكلام ، نحو قول أبى نواس :

قال إبراهيم بالما لِ كذا غربًا وشرقا

ولم يأت بها أبو نواس حَشْواً ، ولكن شطارة وعبثاً بالكلام ، وإن شئت قلت بياناً وتثقيفاً ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمرو ابن العاص : « وكيف بك إذا بقيت فى حُثَالة من الناس ، قد مرجت عهودهم وأماناتهم ، واختلفوا فكانوا هكذا ؟ وشبك بين أصابع يديه » ، ولا أحد أفصح من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا أبعد كلاما منه من الحشو والتكلف .

وقالوا : مبلغ الإشارة أبلغ من مبلغ الصوت ، فهذا باب تتقدم الإشارة فيه الصوت ، وقيل : حسن الإشارة باليد والرأس من تمام حسن البيان باللسان ، جاء بذلك الرمانى نصا ، وقاله الجاحظ من قبل ، وأخذ على بعض الشعراء فى قوله (١) :

أشَارَتْ بِطَرْفِ الْعَيْنِ خِيفَةَ أهلها إشَــارَةَ مَذْعُورٍ وَلَمْ تَتَكَلَّمِ

(١) هو لعمر بن أبى ربيعة المخزومى

فأيقنت أن الطرف قد قال : مرحبا وأهلا وسـهلا بالحبيب المتيم

إذ كان هذا كله مما لا تحمله إشارة خائف مذعور .

ولما أقام معاوية الخطباء لبيعة يزيد قام رجل من ذى الكلاع فقال : هذا أمير المؤمنين ، وأشار بيده إلى معاوية ، فإن مات فهذا ، وأشار إلى يزيد ، فمن أبى فهذا ، وأشار إلى السيف ، ثم قال :

مُعَاوِيَةُ الخليفةُ لا نمارى فإن يَهْلِكْ فسائِسُنَا يزيد
فمن غلب الشقاءُ عليه جَهْلاً تحكم فى مَفَارِقه الحديدُ

وقد جاء أبو نواس بإشارات أخر لم تجر العادة بمثلها ، وذلك أن الأمين ابن زبيدة قال له مرة : هل تصنع شعراً لا قافية له ؟ قال : نعم ، وصنع من فوره ارتجالا :

ولقد قلت للمليحة قُولِى من بعيــد لمن يحبك : (إشارة قبلة)
فأشارت بمعصم ثم قالت من بعيد خلاف قولى : (« لا لا)
فتنفستُ ساعةً ثم إنى قلت للبغل عند ذلك : (« امشِ)

فتعجب جميع من حضر المجلس من اهتدائه وحسن تأتيه ، وأعطاه الأمين صلة شريفة .

الحذف

ومن الإشارات الحذفُ ، نحو قول نعيم بن أوس يخاطب امرأته :

إنْ شئْتِ أشْرَفْنَا جَمِيعا فَدَعَا اللهَ كلٌّ جَهْــدَهُ وأسْمَعَا
بالخــير خيراً وإن شَرّا فا ا ولا أريد الشر إلا أن تا ا

كذا رواه أبو زيد الأنصارى، وساعده من المتأخرين على بن سليمان الأخفش، وقال : لأن الرجز يدل عليه ، إلا أن رواية النحويين « وإن شراً فا » و « إلا أن تا » قالوا : يريد وإن شراً فشر ، وإلا أن تشائى .. وأنشدوا :

ثم تنادَوْا بعد تلك الضوضا منهم بهات وهـل ويايا

نادى مُنادٍ منهم ألاتا قالوا جميعاً كلهم بَلَى فَا

وأنشد الفراء :

قُلْتُ لها : قومى ، فقالت : قاف

يريد قد قمت .

التورية

ومن أنواعها التورية كقول عُلَية بنت المهدى فى طَلّ الخادم :

أيا سَرْحَةَ البستان طـال تَشوقى فهل لى إلى ظِـلٍّ إليكِ سبيل

متى يشتفى مَنْ ليس يُرْجَى خروجه وليس لمن يهوى إليـه دخول ؟

فورَّتْ بظل عن طل ، وقد كانت تجدُ به ، فمنعه الرشيد من دخول القصر ، ونهاها عن ذكره ، فسمعها مرة تقرأ : (فإن لم يصبها وابل) فما نهى عنه أمير المؤمنين ، أى (فَطَلّ) فقال : ولا كل هذا .

وأما التورية فى أشعار العرب فإنما هى كناية : بشجرة ، أو شاة ، أو بيضة ، أو ناقة ، أو مهرة ، أو ما شا كل ذلك كقول المسيَّب بن عَلَس :

دعا شَجَرَ الأرض داعيهمُ لينصره السِّدْرُ والأثأب

فكنى بالشجر عن الناس ، وهم يقولون فى الكلام المنثور : جاء فلان بالشوك والشجر ، إذا جاء بجيش عظيم .

وكان عمر رضى الله عنه — أو غيره من الخلفاء — قد حظر على الشعراء ذكر النساء ، فقال حميد بن ثور الهلالى :

تجرَّم أهْلُوهَا لأن كنت مشعراً جنوناً بها ، يا طُولَ هذا التجرم

ومالىَ من ذنب إليهم علمتـه سوى أننى قد قلت ياسَرْحَةُ اسلمى

بلى فاسلمى ثم اسلمى ثُمّتَ اسلمى ثلاث تحيات وإن لم تـكلَّمِ

وقال أيضاً فى مثل ذلك :

أبى الله إلا أن سَرْحَةَ مالكٍ على كل أفنان العضاه تروق

فياطيبَ رَيَّاها ، ويابَرْدَ ظلها إذا حان من شمس النهار شروق
فهل أنا إن عَلَّلْتُ نفسى بسَرْحَة من السَّرْحِ مَسْدُودٌ عَلَيَّ طَريق ؟
حَمَى ظلّها شكس الخليقةِ خائف عليها غرام الطائفين شَفِيقُ
يريد بذلك بَعْلَها أو ذا مَحْرَمها
فَلَا الظلَّ مِنْ بَرْدِ الضحى نستطيعه ولا الْفَيْء مِنها فى العَشِيِّ نذوق

وقال عنترة العبسى :

يا شَاةَ ما قَنَصٍ لمن حَلَّتْ لهُ حَرُمَتْ عَلَيَّ وَلَيْتَهَا لمْ تَحْرُمِ

وإنما ذكر امرأة أبيه ، وكان يهواها ، وقيل : بل كانت جاريته ؛ فلذلك حرمها على نفسه ، وكذلك قوله :

* والشاة ممكنة لمن هو مرتمى *

والعرب تجعل المَهَاة شاة ؛ لأنها عندهم ضائنة الظباء، ولذلك يسمونها نعجة ، وعلى هذا المتعارف فى الكناية جاء قولُ الله عز وجل في إخباره عن خَصْم داود عليه السلام : (إنَّ هذا أخى له تسعٌ وتسعونَ نعجة ولىَ نعجة واحدة) كناية بالنعجة عن المرأة ، وقال امرؤُ القيس :

وَبَيضَةِ خِدْرٍ لاَ يُرَامُ خِباؤُها تَمَتَّعْتُ مِنْ لَهْوٍ بهَا غيرمُعْجَلِ

كناية بالبيضة عن المرأة . . وروى ابن قتيبة أن رجلا كتب إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه :

ألا أبلغ أبا حَفْصٍ رسـولا فِدًى لك من أخى ثقة إزارى
قلائصنا هـداك الله ، إنا شغلنا عنكُمْ زَمَنَ الحصار
فما قُلُص وُجِدْنَ معقَّلَاتٍ قفَا سَلْعٍ بمختلف التجار

يعقِّلهن جَعْـــدِبٌ شيْظَمِىٌّ وبئس مُعَقِّلُ الذَّوْدِ الظُّؤار(١)

وإنمـا كنى بالقُلُصِ ـ وهى النوق الشواب ـ عن النساء ، وعَرَّضَ برجل يقال له « جعدة » كان يخالف إلى المغيبات من النساء ، ففهم عمر ما أراد ، وجلد جعدة ونفاه .

ومن الكناية اشتقاق الكنية ؛ لأنك تَكْنِى عن الرجل بالأبوة ، فتقول : أبو فلان ، باسم ابنه ، أو ما تعورف فى مثله ، أو ما اختار لنفسه ؛ تعظيما له وتفخيما ، وتقول ذلك للصبى على جهة التفاؤل بأن يعيش ويكون له ولد .

الكناية ثلاثة أضرب

قال المبرد وغيره : الكناية على ثلاثة أوجه: هذا الذى ذكرته آنفا أحدها ، والثانى : التعمية والتغطية التى تقدم شرحها ، والثالث : الرغبة عن اللفظ الخسيس كقول الله عز وجل : (وقالوا لجلودهِمْ لم شهدتُمْ علينا) فإنها فيما ذكر كناية عن الفروج . ومثله فى القرآن وفى كلام الفصحاء كثير .

(٤٢) — باب التتبيع

حد التتبيع

ومن أنواع الإشارة التتبيع ، وقوم يسمونه التجاوز ، وهو : أن يريد الشاعر ذكر الشىء فيتجاوزه ، ويذكر ما يتبعه فى الصفة وينوب عنه فى الدلالة عليه ، وأول من أشار إلى ذلك امرؤ القيس يصف امرأة :

وَيُضْحِى فَتيتُ المِسْكِ فَوْقَ فراشها نؤوم الضُّحَى لَمْ تَنْتَطِقْ عن تَفَضُّلِ

فقوله « يضحى فتيت المسك » تتبيع ، وقوله « نؤوم الضحى » تتبيع ثان ، وقوله « لم تنتطق عن تفضل » تتبيع ثالث ، وإنما أراد أن يصفها بالترفُّهِ ، والنعمة ،

(١) شيظمى : الشيظم الطويل ، وقيل : الجسيم ، والياء زائدة . وقيل : الشيظم الطلق الهش الوجه الذى لا انقباض له اهـ عن اللسان .

وقلة الامتهان فى الخدمة ، وأنها شريفة مَكْفِية المؤنة ، فجاء بمـا يتبع الصفة ويدل عليها أفضل دلالة .. ونظيره قول الأخطل يصف نساء :

لاَ يَصْطلِينَ دُخَانَ النَّارِ شَاتِيَةً ... إلا بِعُودِ يَلَنْجُوجٍ عَلَى فَحَمِ

فذكر أنهن ذوات تملك وشرف حال . وأين من هذا قولُ النابغة فى معناه وقصده :

لَيْسَتْ مِنَ السُّودِ أعْقَاباً إذا انصَرَفَتْ ... وَلاَ تَبِيعُ بجَنْبَيْ نَخْلَة البُرَمَا(١)

كأنها إن لم تكن سوداء العقبين بياعة للبُرَم كانت فى نهاية الحسن والشرف والدعة .

وقال النابغة وأراد أن يصف طول العنق وتمام الخلقة فيها فذكر القُرْطَ؛ إذ كان ممـا يتبع وصف العنق ، ولم يسبقه إلى ذلك أحد من الشعراء :

إذا ارْتَعَشَتْ خَافَ الجَبَانُ رعَاثَهَا ... وَمَنْ يَتَعَلَّقْ حَيْثُ عُلِّقَ يَفْرَقِ(٢)

فجعل رعاثها يخاف ويفرق ، وعذره ببعد مَسْقَطِهِ ، فتناول هذا المعنى عمر ابن أبى ربيعة فأوضحه بقوله :

بَعيدَةُ مَهْوَى القُرْطِ إما لنوفل ... أبوها ، وإما عبد شمس وهاشم

وتبعه ذو الرمة فزاد المعنى وضوحاً بقوله :

---

(١) الأعقاب : جمع عقب ، إذا انصرفت : يريد أنها إن انصرفت عنك فنظرت إليها لم تجد عقبها أسود ، بل هى بيضاء ناعمة رخصة القدم ، والعرب تستدل بحسن قدم المرأة على حسن سائرها ، ويقولون : إذا حسن موقف المرأة حسن سائرها . ونخلة : بستان عبد الله بن معمر . والبرم : جمع برمة ، وهى قدر النحاس يريد أنها مصونة مخدرة لا تمتهن بخدمة .

(٢) ارتعشت : لبست الرعاث ، وهو القرط .

وَالْقُرْطُ فِى حُرَّةِ الذِّفْرَى مُعَلَّقهُ   تَبَاعَدَ الْحَبْلُ مِنْهُ فَهْوَ يَضْطَرِبُ(١)

وقال طُفَيْل الغنَوِى يصف فرسًا ، ويروى لغيره :

هَرِيتٌ قصير عذير اللجام   أسِيلٌ طَويل عِذَارِ الرَّسَنْ

فلو ترك الهرت والأسالة لـكان من هـذا الباب ، لـكنه الآن لم يقصد التتبيع ، وإنما جاء به كالتوكيد لما قبله ، هذه رواية ابن قتيبة ، وأما رواية النحاس عن شيوخه عن الأصمعى فإنها :

وأحوى قصير عذار اللجام   وَهُوَّ طويل عذار الرَّسَنْ

وهذا تتبيع لا شك فيه . وأما قول الأخطل :

أسِيلة مجرى الدمع ، أما وِشَاحُها   فجارٍ ، وأما الحِجْلُ منها فما يَجْرِى

ففيه التتبيع فى ثلاثة مواضع ، وهى صفة الخد بالسهولة ، وصفة الخصر بالرقة ، والساق بالغلظ . ومثله قول الأعشى :

صِفْرُ الوشاح ، ومِلْءُ الدِّرْعِ ، خَرْعَبة   إذَا تَأَتَّى يَكَادُ الْخَصْرُ يَنْخَزِلُ(٢)

فقوله « صفر الوشاح » دال على رقة الخصر ، « وملء الدرع » دال على تمام الخلق من طول وسمن وامتلاء صدر وعجيزة ، وكل ما وقع من قولهم : طويل

---

(١) القرط : من حلى الأذن ؛ قيل : عام ، وقيل : خاص بما كان فى شحمتها فإن كان فى أعلاها فهو الشنف ، بفتح فسكون . والذفرى : عظم فى أعلى العنق من الإنسان ، وهما ذفريان ، عن يمين النقرة وشمالها ، قاله فى اللسان عن القتيبى .

(٢) صفر الوشاح : يريد أنها خميصة البطن دقيقة الخصر ؛ فوشاحها يقلق عنها ويضطرب لذلك ، ملء الدرع : يريد أنها ضخمة ، خرعبة : يروى فى مكانه « بهكنة » والبهكنة : الجارية الخفيفة الروح الطيبة الرائحة المليحة الحلوة . والخرعبة: الرخصة اللينة الحسنة الخلق . وتأتى : ترفق، من قولك: هو يتأتى الأمر ، وقيل : تأتى أى تهيأ للقيام ، وأصله بتاءين فحذف إحداها، ينخزل : ينثنى ، وقيل : ينقطع

النِّجاد ، وكثيرالرماد ، وما يشا كلهما فهو من هذا الباب . وقالت ليلى الأخيلية :

وَمُخَرَّق عنه القميصُ تخالهُ وَسَطَ البيوتِ من الحياء سَقِيماَ

أرادت أنه يجذب و يتعلق به للحاجات لجوده وسؤدده وكثرة الناس حوله، وقيل : إنما ذلك لعظم مناكبه ، وهم يحمدون ذلك .

ومن عجيب ما وقع فى هذا الباب من التجاوز قول أوس بن حَجَر :

حتى يلفّ نخيلَهم وبيوتَهم لَهَبٌ كناصيةِ الحصان الأشقر

أراد الحرب التى هى المقصود بالصفة ، هكذا الرواية الصحيحة ، و بهذا التفسير فسره جلة العلماء وهم الأكثر ، وقال آخرون : بل إنما أغراه بإحراق النخل والبيوت ففعل ، ولا يكون على هذا الرأى الآخر من هذا الباب .

ومن التجاوز قول رؤبة بن العجاج يصف حوافر الخيل :

* سَوَّى مَسَاحِيهِنَّ تَقْطيطُ الحقق *

أراد أن يشبهها بالمساحِى فجعلها أنفسها مساحى ، يريد العظم .

ومثله قول ابن دريد :

يدير إعليطين فى ملمومَةٍ إلى لَمُوحَيْنِ بألحاظ ألّلأى

أراد أن يشبه أذن الفرس بالإعليط ــ وهو وعاء ثمر المرخ ــ فجعل الأذن نفسها إعليطاً ، كما فعل رؤبة فى المَسَاحى ، ومثله كثير .

ومما يدخل فى باب التجاوز قول النابغة :

تقدُّ السَّلوقىَّ المضاعَفَ نَسْجُهُ وتُوقِدُبالصُّفَّاحِ نَارَالْحُبَاحِبِ(١)

---

(١) تقد : الضمير المستتر فيه عائد على السيوف التى ذكرها فى قوله قبل ذلك :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

والسلوقى: نسبة إلى سلوق ، وهى مدينة بالروم ، وإليها تنسب أجود الدروع =

وإنما أراد السلوقىّ مع ما فيه من الجسد وما تحت لا بسه زعموا من السرج والفرس ، فعدا عن الجميع ، وجاء بما يتبعه ، ويستغنى به عن ذكره ، إذ[1] كانت لا تقد السلوقى إلا أن تقد ما فيه ، ولا تنتهى إلى الصفاح ـ على ما فسروا من أنه يريد الفارس بأداته ـ إلا بعد أن تأتى على السرج والفرس، على أن من الناس من رد « يوقدن » على الخيل . . وإلى مثل هذا الإفراط ذهب النمر بن تولب فى صفة السيف الذى شبه به نفسه فقال :

تظلُّ تحفر عنه إن ضَرَبْتَ به　　　بعدالذراعين والساقين والهادى[2]

وروى الحذاق « القينين والهادى » وهو واضح فى المعنى .

ومن التتبيع قول زهير :

وَمُلْجِمُنَا مَا إنْ يَنَالُ قَذَالَهُ　　　وَلاَ قَدَمَاهُ الأرْضَ إلا أنَامِلُه[3]

فأشار إلى طول عنقه وقوائمه بذكر تطاول الملجم إشارة عجيبة ، وتبعه ابن مقبل فقال :

تَمَطَّيْتُ أخليه اللِّجَامَ فَبذَّنِى　　　وَشَخْصِى يُسَامِى شَخْصَهُ وَهْوَ طَائِلُه

= وأفضلها ، المضاعف نسجه : أراد الذى نسج حلقتين حلقتين . الصفاح : ما يجعل على الدارع من الحديد ، ونار الحباحب : هو ما اقتدح من شرر النار فى الهواء ، وقيل : ذباب له شعاع بالليل .

(١) فى المصريتين « إذا » وهو تحريف .

(٢) القينان فى رواية الحذاق التى ذكرها المؤلف : مثنى قين ، وهو موضع القيد من الفرس ومن كل ذى أربع يكون فى اليدين والرجلين ، والهادى : العنق سميت بذلك لأنها تتقدم على البدن وتهديه .

(٣) ملجمنا : يريد الذى يلجم خيلهم ، وقوله « ما إن ينال قذاله » يريد أنه لا يكاد ينال قذال الفرس لطوله ، وقوله « ولا قدماه » هو على تقدير ولا تنال قدماه الأرض ، أى : أنه قد قام على أطراف أصابعه فلا ينال من قدميه الأرض إلا أنامله يرفع نفسه ليدرك قذال الفرس فلا يبلغه .

وإنما تناول زهير هذا المعنى من أبي دؤاد الإيادي ، ويروى لعبد بن ثعلبة الأسدي حيث يقول :

لاَ يَكَادُ الطَّوِيلُ يَبْلُغُ مِنْهُ حيث يثنى على المقص العذار

وأنا أقول : إن بيت الذبياني في الرعاث مأخوذ من قول عبيد بن الأبرص :

مَاطُوا الرعاث بنَهْدٍ لو يزلُّ به لاندقَّ دون تلاقى اللبة القرط

وقال ابن دريد وأتى ببديع مليح :

قَرِيبُ مَا بَيْنَ الْقَطَاةِ وَالْمَطَا بَعِيدُ مَا بَيْنَ الْقَذَالِ والصَّلاَ

فدل بهذا على قصر الظهر وطول العنق . .

وقال بعض الشعراء فملح وظرف :

فَمَا يَكُ فِيَّ مِنْ عَيْبٍ فإني جَبانُ الكلب مهزولُ الْفَصِيل

أشار إلى كثرة غشيان الضيوف ، حتى إن الكلب ما أنس جبُنَ أن ينبح فضلا عما سوى ذلك ، وهُزَال فصيله دال على أن الألبان مبذولة للضيفان ، فقل ما بقي له منها .

وقد قال امرؤ القيس :

* سِمَانُ الْكِلاَبِ عِجَافُ الْفِصَالِ *

فعجف الفصال للعلة التي قدمت ، وسمن الكلاب لكثرة ما ينحرون ويذبحون .

ومن أعجب التتبيع قوله :

أَمَرْخٌ خِيَامُهُمْ أَمْ عُشَرْ أَمِ الْقَلْبُ في إثرِهِمْ مُنْحَدِرْ(١)

يقول : أنزلوا نجداً الذي من نباته المرخ أم الغور الذي من نباته العشر ؟

---

(١) انظر (ص ١٧٤) من هذا الجزء تجد تفسير هذا البيت في تعليقاتنا هناك

وإن الأعراب يعملون خيامهم من نبات الأرض التي ينزلونها ، فإذا رحلوا تركوه واستأنفوا غيره من شجر البلد الذى ينزلون به ، هكذا شرح العلماء هذا البيت المتقدم ، ولا أرى الأعراب تذكر ذلك كثيراً فى أشعارها ، وإنما يتعاورون ذكر الوَتِدِ ، اللهم إلا أن تكون الأعمدة وما شاكلها تنتخب وتحمل وإنما المطرَّح[1] ما جعل فوقها وسُدَّ به خَصَاصُهَا فدفع الحر والبرد فنعم ، ولا شك أن هذا هو الصحيح ، ويدل عليه قول جرير يذكر منزلا :

فَلَا عَهْدَ إلاَّ أن تَذَكَّرَ أوْتَرَى ... ثُمَامًا حَوَالَىْ منصب الخيم باليَا

فذكر الثمام مُطَرَّحاً ، وقال أبو دواد :

عَهِدْتُ لَهَا مَنْزِلاً دَاثِراً ... وآلاً على المَاء يَحْمِلْنَ آلا

فالآل الأول : أعمدة الأخبية ، والآل الثانى : الشخص الذى يرتفع عند اشتداد الحر ، هكذا فسروه ، منهم قدامة ، والذى قال الحذاق : يعنى أعمدة تحمل أعمدة مثلها ذكره أبو حنيفة ، وقوله « على الماء » يعنى الماء العِدَّ الذى هو المحضر يرجعون إليه بعد تبديهم وانقطاع ماء السماء ، وقد أخبرك الشاعر على القول الأول أنهم يحملون أعمدة الأخبية والبيوت .

ومن أحسن ما وقع فى هذا الباب من التتبيع قول حسان بن ثابت :

أوْلاَدُ جفنة حول قبر أبيهمُ ... قبر ابن مارية الكريم المفضل

فقوله « حول قبر أبيهمُ » تتبيع مليح ، أشار به إلى أنهم ملوك مقيمون لا يخافون فينتقلون من مكان إلى مكان ، وأنهم فى مستقر عز وأرض خصب

---

(١) المطرح : المطروح الذى يتركه القوم عند رحيلهم ، وفى نسخة « المرخ » وما أثبتناه أولى ؛ فإن المرخ إذ اتخذ لسد خصاص البيوت فغيره يتخذ لذلك كالثمام فى كلام جرير ، وغيره .

لا تجدِب ، أراد الشام ، وأن ذلك دأبهم من القدم ، فهم حول قبر أبيهم ، وهذا كما قال ابن مُقْبِل :

نحْنُ المقيمون لم تَبْرَحْ ظعائننا لا نَسْتَجِيرُ،وَمن يَحْلُلْ بنا يُجَرِ

ومن هذا الباب أيضاً قول عنترة بن شداد العبسى :

بَطَلٌ كأن ثيابه فى سَرْحَةٍ يُحْذَى نِعَالِ السِّبْتِ لَيْسَ بِتوْأَمِ

أراد أنه ملك ؛ لأن نعال السِّبْتِ لا يحتذيها عندهم إلا كل شريف ، يدلك على ذلك قولُ عتيبة بن مرداس المعروف بابن فسوة يذكر آل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قصيدة لام فيها عبدَ الله بن عباس وشكر الحسنَ بن على عليهما السلام وعبد الله بن جعفر رضى الله عنهما :

إلى نَفَرٍ لا يَخْصِفُونَ نِعَالَهُمْ وَلاَ يَلْبَسُونَ السِّبْتَ مالمْ يُخَصَّرِ

ومن التتبيع قول الحطيئة :

لَعَمْرُكَ ما قُرَادُ بنى كليب إذا نُزِعَ القُرَادُ بِمُسْتَطَاعِ

وذلك أن الفحل إذا منع الخطام نزعوا من قردانه شيئاً فَلَذَّ ذلك ، وسكن إليه ، ولاَنَ لصاحبه حتى يلقى الخطام فى رأسه ، فزعم الحطيئة أن هؤلاء لا يخدعون عن عزهم و إبائهم فيقدر عليهم .

وأما قول ذى الأصبع العدوانى واسمه حُرْثان بن الحارث :

يا عَمرو ، إلاّ تَدَعْ شَتْمِى وَمَنْقَصَتِى أضربْكَ حيث تقول الهامة اسقونى

فيجوز أن يكون أراد أضربك على الرأس الذى تصيح منه الهامة اسقونى على زعم الأعراب ، فيكون من هذا الباب ، ويجوز أن يكون مراده أضربك فلا يؤخذ بثأرك وتكون حيث ههنا مثلها فى قول زهير :

* لَدَى حَيْثُ أَلْقَتْ رَحْلَهَا أُمُّ قَشْعَمِ *

فيخرج عن هذا الباب . . و إلى نحو التأويل الأول قصد أبو الطيب بقوله :

فَيابْنَ الطَّاعِنِينَ بِكلٍّ لَدْنٍ مَوَاضِعَ يَشْتَكِي البَطَلُ الشِّمالا

أراد الصدر، أو النحر . .

و بيتُ البحترى فى صفة الذئب ، و يروى لعمارة بن عقيل :

فأَوْجَرْتُهُ أُخْرَى فأَظْلَلْتُ رِيشَهَا بحيث يكون اللُّبُّ وَالرُّعْبُ وَالحِقْدُ

خيرٌ من بيت أبى الطيب وأجمع للصفة ، وقوله « أظللت » بمعنى صيرت و يروى بالضاد .

٤٣ — باب التجنيس

المماثلة من التجنيس

التجنيس ضروب كثيرة : منها المماثلة ، وهى : أن تكون اللفظة واحدة باختلاف المعنى ، نحو قول زياد الأعجم ، وقيل : الصَّلَتَان العبدى يرثى المغيرة ابن المُهَلَّب :

فَانْعَ المُغِيرَةَ لِلْمُغِيرَةِ إِذْ بَدَتْ شعواء مشعلة كنبح النابح

فالمغيرة الأولى : رجل ، والمغيرة الثانية : الفرس ، وهو ثانية الخيل التى تغير .

وقال صاحب الكتاب : قال الله تعالى : (وأسلمت مع سليمان) وقال تعالى : (ثم انصرفوا صَرَفَ الله قلوبهم) وفى كلام النبى صلى الله عليه وسلم « سُلَيم سالمها الله ، وغِفَار غفَرَ الله لها ، وعُصَيَّة عَصَتِ الله ورسوله » وإن كان من غير هذا الباب . . وأنشد[1] سيبويه :

أُنيخَتْ فأَلْقَتْ بلدة فَوْقَ بَلْدَةٍ قَلِيلٍ بها الأَصْوَاتُ إلاّ بُغَامُهَا

(١) انظر كتاب سيبويه (ج ١ ص ٢٧٠) ونسبه لذى الرمة ، والرواية برفع « بغام » على جعل « إلا » صفة بمعنى « غير » ظهر إعرابها على ما بعدها كما هو معروف فى كتب النحو .

البلدة الأولى : صدر الناقة ، والثانية : المكان من الأرض .

ومثله [ما] أنشد[هُ] ثعلب :

وَثَنِيَّةٍ جَاوَزْتُهَا بِثَنِيَّةٍ حَرْفٍ يُعَارِضُهَا ثَنِيٌّ أَدْهَمُ

فالثنية الأولى : عقبة ، والثانية : ناقة ، والثنى الأدهم : الظل ، استعار له هذا الاسم . . ويروى « حبيب أدهم » .

ومثله أنشد أبو عمرو بن العلاء :

* عَوْدٌ على عَوْدٍ على عَوْدٍ خَلَقْ *

وقال : الأول الشيخ ، والثانى : الجمل المسن ، والثالث : الطريق القويم قد ذُلِّلَ بكثرة الوطء عليه .

ويجرى هذا المجرى قولُ الأوْدى :

وأَقْطَعُ الْهَوْجَلَ مُسْتَأْنساً بِهَوْجَلٍ عَيْرَانَةٍ عَيْطَمُوسْ(١)

أنشده قدامة على أنه طباق ، وسائر الناس يخالفونه فى هذا المذهب ، وقد جاء رد الأخفش علىّ بن سليمان عليه فى ذلك وإنكاره على رأى الخليل والأصمعى فى كتاب حلية المحاضرة للحاتمى .

وعلى القول الأول قال أبو نواس فى ابن الربيع :

عَبَّاسُ عَبَّاسٌ إذَا حَضَرَ الوغى وَالْفَضْلُ فَضْلٌ وَالرَّبِيعُ رَبِيع

وقال أبو تمام :

لَيَالِينَا بالرَّقْمَتَيْنِ وأهلنـــا سَقَى الْعَهْدَ مِنْكِ الْعَهْدُ وَالْعَهْدُ وَالْعَهْدُ

فالعهد الأول المسقى:هو الوقت ، والعهد الثانى:هو الحِفَاظُ ، من قولهم «فلان ماله عَهْد » والعهد الثالث : الوصية من قولهم « عَهِدَ فلان إلى فلان ، وعهدت

(١) الهوجل الأول : الأرض التى لانبت فيها ، ومنه قول ابن مقبل :

وجرداء خرقاء المسارح هوجل بها لاستداء الشعشعانات مسبح

والهوجل الثانى : الناقة السريعة .

إليه » أى : وصانى ووصيته ، والعهد الرابع : المطر ، وجمعه عِهَادٌ ، وقيل : أراد مطراً بعد مطر بعد مطر ، وفسر ذلك بقوله :

سَحَابٌ مَتَى يَسْحَبْ على النبت ذَيْلَهُ فلا رَجِلٌ ينبو عليه ولا جَعْدُ

واستثقل قوم هذا التجنيس ، وحُقَّ لهم .

ومن مليح هذا النوع قول ابن الرومى :

للسود فى السود آثار تركن بها لمعاً من البيض تَثْنِى أعين البيض

فالسود الأول: الليالى، والسود الآخر : شَعرَاتُ الرأسِ واللحية،[و] البيض الأول : الشيبات ، والبيض الآخر : النساء . .

وزعم الحاتمى أن أفضل تجنيس وقع لمحدث قول عبد الله بن طاهر :

وإنّى للثغر المخيف لـكالىء وللثغر يجرى ظَلْمُهُ لَرَشُوفُ[(1)]

فهذا وما شاكله التجنيس المحقق ، والجرجانى يسميه المستوفى .

ويقرب منه — وليس محضاً — قول ابن الرومى :

له نائل ما زال طالبَ طالبٍ ومرتاد مرتادٍ وخاطبَ خاطبِ

أدخل الترديد ، والترديد : نوع من المجانسة يفرد له باب إن شاء الله تعالى .

والتجنيس المحقق:ما اتفقت فيه الحروف دون الوزن، رجع إلى الاشتقاق أو لم يرجع، نحو قول أحد بنى عَبْس: التجنيس المحقق

وذَلِكُمْ أنّ ذُلّ الجار حالَفَكم وأن أنفَكُمُ لا يَعْرِفُ الأنفَا

فاتفقت الأنفُ مع الأنَفِ فى جميع حروفهما[(2)] دون البناء ، ورجعا إلى أصل

---

(١) الثغر الأول : ثغر البلاد الذى يحافظ عليه من غارة العدو . وكالىء : حافظ وراع . والثغر الثانى : فم المحبوب ، والظَلم ـ بفتح الظاء ـ ريقه .

(١) فى المصريتين « فاتفقت الأنف فى الأنف فى جميع حروفها » وفى هذا تحريفان لا يخفيان

واحد ، هذا عند قدامة أفضل تجنيس وقع ؛ [و] مثله فى الاشتقاق قول جرير — والجرجانى يسميه التجنيس المطلق ، قال : وهو أشهر أوصافه :

وما زال مَعْقُولاً عِقَالٌ عن الندى وما زال محبوساً عن الخير حابِسُ

وقال جرير أيضاً ، وفيه المضارعة والمماثلة والاشتقاق ، وأنشده ابن المعتز :

تَقَاعَسَ حَتى فاته المجدُ فَقَعْسٌ وأعيا بنو أعيا وَضَلَّ المضلَّلُ

وقال خلف بن خليفة الأقطع :

فَإِنْ يَشْــغَلُونا عَنْ أَذَانٍ فإننا شَغَلْنا وليــداً عن غناء الولائد

يعنى الوليد بن يزيد بن عبد الملك . وقال أبو تمام فأحكم المجانسة بالاشتقاق :

بحوافرٍ حُفْرٍ وصُلْبٍ صلَّبٍ وأشَاعِرٍ شُعْرٍ وخَلْقٍ أخْلَقِ

فجنس بثلاث لفظات[1] . ومثله قول البحترى :

صَدَقَ الغراب ، لقد رأيت شموسهم بالأمس تغربُ عن جوانب غرَّب

ويقرب من هذا النوع قول ذى الرمة * وَاسْتَرْجَعَتْ هامها الهِيمُ الشعاميمُ *
فالهيم والهام قريبان فى اللفظ بعيدان فى الاشتقاق ، وربما جعلهما بعض الناس من أصل واحد ، وكذلك قوله :

كأنَّ البُرَى وَالعَاجَ عِيجتْ مُتُونُها عَلَى عُشَرٍ نَهَّى به السَّيْلَ أبطَحُ[2]

قال ابن المعتز « نهى به السيل » أى : بلغ به إليه فهو أنعم له وأكثر لدُونة .

---

(١) بل بأربع لفظات ، كما هو ظاهر ، وانظر ص ١٣٢ من هذا الجزء

(٢) قال أبو حنيفة : « العشر من العضاه ، وهو من كبار الشجر وله صمغ حلو ، وهو عريض الورق ، ينبت صعدا فى السماء ، وله سكر يخرج من شعبه ومواضع زهره يقال له سكر العشر ، وفى سكره شىء من مرارة ، ويخرج له نفاخ كأنها شقاشق الجمال التى تهدر فيها ، وله نور مشرب مشرق حسن المنظر » اهـ

وأنا أقول : معناه ترك به السيل نَهْيًا ، وهو الغدير ، وذلك أتم لما أراد ابن المعتز ، اللهم إلا أن يكون معناه جعل نهايته هناك فإنه أتم وأجود ، أى : لم يجد مُنْصَرَفًا فأقام . وقال البحترى :

وَذَكَّرَنيكِ والذِّكْرَى عَنَاءٌ مَشَابِهُ مِنْكِ بَيِّنَةُ الشُّكُولِ
نَسِيمُ الرَّوْضِ فى رِيحِ شَمالٍ وَصَوْبُ المُزْنِ فى رَاحِ شَمُولِ

وقال أبو تمام :

مَلِيَتْكَ الأَحْسَابُ ، أىُّ حَيَاة وَحَيَا أَزْمَةٍ وَحَيَّــةَ وَادِ(١)

من التجنيس المضارعة

ويقرب من هذا النوع نوع يسمونه المضارعة ، وهو على ضروب كثيرة : منها أن تزيد الحروف وتنقص ، نحو قول أبى تمام — والجرجانى يسميه التجنيس الناقص — :

* يَمُدُّون مِنْ أيدٍ عَوَاصٍ عَوَاصِمٍ *(٢)

وهما سواء لولا الميم الزائدة . وكذلك قوله * قواض قواضب * سواء لولا الباء ، ومع ذلك فإن الباء والميم أختان . ومثلُه قولُ البحترى :

فيالكَ من حَزْمٍ وعَزْمٍ طواهما جَدِيدُ البِلَى تحت الصَّفَا والصفائح

ومنها أن تتقدم الحروف وتتأخر ، كقول الطائى :

بيضُ الصفائح، لاسود الصحائف، فى مُتُونِهنَّ جَــلاءُ الشَّكِّ والرِّيَبِ

فقوله « الصفائح ، لاسود الصحائف » هو الذى أردت . وقال البحترى :

شـواجر أرماح تقطع بينهم شواجرَ أرحامٍ مَلُومٌ قَطُوعُهَا

---

(١) مليتك : متعتك ، حيا أزمة : مطر شدة ، يريد أنه يكشف الشدة بجوده

(٢) تمامه * تصول بأسياف قواض قواضب * وسيذكر المؤلف بعض هذا الشطر .

ومثله قول أبي الطيب :

مُمَنَّعَةٌ مُنَعَّمَـــــةٌ رَدَاحٌ يُكلَّفُ لَفْظَهَا الطَّيْرَ الْوُقوعَا

وحكى ابن دريد أن أعرابياً شتم رجلا فقال : لمج أمه ، فقدم إلى السلطان فقال : إنما قلت : ملج أمه ، فدرأ عنه . .

قال أبو بكر : لمجها : أتاها ، وملجها : رضعها .

وأصل المضارعة أن تتقارب مخارج الحروف ، وفى كلام العرب منه كثيرغير متكلف ، والمحدثون إنما تكلفوه ؛ فمن المعجز قول الله عز وجل : (وهمْ يَنْهَوْنَ عنه و ينأَونَ عنه) . وقال النبي صلى اللهعليهوسلم لرجل سمعه وهو ينشد على سبيل الافتخار — وقيل : بل سأله عن نسبه فقال :

إنى امرؤٌ حِمْيَرِىٌّ حين تنسبنى لا من ربيعــة آبائى ولا مضر

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم ـ: « ذلك واللهألأم لجدِّك ، وأضرع لخدك ، وأفَلُّ لحدك ، وأقل لعدك ، وأبعد لك عن الله ورسوله » وقولهعليهالصلاةوالسلام « نعوذ بالله من الأيمة والعيمة والغيمة والـكزم والقزم » الأيمة : الخلو من النساء ، والعيمة : شهوة اللبن ، والغيمة : العطش ، والـكزم : قصر البنان خلقة أو من بخل ، ويقال : الـكزم شدة الأكل ، والقزم : شهوة اللحم .

الرمانى يسميه المشاكلة

وهذا النوع يسميه الرمانى المشاكلة ، وهى عنده ضروب : هذا أحدها ، وهى المشاكلة فى اللفظ خاصة ، وأما المشاكلة فى المعنى فننبه عليها فى أماكنها إن شاء الله تعالى . .

وقال ابن هَرْمَةَ :

وَأَطْعَنُ لِلْقِـرْنِ يَوْمَ الوغى وَأَطْعَمُ فى الزَّمَنِ الماحِلِ

وقال أبو تمام :

رُبَّ خَفْضٍ تحت الثرى وغَنَاء من عَناء وَنضْرَةٍ من شُحوبِ

وأبعد من هذا قليلا قول ساعدة بن جُؤَيَّة الهذلى :

رَأى شَخْصَ مَسْعُودِ بْنِ بِشرٍ بِكَفِّهِ حَدِيدٌ حَدِيثٌ بالوَقِيعَةِ مُعْتَدُ(١)

من المضارعة بالتصحيف ونقص الحروف

ومن المضارعة بالتصحيف ونقص الحروف قول بعضهم :

فإنْ حلّوا فَلَيْسَ لهم مَقَرٌّ و إنْ رَحَلوا فَلَيْس لهم مَفَرُّ

وقال البحترى يمدح المعتز بالله :

ولم يكن المُغترُّ بالله إن سَرَى ليعجز والمُعتزُّ بالله طالبه

فجاء بتصحيف مستوفٍ . وقال :

مَا بِعَيْنَىْ هـذا الغزال الغرير من فتُونٍ مُسْتَجْلَبٍ من فتُورِ

وقال غيره — وأظنه قابوس بن وشمكير — :

إن المكارم فى المكا ره والغنائم فى المغارم

وقال بعض العلماء : ربما أسْفَرَ السَّفَرُ عن الظَّفَر ، وتعذر فى الوطن قضاء الوطر . [و] قال آخر : خُلْفُ الوَعْد خُلُقُ الوَغْد . وقال ابن المعتز :

لئن نَزَّهْتَ سمعك عن كلامى لقد نَزَّهْتُ فى خَدَّيْكَ طرفى

له وجهٌ به يُصْبِي ويُضْنِي ومُبْتَسَمٌ به يُشْقى وَيشْفى

وقال آخر أيضا فى مثل ذلك ، وفيه تغيير كثير بتصحيف :

فمن داعٍ ومن راعٍ ومن مَطَرٍ ومن مُطْرِقْ

وكلٌّ خاشعُ الطرفِ لديهِ خاضعُ المنطق

أعنى بالتغيير ضاد « خاضع » ليست مناسبة لشين « خاشع » فيكون تصحيفا ، و إنما التصحيف فيما تناسب من الخط ، ومن هذا قوله « داع »

---

(١) فى الديوان (ص ٣٧ طبع أوربة) * رأى شخص مسعود بن سعد . . . * وبعد هذا البيت قوله :

فَجَالَ وَخَالَ أنَّهُ لَمْ يَقَعْ بِهِ وَقَدْ خَــلَّهُ سَهْمٌ صَوِيبٌ مُعَرَّدُ

و « راع » لبعد ما بينهما فى اللفظ والهجاء .

ومن الإسقاط الذى لايظهر إلا فى الخط قول شمس المعالى قابوس بن وشمكير :

وَمَنْ يَسْرِ فَوْقَ الأَرْضِ يَطْلُبُ غايةً من المجدِ نَسْرِي فوق جمجمة النَّسْرِ
ومن يختلِفْ فى العالمينَ نِجَارُهُ فإنا مِنَ العلياء نَجْرِي على نَجْرِ

فياء الوصل فى « النسر » جانست به « نسرى » وصار لقاء النون كسرة الهاء من جمجمة كالتنوين فى الهاء ، وكذلك صلة « نجر » جانست به « نجرى » فإذا صرت إلى الخط زالت المجانسة .

التجانس المنفصل

وقد أحدث المولدون تجانساً منفصلا يظهر أيضاً فى الخط كقول أبى تمام :

رَفَدُوكَ فى يوم الكُلاَبِ ،وَشَقَّقُوا فِيهِ المزاد بجَحْفَلٍ كالَّلابِ[1]

الكاف للتشبيه ، واللاب : جمع لابة ، وهى الحَرَّةُ ذات الحجارة السود . . هذا أصح الروايتين ، وأما قوله بجحفل كَلاَّب أى كأن به كلباً فليس بشىء ، وإنما القول ما قدمناه، وليس بتجانس صحيح على ما شرطه المتقدمون ، ولكنه استظرف فأدخل فى هذا الباب تملحاً . . وأكثر من يستعمله : الميكالى ، وقابوس ، وأبو الفتح البُسْتِى ، وأصحابهم ؛ فمن ذلك قوله :

عَارِضَاهُ بمَا جَنَى عارضاه أَوْ دَعَانِي أَمُتْ بما أَوْدَعَانِي

فقوله « أو دعانى » إنما هى « أو » التى للعطف ، نسق بها « دعانى » وهو أمر الاثنين من « دع » على قوله « عارضاه » الذى فى أول البيت ، وقوله « أودعانى » الذى فى القافية فعل ماض من اثنين ، تقول فى الواحد « أَوْدَعَ يُودِعُ » من الوديعة . وقال أيضاً :

---

(١) انظر (ص ٥٩ من هذا الجزء) ؛ فقد رسمت هذه الكلمة هناك « كلاب » على أنها صفة مبالغة ، وهى الرواية الأخرى ، وفى الديوان « بجحفل غلاب » وهى ترجح ماضعفه .

وإن أقرَّ على رَقٍّ أناملَهُ أقرَّ بالرقِّ كُتّابُ الأنامِ لهُ

إذا وقع فى القافية جاء كالإيطاء

وربما صنعوا مثل هذا فى القوافى فتأتى كالإيطاء وليس بإيطاء إلا فى اللفظ مجازاً، ولا بتجنيس إلا كذلك.. قال عمر بن على المطوعى:

أميرٌ كله كرمٌ سَعِدْنَا بأخذِ المجدِ منه واقتباسِهْ
يُحَاكِى النِّيلَ حين يُسَامُ نَيْلاً ويحكى باسلاً فى وَقْتِ بَاسِهْ

[أراد أن] يناسب فجاء القافيتان كما ترى فى اللفظ، وليس بينهما فى الخط إلا مجاورة الحروف، وهذا أسهلُ معنى لمن حاوله، وأقرب شىء ممن تناوله، من أبواب الفراغ وقلة الفائدة، وهو مما لا يُشَك فى تكلفه، وقد أكثر منه هؤلاء الساقة المتعقبون فى نثرهم ونظمهم حتى بردوا، بل تَدَرَّكُوا، فأين هذا العمل من قول القائل، وهو أبو فراس:

سكرتُ من لحظِهِ لا من مُدَامته وَمالَ بالنوم عن عينى تمايله
وما السلافُ دَهَتْنى بل سَوَالفه ولا الشَّمول زهتنى بل شمائله
ألوى بصبرىَ أَصْدَاغٌ لوينَ له وغَلَّ صَدْرِىَ ما تحوى غلائله

فما كان من التجنيس هكذا فهو الجيد المستحسن، وما ظهرت فيهِ الكلفة فلا فائدة فيه.

وقد يجىء التجنيس على غير قصد كقول أبى الحسن فى مقطعاته التى تردفيها بعد:

ما ترى الساقى كشمسٍ طلعت تحمل المريخ فى برج الحمـــل

فبهذا التجنيس تم المعنى وظهر حسنه؛ إذ كان برج الحمل بيت المريخ وموضع شرف الشمس، فصار بعض الكلام مرتبطاً ببعضه، ومظهراً لخفى محاسنه، وحصل التجنيس فضلة على المعنى؛ لأنه لو قال فى موضع الحمل «النطح»(1)

(1) النطح — ومثله الناطح — السرطان، وهما قرنا الحمل. وفى المصرية «النطج» بالجيم، وهو تصحيف، والكبش: الحمل، إذا أثنى، أو إذا خرجت رباعيته.

أو «الكبش» لكان كلاماً مستقيما ؛ فهذا التجنيس كما ترى من غير تكلف ولا قصد ، ولكن الأكثر أن يكون التجنيس مقصوداً إليه ، مأخوذاً منه ما سامحت فيه القريحة ، وأعان عليه الطبع . .

مما يعده قوم من المضارعة

وقد يعدُّ قوم من المضارعة ما ناسب اللفظة فى الخط فقط ، كقوله تعالى : (وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً) وهى مضارعة بعيدة لا يجب أن يعد مثلها . . واختلف الناس فى قول الأعشى :

إنْ تَسُد الحُوصَ فلم تَعْدُهُمْ وعَامِرٌ ســـاد بَنِي عَامِرِ

فقال الجرجانى على بن عبد العزيز القاضى : هو مجانسة ؛ لأن أحدهما رجل ، والآخر قبيلة ، وقال غيره : بل معناهما واحد ، وأنا على خلاف رأى الجرجانى لأن الشاعر قال بنى عامر وأضاف بنى إليـه ، ولو قال ساد عامراً يعنى القبيلة لكان تجنيساً غير مدفوع . قال الجرجانى : وأراه – يعنى بيت الأعشى – يخالف قول الآخر :

فتَكْنا به خير الضبيعات كلها ضبيعة قيس لا ضبيعة أضجما

لأن كلتيهما قبيلتان ، فكأنه جمع بين رجلين متفقى الاسم ، انتهى كلامه ، وهو يشهد بما قلته فى بيت الأعشى إذا حققه من له مَيْزٌ وتدبير . .

وقد ذكروا تجنيساً مضافاً ، أنشده جماعة من المتعقبين منهم الجرجانى :

التجنيس المضاف (والمزاوج)

أيا قمرَ التمام أعنْتَ ظلماً علىَّ تَطَولَ الليلِ التِّمَامِ

فهذا عندهم وما جرى مجراه إذا اتصل كان تجنيساً ، وإذا انفصل لم يكن تجنيساً ، وإنما كان يتمكن ما أراد لو أن الشاعر ذكر الليل وأضافه فقال « ليل التمام » كما قال « قمر التمام » والرمانى سمى هـذا النوع مزاوجاً ، ومثله عنده قول الآخر :

حمتنى مياه الوفر منها مواردى فلا تحميانى ورْدَ ماء العناقد

أمثلة يظن أنها من المزاوجة

ومن المزاوجة عندهم قول الله تعالى: (يُخَادِعونَ اللهَ وَهُوَ خادِعُهُمْ) وقوله: (مَنِ اعْتَدَى عليكم فاعْتَدُوا عليه بِمِثْلِ ما اعتدَى عليكم) وقوله: (إنما نحن مستهزئون الله يستهزئ بهم) وكل هذه استعارات [و] مجاز؛ لأن المراد المجازاة فزاوج بين اللفظين.

متى كانت تسمية التجنيس ؟

وكان الأصمعي يدفع قول العامة «هذا مجانس لهذا» إذا كان من شكله، يقول: ليس بعربي خالص، حكى ذلك ابن جني . . . فأما ابن المعتز فقال — وهو أول من نحا هذا النحو وجمعه — والمجانسة: أن تشبه اللفظةُ اللفظةَ في تأليف حروفها على السبيل الذي ألف الأصمعي كتاب الأجناس عليها، قال: والجنس أصل لكل شيء: تتفرع منه أنواعه، وتعود كلها إليه، كالإنسان وهو جنس وأنواعه عربي ورومي وزنجي، وأشباه ذلك، ولم تكن القدماء تعرف هذا اللقب — أعني التجنيس — يدلك على ذلك ما حكي عن رؤبة بن العجاج وأبيه، وذلك أنه قال له يوماً: أنا أشعر منك، قال: وكيف تكون أشعر مني وأنا علمتك عطف الرجز؟ قال: وما عطف الرجز؟ قال * عاصم يا عاصم لو اعتصم * قال: يا أبت، أنا شاعر ابن شاعر، وأنت شاعر ابن معجم[1]، فغلبه، فأنت ترى كيف سماه عطفاً، ولم يسمه تجانسا، اللهم إلا أن يذهب بالعطف إلى معنى الالتفات فنعم

من أمثلة هذا الباب

ومن أناشيد هذا الباب قول الشنفرى — واسمه عامر[2] بن عمرو الأزدي:

و بتنا كأن البيت حُجِّرَ فوقنا   بريحانة ريحت عشاء وطلت

وقال علي بن محمد بن نصر بن بسام:

فاشْرَبْ على الوردِ منْ وَرْدِيَّةٍ عتقت   كأنها خدُّ رِيمٍ رِيمَ فَامْتَنَعا

وقال الفرزدق:

(١) ربما قرئت «ابن مفحم».

(٢) في اسمه خلاف طويل ذكرناه في شرحنا على ديوان شعره وأخباره.

ألم يأته أنى تخالُ ناقتى   بنعمانَ أطرافَ الأراكِ النواعم

وحقيقة المجانسة عند الرمانى المناسبة بمعنى الأصل ، نحو قول أبى تمام:

* فى حدّه الحدّ بين الجد واللعب *(١)

قال : لأن معناهما جميعاً أبلغ ، وأما قولك قرب واقترب،والطلوع والمطلع ، وما شاكل هذا ؛ فهو عنده من تصرف اللفظ ، ولا يعده تجنيساً ، ومن تصرف المعنى عنده قولك: عين الميزان ، وعين الإنسان ، وعين الماء ، ونحو ذلك . . ومن التصرف فى اللفظ والمعنى جميعاً قولك : الضرب والمضاربة والاستضراب ، وما أشبه ذلك ، كل هذه الأنواع عنده من باب التصرف .

وما أكثر ما يستعمل هذا النوع بعض شعراء وقتنا المذكورين ، ويظن أنه قد أتى بشيء من غرائب التجنيس .

وأما قول دعبل فى امرأته سلمى :

أحبُّكَ حُبًّا لو تضمّنهُ سَلْمى(٢)   سَمِيُّكِ ذاكَ الشاهِقُ الرّأْسِ

فقد جنس من غير ذكر جنس ؛ لأن قوله « سميك » دال على مراده .

ومثله قول الآخر :

ضيعتى مثل اسمها العا   م ودارى مسترمه

أنشده الرمانى . . وقال الآخر ، وهو أبو تمام :

إذ لا صدوق ولا كَنُودَ اسماهما   كالمعنيين ولا النوار نوارا

المراد صدر البيت لا عجزه .

التجنيس والطباق

وإذا دخل التجنيسَ نَفْيٌ عُدّ طباقا ، وكذلك الطباق يصير بالنفى تجنيسا، وسأفرد لهما بابا إن شاء الله تعالى فيما بعد باب الترديد .

---

(١) صدره * السيف أصدق إنباء من الكتب *

(٢) يريد به « سلمى » أحد جبلى طيء .

(٤٤) — باب الترديد

حد الترديد

وهو أن يأتي الشاعر بلفظة متعلقة بمعنى ، ثم يردها بعينها متعلقة بمعنى آخر في البيت نفسه ، أو في قسيم منه ، وذلك نحو قول زهير :

مَنْ يَلْقَ يَوْماً على عِلاّتِهِ هَرِماً ... يَلْقَ السَّماحَةَ مِنْهُ وَالنَّدى خُلُقاً

فعلق « يلق » بهرم ، ثم علقها بالسماحة . وكذلك قوله أيضاً :

وَمَنْ هابَ أَسْبابَ الْمَنايا يَنَلْنَهُ ... ولَوْ رامَ أَسْبابَ السَّماءِ بِسُلَّمِ

فردد « أسباب » على ما بينت . ولبعض الحجازيين :

ومن لا مني فيهم حَبيبٌ وصاحبٌ ... فَرُدَّ بِغَيْظٍ صاحِبٌ وَحَمِيمُ

وقال مجنون بني عامر :

قَضاها لِغَيْرِي وَابْتَلاني بِحُبِّها ... فَهَلاَّ بِشَيْءٍ غَيْرِ لَيْلَى ابْتَلانِيا

وقال أبو تمام :

خفتْ دموعك في إثر القَطينِ لدن ... خفت من الكُثُبِ القضبانُ والكثبُ

الترديد في « خفت » ولو جعلت الكثيب ترديدا لجاز . . وقال ابن المعتز

لَوْ شِئْتُ لاَ شِئْتُ خَلَّيْتُ السُّلُوَّ لَه ... وَكانَ لاَ كانَ منكم في مُعافاتِي

وقال أيضاً في مثل ذلك :

أَتَعْذِلُنِي فِي يُوسُفٍ وَهْوَ مَنْ تَرَى ... وَيُوسُفُ أَضْناني وَيُوسُفُ يُوسُفُ

ولبعضهم ــ وأظنه الصنوبري :

أَنْتَ عُذْرِي إِذا رَأَوْكَ، ولكن ... كَيْفَ عُذْرِي إِذا رأوكَ تَخُونُ

الترديد في قوله « إذا رأوك » . . وقال أبو الطيب وأحسن ما شاء :

أَميرٌ أَميرٌ عَلَيْهِ النَّدَى ... جَوادٌ بَخيلٌ بأَنْ لاَ يَجُودَا

الترديد فى أول البيت ، وهذا النوع فى أشعار المحدثين أكثر منه فى أشعار القدماء جدا .

والعلماء بالشعر مجمعون على تقديم أبى حية النميرى وتسليم فضيلة هذا الباب إليه فى قوله :

أَلاَ حَيِّ مِنْ أَجْلِ الْحَبِيبِ الْمَغَانِيَا   لَبِسْنَ الْبِلى مِمَّا لَبِسْنَ اللَّيَالِيَا
إذا ما تقاضى المرءُ يوماً وليلة   تقاضاه شيء لا يمَلُّ التقاضيا

والترديد الذى انفرد فيه بالإحسان عندهم قوله * لبسن البلى مما لبسن اللياليا * وكذلك قوله * إذا ما تقاضى المرء يوماً وليلة * ثم قال * تقاضاه شيء لا يمل التقاضيا * لأن الهاء كناية عن المرء ، وإن اختلف اللفظ .

ويلحق بهذا قول أبى نواس :

* لَوْ مَسَّهَا حَجَرٌ مَسَّتْهُ سَرَّاء *(1)

وقول الحسين بن الضحاك الخليع :

لَقَدْ مَلأتْ عَيْنِى بِغُرِّ مَحَاسِنٍ   مَلأْنَ فُؤَادِى لَوْعَةً وهُمُومَا

اقرب ما بين اللفظتين ، وكذلك قول الطائى :

راحٌ إِذَا مَا الرَّاحُ كانَ مَطِيَّها   كَانَتْ مَطَايَا الشَّوْقِ فى الأَحْشَاء

ردد مطيها ومطايا الشوق . وعلى هذا يحمل قول الجحّاف بن حكيم ، وقيل : العباس بن مرداس :

تعرض للسيوف بكل ثغر   وُجُوهاً لا تَعَرَّضُ لِلْطِّسَامِ (2)

---

(1) هـذا عجز بيت له ، وقبله :

دع عنك لومى فإن اللوم إغراء   وداونى بالتى كانت هى الداء
صفراء لاتنزل الأكدار ساحتها   لومسها . . . .

(2) الطسام ـ بزنة غراب وسحاب وشداد ورمان ـ كثير الغبار وشديده ، ومراده بذلك أن يكنى عنهم بالتنعم والترفه .

وحمل قوم قول امرىء القيس * فَثَوْباً لبست وثوباً أَجُر[1] * على أنه تكرار لا ترديد فيه ، وهذا هو الخطأ البين ، وأى ترديد يكون أحسن من هذا ؟ وقد أفاد الثانى غير إفادة الأول حسب ما شرطوا .

ومثله قول بعض الأعراب فى مدح هارون الرشيد :

جَهِيرُ الـكَلاَمِ جَهِيرُ العُطَاسِ   جَهِيرُ الرُّوَاءِ جَهِيرُ النَّغَمْ

ومن أملح ما سمعته قول ابن العميد :

فإن كانَ مَسْخُوطاً فقل شعر كاتب   وإن كانَ مَرْضِيّاً فقل شعر كاتب

وهو داخل عندى فى باب الترديد ؛ إذ كان قوله عند السخط * شعر كاتب * إنما معناه التقصير به ، وبسط العـذر له ؛ إذ ليس الشعر من صناعته كما حكى ابن النحاس أنهم يقولون « نحو كتابى » إذا لم يكن مجوداً ، وقوله عند الرضا * شعر كاتب * إنما معناه التعظيم له ، وبلوغ النهاية فى الظرف والملاحة ؛ لمعرفة الـكتاب باختيار الألفاظ وطرق البلاغات ، فقد ضادَّ وطابق فى المعنى ، وإن كان اللفظ تجنيساً مردداً .

وسمع أبو الطيب باستحسان هذا النوع فجعله نصب عينه حتى مَقَّتَهُ وَزَهَّدَ فيه ، ولو لم يكن إلا بقوله :

فَقَلْقَلْتُ بالهمِّ الذى قَلْقَلَ الحشا   قَلاقِلَ عَيْشٍ كُلُّهنَّ قَلاقِلُ

فهذه الألفاظ كما قال كلهن قلاقل ، ونحو ذلك قوله :

أُسْدٌ فرائسها الأُسُودُ ، يَقُودُها   أَسَدٌ ، تكون له الأُسُودُ ثعالبا

فما أدرى كيف تخلص من هذه الغابة المملوءة أسوداً ؟ ولا أقول إنه بيت شعر ، وأين يقع هذا من قول غيره :

فَصُبْحُ الْوِصَالِ وَلَيْلُ الشَّبابِ   وصُبْحُ المشيبِ ولَيْلُ الصُّدُودْ

---

(١) يروى صدر هـذا البيت * فأقبلت زحفا على الركبتين * ويروى صدره * فلما دنوت تسديتها *

تم ـ بحمد الله وتوفيقه ـ الجزء الأول من كتاب « العمدة »
لابن رشيق القيرواني ، ويليه ـ إن شاء الله تعالى ـ
الجزء الثاني منه ، وأوله (٤٥ — باب التصدير)
أعان الله تعالى على إكماله ، بمنه وفضله .

فهرس

الجزء الأول من كتاب

العُمْدَة

فى محاسن الشعر ونقده

فهرس الجزء الأول من كتاب

« العمدة ، فى محاسن الشعر ونقده »

لأبى على الحسن بن رشيق ، القيروانى ، الأزدى

ص	الموضوع

ص	الموضوع

تمت — بحمد الله واهب القوى والقدر — فهرست الموضوعات الواردة فى الجزء الأول من كتاب «العمدة ، فى صناعة الشعر ونقده» لابن رشيق القيروانى، مفصلة غاية التفصيل والحمد لله رب العالمين ، وصلاته وسلامه على إمام المتقين ، سيدنا محمد ختام المرسلين ، وعلى آله وصحبه أجمعين .